

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

العدد الثالث عشر

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

إشراف
أ.د/ طه مصطفى أبو كريشة
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة



جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

العدد الثالث عشر

١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ م

إشراف
أ.د/ طه مصطفى أبو كريشة
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرة التحرير

والله ولي التوفيق

تحريراً في ٢/١/١٩٩٥

البحوث المنشورة على مسئولية كاتبيها

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس الإدارة

والله ولى التوفيق

تحريراً فى ٢ / ١ / ١٩٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم

ا . د / طه مصطفى أبو كريشة

عميد الكلية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه . .

أما بعد :

فبفضل من الله تعالى ، وبعون منه عز وجل ، يتجدد اللقاء مع القراء الأعزاء ، لقاء البحث العلمى الجاد ، المتعدد الأنحاء ، الواسع الأرجاء ، فى هذا العدد الجديد ، من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

ولهذا العدد سمة خاصة ، لم تكن مقصودة من أحد قط ، لكن الروح السارية فى نفوس الباحثين ، جعلتهم يلتقون عند غاية واحدة ، يحسب الناظر إليها أنهم قصدوا إليها باتفاق ، هذه السمة التى أعنيها ، هى قيام أغلب البحوث على دراسات حول القرآن الكريم ، منه تأخذ موضوعاتها ، ومنه تقدم شواهدها ، ومنه تستبصر طريقها نحو نتائجها . .

ولا غرابة فى ذلك ، فالله تعالى يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر(٩) - ومن غير شك فإن من وسائل حفظ الذكر الحكيم ، أن تحفظ لغته العربية ، نقية فصيحة لا عوج فيها ، ولا عجمة ولا تصحيف ولا تحريف ، وهذه هى رسالة الأزهر الشريف ورسالة جامعة ممثلة

فى كليات اللغة العربية ، وذلك بما تقوم عليه من دراسات لغوية وبلاغية وأدبية ، تجعل القرآن الكريم أساساً لها ، إذ منه تأخذ توجيه القاعدة الصحيحة ، وتذوق العبارة البليغة ، وطريقة تقويم النطق السليم ، والأداء الواضح الفصيح ، وصدق الله العظيم (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) الكهف (١) (قرآنا عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) الزمر (٢٨) (ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) المزمل (٤ - ٥)

ففى مجال الدراسات الأدبية نلتقى ببحث (التصوير القرآنى لتعاقب الليل والنهار) للأستاذ الدكتور على صبح وفيه يحاول الباحث الوقوف على أسرار النسق القرآنى ، فى تقديم الليل على النهار أو فى تقديم النهار على الليل ، منتهيا إلى أن كل واحد من لفظ الليل والنهار فى مكانه لعلة ولغاية ولأسرار ، اقتضت أن يكون مقدما أو مؤخرا وتلك هى إحدى دلائل الإعجاز فى كلام رب العالمين . .

وفى مجال الدراسات النحوية يطالعنا الدكتور بسيونى لبن ببحثه عن بعض (المسائل النحوية المطردة فى القرآن الكريم) وفيه يتتبع المسائل التى سارت على نسق واحد فى القرآن الكريم مع ذكر ما قاله النحاة فيها وتحقيقها وذلك من خلال كتب المعانى والتفاسير التى تعنى بالإعراب ، ومن هذه المسائل على سبيل المثال أن النداء لم يأت فى القرآن الكريم إلا بالأداة (يا) وأن الظرف (لدن) لم يأت إلا مجروراً بحرف الجر (من) وأن (سنين) لم تأت فى القرآن مرفوعة ، وأن خبر (عسى) لم يأت إلا مقرونا بحرف النصب (أن) وهكذا فى أمثلة أخرى عرض لها الباحث.

كما نلتقى فى الدراسات النحوية بالدكتور أحمد عبد الوهاب فى بحث حول (أسماء الأفعال فى القرآن الكريم) وفيه جمع هذه الأسماء ، مبينا آراء النحاة فيها ، وقد رتبها فى الحديث عنها هجائيا ، مع ذكر الآيات التى وردَ فيها

كل اسم من هذه الأسماء ، مشيرا إلى المصادر والمراجع التى تحدثت عنها ، وهذه الأسماء هى (أف ـ أولى ـ تعال ـ عليك ـ مكانك ـ ها ـ هاء ـ هاته ـ هلم ـ هيت ـ هيهات ـ وى) . .

وفى هذه الدراسات أيضا يقدم الدكتور محمد عبدالوهاب بحثه عن (كى فى اللغة والقرآن) وقد رأى الباحث أن لبعض الحروف فى اللغة العربية عدة استعمالات ، مما يكون له أثر على المعنى المراد فى الآية القرآنية ، ومن هذه الحروف الأداة (كى) التى قد يحدث الخطأ فى فهم المعنى الذى جاءت لأدائه ، لأنها تأتى جارة تارة ، وناصبة تارة أخرى ، وأحيانا محتملة الوجهين ، وقد تتبع الباحث الآيات التى وردت فيها ، مرتبا لها حسب ورودها فى القرآن الكريم ، مع ذكر آراء النحاة ، مرجحا ما يتلاءم مع المعنى القرآنى .

وفى مجال الدراسات البلاغية يقدم الدكتور إبراهيم الهدهد بحثه عن (وراء ـ مواضعها وأسرارها فى نظم القرآن الكريم) وقد حاول الباحث فى هذا البحث أن يجيب عن تساؤل مؤداه : إذا كانت « وراء » بمعنى (بعد وسوى وخلف وقدام) فلماذا لم تقع هذه الألفاظ موقع (وراء) وأى معنى يفوت بوضع ما يقارب (وراء) فى موضعها ؟ وقد تتبع المواضع والمقامات التى وردت فيها فى القرآن الكريم ، وبين أن غيرها لا يمكن أن يقوم مقامها : ومن هذه المقامات : مقام الإعراض والغفلة ، ومقام التهديد والوعيد ، ومقام التحسير والتبكيت ، ومقام التشديد فى التحريم والنهى ، إلى غير ذلك من مقامات كشف فيها الباحث عن وفاء (وراء) بحق المقام والسياق .

كما نلتقى فى الدراسات البلاغية بالدكتور نعمان علوان فى بحثه عن (الأثر النفسى للأسلوب البلاغى) ولو أنصف الباحث نفسه وبحثه لأضاف إلى العنوان (فى آيات من القرآن الكريم) ذلك لأنه اعتمد اعتمادا كبيرا

على الاستشهاد من القرآن الكريم وقد اختار من علم البيان كل أساليبه في (التشبيه والاستعارة والكناية) ومن علم المعاني أسلوب (الاستفهام والتكرار والتقديم والتأخير والقصر والاعتراض والايجاز) ومن علم البديع (الطباق والمقابلة وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتكميل والتهذيب والتأديب والفرائد) وقد حاول الباحث في كل أسلوب أن يكشف عن الأثر النفسي في الشـــاهد الذي يستشهد به ، مؤكدا بذلك أن لكل مقام مقالا . .

وفي مجال دراسات أصول اللغة يقدم الدكتور رشاد سالم بحثه عن (ظاهرة القلقلة في الأداء القرآني) وقد بين الباحث أن هناك قصورا يعتري بعض قارئي القرآن الكريم في فهم وتأدية صورة (القلقلة) إذ هناك من يقلقل حروفا لا تمت لحروف القلقلة بصلة ، ومنهم من يبالغ في قلقلة الحرف حتى يتولد حرف جديد يؤدي إلى دلالة أخرى للكلمة ، ومن هنا كانت غاية هذا البحث هي إلقاء الضوء على مفهوم القلقلة وكيفيتها وشروطها ومراتبها وأقسامها وعدد حروفها وما لكل حرف من مخرج ، وما يتميز به من صفات في ضوء الدرس الصوتي الحديث .

ولعل البحث الثاني في دراسات أصول اللغة الذي يقدمه الأستاذ الدكتور عبدالمنعم عبد الله ، يعين على أداء (القلقلة) كما ينبغي ، ذلك لأنه يتحدث عن (آلية النطق في ضوء الفكر الصوتي عند العرب ـ دراسة وصفية) وقد أبان أن من أهدافه بيان فقه الربط بين آلية النطق والسمات التمييزية للأصوات في الفكر الصوتي العربي ، ومدى توافق معطياته مع المنظور الصوتي الحديث ، وقد ذكر أن من الصفات الأدائية للنسيج القرآني (القلقلة) وهي في اللغة التحريك والاضطراب ، وفي ضوء آلية النطق لا تخرج عن هذا المفهوم ، إذ يراد بها تحريك المخرج والصوت بعد انضغاطهما وانحباسهما . هذا إلى ظواهر أخرى تتعلق بالتجويد والقراءات مثل الإظهار والإخفاء والإدغام . . إلخ . .

فإذا فرغنا من هذا الجانب الأكبر من الدراسات التى اتخذت القرآن الكريم مجالا لها فإننا نلتقى ببحوث أخرى تحقق سمة التنوع فى العطاء العلمى من خلال هذه المجلة .

ففى مجال الدراسات التاريخية يقدم الأستاذ الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف بحثه عن (موقف عمر بن الخطاب من الفتوحات الإسلامية) وقد بين أن الذى دفعه إلى كتابة هذا الموضوع أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعارض فى البداية إنشاء أسطول حربى إسلامى بدافع حرصه على سلامة المسلمين وعدم الزج بهم فى ميدان خطر قبل أن يستعدوا له تمام الاستعداد ، لكن بعض الباحثين تجاهل هذا السبب وعلل تعليلا آخر وهو أن عمر بن الخطاب كان يجهل أمر البحر ولا يعرف عنه شيئا لأنه رجل نشأ فى الصحراء وكان يخاف ركوب البحر ؟ وهو تعليل لا يراه الباحث - بحق - صحيحا ، ذلك لأن عمر بن الخطاب هو الذى أمر بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فكيف يجهله . ومن هنا كانت غاية هذا البحث هى معرفة موقف عمر بن الخطاب من الفتوحات بصفة عامة ومن إنشاء أسطول بحرى إسلامى يغزو المسلمون به فى البحار بصفة خاصة ، وهو موقف ينطلق من رؤية رجل دولة مسئول يعرف تماما ماذا يريد وماذا يقدر عليه ، ولم يكن مرتجلا لسياسته ولا مترددا ، كما تظهره بعض الروايات المتهاوية المتهافتة . .

وفى مجال الدراسات الأدبية نلتقى بالأستاذ الدكتور حسن عبد السلام فى بحثه عن (الشخصية الأدبية لفلاسفة الأندلس) وقد رأى الباحث أنه كان فى المشرق فلاسفة كبار لهم تراث أدبى كابن سينا والسهروردى وابن الشبل البغدادى وغيرهم ، وقد ظهر فى الأندلس فلاسفة كبار كذلك كابن حزم وابن زهر وابن طفيل وغيرهم، ولهم تراث أدبى أيضا ، وقد تساءل الباحث عن قيمة التراث الأدبى الذى خلفه فلاسفة الأندلس ، وهل كانوا

فيه عيالا على فلاسفة المشرق الأدباء ؟ أو كانوا مبدعين ذوى شخصية أصيلة فى التعبير عن ذواتهم ومجتمعهم ؟ ومن ثم كان البحث محاولة للإجابة عن هذا التساؤل من خلال شواهد الشعر والنثر . وقد انتهى الباحث إلى أن التراث الأدبى لفلاسفة الأندلس يكشف عن شخصية أصيلة متميزة ، ظهرت فى كثرة هذا التراث وتنوعه ، كما ظهرت فى مجال الابتكار والإجادة ، وبذلك تميز أصحاب هذا الأدب عن نظرائهم فى المشرق تميزا لاتخطئه عين الباحث المنصف .

وفى مجال الدراسات الإعلامية يقدم الدكتور شعبان شمس بحثه عن (العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء ، دراسة استطلاعية) وقد بين الباحث أن دراسته لهذا الموضوع تهدف إلى التعرف على دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء من ناحية ، ثم العوامل التى تؤثر على فاعلية الإعلان فى اتخاذ المستهلك لهذا القرار ، من ناحية أخرى وهل المستهلك يتخذ قراره بالشراء بعد تعرضه للإعلان مباشرة أو أن ذلك يتم بعد مواقف تحلل الرسائل الإعلانية ، من خلال الأسرة أو زملاء العمل أو الأصدقاء أو المتخصصين فى مجال السلعة ، وهل الدولة المنتجة للسلعة لها تأثير فى فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء أولا ؟ وهى دراسة قد تكون غريبة فى وسط جاراتها ، لكنه التنوع الذى تقوم عليه الكلية فى أقسامها المختلفة . .

وبعد : فلقد حاول الباحثون جميعاً من خلال مصادرهم ومراجعهم ، ومن خلال الرؤية الذاتية الواعية أن يقدموا الجديد ، وأن يعرضوا العلم النافع المفيد ، وأحسب أنهم وصلوا إلى كثير من هذا وذاك ، وأرجو أن يجد القارىء مبتغاه من خلال سياحته العلمية فى معالم هذا العدد الجديد . .

وبالله التوفيق وعليه سبحانه قصد السبيل ؟

القسم الأول

قسم الأدب والنقد :

١ ـ التصوير القرآنى لتعاقب الليـــل والنهـــار

أ . د / على على صبح

٢ ـ الشخصية الأدبية لفلاسفة الأندلس

د. / حسن أحمد عبد السلام

التصوير القرآني

لتعاقب الليل والنهار

الأستاذ الدكتور
علي علي صبح

القرآن الكريم كتاب الله المقدس ، وكلمات الله التامات ؛ فمن أراد أن يتحدث مع الله عز وجل بكلماته التامات وآياته المعجزات ؛ فليتخذ أسلوبا ومنهجا يتفق مع قداسة القرآن وجلاله ، وأقرب شيء إلينا حينما نتحدث عن القرآن أن ننسب كل شيء إلى القرآن ؛ فنقول : إنه أسلوب قرآنى ، ونظم قرآنى ، وتعبير قرآنى ، وتركيب قرآنى ، وعبارة قرآنية ، وتصوير قرآنى ، وإيقاع قرآنى ، ونسق قرآنى ، وأدب قرآنى ، وخلق قرآنى ، وتشريع إلهى قرآنى ، وهكذا ، حتى لا نقع فيما تجاوز إليه الكتاب والباحثون ، والأدباء والنقاد ، وقالوا عنه : التصوير الفنى فى القرآن ، والقصص الفنى فى القرآن ، والتصوير الأدبى ، والصورة الأدبية ، والموسيقى فى القرآن ، والنظرية الأدبية فى القرآن ، والتعبير الفنى فى القرآن ، والوحدة العضوية فى القرآن ، وفن القرآن ، والقرآن فن وخلق ، والقرآن نص

أدبي ، والقرآن الكتاب العربي الأول في الأدب ، والقرآن مظهر للأدب والفن والبيان ، وما أشبه ذلك من المصطلحات المستعملة في مجال الأدب والنقد والفن البشري مما تحدثت عنه في بحث مستقل بعنوان : « التصوير القرآني »(١) .

وينبغي أن نسير على هدى القرآن وخلقه وأدبه ونهجه ، كما علمنا القرآن الكريم قال تعالى : « حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »(٢) فقال تعالى : فصلت آياته قرآنا عربيا ، وليس فنا عربيا ، ولا أدبا عربيا إلخ ، وقال تعالى : « بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ »(٣) ، وقال تعالى : « إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون »(٤) . بل ينبغي أن نتعامل معه لا بالحسن فحسب ، بل بالأحسن في القول والعمل ، فتكون لنا البشرى ، قال تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب »(٥) .

ومن إبداعات الله البديع في الكون والحياة تعاقب الليل والنهار أبد الدهر ، إلا إلى ماشاء الله تعالى ؛ فلا يتخلف أحدهما عن هذا التعاقب ساعة ، ولا يوما ، ولا أسبوعا ولا شهرا ، ولا سنة ، ولا يأتي أحدهما مكان الآخر . أو يتجاوز حده ، بل يدوران معا في مدارهما المعهود في توازن واتزان ؛ لكل فصل من فصول السنة ؛ سواء أكان ربيعا أو صيفا أو

---

(١) الوعي الإسلامي عدد ٢٠٣ سبتمبر ١٩٨١ ونشر بعد ذلك في مجلات أخرى بصورة أكبر ، وتعرضت له في كتابي : « الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق » ص ٦٠ : ٧٦ ج ١ القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م المكتبة الأزهرية للتراث .

(٢) سورة فصلت آية ١ - ٣ (٣) سورة البروج آية ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة الواقعة آية ٧٧ ، ٧٨ (٥) سورة الزمر آية ١٧ ، ١٨

خريفا أو شتاء، قال تعالى : «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»(١) .

تقديم الليل على النهار فى خمس وخمسين مرة :

من عجيب بديع الله عز وجل لتعاقب الليل والنهار معا إلى حد الإعجاز فى الخلق، وفى التصوير القرآنى، أن يصور القرآن الكريم الليل قبل النهار فى آيات كثيرة، يتقدم فيها الليل على النهار فى موقف واحد أحيانا فى خمس وخمسين مرة، وحينا آخر يتقدم فيها النهار على الليل فى أربع مرات لأسباب كثيرة.

تقديم النهار على الليل فى أربع مرات :

فى هذه الآيات يأتى تصوير النهار متقدما على الليل فى أربع مرات مثلا يقتضيها الإعجاز فى التصوير القرآنى؛ لدواع إعجازية، ومقتضيات بلاغية تتناسب مع المقام وهى .

١ - حين أقسم الله عز وجل «بالضحى» وهو نهار، جاء الليل بعد النهار فى سورة «الضحى» فأقسم الله بضحى النهار؛ فقال تعالى : «والضحى والليل إذا سجى، ماودعك ربك وما قلى»(٢) .

٢ - بعد القسم أيضا فى سورة «الشمس»؛ فأقسم الله بها، وهى مصدر الضوء فى النهار؛ فيأتى النهار متقدما على الليل، قال تعالى : «والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها»(٣)؛ فبراعة الإعجاز فى التصوير القرآنى يقتضى المقام فيها، أن يتقدم النهار على الليل؛ ولذلك لم تدخل هذه الآية مع آيات تقدم الليل على النهار، واكتفيت بذكرها هنا؛ لأن النهار يدور مع الشمس والضحى، ثم القمر وهو نور أيضا،

(١) سورة آل عمران آية ٩٠
(٢) سورة الضحى آية ١، ٣
(٣) سورة الشمس آية ١، ٤

ثم يأتى القسم بالنهار ، يتلوه مباشرة القسم بالليل ، لأن النهار والقمر والضحى كلها أنوار ، تقابل الظلام الذى يسود الليل . فى تصوير قرآنى يجمع بين النسق والتلاؤم والتوازن وبديع خلق الله وصنعه.

٣ ـ حين أقسم الله سبحانه وتعالى « بالفجر » وهو « نهار » فقال تعالى فى سورة « الفجر » : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر »(١) فتأمل التقابل بين الفجر وركعتى الفجر وهى شفع . وبين ليال والوتر الذى يكون فى الليل .

٤ ـ أثناء التصوير القرآنى « للصلاة » يكون الحديث عنها ابتداء وعن النهار أولا ، لا عن الليل ، لأن النهار يجمع بين أبعاده أربعة فروض : فرضين يتعاقبان فى الطرف الأول من النهار ، وهما : (الصبح والظهر) ، وآخرين يتعاقبان فى طرفه الأخير وهما : (العصر والمغرب)، بينما الليل يستقل بصلاة واحدة وهى صلاة (العشاء) ؛ لذلك كانت روعة الإعجاز فى تقديم طرفى النهار ، وهما « النهار » على زلف من « الليل » قال تعالى : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين »(٢) .

الإعجاز فى خلق الليل والنهار :

البديع فى خلق الليل والنهار ، يجعل العقل البشرى يقف أمامه عاجزا فمهما تقدمت علومه ،وظهرت وسائله ، وتجاوزت مخترعاته الحدود المذهلة. فلا يستطيع أحد أن يزحزح الليل عن النهار ، ولا النهار عن الليل ، أو يعطل أحدهما لحساب الآخر ، أو يجعل الدهر نهاراً كله أو ليلا كله ؛ فالخالق وحده القاهر فوق عباده ، يسير الليل والنهار متعاقبين ، آيتين من آياته العجيبة ، ويصعب على العقل البشرى أن يكشف الأسرار العجيبة فى الخلق

(١) سورة الفجر آية ١ : ٤ (٢) سورة هود : آية ١١٤

والحركة والتعاقب والدوام ، فسبحان الله تعالى المبدع فى خلقه !! وهو الخلاق العليم .

لذلك بهت « النمروذ » الذى كفر ، حين حاجه إبراهيم عليه السلام فطلب منه أن يحول تعاقب الليل والنهار ؛ فيقلب ويغير موازين الشروق والغروب ؛ فيأتى بالشمس من المغرب وقت الشروق أو النهار ، ويأتى بها من المشرق آخر النهار ؛ فأخرسته الحجة البالغة، وتجمد عقله أمام قدرة الخالق وحده « فأنى يؤفكون » قال تعالى : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين »(١) هذا من حيث إبداع البديع فى خلق الليل والنهار ، أما من حيث « التصوير القرآنى » فنتعرض له بعلامات وبإشارات تفتح الطريق أمام الكتاب والباحثين . .

الإعجاز فى التصوير القرآنى لليل والنهار :

أما من حيث النظم العجيب والإعجاز القرآنى فى التصوير ؛ فالله عز وجل البديع فى خلق الليل والنهار هو سبحانه وتعالى أيضا البديع فى نظمه وتصويره القرآنى ، وقفت دونه أساطين الفصاحة والبلاغة عاجزة مبهورة حتى قال أحدهم وهو الوليد بن المغيرة : « . . فإنه يعلو ولا يعلى عليه » . تأمل كيف ينسلخ النهار عن الليل ، فيسود الظلام فى الكون شيئا فشيئا ، وتغيب الشمس رويدا رويدا ، حتى تختفى ؛ فيسود الظلام ؛ وذلك مثل كشط الجلد عن لحم الشاة شيئا فشيئا ، حتى ينكشف اللحم كله ، والشأن فى الجلد - بالنسبة للحم الذى تحته - أن يكون مضيئا ، فهو كالنهار للناظر ، كما أن الشأن فى اللحم تحت الجلد أن يكون مظلما للرائى . فهو كالليل . جاء ذلك فى تصوير قرآنى معجز حين عبر بالفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٨

والتجدد شيئا فشيئا فى قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون)(١) ؛ فيتلاشى النهار عن الليل كما ينسلخ الجلد عن اللحم رويدا رويدا ؛ فكلما انسحب جزء من النهار أظلم الكون قليلا بمقدار هذا الجزء ، وهكذا حتى يسود الليل ، ويعم الظلام ، ثم يتعاقب عليه بعد ذلك النهار ، فتبدأ حركة الأرض مع الشمس فتظهر شيئا فشيئا ، لتضيء وجها من وجوه الأرض ، وهكذا حتى ينتشر النهار كله ، ثم يعقبه الليل ؛ ليظهر فيه القمر منيرا ؛ فيكتمل بذلك يوم محسوب فى عدد السنين والحساب .

هذا التفسير وأبلغ منه دون ماجاء فى تصوير قرآنى معجز بل دونه بكثير وكثير قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)(٢) وقال سبحانه : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا)(٣) .

وتقديم الليل على النهار دليل على أنه هو الأصل فى الوجود ، فيسود الظلام بصفة عامة ، وعلى كوكب الأرض بصفة خاصة ، ثم يأتى النهار تاليا لليل ، وهذا ما أثبته القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرنا ، فيكون ذلك واضحا وحقيقة فى عصرنا الحديث ، وسيكون أكثر وضوحا فى المستقبل متجددا خالدا إلى قيام الساعة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »(٤) .

وكذلك الأمر فى قضية تكوير الأرض ؛ لتكور الليل على النهار ،

---

(١) سورة يس : آية ٣٧ (٢) سورة يس: آية ٣٧ ، ٤٠

(٣) سورة الإسراء : آية ١٢ (٤) سورة فصلت : آية ٥٣

وتكور النهار على الليل ، مما يدل على أن الأرض كروية الشكل ؛ فالقرآن الكريم فى تصويره لتكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل أثبت كروية الأرض للإنسان منذ خمسة عشر قرنا . قال تعالى : (خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار)(١) .

وتأمل تصوير الليل متقدما على النهار فى خمس وخمسين مرة ، تجده قد تنوع تنوعا بديعا ومعجزاً ، فتارة يكون مع الجعل وتارة مع التسبيح أو الاختلاف أو التكوير وهكذا مما سنقف معه بإشارات تفتح الطريق أمام الباحثين :

تصوير الليل والنهار فى آيات الجعل :

صور القرآن الكريم الليل والنهار « بالجعل » بمعنى أن الله عز وجل صير الليل والنهار ، وهيأهما لعباده ليتمتعوا بنعم الله عز وجل بالليل فيسكنوا فيه ويستريحوا ويتأملوا إلى غير هذا من النعم التى تتلاءم مع الليل فتأتى متقدمة لتقدم الليل ، وليتمتعوا أيضا بنعم الله سبحانه وتعالى بالنهار فينتشروا فى الأرض ، ويبتغوا من فضل الله إلى غير هذا من النعم التى تتلاءم مع النهار ؛ فتتأخر عن نعم الليل ، لتأخر النهار عن الليل ، وذلك من خلال تقابل وتزاوج بينهما فى نسق قرآنى بديع ، ثم تعجب أيضا لهذا النسق القرآنى بين السموات والأرض فى الآية السابقة وبين الليل والنهار، والأرض مضيئة لانعكاس ضوء الشمس على سطحها فتتأخر عن السموات - وهى مظلمة بالنسبة لنا - لتتلاءم وتتوازن مع تأخر النهار . هذا التفسير وأبلغ منه مهما بلغ دون ماجاء فى التصوير القرآنى للجعل بكثير وكثير قال تعالى :

« ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من

(١) سورة الزمر « آية ٥ »

دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ، هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون»(١) مرة واحدة .

وهذه الآية الأولى فى التصوير القرآنى «للجعل» من آيات الليل والنهار ، التى بلغت اثنى عشر موقعا من القرآن الكريم فى هذه الدراسة. وهذه بقية المواقع .قال تعالى : «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا »(٢) وجاء الجعل مرتين هنا .

وقال تعالى : «فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »(٣) والشمس مقترنه بالنهار لذلك وقعت بعد الليل . مرة واحدة .

وقال تعالى : «وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا» مرة واحدة(٤) .

وقال تعالى : « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » مرة واحدة(٥) .

وقال تعالى : «ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » مرة واحدة(٦) .

وقال تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه

(١) سورة يونس : آية ٦٦ ، ٦٧ (٢) سورة الإسراء : آية ١٢
(٣) سورة الأنعام : آية ٩٦ (٤) سورة الفرقان : آية ٤٧
(٥) سورة الفرقان : آية ٦٢ (٦) سورة النمل : آية ٨٦

أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »(١) ثلاث مرات .

وقال تعالى : « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »(٢) ، مرة واحدة .

وقال تعالى : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهـــار معاشا »(٣) مرة واحدة .

تصوير الليل والنهار فى آيات التسبيح :

من أجل نعم الله تعالى على عبادة تعاقب الليل والنهار بما يتناسب مع حاجة الجسد من الراحة والسكن ، وحشد الطاقة وتجديدها فى سكن الليل والنوم فيه ، وبما يتلاءم مع مطالب الحياة من كد وسعى وتحصيل ، وتمتع الإنسان بما لذ وطاب من متاع الحياة الدنيا فى النهار ؛ لذلك وجب على الإنسان أن يشكر ربه ؛ فيسبح الوهاب المنعم على عباده بهذه النعم بالليل والنهار ، وينزه الله عز وجل بالوحدة والتقديس ؛ فهو وحده الجدير بالعبادة والتنزيه والحمد والثناء ؛ فجاء التسبيح مع الليل والنهار سبع مرات فى القرآن الكريم فى هذا البحث .

قال تعالى : « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »(٤) جاء التسبيح مع الليل والنهار هنا مرتين ، فالتسبيح قبل طلوع الشمس يكون بالليل ، وقبل الغروب يكون بالنهار ، وهذة مرة ، والأخرى آناء الليل ، وأطراف النهار .

---

(١) سورة القصص : آيات ٧١ - ٧٣

(٢) سورة غافر : آية ٦١ — (٣) سورة النبأ : آية ١٠ ، ١١

(٤) سورة طه : آية ١٣٠

وقال تعالى : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون »(١) مرة واحدة .

وقال تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون »(٢) مرة واحدة

وقال تعالى : (فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود)(٣) . فاقتران الليل مع النهار هنا جاء مرة واحدة ، وهى التسبيح قبل طلوع الشمس ، والمراد الليل ، وقبل الغروب والمراد النهار . أما قوله تعالى : (ومن الليل فسبح وأدبار السجود) فقد اتفقت جماعة الصحابة والتابعين على أن زمن التسبيح هنا فى الليل من أوله إلى آخره حتى الفجر « ومن الليل » أى فى بعض أجزاء الليل : أوله أو وسطه أو آخره ، « وأدبار السجود » ، النوافل بعد المغرب أو الوتر بعد العشاء(٤) . والتسبيح هنا فى الليل أيضا . وعلى ذلك فلم يجتمع الليل مع النهار فى هذه الآية الثانية وإنما اقتصرت على الليل فقط ، ولذلك لم تدخل تحت الحصر السابق ؛ فكانت مرة واحدة .

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)(٥) . مرة واحدة ، أى من الليل فسبحه ، أى أثناء الليل ، وإدبار النجوم بعد الفجر ، وظهور ضوء النهار ، لتختفى النجوم ، وتولى دبرها .

وقال تعالى : (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٢٠ (٢) سورة فصلت : آية ٣٨

(٣) سورة ق : آية ٣٩ ، ٤٠

(٤) تفسير الكشاف : الزمخشرى ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ / ٤ وفتح القدير : الشوكانى ٨٠ ، ٨١

(٥) سورة الطور : آية ٤٨ ، ٤٩

وسبحه ليلا طويلا)(١) . مرة واحدة ، فالبكرة تصوير لليل ، والأصيل تصوير للنهار ، ثم جاء التسبيح فى الليل وحده غير مقترن بالنهار فى الآية الثانية ، أما من جعل البكرة والأصيل لطرفى النهار ليقابل الليل فى الآية ، فيكون النهار متقدما على الليل .

تصوير الليل والنهار فى آيات الاختلاف :

ويظهر الإعجاز فى التصوير القرآنى لآيات اختلاف الليل والنهار فى النسق القرآنى البديع ، فحينما تلتق — فى آية واحدة أو موقف واحد — السماوات والأرض مع اختلاف الليل والنهار ، نجد هذا التناسق القرآنى فى تقدم السماء لتتلاءم مع تقدم الليل . لأن السموات بالنسبة لنا ظلمات ، والليل ظلمات ، وتتأخر الأرض بعد السموات لتتلاءم مع تأخر النهار بعد الليل لأن الأرض ينعكس عليها ضوء الشمس فى النهار وضوء القمر فى الليل وعلى ذلك فالأرض مضاءة والنهار ضياء وهكذا جاء التصوير القرآنى لاختلاف الليل والنهار ست مرات فى هذه الدراسة . والاختلاف والخلفة بمعنى خلفه أى جاء بعده ، والمعنى أن يأتى أحدهما بعد الآخر ، وهكذا يتعاقبان : أى يختلف أحدهما بعد الآخر .

قال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(٢) .

وقال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب)(٣) .

وقال تعالى : (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون)(٤) .

(١) سورة الإنسان : آية ٢٥ ، ٢٦ (٢) سورة البقرة : آية ١٦٤
(٣) سورة آل عمران : آية ١٩٠ (٤) سورة يونس : آية ٦

وقال تعالى : (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)(١). وقال تعالى : (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)(٢) .

تصوير الليل والنهار فى آيات الإيلاج :

ولج أولج يولج بمعنى دخل وادخل ويدخل ؛ فيولج أى : يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل ؛ فيصير ليلا ، أما الأول فيصير نهاراً ، وعلى ذلك فقد عددت آيات الإيلاج من الآيات التى تبدأ بذكر الليل أولا وتقدمه من حيث اللفظ والظاهر لا من حيث المضمون والشكل كما فى الآيات الأربع السابقة التى تقدم فيها ذكر النهار متقدما على الليل ، وإن كان مختلفاً من حيث المعنى فى آيات الإيلاج .

فأما آية الإيلاج الأولى فى تصوير الليل والنهار فهى فى قوله تعالى : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب »(٣) .

وتعجب كل العجب فى نسقها القرآنى ؛ من خلال التصوير المعجز ، وذلك فى تلاحم التقابل والتزاوج ؛ فتصوير النهار أولا فى قوله تعالى : « تولج الليل فى النهار » لأن النهار حياة ونشاط وعمل يتلاءم مع المتقدم وهو الحياة فى الفقرة الأولى من الآية « تخرج الحى من الميت » ، وكذلك فى تصوير الليل ثانياً فى قوله تعالى : « وتولج النهار فى الليل » ، والليل سكون وصمت وموت . فيه الموتة الصغرى وهى « النوم » ، وقد تتحول إلى الموتة

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٨٠ (٢) سورة الجاثية : آية من ٢ - ٥
(٣) سورة آل عمران : آية ٢٧

الكبرى فيه ، فتأخر تصوير الليل هنا عن النهار مع تصوير الموت ، الذى وقع متأخراً أيضاً فى قوله تعالى : « وتخرج الميت من الحى » إنه البديع سبحانه وتعالى فى التنسيق بين المعـــانى والمشاهد فى جلال التصوير القرآنى المعجز .

وأما الآية الثانية فهى فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير »(١) .

ويظهر الإعجاز هنا أيضاً فى التصوير القرآنى للإيلاج ، فيولج الليل فى النهار ليعم الضياء ، وتخرج الشمس من خدرها ، ويبتغى الناس من فضل الله عز وجل ، ويسعى الخلق إلى معاشهم وأعمالهم ، ويولج النهار فى الليل ، ليعم الظلام ويتألق القمر والنجوم ، ويسكن الناس ، ويستريحوا من جهاد العمل والكسب . نجد هذه المعانى وأكثر منها فى التصوير القرآنى لإيلاج الليل فى النهار ، ليكون نهاراً ، وليتقدم مع تقدم الشمس على القمر . وفى التصوير القرآنى لإيلاج النهار فى الليل . ليكون ليلا ، بعد تصوير النهار ، ليتلاءم مع القمر ، الذى ورد متأخرا عن الشمس ، لأن القمر يتألق فى الليل مع النجوم . هذه المعانى والمشاهد قطرة من بحر التصوير القرآنى المعجز فى كل مشهد ولكل معنى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ، وقال سبحانه وتعالى ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢) .

وأما الآية الثالثة فى تصوير الإيلاج فهى فى قوله تعالى : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير »(٣) .

---

(١) سورة لقمان آية ٢٩ (٢) سورة الإسراء آية ٤١، ٨٨
(٣) سورة الحج آية ٦١

وأما الرابعة فهى قوله تعالى : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »(١) .

فالتنسيق القرآنى فى التصوير المعجز لهذه الآية على نحو ما جاء فى الآية السابقة ، فتقدمت الشمس لتقدم تصوير النهار ، وتأخر القمر لتأخر تصوير الليل فى تلاؤم وتوازن واتساق : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين »(٢) .

وأما الخامسة فهى قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور »(٣) .

تصوير الليل والنهار فى آيات القسم :

عظائم الأمور ، وجلائل النعم تنال من العناية والتقدير منزلة عالية ، تسمو إلى درجة القسم بها ، فإذا ما أقسم الخالق سبحانه وتعالى بها ازدادت منزلة ورفعة ، للدلالة على عظم خلقها ، وعميم نفعها وفضلها ، لهذا أقسم الله عز وجل بالليل والنهار فى القرآن الكريم أربع مرات فى هذا البحث .

قال تعالى : « كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر »(٤) .

تقدم الليل على الصبح والنهار ، لتجاوره مع القمر ، الذى تصدر به القسم . والقمر كوكب ليلى يظهر فى الظلام أكثر منه فى النهار .

وقال تعالى : « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين »(٥) .

---

(١) سورة فاطر آية ١٣ (٢) سورة الشعراء آية ١٩٢ ، ١٩٣

(٣) سورة الحديد آية ٥ ، ٦ (٤) سورة المدثر آيات ٣٢ : ٣٤

(٥) سورة التكوير آيات ١٥ : ٢١

تقدم تصوير الليل على الصبح لتجاوره مع النجوم الخنس والجوارى السيارة السبعة، وهذه كلها تخنس أى: «تغيب»، وتكنس أى: «تختفى» فى النهار، وتظهر فى الظلام والليل، فهى كواكب ليلية، تتلاءم مع الليل فى تجاورها له.

وقال تعالى: «فلا أقسم بالشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق»(١).

وهنا تقدم الشفق على الليل، لأنه أول الليل حيث يظهر بعد الغروب وقبيل العشاء، ثم كان القسم الثالث بالقمر؛ لأنه يبدو أكثر ظهورا وتألقا بالليل منه فى وقت الشفق.

وقال تعالى: «والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى»(٢).

تصوير الليل والنهار فى آيات الإغشاء:

غشى غشيا وغشيانا، وأغشى إغشاء، وغشى تغشية كلها بمعنى غطاه وستره تغطية وستراً، وحل محله، فأغشى الليل والنهار، أى غطاه وستره فيعم الظلام ويسود الليل، وأغشى النهار الليل بمعنى غطاه وستره، فينتشر الضياء، ويسيطر النهار على الكون، وجاء الإغشاء فى تصوير الليل والنهار مرتين فى هذه الدراسة.

قال الله تعالى: «إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»(٣).

فالإعجاز فى التصوير القرآنى يظهر فى كل مرة حسب القراءات

(١) سورة الانشقاق آيات ١٦ : ١٩

(٢) سورة الليل آية ١ ، ٢ (٣) سورة الأعراف آية ٥٤

فالقراءة المشهورة وهى : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » بضم الياء وكسر الشين غير المشددة ونصب الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات ، بمعنى يغطى الليل النهار ويستره ويطلبه حثيثا كما يطلب الشمس والقمر والنجوم حالة كونها مسخرات بأمره ؛ وإن كان البعض قد نصب الشمس وما بعدها بالفعل «خلق» عطفا على السموات والأرض ، وإن طال العطف هنا وفصل بقوله تعالى : « فى ستة أيام يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » .

وقرأ عاصم وحمزه والكسائى بتشديد الشين ورفع النهار ونصب الليل والمعنى يستر النهار الليل ويغطيه ، فيضيء الدنيا ويسيطر النهار على الكون. ومن هنا كان حسن التلاؤم وروعة الاتساق حين تجاورت الشمس مع النهار متقدمة على ما بعدها، ويؤيد هذا التصوير البديع قراءة رفع الشمس وما بعدها على الاستئناف ، فهى مصدر النور فى النهار ، ويؤيد هذا التصوير المعجز أيضا قراءة حميد بن قيس : « يغشى الليل النهار » بفتح الياء والشين غير المشددة ونصب الليل ورفع النهار (١) « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون »(٢) .

وقال تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٣) .

(١) الكشاف الزمخشرى ١٠٩ / ٢ ، فتح القدير : الشوكانى : ٢١١ / ٢
(٢) سورة الواقعة آيات ٧٧ - ٨١
(٣) سورة الرعد آية ٢ ، ٣

وتأمل كيف تقدمت السموات بما فيها من آيات الله على الأرض بما عليها من نعم وآلاء، ليتسق ذلك ويتلاءم مع تقدم الليل على النهار كما تقدمت السموات على الأرض، وقد ظهر فيها روعة الإعجاز فى التصوير القرآنى على نحو ما أشرنا إليه قبل ذلك .

تصوير الليل والنهار فى آيات التسخير :

سخر الله عز وجل الليل والنهار لعباده بمعنى ذللهما وهيأهما لهم، وجعل كلا منهما يلبى حاجات البشر، ويستجيب لرغباته وطبيعته البشرية، التى تحتاج إلى كل منهما، وجاء التسخير هنا مرتين .

قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار)(١) .

وقال تعالى : (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)(٢) .

ومن روعة الإعجاز فى التصوير القرآنى فى مجال ذكر النعم التى سخرها الله تعالى لعباده ؛ لينتفعوا بها، مع تأتى النعمة الأكثر نفعاً والأعظم فضلا للعباد متقدمة على مادونها فى النفع والفضل ؛ لذلك تقدمت الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعاً وأعم فضلا من نعمة القمر، ويؤيد هذا اتساق الآيات بعضها مع بعض، وتلاؤم ما بعدها وما قبلها فى ترابط وتلاحم وثيق ؛ فالآية الأولى فى سورة إبراهيم جاء قبلها قوله تعالى : (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار)، وجاء بعدها قوله تعالى : « (وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار)(٣) .

والآية الثانية فى سورة النحل جاءت قبلها آيات تجمع كثيراً من النعم من

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٣

(٢) سورة النحل آية ٣٢ (٣) آية ٣٢، ٣٣ .

أول قوله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون)(١). وجاءت بعدها آيات تجمع كثيرا من النعم تنتهى بقوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم)(٢) .

تصوير الليل والنهار فى آية الصيام :

قال الله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون)(٣) فتقدمت ليلة الصيام عن ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، والمراد به هو النهار .

تصوير الليل والنهار مع الإنفاق :

قال الله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(٤) . وانظر إلى تقدم السر لتقدم الليل ، وتأخر العلانية لتأخر النهار .

تصوير الليل والنهار مع الخفاء والظهور :

قال تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) فما أروع النسق القرآنى بين الغيب والليل وبين الشهادة والنهار فى الآية السابقة : (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)(٥).

---

(١) الآيات ٥ - ١١ (٢) الآيات ١٣ - ١٨
(٣) سورة البقرة آية ١٨٧ (٤) سورة البقرة آية ٢٧٤
(٥) سورة الرعد آية ٩ ، ١٠

تصوير الليل والنهار مع الخلق :

قال تعالى : (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون)(١) .

تصوير الليل والنهار مع السكن :

قال تعالى : (قل لمن ما فى السموات والأرض قل الله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون ، وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم)(٢) . فما أروع التناسق فى التصوير القرآنى فى تقدم السموات والأرض مع تقدم الليل على النهار على نحو ماذكرناه من قبل ؟ وتقدم السميع على العليم ، لأن السمع بالليل أدق وأقوى ، وتحصيل العلم وتعليمه للناس يتصل بالنهار أكثر من الليل . تناسق وتلاحم بين عناصر التصوير القرآنى المعجز .

تصوير الليل والنهار مع التوفى :

قال تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون »(٣) .

تصوير الليل والنهار مع الكلأ وهو الحفظ :

قال تعالى : « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون »(٤) .

تصوير الليل والنهار مع التقليب :

قال تعالى : « يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »(٥) .

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٣
(٢) سورة الأنعام آية ١٢ ، ١٣
(٣) سورة الأنعام : آية ٦٠
(٤) سورة الأنبياء الآية ٤٢
(٥) سورة النور الآية ٤٤

تصوير الليل والنهار مع النوم :

قال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون »(١) .

تصوير الليل والنهار مع السير :

قال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين »(٢) . وغالبا إذا ما أطلق اليوم يراد به النهار ، وخاصة فى مقابلة الليل هنا .

تصوير الليل والنهار مع المكر :

قال تعالى : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون »(٣) .

تصوير الليل والنهار للسلخ :

قال تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »(٤) .

تصوير الليل والنهار للسبق :

قال تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون »(٥) .

---

(١) سورة الروم الآية ٢٢ ، ٢٣
(٢) سورة سبأ الآية ١٨
(٣) سورة سبأ الآية ٣٣
(٤) سورة يس الآية ٣٧
(٥) سورة يس الآية ٤٠ .

تصوير الليل والنهار للسجود :

قال تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »(١) .

تصوير الليل والنهار مع القيام والتهجد :

قال تعالى : يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ، إن لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا »(٢) .

تصوير الليل والنهار مع الإغطاش :

قال تعالى : « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها »(٣) .

تصوير الليل والنهار مع التقدير :

قال تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ماتيسر من القرآن »(٤)

تصوير الليل والنهار مع التكوير :

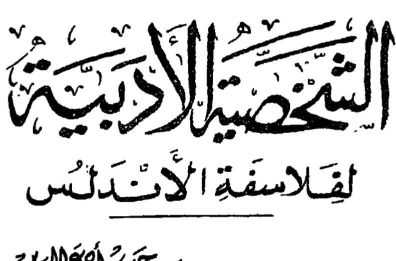
قال تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار »(٥) .

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٧ (٢) سورة المزمل الآية ١ - ٨
(٣) سورة النازعات الآية ٢٩ ، ٣٠
(٤) سورة المزمل الآية ٢٠ (٥) سورة الزمر الآية ٥

إنه التصوير القرآنى المعجز لليل والنهار ، أنزله البديع الحق بالحق ، لأنه الحقيقة والحق ، حينما يدركه الذين أوتوا العلم فيؤمنوا به يخرون للأذقان سجدا ويقولون متعجبين مبهورين من إعجازه وبديع تصويره : « سبحان ربنا » قال تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »(١) .

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٥ ، ١٠٩



دكتور حسن أحمد عبد السلام
الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد

تمهيد :

على مدى ثمانية قرون شيد المسلمون فى الأندلس حضارة شامخة ، أرسوا دعائمها على الإيمان والعلم ، وغذوا جذورها بالعمل والإخلاص ، حتى غدت حضارة الإسلام بالأندلس من أعظم الحضارات التى عرفها الإنسان.

ولقد أنتجت هذه الحضارة من أصحاب العقول الكبيرة والمواهب الأصيلة من ردد الزمان أسماءهم ، وخلد التاريخ آثارهم ، من علماء وفلاسفة وأدباء وليس غريبا أن كانت حضارة المسلمين فى الأندلس امتداداً لحضارتهم فى المشرق ، إذ مصدر الإلهام فى كلتا الحضارتين واحد، وهو الإسلام العظيم. ومع هذا فقد كان للأندلسيين ما أضافوه، وتميزوا به عن إخوانهم فى المشرق .

وقد عنى كثير من الباحثين بدراسة الشخصية الحضارية للأندلس بغية الوقوف على جوانب الأصالة وأوجه التميز فيها .

وهذا البحث محاولة للتعرف على جانب من الشخصية الأندلسية ، يتعلق بأدب الفلاسفة .

والشخصية الأدبية هنا تعنى الملامح المميزة التى ينفرد بها إبداع طائفة الأدباء الأندلسيين .

فلقد كان فى المشرق فلاسفة كبار لهم تراث أدبى كابن سينا والسهروردى. وابن الشبل البغدادى وغيرهم(١) وظهر فى الأندلس فلاسفة كبار كذلك ، لهم تراث أدبى أيضا ، فما قيمة التراث الأدبى الذى خلفه فلاسفة الأندلس، وهل كانوا فيه عيالا على فلاسفة المشرق الأدباء ، أم كانوا مبدعين ، ذوى شخصية أصيلة فى التعبير عن ذواتهم ومجتمعهم ؟ .

هذا التساؤل هو مايهدف هذا البحث إلى الإجابة عليه .

الفلسفة فى الأندلس :

كانت الفلسفة اسما جامعا للعلوم الطبيعية والتجريبية ، وعلم الأديان ، والملل ، والنحل ، والطب ، والفلك ، والدراسات التى تبحث فى طبيعة النفس الإنسانية ، والمنطق(٢) وكان على من يريد التخصص فى أحد هذه العلوم أن يلم بقدر طيب من سائرها، ولهذا تعددت جوانب المهارة عند كثير من فلاسفة الإسلام ، ووجدنا للواحد منهم مصنفات قيمة فى الطب والفلك والنفس والمنطق وشروحا لمقولات الفلاسفة القدماء ونقداً لآرائهم . ولم يكن طريق البحث الفلسفى ممهداً لطلابه فى كل حال ، فقد كانت حرية البحث الفلسفى مرتبطة برضا الحكام وميلهم إلى الفلسفة أو سخطهم عليها ، فإذا كان الحاكم محبا للفلسفة نشط الدرس الفلسفى فى عهده ، واكتسب المشتغلون به مكانة مرموقة عنده ، وأن كان غير محب لها تعطل الدرس الفلسفى ، وأبعد المشتغلون به ، وربما اتهموا بالزندقة والإلحاد(٣) .

ومع هذا التردد بين نشاط وخمول ، وإباحة ومنع ، ظهر فى الأندلس فلاسفة كبار ، شرحوا فلسفة اليونان ، وكتبوا فى الإلهيات ، والنفس ، والطبيعة والطب والفلك والمنطق والرياضيات .

وقد كان هؤلاء الفلاسفة -إلى جانب ذلك- أدباء مبدعين تركوا لنا تراثا أدبيا رفيعا لا تقل قيمته عن قيمة تراثهم الفلسفى .

التراث الأدبي لفلاسفة الأندلس :

أولا : الشعر : ـ

يبدو أن شعر فلاسفة الأندلس قصيدة من ديوان الشعر الأندلسى ، تتمثل فيها مسالكه وسماته ، وتلوح فيها قسمات الحياة الأندلسية بما شاع فيها من جد ولهو ، وما تعاورها من وثوب وتقهقر .

وشعرهم ـ فى الوقت نفسه ـ له ملامحه الخاصة التى شكلتها ثقافتهم الفلسفية واهتماماتهم العلمية .

لقد قال فلاسفة الأندلس الشعر فى أهم الأغراض التى عرفت فى بيئتهم ، وهى الغزل ، والوصف ، والحنين ، والشكوى ، والرثاء ـ إضافة إلى شعر التأمل الفلسفى .

فمن شعرهم فى الغزل قول أمية بن أبى الصلت :(٤)

جـــد بقلبي وعبث ثم مضى وما اكترث
واحربا من شادن فى عقد الصبر نفث
فأى ود لم يخن وأى عهد مانكث(٥)

وقــــوله :

عجبت من طرفك فى ضعفه كيف يصيد البطل الأصيدا
يفعل فينا وهو فى غمده ما يفعل السيف إذا جردا(٦)

ومزج بين وصف الخمر ووصف جمال الساقى فى قوله :

ومهفهف شركت محاسن وجهه مامجه فى الكأس من إبريقه
ففعالها من مقلتيه ولونها من وجنتيه وطعمهامن ريقه(٧)

وعبر ابن الصائغ(٨) عن شوقه إلى أحبته ، وحزنه على فراقهم ، مصوراً قلبه أسيراً جريحاً لديهم فى قوله :

ضربوا القبــاب على أقاحة روضة
خطر النسيم بهـــا ففاح عبـــيرا

وتركت قلبى صـــار بين حمولهم
دامى الكلوم يسوق تلك العيرا
هـــلا سألت أسيرهم هل عندهم
عان يفك ولو سألت غيـــورا
لا والذى جعل الغصون معاطفا
لهم وصـــاغ الأقحوان ثغورا
ما مر بى ريح الصبا من بعدهم
إلا شهقت له فعـــاد سعيرا(٩)

ويوجه ابن الصائغ رسالة شعرية رقيقة إلى أحبته ، يخبرهم فيها بأنهم يسكنون قلبه ، وأنه يقضى الليل مسهداً شوقاً إليهم وتفكراً فيهم ، ويطلب منهم أن يكونوا أوفياء يحفظون الود كما يحفظه ، فيقول :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا
بأنكم فى ربع قـــلبى ســكان
ودوموا على حفظ الوداد فطالما
بلينا بأقوام إذا استؤمنوا خانوا
سلوا الليل عنى قد تناءت دياركم
هل اكتحلت بالغمض لى فيه أجفان
وهل جردت أسياف برق سمائكم
فكانت لها إلا جفونى أجفان(١٠)

أما ابن طفيل(١١) فيبدع فى وصف محبوبته التى ألمت به ، فعطرت المكان بعطرها ، وأضاءت الظلمة بوجهها ، وفجرت فى نفسه ينابيع الشوق ، وأبصرت دلائل حبه لها وعلامات لهفته عليها ، لكنها ناشدته ألا يقترف إثما ، فاستجاب لها ، صونا للحرمات ، وترفعا عن الشهوات .

يقول ابن طفيل ، مصورا جمال محبوبته ، وشوقه ، وصبره وعفافه :

ألمت وقد نام المشيح وهـوما
وأسرت إلى وادى العقيق من الحمى
وجرت على ترب المحصب ذيلها   فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناوله أيدى التجار لطيمة   ويحمله الداوى أيان يمما
ولما رأت أن لا ظلام يجننا   وأن سراها فيه لن يتكتما
نضت عذبات الريط عن حر وجهها
فأبدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجاب جمالها
كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طـول تهاجر
وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثنـاياها وأومض بارق
فلم أدر دمع أينا كانا أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت
قرائن أحـوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا
يهـون صعبا أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما(١٢)

وقد وظف ابن طفيل فى أبياته السابقة مظاهر الطبيعة فى رسم صوره الشعرية ، فذكر وادى العقيق ، وترب المحصب ، والظلام ، وشمس الضحى ، والبارق ، والغمام ، وقد كانت الطبيعة الخلابة فى الأندلس رافداً غنياً ، وملهماً ثرياً ، ظهر أثره بوضوح فى الأدب الأندلسى .

ويصور الفيلسوف ابن رشد(١٣) الصراع بين عاطفته التى تدعوه إلى

العشق ، وعقله الذى ينهاه عن الاستجابة لداعى الجمال ، ثم غلبة الحسن لوقاره وتصبره ، فيقول :

ما العشق شأنى ولكن لست أنكره
كم حل عقدة سلوانى تذكره
من لى بغض جفونى عن مخبرة الـ
أجفان قد أظهرت ما كنت أضمره
لولا النهى لأطعت اللحظ ثانية
فيمن يرد سنا الألحاظ منظره
ما لابن ستين قادته لغايته
عشرية فنأى عنه تصبره
قد كان رضوى وقاراً فهو سافية
الحسن يورده والهون يصدره(١٤)

وليس فى تعلق الفلاسفة بالجمال ، وتغزلهم فى النساء ما يستغرب منهم أو يعاب عليهم ، « لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام » كما يقول ابن قتيبة(١٥) ولم ير ابن حزم الفقيه والفيلسوف الأديب حرجا فى الحب إذا صاحبته العفة ، فهو يقول :

« .... فبحسب المرء أن يعف عن محارم الله عز وجل ، التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ، ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمها غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة »(١٦)

ولقد كان ابن حزم صاحب تجربة فى هذا الباب إذ أتاحت له نشأته

أن يحس الحب فى قلبه، وفى قلوب المحيطين به كأشد ما يكون الإحساس(١٧) وله أشعار كثيرة فى وصف عاطفة الحب وأحوال المحبين ، كما أن له شعراً فى التغزل بالنساء ووصف جمالهن ، من ذلك قوله مدافعاً عن ذات الشعر الأشقر :

يعيبونها عندى بشقرة شعرها
فقلت لهم هذا الذى زانها عندى
يعيبون لون النور والتبر ضلة
لرأى جهول فى الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب
ولون النجوم الزاهرات على البعد
وأبعد خلق الله من كل حكمة
مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت ألوان أهل جهنم
ولبسة باك مثكل الأهل محتد(١٨)

ويبدو أنه تعرض للوم من بعض الناس الذين استغربوا منه ذلك المسلك فى التغزل وبسط القول فى فلسفة الحب ، ولم يعجبهم تصريحه بالحب، وهو الفقيه الإمام ، فقال فى الرد عليهم :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى
وسيان عندى فيك لاح وساكت
يقولون : جانبت التصون جملة
وأنت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه
صراحاً وزى للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعه فى محكم الذكر ثابت(١٩)

ولا شك أن الهوى (الحب) لم يرد تحريمه فى الشرع بشرط ألا يؤدى هذا الحب إلى محرم.

وإذا كان التعلق بالجمال والتغزل بالنساء مع العفة أمرا لا حرج فيه ولا غرابة أن نجده عند الفلاسفة الشعراء، فإن الأمر الذى كنا نود أن يتصون الفلاسفة عنه، هو الغزل الشاذ ووصف جمال الغلمان، لكن الحقيقة أن هذه الموجة التى جرفت كثيرا من الشعراء لم يسلم منها كذلك بعض الشعراء الفلاسفة(٢٠).

أما شعرهم فى الوصف، فمنه قول ابن زهر يصف مجلس شراب دارت الخمر فيه برءوس أصحابه:

وموسدين على الأكف خدودهم
قد غالهم نوم الصباح وغالنى
مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم
حتى سكرت ونالهم ما نالنى
والخمر تعلم حين تأخذ ثأرها
أنى أملت إناءها فأمالنى(٢١)

ووصف ابن طفيل تباين حظوظ الناس من الفكر، واختلافهم بين نجب يطلبون الحقائق، ويبحثون عن اللب والجوهر، وآخرين لا يتجاوزون القشور، ولا يدرون الحقائق، فقال:

ماكل من شم نال رائحة
للناس فى ذا تباين عجب
قوم لهم فكر يجول بهم
بين المعانى، أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا
وليس يدرون لب ما طلبوا

لا غاية تنجلى لناظرهم

منه ولا ينقضى لهم أرب

لا يتعدى امرؤ جبلته

قد قسمت فى الطبيعة الرتب(٢٢)

ووصف أمية بن أبي الصلت الإصطرلاب فقال :

أفضل ما استصحب النبيل ولم يعدل به فى المقام والسفر

جرم إذا ما التمست قيمته جل عن التبر وهو من صفر

مختصر وهو إن تفتشه عن ملح العلم غير مختصر

ذو مقلة تستبين ما رمقت عن صائب اللحظ صادق الأثر

تحمله وهو حامل فلكا لو لم يدر بالبنان لم يدر

مسكنه الأرض وهو منبئنا عن جل ما فى السماء من خبر

أبدعه رب فكرة بعدت غايتها أن تقاس بالفكر(٢٣)

وما روى من شعر المديح عن فلاسفة الأندلس قليل ، منه قول ابن الصائغ يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم :

همام جوده يصف السوارى وسطوته يعيرها الهجير

يقول عداه كيف وفى يديه سعير ترتمى فيها بحور

وقلنا نحن كيف وراحتاه بحور يلتظى فيها سعير(٢٤)

ومنه أيضا قول أمية بن أبي الصلت فيمن وصله نواله قبل أن يمدحه :

لا غرو أن سبقت يداك مدائحى

وتدفقت جدواك ملء إنائها

يكسى القضيب ولم يحن إثماره

وتطوق الورقاء قبل غنائها(٢٥)

واقتصاد الفلاسفة فى شعر المديح يرجع إلى طبيعة استعدادهم النفسى ، واعتزازهم بمكانتهم وعلمهم ، وترفعهم عن التكسب بالشعر(٢٦) . ولفلاسفة

الأندلس شعر فى الحنين إلى الديار والأهل ، منه قول ابن الصائغ .

فيا مكرع الوادى أما فيك شربة
لقد سال فيك الماء أزرق صافيا
ويا شجرات الجزع هل فيك وقفة
وقد فاء فيك الظل أخضر ضافيا(٢٧)

وقال وهو أسير عند الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين، وقد ومض له برق من ناحية برشلونة فأنس به وسر :

إيه يا برق قل حديثك عن نجد
حيا الإله عنى نجدا
قل وإن كان ما تحدثه زو
رآ فقد تبرد الأسى والوجدا (٢٨)

وقال ابن زهر فى التشوق إلى ولده الصغير :

ولى واحد مثل فرخ القطا صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فيا وحشتا لذاك الشخيص وذاك الوجيه
لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلى ومنى إليه(٢٩)

وقال ابن الصائغ يشكو ألمه وسوء حاله فى الأسر :

لعلك يا يزيد علمت حالى فتعلم أى خطب قد لقيت
وإنى وإن بقيت بمثل مابى فمن عجب الليالى أن بقيت
يقول الشامتون شقاء بخت لعمر الشامتين لقد شقيت
أعندهم الأمان من الليالى وسالمهم بها الزمن المقيت(٣٠)

وقال ابن زهر فى شكوى المشيب :

إنى نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاى كل ما رأتا
رأيت فيها شيخا لست أعرفه
وكنت أعهده من قبل ذاك فتى

فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة
إن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أخى وقد
صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا(٣١)

ولهم كذلك شعر فى الرثاء منه قول ابن الصائغ فى رثاء الأمير أبى بكر ابن ابراهيم :

أيها الملك قد لعمرى نعى المجـ
ـد نواعيك يوم قمن فنحنا
كم تقارعت والخطوب إلى أن
غادرتك الخطوب فى الترب رهنا
غير أنى إذا ذكرتك والدهـ
ـر إخال اليقين فى ذاك ظنا(٣٢)

وله فى رثائه أيضاً :

سلام وإلمام ووسمى مزنة
على الجدث النائى الذى لا أزوره
أحقاً أبو بكر تقضى فلا يرى
ترد جماهير الوفود ستوره
لئن أنست تلك القبور بلحده
لقد أوحشت أقطاره وقصوره(٣٣)

وقال ابن طفيل فى رثاء صديق له :

لأمر ما تغيرت الدهور وأظلمت الكواكب والبدور
وطال على العيون الليل حتى كأن النجم فيه لا يغور(٣٤)

أما شعرهم ذو الصبغة الفلسفية أو العلمية فمنه قول ابن طفيل ، مشيراً إلى العلاقة بين الجسد والروح فى الدنيا ، ثم افتراقهما عند الموت ، حيث يرجع كل عنصر إلى أصله ، فتصعد الروح إلى عالم النور ، ويتحلل الجسم إلى طين ، يقول بن طفيل :

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين إلى أجل فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضا الله اجتماعهما فيالها صفقة تمت على غبن(٣٥)

وقال سعيد بن عبد ربه(٣٦) يذكر فضل ربه علية من علم بالحقائق وانبساط فى المواهب ، ثم يصف حال الدنيا ، وسرعة انقضاء الأجل وحتمية الموت :

أمن بعد غوصى فى علوم الحقائق وطول انبساطى فى مواهب خالق
وفى حين إشرافى على ملكوته أرى طالبا رزقا إلى غير رازق
فأيام عمر المرء متعة ساعة تمر سريعا مثل لمعة بارق
وقد آذنت نفسى بتقويض رحلها وأعنف فى سوقى إلى الموت سائق
وإنى وإن بقيت أورغت هارباً من الموت فى الآفاق فالموت لاحق(٣٧)

وله أبيات يذكر فيها (بقراط) و (جالينوس) ويشيد بما خلفا من كتب وعلم ، يقول فيها .

لما عدمت مؤانساً وجليسا نادمت بقراطاً وجالينوسا
وجعلت كتبهما شفاء تفرجى وهما الشفاء لكل جرح يوسا
ووجدت علمهما إذا حصلته يذكى ويحيى للجسوم نفوسا(٣٨)

وقال أمية بن أبى الصلت فى استقبال الموت ، معربا عن خوفه من ذنوبه ، وأمله فى رحمة الله وعفوه :

سكنتك يادار الفناء مصدقا بأنى إلى دار البقاء أسير

وأعظم مافى الأمر أنى صائر إلى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها وزادى قليل والذنوب كثير
فإن أك مجزيا بذنبى فإننى بشر عقاب المذنبين جدير
وإن يك عفو ثم عنى ورحمة فثم نعيم دائم وسرور(٣٩)

ولما حضر ابن الصائغ الموت قال :

أقول لنفسى حين قابلها الردى فراغت فرارا منه يسرى إلى يمنى
قفى تحملى بعض الذى تكرهينه
فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى(٤٠)

وأقوالهم فى الموت تدل على التسليم المطلق لسلطانه وعجزهم التام حياله ، وإيمانهم بقدرة الله عز وجل ، وأنه لا يرد الموت شىء .

يقول ابن زهر مخاطبا كتابا اسمه (حيلة البرء) للطبيب اليونانى القديم جالينوس :

حيلة البرء صنفت لعليل يترجى الحياة أو لعليله
فإذا جاءت المنية قالت حيلة البرء ليس فى البرء حيله(٤١)

هكذا قال فلاسفة الأندلس الشعر فى أغراضه المختلفة ، مصورين حياتهم وبيئتهم ، وأفكارهم ومشاعرهم فى رقة ودقة وجمال .

ثانيا : الموشحات :

يكاد يجمع الباحثون على أن الموشحات فن أندلسى النشأة ظهر ونما بين رياض الأندلس ، وفى مجالس بهجتها وغنائها(٤٢) . وتمتاز الموشحة عن القصيدة بأنها أصلح للغناء ، وأطوع للتلحين لما فيها من تنوع الأوزان وتعدد القوافى .

ولأن الغناء - غالبا - مرتبط بالغزل واللهو ، مثلت معانى النسيب والغزل ، والحديث عن الخمر ، ووصف جمال الطبيعة ، الموضوعات الهامة التى عنى بها الوشاحون ، وأكثروا من القول فيها ، وإن قال بعضهم فى غيرها .

ولقد كان لفلاسفة الأندلس إسهام طيب في مجال التوشيح اضطلع به ابن زهر الذى يعد من كبار الوشاحين لأنه مكثر عددا ، متنوع فنا وموضوعا ، مبدع صوغا ومعنى(٤٣) . والموضوع الغالب على موشحاته هو الغزل ، وكثيرا مايمزجه بوصف الخمر ، كما ضرب ابن الصائغ بسهم فى هذا الفن(٤٤) .

يقول ابن زهر فى إحدى موشحاته :(٤٥)

سدلن ظلام الشعور على أوجه كالبدور
سفرن فلاح صباح
هززن قدود الرماح
ضحكن ابتسام الأقاح
كأن الذى فى النحور تخيرن منه الثغور
سلوا مقلتى ساحر
عن السحر والساحر
وعن نظر حائر
يريش سهام الفتور ويرمى خبايا الصدور
لقد همت ويحى بها
وذلت قلبى لها
أما والهوى إنها
لظبى كناس نفور تغار عليه الخدور
حرمت لذيذ الكرى
سهرت ونام الورى
ترى ليت شعرى ترى
أساعات ليلى شهور أم الليل حولى يدور

وفى أخرى يقول :

حى الوجوه الملاحا وحى كحل العيون
هل فى الهوى من جناح
وفى نـــديم وراح
رام النصوح صلاحى
وكيف أرجو صلاحا بين الهوى والمجون
يا غائبـا لا يغيـب
أنت البعيـد القريب
كم تشتهيك القـلوب
أثختهـن جـــراحا واسأل سهام الجفون

بيد أن أشهر موشحاته وأبدعها تلك التى يقول فيها :(٤٦)

أيها الساقى إليك المشتكى كم دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وسقانى الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتـكا وسقانى أربعا فى أربع
غصن بان مال من حيث استوى
بات من يهواه من خوف النوى
خافق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر فى البين بكى ماله يبكى لما لم يقع
أيها المعرض عما أصف
تعرف الذنب ولا تعترف
كبد حرى ودمع يكـف

مثل حالى حقه أن يشتكى   كمد اليأس وذل الطمع

ما لعينى   شقيت   بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
فإذا ما شئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا   وبكى بعضى على بعضى معى

قد برانى فى هواك الكمد
يالقومى عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد

قد نما حبك عندى وزكا   لايظن الحب أنى مدعى

وواضح ما اتسمت به تلك الموشحات من سهولة فى اللفظ ، ورقة فى الصياغة ، وحلاوة فى النغم ، وجمال فى الصورة . وقد استحق ابن زهر شهادة النقاد فى القديم وفى الحديث له بالتفوق والإبداع فى هذا الفن ، فقد قال ابن دحية :

« والذى انفرد به شيخنا وانقادت لتخيله طباعه ، وصارت إليه فيه حوله وأتباعه الموشحات »(٤٧) .

وقال الدكتور مصطفى الشكعة :

« فابن زهر مقتدر على التواشيح ذو سلطان عليها ، يستدعى معانيها فتجيبه ، ويدعو قوافيها فتنقاد إليه . . إن ابن زهر لا يكاد يكابد مشقة فى نظم توشيحه ، أو هكذا يبدو لنا على الأقل ، وهو شعور قلما نحسه عند غيره ، فالرجل يقول التوشيح ، وكأنه ينظم قصيدا ناعما مستريحا غير مكابد ولا متصنع ولا تعب ، بل هو يرسم ويصور ، ويجانس ويستعير . ويضرب فى آفاق الصناعة غير الثقيلة بأسهم مصيبة . وبأنصبة عديدة وفيرة . الأمر الذى يستحق من أجله أن يكون سيد الوشاحين وشيخهم . إذ ربما كان أول وشاح ينقل روح الشعر إلى جسم الموشحة . فيخفف من أثقـــال

صناعتها . ويلين من صلابة بليتها »(٤٨) . أما ابن الصائغ فمنزلته فى التوشيح دون ذلك بكثير .

ثالثاً : النثر :

يتمثل التراث النثرى لفلاسفة الأندلس فى ثلاثة آثار جليلة . تدل على ما كان يتمتع به مؤلفوها من عمق التفكير وسعة الأفق ، وتمكن من ناحية البيان وتملك لأدواته .

وأول هذه الأعمال : الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت(٤٩) .

ألف أمية بن أبى الصلت رسالته هذه فى وصف رحلته التى قام بها إلى مصر سنة خمسمائة وعشر (٥١٠ هـ) تقريبا . وقد شرح فيها قصده من هذه الرحلة . والدوافع التى حملته عليها . ثم وصف رحلته إليها حتى وصلها . ثم فصل القول فى وصف أرض مصر متحدثا عن موقعها وجغرافيتها . واصفا نيلها وأهرامها . ومحللا طباع أهلها . ومبينا حالة العلوم الطبية والفلسفية فيها . وأسلوب الرسالة أسلوب أدبى رائع استطاع ابن أبى الصلت أن يصور به دقائق أفكاره وملاحظاته . مع توشية بالمحسنات البديعية من سجع وجناس ومقابلة وازدواج ، وقد سلك سبيل التحليل والتعليل لمشاهداته . وأحيانا يقتبس أمية من القرآن الكريم . كما يضمن رسالته كثيرا من شعره ومن شعر غيره . وهذا نموذج منها(٥٠) :

يقول : «كنت إبان هصر الشباب مونق . وغصن الصبا مورق .

إذ لمتى مسودة ولماء وجهى رونق(٥١)

ممن سامحه الدهر بغفلة من غفلاته . وتجافى له عن شفوة من غفواته . فعاش آمن السرب . سائغ الشرب لا يتفرغ من أدب يرود رياضه . ويرد حياضه . إلا إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذيوله وأردانه ، ثم تلون فقلب لى ظهر مجنه . وسقانى دردى دنه . فتدارك ما أغفله واسترد ما بذله . واضطررت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقا من

مفارقة أول أرض مس جلدى ترابها . وشدت على التمائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كبار . فلما لم يمكن القرار ولم يبق إلا الفرار . قلت: ليس لى أن أرمى بنفسى كل مرمى وأطرحها كل مطرح .

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وسكنت إلى البيت المشهور :

تلق بكل بلاد إن حللت بها أهلا بأهل وأوطانا بأوطان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلدى وبلد نسب . فخير البلاد ماحملك . فجعلت أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقام . وأعونها على مقارعة الأيام . فكانت مصر ما وقع عليه اختيارى . وصدقت حسن ظنى قبل اختبارى . وسرت قاصدا إليها . أعتسف المجاهل والتنائف . وأخوض المهالك والمتالف . فطوراً أمتطى كل حالكة الإهاب(٥٢) . مسودة الجلباب ثابتة كصبغة الشباب . قد فسح ميدانها . ووضع براحة الريح عنانها . فجرت جرى الطرف الجموح . وفاتت مدى الطرف الطموح ، وطوراً كل نقب الأياطل كالهياطل(٥٢) . سبط المشافر جعد الأشعار . وليس لى غير مصر مقصد . ولا وراءها مذهب . ولا دونها للغنى متطلب .

وكم فى الأرض من بلد ولكن
عليك لشقوتى وقع اختيارى

فلما تغمرت ركابى من النيل واستذرت بظل المقطم . ألقيت عصا التسيار . واستقرت بى النوى . وخفت ظهورهن من الرحال . وأرحتهن من الحل والترحال . وقلت ضالتى المنشودة . وبغيتى المقصودة : ها هنا ألبث وأقيم . فلا أبرح ولا أريم « بلدة طيبة ورب غفور »(٥٣) وحيث التفت فروضة وغدير ، وخورنق وسدير ، وظل ظليل ، ونسيم عليل .

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدا
يسلى من الهم أو يعدى على النوب

فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا
كانت مواعيدهم كالآل فى الكذب
وكان لى سبب قد كنت أحسبنى
أحظى به فإذا دائى من السبب
فما مقلم أظفارى سوى قلمى
ولا كتائب أعدائى سوى كتبى

ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها منحوس البضاعة . موكوس الصناعة . مخصوص بالإهانة والإضاعة . . . .

وتمضى الرسالة على هذا النحو من التعبير الجميل والتصوير البديع حتى نهايتها مما يجعلها مثالا راقيا لأدب الرحلات .

العمل الثانى : طوق الحمامة فى الألفة والألاف لابن حزم :

يعد طوق الحمامة فريدا فى بابه . ويرجع تفرده إلى أنه بحث عميق فى فلسفة الحب . يعتمد على التجربة الذاتية والتحليل النفسى . فى معرفة منازع الحب ، واعراضه ، وأحواله .

ويمتاز طوق الحمامة عن زهرة أبى داود وحدائق ابن فرج(٥٤) بعمق النظرة وشمول العرض واعتماده على التجربة الذاتية . ولا ينبئك مثل خبير .

وقد تحدث ابن حزم فى كتابه عن أسباب الحب وأعراضه . ومنغصاته ومسعداته . وعن أحوال المحبين وما يعرض لهم . محللا ومعللا . وقاصا من الحكايات التى جربها بنفسه . أو شاهد أحداثها . أو سمع أخبارها ما يؤكد حديثه .

والكتاب صورة صادقة لشخصية ابن حزم التى اتصفت بالشجاعة والصراحة ، ورقة الطبع ورفعة الذوق .

كما يتضمن الكتاب تصويرا لجوانب هامة من الحياة الأندلسية خبرها

المؤلف من نشأته فى القصور واطلاعه على أطراف من أسرار الحياة فيما يتعلق بدنيا الحب والمحبين .

وفى طوق الحمامة كثير من الأخبار المتعلقة بحياة ابن حزم وأطوار حياته من عز وسيادة وترف إلى سجن وتشريد . وفيه كذلك الكثير من أشعاره التى دعم بها آراءه وحكاياته .

ويحتوى الكتاب على ثلاثين بابا ملأها ابن حزم بفلسفته وتجاربه وحكايات الحب التى عايشها أو سمع بها .

ومن أبواب الكتاب : (باب علامات الحب - باب المراسلة - باب السفير - باب الصديق المساعد - باب الوصل - باب طى السر - باب العاذل - باب الرقيب - باب الواشى) وآخر بابين جعلهما ابن حزم فى الكلام على قبح المعصية وفضل التعفف . ليكون آخر كلامه الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما أسلوب طوق الحمامة . فهو الأسلوب المسترسل . المتخفف من الزينة . القاصد إلى أداء المعنى فى غير تأنق ولا تكلف ، مع رشاقة التعبير وجمال التصوير .

وهذه نماذج من الكتاب(٥٥) :

يقول عن حلاوة الوصال :

« ولقد جربت اللذات على تصرفها . وأدركت الحظوظ على اختلافها . فما للدنو من السلطان . ولا المال المستفاد . ولا الوجود بعد العدم . ولا الأوبة بعد طول الغيبة . ولا الأمن بعد الخوف من الموقع فى النفس ما للوصل لا سيما بعد الامتناع . وطول الهجر . حتى يتأجج عليه الجوى . ويتوقد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء ، وما ازدهار النبات بعد غب القطر . ولا إشراق الأزاهير بعد اقلاع السحاب . ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تألق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر .

بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه . وحمدت غرائزه . وتقابلت في الحسن أوصافه » .

وعن تجربة ذاتية له يقول :

« إني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس . أو على الحسن نفسه . وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبي من ذلك الوقت . ولا تواتيني نفسي على سواه . ولا تحب غيره ألبتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه » .

وفى وصف المحنة التى نزلت به وبقومه على يد المنصور بن أبى عامر الذى أراد القضاء على الأمويين ومن كانوا يوالونهم يقول :

« إننا امتحنا بالاعتقال والتغريب . والإغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة وألقت باعها . وعمت الناس وخصتنا . وأجلينا عن منازلنا . وتقلبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة . وسكنى مدينة المرية واعتقلنا أشهرا . . . »

ولقيمة طوق الحمامة الأدبية والتاريخية طبع عدة طبعات وترجم إلى عدة لغات . وعده الدارسون العمل الأدبى الأول الذى يدخل به ابن حزم مع الناثرين والشعراء المجيدين من أوسع الأبواب(٥٦) .

العمل الثالث : حى بن يقظان لابن طفيل :

حى بن يقظان قصة فلسفية أدبية رائدة عبر ابن طفيل من خلالها عن فلسفته التى اعتنقها بأسلوب أدبى يصطنع الخيال والتصوير والقص . فحى ابن يقظان بطل القصة رمز للانسان الذكى الطموح الذى يمكن أن يهتدى إلى حقيقة الإيمان بالله بواسطة التفكر العقلى ، والتدرج فى العلم . دون حاجة إلى عون من أحد(٥٧) .

والفكرة التى تنبنى عليها القصة هى (التقاء الفلسفة والدين . أو اتفاق العقل والوحى . وعدم تعارض الشريعة والحقيقة) . وقد أتقن المؤلف

عرض فكرته الفلسفية بطريقة غير مباشرة بواسطة عناصر القصة من حبكة وأحداث أجاد تخيلها وعرضها . فالقصة تقول : إن حى بن يقظان ولد من غير أبوين فى جزيرة نائية مقفرة — وهنا يناقش المؤلف نظرية تقول بإمكان التولد الذاتى عن طريق تخمر الطين فى درجة حرارة معتدلة — ويمكن أن يكون فى ذلك إيماء إلى بداية الخلق — خلق الإنسان من طين — وفى رواية أخرى أن الطفل حى بن يقظان ولد لأم وأب وأن أمه خافت عليه من أخيها الملك الذى تزوجت من غير علمه بقريبها (يقظان) فوضعت وليدها فى تابوت . وألقت به فى اليم فحمله الموج إلى جزيرة نائية . وهناك عثرت عليه ظبية فقدت وليدها . فأشفقت عليه . وتعهدته بالرعاية . وأخذت ترضعه وتربيه . حتى نشأ على سجايا الظباء . يقلد حركاتها وأصواتها . لكنه أخذ يفكر بعقله فيما حوله . حتى أدرك الفرق بينه وبين أجناس الحيوان التى يخالطها ، ووجد أنه عار وهى مكسوة بالشعر ، فاهتدى إلى طريقة يستر بها جسمه وعورته . وظل ملازما للظبية حتى كبرت . وأخذ يرعاها ، وبعد أن ماتت أمه الظبية حزن عليها حزنا شديدا ، وحاول أن يعرف سبب موتها ، وظن أن المرض الذى ماتت بسببه كان كامنا فى صدرها ، فعزم على شق صدرها بحجر حاد . وعندما فعل ذلك اكتشف القلب وعرف أنه مركز الحياة ، واستنتج أن هناك شيئا خفيا فارق الجسد ، وبعد فترة تعفن جسد الظبية ، فتعلم حى من الغربان كيف يوارى جسدها التراب .

وحدث أن شب حريق بفعل إحدى الظواهر الطبيعية فى مكان من الجزيرة فاكتشف حى النار وأخذ منها قبسا أخذ يراقبه ويذكيه حتى يظل دائم الاشتعال ، وعرف خواص النار . وانتبه إلى الحرارة التى يحس بها فى الأجسام الحية . فعاود عمليات التشريح فى الحيوانات . وتظل خبراته تنمو . ومعارفه تتطور . فيصنع الإبر . ويغزل لنفسه ثيابا . ويهتدى إلى البناء ويروض الطيور الجارحة ويستخدمها فى الصيد .

وما زال حى يتطور ويرتقى فى المعارف ، حتى يدرس أعضاء الحيوان ووظائفها ، وينشغل بسر الحياة الذى اكتشف أنه فارق أمه الظبية فكان سبب موتها .

وتسوقه تجاربه إلى الاعتقاد بأن كل موجود له علة فاعلة ، فأخذ يبحث عن هذه العلة فيما حوله ، فى الأرض وفى الأجرام السماوية ، لكنه وجد كل ماحوله عرضة للتحول والفساد .

وأخذ يحث حى عن علة الوجود يتدرج حتى اهتدى إلى معرفة الله ـ عز وجل ـ فآمن به وأحبه وأخلص له ، وفاضت عليه المعارف بعد أن أشرقت نفسه بنور الإيمان .

ثم وفد على الجزيرة رجل اسمه (أبسال) وهو رجل متدين تلقى دينه من طريق العلم الذى بلغه الأنبياء إلى الناس . والتقى أبسال بحى واطلع كل منهما على ماعند الآخر من حقائق الإيمان ، فلم يجدا خلافا بينهما ، واتفقا على العمل معا من أجل هداية الضالين الذين تشوب عقائدهم أوهام وخيالات ، ويذهب حى مع أبسال ليدعو الناس إلى طريقه ، لكنه يفشل فى إقناعهم ، ويرجع هو وأبسال إلى الجزيرة المقفرة النائية ليعبدا الله بالمنهج الذى آمنا به .

ولنقف على أسلوب ابن طفيل فى قصته نقدم منها هذه الفقرة :

يصور رعاية الظبية للطفل حى بقوله :

« ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه ، واشتداد جوعه ، فليته ظبية فقدت طلاها ... أن الظبية التى تكفلت به وافقت خصبا ومرعى أثيثا فكثر لحمها ، ودر لبنها ، حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام ، وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعى ، وألف الطفل تلك الظبية ، حتى كان بحيث إذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه ، فطارت إليه ، ولم يكن بتلك الجزيرة شىء من السباع العادية ، فتربى الطفل ونما واغتذى

بلبن تلك الظبية ، إلى أن تم له حولان ؛ وتدرج فى المشى . فكان يتبع تلك الظبية ، وكانت هى ترفق به وترحمه ، وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر ، فكانت تطعمه ماتساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة ، وما كان منها صلب القشر كسرته بطواحينها ، ومتى عاد إلى اللبن أروته ، ومتى ظمىء إلى الماء أوردته ، ومتى ضحى ظللته ، ومتى حصر أدفأته ، وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول ، وجللته بنفسها وبريش كان هناك مما ملىء به التابوت أولا فى وقت وضع الطفل فيه ... »(٥٨) .

وأثر الثقافة الفلسفية والموروث الدينى واضح فى القصة فالمقدمات والنتائج والتأمل العقلى ، والبحث عن العلة الفاعلة ... والتولد الذاتى من الطين . إلخ . فلسفة ، ووضع الأم طفلها فى تابوت وألقاؤها إياه فى اليم بعد أن خافت عليه ، وتعلم الطفل كيف يوارى جسد أمه الظبية التراب بعد أن رأى الغربان تفعل ذلك - كل ذلك مصدره القصص القرآنى .

أما عنوان القصة فقد أخذه ابن طفيل عن ابن سينا الذى ألف قصة فلسفية رمزية بعنوان حى بن يقظان ، كما جاء السهروردى بعد ابن طفيل وكتب قصة ثالثة بالعنوان نفسه ، لكن قصة ابن طفيل هى أكثر القصص الثلاث برءاً من غموض الفلسفة وجفافها وبعداً عن تهويمات التصوف وشطحاته ، وهى أوضحها عبارة وأجملها تصويرا ، فهى لذلك أدخل الثلاث فى باب الأدب ويعدها كثير من النقاد خير قصة فى القرون الوسطى جميعا(٥٩) .

إن قصة ابن طفيل ثمرة ناضجة لموهبة نادرة منح الله صاحبها قلب مؤمن وعقل فيلسوف وخيال أديب والله يختص بفضله من يشاء .

أثر الفلسفة فى ذلك الأدب

أدى اجتماع النزعة الفلسفية والسليقة الأدبية لدى بعض الأدباء الفلاسفة إلى تفلسف كثير من الأدباء فى شتى العصور والبيئات ، وإلى إسهام كبار الفلاسفة بجهود مرموقة فى مجال الأدب .

وكان الأستاذ العقاد — رحمه الله — يؤكد الصلة بين الفلسفة والأدب ، ومن كلامه فى ذلك :

« لابد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفة ، ولكنه أقل من نصيب الشاعر ، ولابد للشاعر الحق من نصيب من الفكر ولكنه أقل من نصيب الفيلسوف » (٦٠) .

ومن الطبيعى أن يؤثر التمازج بين النزعة الفلسفية والسليقة الأدبية فى إبداع الفلاسفة الذين وهبتهم السماء قوة الملاحظة وعمق التفكير مع القدرة على التخيل والبيان والتصوير .

وتبدو آثار هذا التمازج فى التراث الأدبى الذى خلفه فلاسفة الأندلس متمثلة فيما يلى :

١ — التأثر بالرؤية الفلسفية :

لم يحجب الحس الأدبى والتصوير الفنى الرؤية الفلسفية للفلاسفة الأدباء فى تناولهم للمعانى والموضوعات ، فقد عرضوا فكرة الحب ومايتعلق به من الغزل فى صورة أدبية تتسم بالعمق والتعقل والتسامح وأشاروا إلى الصراع بين العقل والعاطفة وحاولوا البرهنة على أباحه الحب مالم يؤد إلى اقتراف الآثام ، كما استبطنوا النوازع والدوافع التى تسببه ، وتطرقوا إلى أسباب فشله ومنغصاته .

وذلك كله واضح فيما تركه ابن طفيل وابن رشد وابن حزم من آثار شعرية ونثرية .

وعندما تأملوا حقيقة الموت تساءلوا عن العلاقة بين الروح والبدن وعن مصير كل منهما بعد انقضاء الحياة ، وتلك مسألة دار حولها الجدل فى بيئات الفلسفة ، فهذا ابن طفيل يذهب إلى أن الروح قبس من نور الله سكن الجسد إلى أجل . وعند الموت تصعد الروح إلى محلها الأعلى بينما يتحلل الجسد إلى مادته الأولى وهى الطين . وذلك فى قوله :

ن نؤن تردد فى طين إلى أجل

فانحاز علوا وخلى الطين للكفن

ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا

وأظنها هـدنة كانت على دخن

إن لم يكن فى رضا الله اجتماعهما

فيالهـا صفقة تمت على غبن

وهذا قريب من رأى ابن سينا فيلسوف المشرق الذى ضمنه قصيدته فى (النفس) إذ يقول :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

. . . .

وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع

وأثر الفكر الدينى واضح فى تصوير سعيد بن عبد ربه سرعة انقضاء الأجل وحتمية الموت فى قوله :

وإنى وإن بقيت أورغت هاربا

من الموت فى الآفاق فالموت لاحق

فهو ناظر إلى الآية القرآنية الكريمة :

(قل أن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) سورة الجمعة آية ٨ .

والتأمل فى قدر الموت يرتبط فى كثير من الأحيان بملاحظة الزمن وأثره والالتفات إلى مايحدثه الشيب من تغيير وضعف .

وقد صور ابن زهر شيئا من ذلك فى أبيات شكا فيها أثر المشيب ، ومع أن ابن زهر كان طبيبا ينظر فى حيل العلاج وأسباب الشفاء فإنه أعلن عجز الحيل الطبية إذا حم القضاء حتى لوكانت هذه الحيل مأخوذة من جالينوس الطبيب اليونانى الاشهر صاحب كتاب (حيلة البرء) يقول ابن زهر :

حيله البرء صنفت لعليل يترجى الحيـاة أو لعليله

فإذا جاءت المنية قالت حيلة البرء ليس في البرء حيلة .

كما يظهر الأثر الفلسفي في التناول الأدبي بصورة مباشرة في وصف أمية ابن أبي الصلت للاصطرلاب ، وفي إشادة سعيد بن عبد ربه بسقراط وجالينوس ووصفه كتبهما بأنها شفاء لكل جرح وعلمهما بأنه حياة للأجسام والنفوس . ويظهر الأثر الفلسفي بوضوح كذلك في قصة حي بن يقظان لابن طفيل حيث صار الأديب وعاء للفكر الفلسفي وتقديم مسائله ونظرياته في إطار من الأسلوب القصصي والتصوير الفني .

فقضية التوافق بين الدين والفلسفة ، والوحي والعقل والشريعة والحقيقة ومسألة الترقي في المعارف تدرجا ؛ ومعرفة الحقائق بالتجريب والاهتداء إلى سر الحياة في الإنسان ، واكتشاف التحول والفساد اللذين تتعرض لهما الكائنات ، والبحث عن علة الوجود ، وفيضان المعارف بالكشف عندما يتوصل الإنسان إلى معرفة الله ، كل ذلك وغيره عرضه ابن طفيل في مزج موفق بين الأدب والفلسفة دون أن تذهب الفلسفة بجمال الأدب ، ودون أن يخفي الأدب رؤية الفيلسوف .

٢ — التأثر بأساليب الجدل :

تبدو في أساليب الفلاسفة الأدباء سمات أسلوبية ترجع إلى علمهم بالفلسفة واشتغالهم بالجدل والبحث العقلي . ولئن كان النثر أقوى على استيعاب هذه السمات فإن شعر الفلاسفة لم يخل منها . ومن شواهد ذلك التعليل المنطقي في قول ابن حزم ردا على من عاب ذات الشعر الأشقر :

وهل عاب لون النرجس الغض عائب
ولون النجوم الزاهرت على البعد

والاستدلال الشرعي على عدم تحريم الحب في قوله :

متى جاء تحريم الهوى عن محمد . وهل منعه في محكم الذكر ثابت

والتعليل المنطقي فى قول ابن طفيل :

لايتعـــدى امرؤ جبلته قد قسمت فى الطبيعة الرتب

والتقسيم العقلى فى قول أمية ابن أبى الصلت :

فأى ود لم يخن وأى عهد ما نكث

وفى قوله :

ففعالها من مقلتيه ولونهـــا من وجنتيه وطعمها من ريقه

وقوله :

فإن أك مجزيا بذنبى فإننى بشر عقـاب المذنبين جدير

وأن يك عفو ثم عنى ورحمة فثم نعيم دائم وسرور

وكما فى قول ابن ظفيل :

قوم لهم فـكر يجول بهم بين المعانى أولئك النجب

وفرقة فى القشور قد وقفوا وليس يدرون لب ماطلبوا

ومن هذه السمات كذلك اصطناع الحوار الجدلى كما فى قول ابن حزم :

يقولون جانبت التصون جملة وأنت عليم بالشريعة قانت

فقلت لهم هذا الرياء بعينـه صراحا وزى للمرائين ماقت

ومثله قول ابن االصائغ :

يقول عداه كيف وفى يديه سعـير ترتمى فيها بحـور

قلنا نحن كيف وراحتاه بحور يلتظى فيها سعير

فطريقة :(يقولون فقلت ، ويقول عداه وقلنا)جاءت إلى شعر الفلاسفة من بيئتهم التى يكثر فيها الحجاج وذكر أقوال الخصوم والرد عليها .

٣ — التأثر بالمعجم الفلسفى :

استخدم فلاسفة الأندلس فى إبداعهم الأدبى كثيرا من الألفاظ ذات العلاقة الوثيقة بقضايا الفلسفة وبحوثها مثل :

(النفس ـ البدن ـ الروح ـ العقل ـ النور ـ الدهر ـ الموت ـ الفكر ـ الطبيعة ـ الشريعة ـ اللب ـ القشور ـ الملكوت ـ الحقائق ـ البقاء ـ الفناء ـ بقراط ـ جالينوس) .

وهذه الألفاظ ـ وأن كانت من المعجم الفلسفى ـ فقد وظفها الفلاسفة الأندلسيون فى الأدب توظيفا ناجحا ، فلم تصب أدبهم بآفة الغموض أو الجفاف وخير مثال لذلك هذه الأبيات لابن حزم(٦١) :

أمن عالم الأملاك أنت أم انسى
أبن لى فقد أزرى بتمييزى العى

أرى هيئـــة إنسيـة غير أنه
إذا أعمل التفكير فالجرم علوى

تبارك من سوى مذاهب خلقه
على أنك النور الأنيـق الطبيعى

ولاشك عندى أنك الروح ساقـه
إلينـا مثـال فى النفـوس اتصالى

عـدمنا دليـلا فى حدوثك شاهدا
نقيس عليه غـــير أنك مرئى

ولولا وقوع العين فى الكون لم نقل
سوى أنك العقـل الرفيـع الحقيقى

بقى أن نقرر أن الموشحات ـ والتى انفرد بالإبداع فيها ابن زهر ـ لا تحمل أى أثر فلسفى ، وذلك راجع إلى أن الموشحات فن شعبى نشأ فى أوساط العامة مجاراة لازدهار فن الموسيقى والغناء فى البيئة الأندلسية فهى غير صالحة لحمل أفكار الفلسفة ، والتفلسف فيها غير مرغـــوب لارتباطها بأذواق العامة من جهة ،ولوظيفتها التى لها نشأت من جهة أخرى ، وتفوق ابن زهر فى فن التوشيح يدل ـ فيما أرى ـ على غلبة السليقة الشعرية

هذه على النزعة الفلسفية ، وقد دخل ابن زهر عالم الفلسفة من باب الطب وقيمته الفلسفية لا ترقى إلى قيمة ابن طفيل وابن رشد وابن الصائغ وأمثالهم .

ملامح الأصالة :

بعد هذا العرض للتراث الأدبي الذي أبدعه فلاسفة الأندلس والوقوف على أثر التمازج بين النزعة الفلسفية والسليقة الأدبية فيه ، نشير إلى ملامح الأصالة والتميز في ذلك الأدب وتتلخص هذه الملامح في مايلي :

أولا : الكثرة والتنوع :

إن الكم الذي حفظته لنا مصادر الأدب والتاريخ من أدب الفلاسفة شعرا ، وموشحات ، ونثرا ، ليس بالقدر القليل ، مع الأخذ في الحسبان أن ماروى وما وصل إلينا ليس هو بالضرورة كل ما أبدعه فلاسفة الأندلس فمن المؤكد أن هناك نصوصا لم تصلنا بدليل أن المصادر تشير إلى ديوان لأمية بن أبي الصلت ، وديوان لابن حزم ، وكلا الديوانين ليس تحت أيدينا الآن ، كما أن النصوص التي وردت في هذا البحث ليست بالطبع كل ماروى في مصادر الأدب والتاريخ والتراجم ، وقد ظهر لنا أن إبداع فلاسفة الأندلس لم يقتصر على فن واحد من فنون الأدب ؛ فقد شمل الشعر والموشحات ، وألوانا من النثر ، وهم في كل هذه المجالات يصدرون عن أنفسهم ويصورون بيئتهم وأحداث حياتهم ويعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم .

ثانيا : الابتكار والجودة :

الابتكار والإضافة من علامات التميز بين الأفراد والأجيال والجماعات ، وقد تميز فلاسفة الأندلس الأدباء عن نظرائهم في المشرق بما ابتكروه وبرزوا فيه من فنون التوشيح والنثر فموشحات ابن زهر وابن الصائغ والآثار النثرية لأمية بن أبي الصلت وابن طفيل تشهد للأندلسيين بالتميز .

وعلى الرغم مما يلاحظ على أدبهم من ميل إلى التحليل والتعليل واستخدام عبارات المناطقة والفقهاء والعلماء — أحيانا — فأن أدبهم فى عمومه جيد ، تسلم معانيه من الغموض والتفاهة ، وتبرأ صياغته من ضعف التأليف والركاكة ، وتدفعه عواطف صحيحة صادقة ، ويحمل صورا جميلة رائقة .

وأدب بهذه السمات من كثرة وتنوع وابتكار وجودة لا يصدر إلا عن شخصية أصيلة متميزة تبوىء فلاسفة الأندلس منزلة رفيعة بين الأدباء .

هذا وبالله التوفيق ....

الحـــواشى

(١) راجع شعر فلاسفة المشرق فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .
د. حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام

(٢) يفهم هذا من منهج القفطى فى تاريخ الحكماء ، وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء . وفى مقدمة ابن خلدون ص ٤٠١ مايدل على شمول الفلسفة لهذه العلوم .

(٣) راجع تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام د . محمد على أبو ريان ص ٤٣٥ .

(٤) هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت طبيب وفيلسوف وأديب له مصنفات فى الفلك والطب والأدب منها رسالة العمل بالاصطرلاب . والوجيز فى علم الهيئة . والأدوية المفردة . وله كتاب فى المنطق سماه تقويم الذهن . وصنف كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر . وكان له ديوان شعر توفى سنة ٥٢٩هـ . أنظر تاريخ الحكماء للقفطى ص ٨٠ وعيون الأنباء ج ١ ص ٥٠ والمغرب ج ١ ص ٢٥٦ والوفيات ج ١ ص ٢٢٠ .

(٥) الوفيات ج ١ ص ٢٢٠ .

(٦) الوفيات ج ١ ص ٢٢٠ وعيون الأنباء ص ٥٠٨ .

(٧) الوفيات ج ١ ص ٢٢٠ وعيون الأنباء ص ٥٠٨ .

(٨) هو أبو بكر محمد بن باجه التجيبى . السرقسطى . المعروف بابن الصائغ . من أكبر فلاسفة الأندلس وأشهرهم . وهو شاعر مكثر ومجيد . اتهم بالإلحاد . وتوفى سنة ٥٣٣ فى مدينة فاس . أنظر عيون الأنباء

جـ ٥ ص ٥١ والمغرب جـ ٢ ص ١١٩ - والإحاطة ص ٤١٦ ونفح الطيب جـ ٤ ص ٥٦ .

(٩) الوفيات جـ ٤ ص ٥٦ .

(١٠) نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠١ .

(١١) هو أبو بكر محمد بن طفيل كان من أعظم فلاسفة الأندلس ورياضييها وأطبائها . له تصانيف فى الإلهيات والطبيعيات والنفس . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة . توفى سنة ٥٧١هـ . أنظر المعجب ص ٢٣٩ . والمغرب جـ ٢ ص ٨٥ - والإحاطة جـ ١ هامش ١٩٣ .

(١٢) المعجب ص ٢٣٩ .

(١٣) هو أبو الوليد ابن رشد الفيلسوف والطبيب والعالم . نشأ فى أسرة علم فتعلم علوم الشريعة ثم درس الطب والفلسفة على ابن باجه . وقدمه ابن طفيل إلى الأمير يوسف الموحدى الذى شجعه على شرح كتب أرسطو ، من مصنفاته فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، تهافت التهافت توفى سنة ٥٩٥هـ .

(١٤) المغرب جـ ١ ص ١٠٤ . وعشرية أى بنت عشرين . (عيون الأنباء ص ٥٣٠) .

(١٥) الشعر والشعراء ص ١٥ .

(١٦) و (١٧) ابن حزم هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم نشأ فى بيت علم وعز واستقدم له المعلمون فى البيت ثم خرج إلى طلب العلم ، فتبحر فى علوم الشريعة والأصول ودرس الفلسفة ، كان مواليا للأمويين فلما ذهب سلطانهم سجن وشرد ، وهو أمام المذهب الظاهرى له مؤلفات كثيرة أشهرها : المحلى . والفصل فى الملل والنحل ، وطوق الحمامة . توفى سنة ٤٥٦هـ أنظر الأدب الأندلسى د. أحمد هيكل ص ٣٥١ - ٣٩٥ وراجع فى تراثه وما كتب عنه ابن حزم خلال ألف عام لمحمد بن عقيل الظاهرى .

(١٨) أنظر ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٥٥ .

(١٩) الأدب الأندلسى د . هيكل ص ٣٩٩ .

(٢٠) وردت أشعار فى التغزل بالغلمان لأمية بن أبى الصلت وابن الصائغ . أنظر عيون الأنباء ص ٥١٢ ونفح الطيب ج ٤ ص ٢٠١ .

(٢١) أنظر المطرب ص ٢٠٧ ، وابن زهر هو أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء المعروف بابن زهر الحفيد ، كان من أهل بيت كلهم علماء ، وحكماء ووزراء ، وهو فيلسوف وطبيب مشهور ، وله أشعار وموشحات جيدة . توفى سنة ٥٩٦ هـ عيون الأنباء ص ٥٢١ .

(٢٢) المعجب ص ٢٤٢ .

(٢٣) تاريخ الحكماء ص ٨١ .

(٢٤) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠١ .

(٢٥) المغرب ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢٦) أنظر شعر فلاسفه المشرق ص ١٥٨ .

(٢٧) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢٨) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠١ .

(٢٩) الوفيات ج ٤ ص ٦١ .

(٣٠) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٣١) الوفيات ج ٤ ص ٦١ .

(٣٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠١ .

(٣٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٣ . والمغرب ج ٢ ص ١١٩ .

(٣٤) المعجب ص ٢٤١ .

(٣٥) المعجب ص ٢٤١ .

(٣٦) هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن محمد بن عبد ربه ؛ كان طبيباً وشاعراً ، وذا دراية بمذاهب القدماء ؛ ومعرفة بحركة الكواكب . توفى

سنة ٣٤٢ هـ أنظر ترجمته فى طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ١٠٤ ؛ وعيون الأنباء ص ٤٨٩ .

(٣٧) طبقات الأطباء ص ١٠٥ ويتيمة الدهر المجلد الثانى ص ٦٤ وعيون الأنباء ص ٤٩٠ .

(٣٨) طبقات الأطباء ص ١٠٥ .

(٣٩) عيون الأنباء ص ٥٠٣ .

(٤٠) الوفيات ج ٤ ص ٥٦ .

(٤١) الوفيات ج ٤ ص ٦١ .

(٤٢) ذهب إلى ذلك أحمد أمين فى ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٩١ ود . أحمد هيكل - الأدب الأندلسى ص ١٤٤ ود . شوقى ضيف الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٥٠ ؛ ود . جودت الركابى فى الأدب الأندلسى ص ٢٨٦ ؛ ود . عبد العزيز عتيق الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٣٩ ود . عبد العزيز العواد . الشعر الأندلسى فى ظلال الخلافة الأموية ص ٢٨٥ أما الدكتور مصطفى الشكعة فيذهب إلى أن الموشحات مشرقية النشأة - الأدب الأندلسى - موضوعاته وفنونه ص ٣٩٩ .

(٤٣) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ٤١٧ .

(٤٤) أنظر موشحة له فى ص ٣١٩ فى الأدب الأندلسى د. جودت الركابى .

(٤٥) المطرب ص ٢٠٤ وعيون الأنباء ص ٥٢٧ .

(٤٦) المطرب ص ٢٠٥ وعيون الأنباء ص ٥٢٦ .

(٤٧) المطرب ص ٢٠٧ وأنظر الوفيات ج ٤ ص ٦١ .

(٤٨) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ٤١٩ .

(٤٩) راجع نوادر المخطوطات تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ج ١

(٥٠) الرسالة المصرية ص ١١ .

(٥١) قال المحقق : اقتبسه من قول أبي الطيب وتصرف فيه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولماء وجهى رونق

(٥٢) حالكة الاهاب .. إلخ . السفينة ؛ ونقب الأباطل : الفرس

(٥٣) من الآية (١٥) سورة سبأ .

(٥٤) ألف أبو داود الأصبهانى كتاب الزهرة فى موضوع الحب ؛ وعارضه ابن فرج الأندلسى وزاد عليه فى كتابه الحدائق ؛ لكن طوق الحمامة أوفى منهما وأشمل ، كما كتب الإمام ابن قيم الجوزية فى الحب بمنهج مختلف كتابه روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

(٥٥) أنظر هذه النماذج وحديثا عن الكتاب فى ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢١٢

(٥٦) الأدب الأندلسى د . أحمد هيكل ص ٣٩٨ .

(٥٧) أنظر عرضا وافيا للقصة فى الأدب الأندلسى د . مصطفى الشكعة ص ٦٨٥ .

(٥٨) السابق ص ٦٨٩ .

(٥٩) النقد الأدبى الحديث ص ٤٩٧ .

(٦٠) أنظر ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٥٦ ، وشعر فلاسفة المشرق ص ١٦٢

المصادر والمراجع

١ - ابن حزم خلال ألف عام لأبي عبد الرحمن حمد بن عقيل الظاهرى - بيروت ١٩٠٢هـ .

٢ - الإحاطة فى أخبار غرناطة - للسان الدين ابن الخطيب تحقيق محمد عبد الله عنان دار المعارف القاهرة بدون تاريخ .

٣ - الأدب الأندلسى .د. أحمد هيكل - المعارف ١٩٧٨ .

٤ - الأدب الأندلسى ،موضوعاته وفنونه د. مصطفى الشكعة دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥

٥ - الأدب العربى فى الأندلس د.عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٦

٦ - تاريخ حكماء الإسلام للقفطى-مكتبة المثنى ببغداد،والخانجى بمصر ،

٧ - تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام د .محمد على أبو ريان دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٦

٨ - الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت(ضمن نوادر المخطوطات) ج ١: تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون - مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى - بالقاهرة ١٩٧٢

٩ - الشعر الأندلسى فى ظلال الخلافة الأموية د. عبد العزيز العواد- مطابع بحر العلوم ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٠ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - ليدن ١٩٠٢

١١ - شعر فلاسفة المشرق فى القرنين الخامس والسادس الهجريين د . حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام - القاهرة ١٩٩١

١٢ ـ طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة .

١٣ ـ ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت سنه ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م

١٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ لابن أبي أضيبعة شرح وتحقيق الدكتور فؤاد رضا ـ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥

١٥ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ١٩٦٩

١٦ ـ في الأدب الأندلسي ـ د. جودت الركابي ـ دار المعارف ١٩٧٥

١٧ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية . تحقيق إبراهيم الأبياري، ود. حامد عبد المجيد ود. أحمد بدوي ـ الأميرية مصر ١٩٥٤ .

١٨ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ عبد الواحد المراكشي تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي ـ الاستقامة بالقاهرة .

١٩ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف دار المعارف ـ بالقاهرة ١٩٥٣

٢٠ ـ المقدمة لابن خلدون ـ المطبعة الأزهرية بالقاهرة .

٢١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ لأحمد المقري المطبعة الأزهرية ١٩٠٢ هـ

٢٢ ـ النقد الأدبي الحديث ـ د. محمد غنيمي هلال ـ دار النهضة .

٢٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

٢٤ ـ يتيمة الدهر للثعالبي ـ تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧٢ م

القسم الثاني

قسم اللغويات :

١ - مسائل نحوية مطردة فى القرآن الكريم
جمعاً ودراسة

د / بسيونى سعد لبن

٢ - اسماء الأفعال فى القرآن الكريم

د / أحمد نجيب عبد الوهاب

٣ - (كى) فى اللغة
والقرآن الكريم

د/ محمد أحمد عبد الوهاب المليجى



من المسائل النحوية المطردة في القرآن الكريم

للدكتور
بسيونى سعد اليمن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

أما بعد . . .

فإن القرآن الكريم - بلا شك - مجال خصب للدراسات اللغوية والنحوية والصرفية ، ومن الأشياء التى استرعت انتباهى ، أنى وجدت فى أثناء اطلاعى على بعض كتب المعانى والتفاسير التى تعنى بالإعراب أنهم يذكرون مثلا أن هذه مسألة قد سار عليها القرآن من أوله إلى آخره ، وربما أقرأ - بعد - فى كتاب آخر من ينقض هذا الاطراد مستدلا عليه بآى من القرآن الكريم - أيضا - فعزمت على جمع ما يتيسر لى من هذه المسائل التى سارت على نسق واحد فى القرآن الكريم مع ذكر ما قاله النحاة فيها ، وتحقيقها ، والحق أنها كثيرة ، منها :

١ — أنه لم يقع نداء فى القرآن بغير (يا) ، وقد خالف بعضهم ، فذكر أن النداء وقع فيه بالهمزة ـ أيضا ـ مستدلا بقراءة من قرأ : (أمن هو قانت) ـ بتخفيف الميم ـ فبينت مع التوجيه أن الهمزة فى هذه القراءة ليست للنداء ، وإنما هى للاستفهام ، وعليه فالنداء فى القرآن لم يقع إلا بـ (يا) .

٢ — إذا اقترنت (إن) الشرطية بـ (ما) الزائدة جاء الفعل بعدها مؤكدا بالنون ، نحو قوله ـ تعالى ـ (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) ـ (فإما ترين من البشر أحدا) ، وقد سار القرآن كله على ذلك ، أما فى لغة العرب فقد جاء فيها الفعل غير مؤكد بالنون بعد (إما) ، قال الشاعر :

ياصاح إما تجدنى غير ذى جدة فما التخلى عن الخلان من شيمى

وغير ذلك كثير ، ومجىء الفعل بعد إما غير مؤكد بالنون قبيح ، ولذلك لم يرد فى القرآن الكريم مطلقا .

٣ — إن صلة الموصول من مادة الصبر لم تقع فى القرآن إلا فعلا ماضيا وقد ذكرت كلام العلماء فى أسباب ذلك ، ثم جمعت الآيات التى وقعت صلة للموصول فى القرآن الكريم من هـــذه المادة اللغوية ، وهى إحدى عشرة آية .

٤ — (لدن) من الظروف الملازمة للإضافة فى كلام العرب ، ولم تأت فى كلام الله ـ عز وجل ـ إلا مجرورة بـ (من) ، بخلاف لغة العرب ، فإنها قد أتت فيها غير مجرورة مطلقا ، فضلا عن أن يكون الجر بـ (من) أو غيرها .

٥ — كلمة سنين لم ترد فى القرآن إلا منصوبة أو مجرورة ، فلم تأت فيه مرفوعة ، ولقد قمت بجمع كلام العلماء فى ذلك وتحقيقه وبينت أنها جاءت فيه مجرورة بالإضافة فى ستة مواضع ، ومنصوبة فى أربعة ، وفى موضع واحد تحتمل النصب والجر .

٦ — (عسى) معناها الرجاء والخوف فى لغة العرب أما فى القرآن فقد

جاءت بمعنى التحقيق واليقين إلا فى آية واحدة فقد أتت بمعنى التخويف ، وهى قوله ـ تعالى ـ (عسى ربه إن طلقكن) ، وإنما لم تأت على أصلها فى القرآن لأن الرجاء والخوف يستحيلان فى حقه ـ سبحانه تعالى ـ وقد حاول بعض العلماء أن يثبت أنها قد أتت بمعنى اليقين فى كلام العرب ، وقد ذكرت الرد على ذلك ، وعللته ، فمجيئها لليقين لم يتأت إلا فى القرآن ، وقد أطرد ذلك فيه إلا ما ذكرت من آية التحريم .

٧ ـ خبر (عسى) فى القرآن لم يأت إلا مقرونا بـ (أن) ، وهو فى لغة العرب غالب . والتجرد قليل ، وقد قمت بذكر آراء العلماء فى ذلك ، ثم حققته .

ومما استرعى نظرى أن السيوطى قد ذكر فى معترك الأقران أن (هكذا) لم ترد فى القرآن إلا للإشارة ، فمعنى (أهكذا عرشك) أهذا عرشك ؟ وقد أطلعت على ما قاله العلماء فى هذه الآية فلم أجد أنهم قالوا ذلك ، وإنما ذكروا أن المعنى : أمثل هذا عرشك ، وعليه تكون الكاف بمعنى مثل ، و (ذا) هو اسم الإشارة وحده ، وإنما قال ـ سبحانه وتعالى ـ (أهكذا عرشك) ، ولم يقل : أهذا عرشك ، حتى لا يكون ذلك تلقينا لبلقيس بالجواب ، لذا لم يثبت لى ما قاله السيوطى ، وعليه فلم أذكر هذه المسألة ، ومن هذا النوع ـ أيضا ـ أنهم ذكروا عن الخليل أنه قال : إن (لولا) فى القرآن الكريم من أوله إلى آخره بمعنى (هلا) إلا قوله ـ تعالى ـ (فلولا أنه كان من المسبحين للبث) ، وهذا مردود بآيات كثيرة فى القرآن الكريم وردت فيها لولا بمعان أخر ، لذا لم أتعرض لهذه المسألة ـ أيضا .

والله أسأل أن يوفقنى لما يحب ويرضى ، ويجمعنا فى مستقر رحمته .

د / بسيونى سعد لبن
الأستاذ المساعد فى قسم اللغويات بالكلية

(يـا)

هي أم باب النداء، ولذلك دخلت في جميع أبوابه، وانفردت بباب الاستغاثة وشاركت (وا) في الندبة، وهي لنداء البعيد مسافة أو حكما، وقد ينادى بها القريب على سبيل التوكيد، وقيل: هي مشتركة ينادى بها القريب والبعيد، لكثرة استعمالها[(١)].

هذا، ولم يقع نداء في القرآن الكريم إلا بها، يقول أبو حيان: «وزعم بعضهم أنها اسم فعل معناها: أنادي، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها»[(٢)].

وعلى الرأي الصحيح، وهو كونها لنداء البعيد يتأتى سؤال، ألا وهو ما السر في اختصاص النداء بها في كتابه - عز وجل -، وهو أقرب إلينا من حبـــل الوريد، يقول - سبحانه - (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)[(٣)]؟.

والجواب عنه ما ذكره أبو السعود حيث يقول: «يا حرف لنداء البعيد، وقد ينادى بها القريب، تنزيلا له منزلة البعيد، إما إجلالا، كما في قول الداعي: يا ألله، ويارب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، استقصارا لنفسه، واستبعادا لها من محافل الزلفى، ومنازل المقربين، وإما تنبيها على غفلته، وسوء فهمه، وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه»[(٤)].

---

(١) الجنى الداني: ٣٥٥ (٢) البحر: ٩٢/١، ٩٣.
(٣) سورة البقرة: ١٨٦. (٤) تفسير أبي السعود ٥٨/١.

وقال السيوطى : « أصل النداء بـ (يا) أن يكون للبعيد حقيقة أو حكما ، وقد ينادى بها القريب ، لنكتة ؛ منها إظهار الحرص فى وقوعه على إقبال المدعو ، نحو (يا موسى أقبل ولا تخف)(١) .

ومنها كون الخطاب المتلو معتنى به ، كقوله : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)(٢) .

ومنها قصد تعظيم شأن المدعو ، نحو (يارب) ، وقد قال - تعالى - (فإنى قريب)(٣) .

ومنها قصد انحطاطه ، كقول فرعون : « وإنى لأظنـــك يا موسى مسحورا)(٤)،(٥) .

وقد زعم الفراء وجماعة أن الهمزة قد أتت للنداء فى القرآن ، حيث يقول : «وقوله (أمن هو قانت آناء الليل)(٦) قرأها يحي بن وثاب بالتخفيف ، وذكر ذلك عن نافع ، وحمزة (٧) ، وفسروها بقولهم : يريد : يا من هو قانت ؛ وهو وجه حسن ؛ العرب تدعو بألف ؛ كما تدعو بيا ؛ فيقولون : يا زيد أقبل ؛ وأزيد أقبل ؛ قال الشاعر :

أبنى لبينى لستم بيـــد إلا يد ليست لهـــا عضد(٨)

وقال الآخر :

أضمر بن ضمرة ماذا ذكر ت من صرمة أخذت بالمرارة(٩)

---

(١) سورة القصص : ٣١ .

(٢) سورة البقرة : ٢١ . (٣) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٤) سورة الإسراء : ١٠١ . (٥) معترك الأقران ١ / ٣٤٠ .

(٦) سورة الزمر من الآية ٩ (٧) الغاية فى القراءات العشر ٢٥٢ .

(٨) البيت من البسيط قاله الأجرد الثقفى .

ينظر معانى القرآن للفراء ٢ / ٤١٦ .

(٩) السابق .

وهو كثير فى الشعر . . .

وقد تكون الألف استفهاماً ، بتأويل (أم) لأن العرب قد تضع (أم) فى موضع الألف ، إذا سبقها كلام . . فيكون المعنى : أمن هو قانت خفيف كالأول الذى ذكر بالنسيان والكفر »(١) .

ويقول ابن عطية مثبتا جواز وقوع النداء فى القرآن بغير (يا) : « قرأ ابن كثير ونافع وحمزة (أمن) - بتخفيف الميم - وهى قراءة أهل مكة ، والأعمش ، وعيسى ، وشعبة بن نصاح ، ورويت عن الحسن ، وضعفها الأخفش ، وأبو حاتم ، وقرأ عاصم وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائى والحسن والأعرج ، وقتادة ، وأبو جعفر : (أمن) بتشديد الميم - .

فأما القراءة الأولى فلها وجهان :

أحدهما - وهو الأظهر - أن الألف ألف تقرير واستفهام ، وكأنه يقول : أهذا القانت خير أم هذا المذكور الذى يتمتع بكفره قليلا ، وهو من أصحاب النار ؟ .

وفى الكلام حذف يدل عليه سياق الآيات مع قوله آخراً : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، ونظيره قول الشاعر :

فأقسم لو شىء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

والوجه الثانى : أن يكون الألف نداء ، والخطاب لأهل هذه الأوصاف ، كأنه يقول : أصاحب هذه الصفات : « (قل هل يستوى) ، فهذا السؤال بـ (هل) هو للقانت .. وهذا معنى صحيح ، إلا أنه أجنبي من معنى الآيات قبله وبعده »(٢) .

ويقول الصفاقسى : « (يا أيها الناس) . (يا) : حرف نداء ، وزعم بعضهم أنها اسم فعل ، أى أنادى ، ولم يقع نداء فى القرآن إلا بها مع كثرته ..

---

(١) معانى القرآن للفراء ٢/٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ١٤/٦٧ .

قلت : ووقع بالهمزة على قول فى قوله - تعالى - (أمن هو قانت) على قراءة التخفيف »(١) .

وكذا نازع بعضهم فى هذه المسألة ، فجوز وقوع النداء بالهمزة فى قراءة طلحة(٢) (أمن زين له سوء عمله)(٣) - بغير فاء - يقول السمين : « قال أبو الفضل : الهمزة للاستخبار بمعنى العامة ، للتقرير ، ويجوز أن يكون بمعنى حرف النداء ، لحذف التمام ، كما حذف من المشهور الجواب .

يعنى أنه يجوز فى هذه القراءة أن تكون الهمزة للنداء ، وحذف التمام ، أى ما نودى لأجله ، كأنه قيل : يامن زين له سوء عمله ارجع إلى الله وتب إليه ، وقوله : (كما حذف الجواب) يعنى به خبر المبتدأ الذى تقدم تقريره »(٤) .

وتخريج هاتين القراءتين فى الآيتين : على أن الهمزة فيهما للنداء ضعيف مردود ، يقول أبو حيان . « وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والأعمش ، وعيسى وشيبة والحسن فى رواية (أمن) - بتخفيف الميم - والظاهر أن الهمزة لاستفهام التقرير ، ومقابله محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : أهذا القانت خير أم الكافر .

وقال الفراء : الهمزة للنداء ، كأنه قيل : يامن هو قانت ، ويكون قوله : (قل) خطابا له ، وهذا القول أجنبى مما قبله ، ومابعده »(٥) .

وكذا ضعفه أبو على الفارسى بشىء قريب من هذا(٦) ، ويقول السمين : « وفيه بعد ، ولم يقع نداء فى القرآن بغير (يا) ، حتى يحمل عليه »(٧) .

---

(١) المجيد فى إعراب القرآن المجيد ١٤٦/١ .

(٢) الدر المصون ٢١٤/٩ . (٣) سورة فاطر من الآية ٨ .

(٤) الدر المصون ٢١٤/٩ . (٥) البحر المحيط ٤١٨/٧ .

(٦) الحجة لأبى على الفارسى ٢٣٠/٤ (مخطوط) .

(٧) الدر المصون ٤١٥/٤ .

أما تضعيف هذه القراءة من أبي حاتم والأخفش(1) فغير معتد به ، وأما تخريجها على أن الهمزة للنداء فهو غير مقبول كما قالوا .

ويقول ابن هشام : « وقد أجيز الوجهان فى قراءة الحرميين (أمن هو قانت آناء الليل) ، وكون الهمزة فيه للنداء هو قول الفراء ، ويبعده أنه ليس فى التنزيل نداء بغير (يا) ويقربه سلامته من دعوى المجاز ، إذ لا يكون الاستفهام منه - تعالى - على حقيقته ، ومن دعوى كثرة الحذف ، إذ التقدير عند من جعلها للاستفهام : أمن هو قانت خير أم هذا الكافر ؟ أى المخاطب بقوله - تعالى - (قل تمتع بكفرك قليلا) ، فحذف شيئان : معادل الهمزة والخبر »(2) .

أقول : أما قوله : « يقربه - أى كون الآية على النداء - سلامته من دعوى المجاز ، إذ لا يكون الاستفهام منه - تعالى - على حقيقته » ففيه نظر ، إذ أن الله قد وقع منه الاستفهام كثيرا ، فمنه قوله - تعالى - (ألم يجدك يتيما فآوى)(3) - (ألم نشرح لك صدرك)(4) (هل من خالق غير الله يرزقكم)(5) ، وهو سؤال العارف ، فهو على غير حقيقته ، وهو غير بعيد وغير مستغرب فى حقه - سبحانه - إذ أنه ثابت فى القرآن فلا يستدل بذلك على أن غيره أولى منه .

وقوله : (ومن دعوى كثرة الحذف) فيه نظر ، إذ أنه يجوز أن يكون التقدير : أمن هو قانت كغيره ، فلا يكون هناك إلا حذف شىء واحد فقط ، هو الخبر ، لا شيئين كما نص ابن هشام ، يقول المرادى : « وجعل بعضهم من ذلك قراءة الحرميين (أمن هو قانت) - بتخفيف الميم -

---

(1) البحر المحيط ٧/٤١٨ .

(2) المغنى ١٨ .

(3) سورة الضحى الآية ٦ .

(4) الانشراح الآية ١ .

(5) سورة فاطر من الآية ٣ .

ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام دخلت على (مَنْ) ، و (من) : مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : أمن هو قانت كغيره ؟ حذف لدلالة الكلام عليه - والله أعلم - »(1) .

وأيضا أقول : كل من جوز أن تكون الهمزة للنداء فى الآيتين جوز الرأى الآخر فضلا عن تضعيف بعضهم كونه للنداء ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، إذن لا يمكننا أن نثبت بذلك أن النداء وقع فى القرآن بالهمزة ، فلم يبق لنا إلا أن نسلم بأنه لم يرد نداء فى القرآن الكريم بغير (يا) - والله أعلم - .

* * *

---

(1) الجنى الدانى ٣٦ .

توكيد فعل الشرط بالنون بعد (إما)

ذهب الزجاج والمبرد إلى أن الفعل الواقع بعد (إن) الشرطية المؤكدة بـ (ما) يلزم تأكيده بالنون نحو قوله ـ تعالى ـ (فإما يأتينكم)(١) ـ (فإما ترين من البشر أحدا)(٢) ، قال الزجاج : « وإعراب (إما) فى هذا الموضع إعراب حروف الشرط والجزاء ، إلا أن الجزاء إذا جاء فى الفعل معه النون الثقيلة أو الخفيفة لزمتها (ما) ، ومعنى لزومها إياها معنى التوكيد ، وكذلك معنى دخول النون فى الشرط التوكيد »(٣) .

ويقول المبرد : « ومن مواضعها ـ يقصد نون التوكيد ـ الجزاء إذا لحقت (ما) زائدة فى حرف الجزاء ، لأنها تكون كاللام التى تلحق فى القسم فى قولك : لأفعلن ، وذلك قولك إما تأتينى آتــك ، ومتى ماتقعدن أقعد .

فمن ذلك قول الله ـ عز وجل ـ (فإما ترين من البشر أحدا) وقال : (وإما تعرضن عنهم)(٤) .

فإن كان الجزاء بغير (ما) قبح دخولها فيه ، لأنه خبر يجب آخره بوجوب أوله(٥) .

وذهب سيبويه إلى أنه جائز لا واجب ؛ يقول فى الكتاب : « ومن مواضعها حروف الجزاء إذا وقعت بينها وبين الفعل (ما) للتوكيد ؛ وذلك

---

(١) سورة البقرة من الآية ٣٨ .   (٢) سورة مريم من الآية ٢٦ .
(٣) ينظر معانى القرآن للزجاج ١/١١٧ .
(٤) سورة الإسراء من الآية ٢٨ .
(٥) ينظر المقتضب ٣/١٣ ، ١٤ .

لأنهم شبهوا (ما) باللام التى فى (لتفعلن)، لما وقع التوكيد قبل الفعل ألزموا النون آخره، كما ألزموا هذه اللام، وإن شئت لم تقحم النون، كما أنك إن شئت لم تجىء بها، فأما اللام فهى لازمة فى اليمين، فشبهوا (ما) هذه إذا جاءت توكيدا قبل الفعل بهذه اللام التى جاءت لإثبات النون . . . . وتصديق ذلك قوله ـ تعالى ـ (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك). وقال ـ عز وجل ـ (فإما ترين من البشر أحدا)(١).

ودخول النون على فعل الشرط بعد (إن) الشرطية المقترنة بـ (ما) الزائدة يدل على تأكيد التعليق، لأن (إن) الشرطية وحدها دالة على الشرط، فلم يكن دخول (ما) الزائدة عليها كدخولها على بقية أدوات الشرط كـ: (متى) و (أين)، و (أيان)، وغيرها، لأن هذه الأدوات إنما زيدت عليها (ما) لجعلها مفيدة معنى الشرط، إذ أنها لم توضع له، بخلاف (إن)، وقد التزمت العرب فى الأعم الأغلب بتأكيد فعل الشرط مع (إما) بنون التوكيد، لزيادة توكيد التعليق بدخول علامته على أداته وعلى فعله، فهو تأكيد لا يفيد تحقيق حصول الجواب، لأنه مناف للتعليق، ولذلك لم يؤكد جواب الشرط بالنون، بل يفيد تحقيق الربط أى إن كون حصول الجواب متوقفا على حصول الشرط أمر محقق، لا محالة.

ولذا نقول: خلو فعل الشرط مع (إما) من نون التوكيد ممنوع عند الزجاج والمبرد، غير حسن عند سيبويه، لذا لم يتأت فى القرآن إلا مقرونا بها معها، يقول السمين: «و (إما) أصلها (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيدا . . . وذهب الزجاج والمبرد إلى أن الفعل الواقع بعد (إن) الشرطية المؤكدة بـ (ما) يجب تأكيده بالنون، قالا، ولذلك لم يأت التنزيل إلا عليه، وذهب سيبويه إلى أنه جائز لا واجب، لكثرة

---

(١) الكتاب ٣/٥١٥.

ما جاء منه فى الشعر غير مؤكد ، فكثرة مجيئه غير مؤكد يدل على عدم الوجوب »(١) .

وقال المهدوى : « (إما) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) للتوكيد ليصح دخول النون لتأكيد الفعل ، ولو سقطت (ما) لم تدخل النون ، فـ (ما) تؤكد أول الكلام ، والنون آخره »(٢) .

ويقول المرادى : « . . . ولم يرد فى القرآن - يقصد الشرط - بعد (إما) إلا مؤكدا ، وذهب المبرد والزجاج إلى أن توكيده بعد (إما) واجب فى غير الضرورة .

قلت : قد كثر حذف النون بعد إما فى الشعر ، وأما النثر فعزيز ، وقد حكى منه قراءة بعضهم (فإمَّا تَرَيْنَ) بنون الرفع ، ذكرها ابن جنى ، وهى شاذة »(٣) .

ويقول الأشمونى : « وأما التوكيد بعد الطلب فليس بواجب اتفاقا ، واختلفوا فيه بعد (إما) ، فمذهب سيبويه أنه ليس بلازم ، ولكنه أحسن ، ولهذا لم يقع فى القرآن إلا كذلك ، وإليه ذهب الفارسى وأكثر المتأخرين ، وهو الصحيح »(٤) .

ومجىء فعل الشرط مؤكدا بالنون بعد (إما) مطرد فى القرآن الكريم ، بصرف النظر عن القراءة التى ذكرها ابن جنى ، إذ أنها شاذة ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه ، فثبوتها لا يؤثر فى هذا الإطراد من أجل ما ذكرنا .

أما فى لسان العرب فقد ورد بكثرة عدم تأكيده بالنون بعد (إن)

---

(١) ينظر الدر المصون ٢٩٨/١ .

(٢) الدار المصون ٣٠٠/١

(٣) الجنى الدانى ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) ينظر الأشمونى ٢١٦/٣ .

الشرطية المقترنة بـ (ما) ، ومن ذلك قول الشنفرى :

فإما ترينى كابنة الرمــل ضاحيا
على رقة أحفى ولا أتنعــل(١)

وقول الآخر :

ياصاح إما تجــدنى غير ذى جدة
فما التخلى عن الخلان من شيمى(٢)

وقول سلمى بن ربيعة :

زعمت تمــاضر أننى إما أمت
يســدد أبينوها الأصاغر خلتى(٣)

---

(١) البيت للشنفرى وهو من الطويل وقوله أحفى : أكون حافياً ، واتنعل : ألبس النعل .

ينظر الأشمونى ٢١٦/٣ والبحر ١٦٨/١ ، والدر المصون ٢٩٩/١ - والشاهد هنا فى قوله : (فإما ترينى) حيث ترك فيه نون التأكيد بعد (إما الشرطية) ، وبه يرد على الزجاج فى اشتراطها بعدها .

(٢) البيت من البسيط ، ولم أقف على قائله .

والشاهد فيه : فى (إما تجدنى) حيث ترك فيه التوكيد بالنون بعد إما الشرطية .

ينظر : الدر المصون ٢٩٩/١ ، والأشمونى ٢١٦/٣ والتصريح ٢٠٤/٢ ، والعينى ٣٣٩/٤ .

(٣) البيت لسلمى بن ربيعة أو علباء بن أرقم وهو من الكامل ، وهو فى ابن يعيش ٥/٩ ، والهمع ٦٣/٢ والبحر ١٦٨/١ ، والدرراللوامع ٦٩/٢ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٥٤٧ .

والشاهد فيه كسابقه .

وقول الأعشى :

فإما تريني ولى لمـــة فإن الحوادث أودى بها(١)

وقول امرىء القيس :

فإما تريني لا أغمض ساعة من الدهر إلا أن أكب فأنعسا(٢)

وقول رؤبة :

إما تريني اليوم أم حمز قاربت بين عنقى وجمزى(٣)

يقول السيوطى : « وتزاد (ما) توكيدا فى (إن) ، ومنه : (وإما ينزغنك) (وإما ينسينك) ، قال أبو حيان : وذلك فى القرآن كثير ، ولم يأت فيه إلا والفعل مؤكد بالنون ، وأما فى لسان العرب فقد جاء - أيضاً - بغير نون كثيرا »(٤) .

وقال - أيضا - « وتدخل - أى نون التوكيد - كثيرا ، وقيل : لزوما المضارع التالى (إما) الشرطية ، نحو : فإما تذهبن بك ، (وإما ينزغنك) ، ولم يقع فى القرآن إلا مؤكدا بالنون »(٥) .

---

(١) البيت للأعشى وهو فى ديوانه ١٧١ : فإن تعهدينى .

والشاهد فى قوله (فإما تريني) حيث ترك فيه نون التأكيد بعد (إما) الشرطية ، وهو من شواهد الكتاب ٤٦/٢ ، والعينى ٤١٦/٢ ، وابن يعيش ٩٥/٥ ، ورصف المبانى (١٠٣) ، واللسان (حدث) .

(٢) البيت لامرىء القيس ، وهو فى ديوانه (١٠٥) . والمقتضب ١٤/٣ والشاهد فيه كسابقه .

(٣) البيت فى الكتاب ٢٣٣/١ ، والمقتضب ٢٥/٤ والإنصاف : ٣٤٩ . وابن يعيش : ٦/٩ .

وفيه نفس الشاهد السابق .

(٤) الهمع ٦٣/٢ (٥) الهمع ٧٨/٢

صلة الموصول من مادة (صبر) فى القرآن الكريم

قد ورد ذكر الصبر فى القرآن الكريم فى أكثر من سبعين موضعا وذلك لعظم موقعه فى الدين.

قال بعض العلماء(١) : كل الحسنات لها أجر محصور فى عشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصبر، فإنه لا يحصر أجره، لقوله - تعالى - (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)(٢) .

ولما كان الصبر شرطا فى حصول التكاليف لم تأت صلة الموصول فى القرآن منه إلا بلفظ الماضى، يقول أبو حيان - فى تفسير قوله - تعالى - (الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ...)(٣) - « فجاءت الصلة هنا - أى فى الصبر - بلفظ الماضى، وفى الموصولين قبل بلفظ المضارع فى قوله : (الذين يوفون) ، و (الذين يصلون) وما عطف عليهما على سبيل التفنن فى الفصاحة لأن المبتدأ هنا فى معنى اسم الشرط بالماضى كالمضارع فى اسم الشرط ، فكذلك فيما أشبهه ، ولذلك قال النحويون : إذا وقع الماضى صلة ، أو صفة لنكرة عامة ، احتمل أن يراد به المضى، وأن يراد به الاستقبال ، فمن المراد به المضى فى الصلة : (الذين قال لهم الناس)(٤) ، ومن المراد به الاستقبال (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) .

---

(١) معترك الأقران ٣٥٦/٢ (٢) سورة الزمر من الآية ١٠ .

(٣) سورة الرعد الآية ٢٠، ٢١، ٢٢ . (٤) سورة آل عمران من الآية ١٧٣ .

ويظهر أن اختصاص هذه الصلة بالماضى، وتينك بالمضارع أن تينك الصلتين قصد بهما الاستصحاب والالتباس دائما ، وهذه الصلة قصد بها تقدمها على تينك الصلتين ، وما عطف عليهما ، لأن حصول تلك الصلات إنما هى مترتبة على حصول الصبر ، وتقدمه عليها ، ولذلك لم تأت صلة فى القرآن إلا بصيغة الماضى ، إذ هو شرط فى حصول التكاليف ، وإيقاعها(١) .

وقد وقع الصبر صلة فى القرآن على صورة المضى التى ذكرتها إحدى عشرة مرة هى :

١ ــ (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا)
(١٣٧) الأعراف

٢ ــ (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات)
(١١) سورة هود

٣ ــ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة)
(٢٢) سورة الرعد

٤ ــ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)
(٤٢) سورة النحل

٥ ــ (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)
(٩٦) سورة النحل

٦ ــ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)
(١١١) سورة المؤمنون

٧ ــ (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما)
(٧٥) سورة الفرقان

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٨٥ ، ٣٨٦ .

٨ ــ (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)
(٥٤) سورة القصص

٩ ــ (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)
(٥٩) سورة العنكبوت

١٠ ــ (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)
(٣٥) سورة فصلت

١١ ــ (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا)
(١٢) سورة الإنسان

(لدن)

ظرف لابتداء غاية زمان أو مكان ، وهى من الكلمات الملازمة للإضافة، قال ابن مالك(١) :

وألزموا إضافة (لدن) فجر ونصب (غدوة) بها عنهم ندر

لذلك يلزم أن يكون ما بعدها مجرورا لفظا إن كان معربا ، ومحلا إن كان مبنيا أو جملة ، فالأول نحو قوله ـ تعالى ـ (من لدن حكيم عليم)(٢) ، وقول الراجز :

تنتهض الرعدة فى ظهيرى من لدن الظهر إلى العصير(٣)

والثانى نحو قوله ـ تعالى ـ (وعلمناه من لدنا علما)(٤) ـ (لينذر بأسا شديدا من لدنه)(٥) ، والثالث كقوله :

وتذكر نعماه لدن أنت يافع

قال الأشمونى : « ولم يضف من ظروف المكان إلى الجملة إلا (لدن)

---

(١) ينظر شرح الألفية لابن عقيل ٣/٦٧ ، والأشمونى ٢/٢٦٢ .

(٢) سورة النحل من الآية ٦ .

(٣) راجزه طائى لم يدر اسمه و والرعدة من الارتعاد ، وظهيرى تصغير ظهر ، يعنى : يقوم على الارتعاد من عند الظهر إلى العصر .

والشاهد فيه : (من لدن) حيث جاء مابعدها مجروراً لفظا لأنه معرب .

ينظر : الأشمونى ٢/٢٦٢ ، وشرح الألفية لابن عقيل ٣/٦٧ .

(٤) الكهف من الآية ٦٥ . (٥) الكهف من الآية ٢ .

و (حيث) وقال ابن برهان : حيث فقط ، هذا هو الأصل الشائع فى لسان العرب » (١) .

وقال ابن عقيل : « ويجر ما ولى (لدن) بالإضافة إلا (غدوة) فإنهم نصبوها بعد (لدن) . كقوله :

وما زال مهرى مزجر الكلب منهم
لدن غدوة حتى دنت لغروب (٢)

ونصب (غدوة) بعد (لدن) ؛ إنما هو على التمييز ؛ وقيل : هى خبر لكان المحذوفة ؛ والتقدير . لدن كانت الساعة غدوة ، وقيل : على التشبيه بالمفعول (٣) .

ويجوز جر (غدوة) بالإضافة على الأصل ؛ فلو عطفت على (غدوة) المنصوبة جاز جر المعطوف مراعاة للأصل ؛ وجاز نصبه مراعاة اللفظ (٤) .

وحكى (٥) الكوفيون الرفع فى غدوة بعد (لدن) ؛ وهو مرفوع بـ (كان) المحذوفة ؛ والتقدير : لدن كانت غدوة ؛ و (كان) تامة .

والذى أردت أن أبينه فى هذه المسألة أن (لدن) لم ترد فى القرآن إلا مجرورة بـ (من) ؛ يقول ابن مالك : « قال أبو الفتح بن جنى : استعمال

---

(١) ينظر الأشمونى ٢٦٣/٢ .

(٢) البيت من الطويل . ومزجر الكلب خبر ما زال ، و (منهم) فى محل نصب على الحال .

والشاهد فى (لدن غدوة) حيث نصب غدوة بعدها تشبيها بالمفعول ومنهم من رفعها تشبيها بالفاعل ومنهم من جرها على القياس .

ينظر شرح الألفية لابن عقيل ٦٨/٣ ، ٦٩ . والأشمونى ٢٦٣/٢ .

(٣) الأشمونى ٢٦٣/٢ .

(٤) شرح الألفية لابن عقيل ٦٩/٣ والأشمونى ٢٦٣/٢

(٥) ابن عقيل على الألفية ٦٩/٣ .

(لدن) دون (مِنْ) قليل ؛ قلت : ولذلك لم تخل فى القرآن من (من)(١).

وقال ابن عقيل : « ولا تخرج عن الظرفية - يقصد (لدن) - إلا بجرها بـ (من) ؛ وهو الكثير فيها ؛ ولذلك لم ترد فى القرآن إلا بـ (من) ؛ كقوله - تعالى - (وعلمناه من لدنا علما) ؛ وقوله - تعالى - (لينذر بأساً شديداً من لدنه) ؛ وقيس تعربها ؛ ومنه قراءة أبى بكر عن عاصم (لينذر بأساً شديداً من لَدْنِهِ) لكنه أسكن الدال ؛ وأشمها الضم »(٢) .

ويفهم من قوله : (وقيس تعربها) أنها مبنية عند أكثر العرب وقد وردت (لدن) فى القرآن فى ثمانية عشر موضعاً هى :

١ - قوله - تعالى - (كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . (١) سورة هود

٢ - (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) (٦) سورة النمل

٣ - (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة). (٨) سورة آل عمران

٤ - (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) (٨) سورة آل عمران

٥ - (واجعل لنا من لدنك وليا) (٧٥) سورة النساء

٦ - (واجعل لنا من لدنك نصيرا) (٧٥) سورة النساء

٧ - (واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا) (٨٠) سورة الإسراء

٨ - (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا) (١٠) سورة الكهف

٩ - (وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا) (٥) سورة مريم

---

(١) ينظر شرح التسهيل ٢/٢٣٧ .

(٢) شرح الالفية لابن عقيل ٣/٩٧ .

١٠ - (إذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما) (٦٧) سورة النساء
١١ - (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)
(٦٥) سورة الكهف
١٢ - (وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا) (١٣) سورة مريم
١٣ - (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) (٩٩) سورة طه
١٤ - (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين)
(١٧) سورة الأنبياء
١٥ - (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا) (٥٧) سورة القصص)
١٦ - (وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)
(٤٠) سورة النساء
١٧ - (قيما لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين)
(٢) سورة الكهف
١٨ - (قد بلغت من لدني عذرا) (٧٦) سورة الكهف

* * *

كلمة (سنين)

جمع سنة ، وهى تطلق على الحول ، وعلى الجدب ضد الخصب(١) ، يقول أبو حيان : « وبهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة ، كالنجم والدبران ، وقد اشتقوا منها بهذا المعنى ، فقالوا : أسنت القوم : إذا أجدبوا ، ومنه قوله :

ورجال مكة مسنتون عجاف(٢)

وقال حاتم(٣) :

فإنا نهين المال من غير ضنة ولا يشتكينا فى السنين ضريرها

وقال الجوهرى (٤) : « .. يقال : أرض بنى فلان سنة ، إذا كانت مجدبة .

---

(١) اللسان مادة سنه .

(٢) هو عجز بيت من الكامل قائله عبد الله بن الزبعرى ، ويروى بتمامه :
عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
ينظر : المقتضب ٣١١/٢ . والإنصاف (٦٦٣) ، وابن يعيش ٩ / ٣٦ ، والعينى ٤/ ١٤٠ والبحر المحيط ٣٩٩/٤ .

(٣) البيت من الطويل .
ينظر ابن يعيش ، والبيت فيه برواية أخرى لا تصلح شاهداً لما نحن فيه .
والبحر المحيط ٣٦٩/٤ .

(٤) الصحاح مادة (سنه) ٢٢٣٦/٦ .

والعرب تقول : تسليت عنده ، وتسنهت عنده ، واستأجرته مساناة ومسانهة ، وفى التصغير سنية ، وسنيهة .

وكلمة (سنين) بالياء أو الواو عند جمهور العرب لا تكون إلا بكسر السين وبعضهم يقول : سنون ـ بضم السين .

وفيها لغتان : أشهرهما(١) : إعرابها بالواو رفعا ، والياء جرا ونصبا والأخرى جعل الإعراب فى النون ، والتزام الياء فى الأحوال الثلاثة ، نقلها أبو زيد والفراء(٢) .

ولما كانت سنون ـ بكسر السين ـ و (سنة) بفتحها حكم النحاة بأنها من الكلمات الملحقة بجمع المذكر السالم فى الإعراب ، ويضاف لذلك أن (سنة) مؤنث غير عاقل ، وهو لا يجمع جمع مذكر(٣) سالما ، لذلك حكموا بأنها ليست منه ؛ وإنما هى ملحقة به .

ومما يسترعى أنها لم ترد فى القرآن من أوله إلى آخره إلا منصوبة أو مجرورة فلم تقع فيه مرفوعة أبدا .

ولم يدخل عليها فى القرآن الكريم ـ أيضا ـ حرف من حروف الجر إلا الباء ؛ وذلك فى موضع واحد هو قوله ـ تعالى ـ (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات(٤) .

وقد جاءت مجرورة بالمضاف فى ستة مواضع هى :

١ ـــ قوله ـ تعالى ـ (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . سورة يونس آية (٥)

---

(١) ينظر البحر المحيط ٤/٣٦٩ .

(٢) البحر المحيط ٤/٣٦٩ .

(٣) شرح شذور الذهب ٥٧ .

(٤) سورة الأعراف من الآية ١٣٠ .

٢ — (فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين) .
سورة يوسف آية (٤٢)
٣ — (قال تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله) .
سورة يوسف آية (٤٧)
٤ — (لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .
سورة الإسراء آية (١٢)
٥ — (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) . سورة المؤمنين (١١٢)
٦ — (وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) . سورة الروم٤
وقد وردت فيه منصوبة فى أربعة مواضع هى :
١ — قوله - تعالى - (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) .
سورة الكهف آية (١١)
٢ (فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى) .
سورة طه آية (٤٠)
٣ — (قال : ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين) .
سورة الشعراء آية (١٨)
٤ — (أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) .
سورة الشعراء آية (٢٠٥)

وقد جاءت فى موضع واحد محتملة للنصب والجر ، ألا وهو قوله - تعالى - (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) .
سورة الكهف آية (٢٥)

يقول ابن هشام : «ومن شواهد سنين قوله - تعالى- (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين) ، تقرأ (مائة) على وجهين : منونة ، وغير منونة ؛ فمن نونها فـ(سنين) بدل من ثلاث ، فهى منصوبة . والياء علامة النصب . قيل : أو مجرورة بدل من مائة . والياء علامة الجر ، وفيه نظر . لأن البدل

يعتبر لصحته إحلاله محل الأول مع بقاء المعنى ولو قيل : ثلاث سنين لاختل المعنى ، كما ترى . ومن لم ينونها فسنين مضاف إليـــه . فهى مخفوضة »[1] .

ويقال الجوهرى[2] : « وقوله - تعالى - (ثلاثمائة سنين) .

قال الأخفش : إنه بدل من (ثلاث) ومن (المائة) . أى لبثوا ثلاثمائة من السنين .

قال : فإن كانت السنون تفسيرا للمائة فهى جر . وان كانت تفسيرا للثلاث فهى نصب » .

أما فى غير القرآن فقد جاءت مرفوعة[3] قال الشاعر :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــلام[4]

---

(١) شرح شذور الذهب ٥٨ .
(٢) الصحاح مادة سنه ٢٢٣٦/٦ .
(٣) شرح الشذور الذهب (٥٨)
(٤) البيت من الكامل قاله أبو تمام .
ينظر : شرح شذور الذهب لابن هشام (٥٨) وديوانه ٢٧٩ .

عسى لليقين

اختلف النحاه فى عسى فذهب الجمهور(١) إلى أنها فعل ، لقبولها تاء التأنيث الساكنة التى لا تنقلب هاء فى الوقف ، نحو : هند عست أن تفلح ، ولاتصالها بضمائر الرفع البارزة ، نحو قوله - تعالى - (فهل عسيتم إن توليتم)(٢) .

وأطلق ابن السراج القول بحرفيتها ، كـ (لعل) بسبب جمودها ، ودلالتها على الرجاء . ونقل هذا الرأى عن ثعلب ، قاله ابن عقيل(٣) .

وهذان القولان بعيدان عن الصحة ، يقول الزبيدى و « (عسى) قيل : فعل مطلقا ، أو حرف مطلقا ، قال شيخنا : كلا القولين غير محرر ، بل (عسى) فيها تفصيل الحرفية ، إذا دخلت على ضمير متصل كعساه ، وهو مذهب سيبويه وجماعة ، وفعل من أفعال المقاربة إذا دخلت على ظاهر . كما هو رأى المبرد والأخفش : ولكل من الاستعمالين شروط فى التسهيل وشروحه وكلام المصنف - يقصد الفيروزابادى - غاية فى القصور والتقصير وعدم التحرير . فلا يعتد به »(٤) .

وهى تدل على الرجاء ، وذلك كثير فيها . وقد تأتى للإشفاق . يقول السيوطى : وقد ترد (عسى) للإشفاق من المكروه وهو أقل من مجيئها

---

(١) يس على الفاكهى ٦٥/١ .
(٢) سورة محمد ٢٢ .
(٣) شرح الألفية لابن عقيل ٣٢٢/١ .
(٤) تاج العروس باب الواو والياء فصل العين ٢٤٢/١٠

للرجاء ، وقد اجتمعا فى قوله ـ تعالى ـ (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »(١) .

وذهب أبو عبيدة إلى أنها تأتى لليقين ، يقول الجوهرى : « وقال أبو عبيدة جاء على إحدى لغتى العرب ، لأن (عسى) فى كلامهم رجاء ويقين. وأنشد لابن مقبل :

ظنى بهم كعسى وهم بتنوفة　　يتنازعون جوائز الأمثال(٢)

أى ظنى بهم يقين(٣) ؛

وقال فى اللسان : « قال أبو عبيدة : عسى من الله إيجاب فجاءت على إحدى اللغتين ، لأن (عسى) فى كلامهم رجاء ويقين ، قال ابن سيده ، وقيل عسى كلمة تكون للشك واليقين .. قال ابن برى : هذا قول أبى عبيدة »(٤).

ومجيئها لليقين فى كلام العرب فيه نظر ، لأننى لم أعثر على شاهد لما ذهب أبو عبيدة وابن سيده إليه إلا البيت المنسوب لابن مقبل ، وقد خرجه الأصمعى على أن عسى فيه للرجاء والطمع ، فقال : (ظنى بهم كعسى) ، أى ليس بثبت كعسى يريد أن الظن هنا ، وإن كان بمعنى اليقين فهو كعسى فى كونها بمعنى الطمع والرجاء »(٥) ،

وقال الرضى : « وأنا لا أعرف عسى فى غير كلامه ـ تعالى ـ لليقين.

---

(١) الهمع ١٢٩/١ .

(٢) البيت من الكامل قاله : تميم بن مقبل .

ينظر : ابن يعيش ١٢٠/٧ واللسان (جوز ، عسى) وديوانه ٢٦١ ، والخزانة ٧٦/٤ ، والصحاح مادة (عسا) ٢٤٢٦/٦ .

(٣) الصحاح (عسا) ٢٤٢٦/٦

(٤) اللسان (عسا) ٥٥/١٥

(٥) السابق .

فقوله (عسى لليقين) فيه نظر ، ويجوز أن يكون معنى (ظنى بهم كعسى) ، أى مع طمع »(١).

أما فى القرآن فقد أطرد مجيئها لهذا المعنى إذا كانت من الله ، لأن الرجاء والطمع يستحيلان فى حقه - عز وجل - إلا قوله - تعالى - (عسى ربه إن طلقكن) ، فهى فيها بمعنى التخويف ، يقول السمين الحلبى فى (عمدة الحفاظ) : « قال سيبويه : (عسى) ، (ولعل) من الله إيجاب ، أى لا يراد بهما الترجى والإشفاق ، لأن ذلك محال فى حق البارى - تعالى - »(٢) .

وقال فى الدر المصون : « وعسى من الله واجبة ، لأن الترجى والإشفاق محالان فى حقه »(٣) .

وقيل : هى مطردة لهذا المعنى فى القرآن من أوله إلى آخره ، ما عدا الآية المذكورة ، أى سواء أكانت من الله أم من غيره ، يقول ، أبو حيان: « وقالوا كل عسى فى القرآن للتحقيق ، يعنون به الوقوع إلا قوله - تعالى - (عسى ربه إن طلقكن)(٤) »(٥) .

وقال فى تفسير قوله - تعالى - (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)(٦) .

« و (عسى) من الله واجب حيثما وقعت فى القرآن ، وفى ذلك قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين »(٧) .

وقال - أيضا - : « . . (عسى الله أن يتوب عليهم)(٨) ، قال

---

(١) شرح الكافية للرضى ٣٠٢/٢
(٢) عمدة الحفاظ : ٩٢/٣
(٣) الدر المصون ٣٨٨/٢
(٤) سورة التحريم من الآية ٥ .
(٥) البحر : ١٤٤/٢
(٦) سورة التوبة من الآية ١٨
(٧) البحر : (٥ / ٢٠)
(٨) سورة التوبة من الآية ١٠٢

ابن عباس : « (عسى) من الله واجب انتهى ، وجاء بلفظ (عسى) ليكون المؤمن على وجل ، إذ لفظة (عسى) طمع وإشفاق ، فأبرزت التوبة فى صورته ، ثم ختم ذلك بما دل على قبول التوبة ، وذلك صفة الغفران والرحمة »(١) .

ويقول ـ أيضا ـ فى تفسير قوله ـ تعالى ـ (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة)(٢) ـ « و (عسى) من الله ـ تعالى ـ واجبة الوقوع ، والله قدير على تقليب القلوب ، وتيسير العسير ، والله غفور لمن أسلم من المشركين »(٣) .

ويقول ابن عطيه : « وقوله ـ تعالى ـ (وعسى أن تكرهوا شيئاً) الآية . قال قوم : عسى من الله واجبة . والمعنى : عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة ، وهو خير لكم فى أنكم تغلبون ، وتظهرون وتغنمون . وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدا . وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال . وهو شر لكم فى أنكم تغلبون ، وتذلون ، ويذهب أمركم »(٤) .

ويقول الفيروزابادى : « عسى ـ للترجى فى المحبوب . والإشفاق فى المكروه . واجتمعا فى قوله ـ تعالى ـ (عسى أن تكرهوا شيئا) الآية وللشك واليقين ومن الله إيجاب »(٥) .

ويقول الزبيدى : « و (عسى) من الله إيجـــاب فى جميع القرآن إلا قوله ـ تعالى ـ (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا)(٦) .

ويقول الجوهرى : « و (عسى) من الله واجبة فى جميع القرآن .إلا فى

---

(١) البحر : ٩٥/٥ (٢) سورة الممتحنة من الآية ٧
(٣) البحر المحيط : ٢٥٥/٨ (٤) المحرر الوجيز : ١٥٩/٢
(٥) القاموس باب الياء فصل العين (عسا) .
(٦) تاج العروس باب الواو والياء فصل العين ٢٤٢/١٠

قوله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله) . وقال أبو عبيدة : (عسى) من الله إيجاب »(١) .

وقال ابن منظور : « و (عسى) فى القرآن من الله - جل ثناؤه - واجب . وهو من العباد ظن . كقوله - تعالى - (عسى الله أن يأتى بالفتح) . وقد أتى الله به »(٢) .

وكونها من الله واجبة الوقوع فى جميع القرآن مذهب كثير من المفسرين واللغويين . وقد رده الأصفهانى فقال : « (عسى) : طمع وترج وكثير من المفسرين فسروا لعل وعسى فى القرآن باللازم . وقالوا : إن الطمع والرجاء لا يصح من الله ، وفى هذا منهم قصور نظر ، وذاك أن الله إذا ذكر ذلك يذكره ، ليكون الإنسان منه راجيا ، لا لأن يكون هو - تعالى - يرجو ، فقوله : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) ؛ أى كونوا راجين فى ذلك »(٣) .

والحق أن ما ذهب إليه الجمهور هو الصواب فهى من الله بمعنى اليقين. وأما قول الأصفهانى : « إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجيا » معناه أن الفعل يكون مسندأ فى اللفظ إلى الله ، وفى المعنى مسندا الى العباد والحدث إذا أسند إلى ذات ، وقصدت ذات أخرى يكون قبيحا فى لغة العرب إذ أنه يؤدى إلى مجاز بعيد وعليه فلا يكون مقبولا فى كلام أحكم الحاكين ، أما إذا أسند إلى كل وقصد بعضه، أو العكس فهو مجاز قريب مقبول عند العرب .

إذن نستطيع أن نقول إن (عسى) فى جميع القرآن واجبة الوقوع . أى أنها قد إطرد مجيئها كذلك فى القرآن إلا فى آية سورة التحريم . ولا عبرة

(١) الصحاح (عسا) ٦/٢٢٤٦ (٢) اللسان (عسا) ١٥/٥٥
(٣) المفردات : ٣٣٥

يقول الألوسى - فى تفسير قوله - تعالى - (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم - « و (عسى) الأولى للاشفاق والثانية للترجى على ماذهب إليه البعض ، وإنما ذكر (عسى) الدالة على عدم القطع ، لأن النفس اذا ارتاضت وصفت انعكس عليها الأمر الحاصل لها قبل ذلك ، فيكون محبوبها مكروها ، ومكروهها محبوبا فلما كانت قابلة بالارتياض لمثل هذا الانعكاس لم يقطع بأنها تكره ما هو خير لها ، وتحب ما هو شر لها ، فلا حاجة إلى أن يقال : إنها هنا مستعملة فى التحقيق كما فى سائر القرآن ، ما عدا قوله - تعالى - (عسى ربه إن طلقكن »(١) ، لأن التأويل فيه ظاهر ، وهو خلاف الأصل ، وما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل .

---

(١) روح المعانى : ١٠٧/٢

اقتران خبر (عسى) بـ (أن)

اقتران خبر عسى بـ (أن) كثير ، وتجريده منها قليل ، لأن الترجى مستقبل ، فناسبه (أن) ، وهو مذهب سيبويه ، حيث يقول : « وتقول : عسى أن يفعل ، وعسى أن يفعلوا وعسى أن يفعلا ، و (عسى) محمولة عليها (أن) ، كما تقول : دنا أن يفعلوا وكما قالوا : اخلولقت السماء أن تمطر وكل ذلك تكلم به عامة العرب .

واعلم أن من العرب من يقول : عسى يفعل ، يشبهها بـ (كاد يفعل) ، فـ (يفعل) حينئذ فى موضع الاسم المنصوب »(١) .

ومذهب جمهور البصريين أن التجرد من (أن) خاص بالشعر ، يقول أبو حيان : « فأما (عسى) فجمهور البصريين على أن حذف (أن) من خبرها لا يكون إلا فى الضرورة ، وقاله الفارسى وأجاز حذفها فى التذكرة فى الكلام »(٢) .

ويقول ابن عقيل : « اقتران خبر (عسى) بـ (أن) كثير ، وتجريده من (أن) ، قليل ، وهذا مذهب سيبويه ومذهب جمهور البصريين أنه لا يتجرد خبرها من (أن) إلا فى الشعر »(٣) .

ويقول الشيخ خالد : « وكان القياس وجوب اقتران خبرها بـ (أن) حتى ذهب جمهور البصريين إلى أن التجريد من (أن) خاص بالشعر »(٤) .

---

(١) الكتاب : ١٥٨/٣ (٢) الارتشاف : ١٢٠/٢

(٣) شرح الألفية لابن عقيل : ٣٢٧/١

(٤) التصريح : ٢٠٦/١

ومن وروده بدون (أن) قول الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب(١)

وقوله :

عسى فرج يأتى به الله أنه له كل يوم فى خليقته أمر(٢)

أما فى القرآن الكريم فقد اطرد مجىء خبرها مضارعا مقترنا بها ، يقول ابن عقيل « ولم يرد فى القرآن إلا مقترنا بـ (أن) قال الله ـ تعالى ـ (فعسى الله أن يأتى بالفتح)(٣) ، وقال ـ عز وجل ـ (عسى ربكم أن يرحمكم) »(٤) .

ويقول السمين : « و (عسى) : فعل لا يتصرف خرج عن حقيقته من المضى إلى الإنشاء ، وهو ناقص ، كـكان ، إلا أن خبره لا يكون فى الأمر العام إلا مضارعا مقترنا بأن ، كقوله ـ تعالى ـ (فعسى الله أن يأتى بالفتح) ولم يرد التنزيل إلا عليه » .

---

(١) البيت من الوافر قاله هدبة بن الخشرم .

والشاهد فيه مجىء خبر عسى مجردا من (أن) المصدرية .

ينظر الكتاب ٤٧٨/١ ، والمقتضب ٧٠/٣ ، وابن يعيش ١١٧/٧ ـــ ، والمغنى ٢٣٥ ، والخزانة ٨١/٤ ، والعينى ١٨٤/٢ والهمع ١٣٠/١ . والأشمونى ٢٦٠/١ ، والتصريح ٢٠٦/١

(٢) البيت من الطويل ولم أقف على قائله .

وفيه نفس الشاهد السابق .

ينظر : العينى ٢١٤/٢ ، والهمع ١٣١/١ والدرر ١٠٩

(٣) سورة المائدة من الآية ٥٢ (٤) سورة الإسراء من الآية ٨

المصادر والمراجع

١ - الإنصاف للأنبارى تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد - السعادة - ١٣٨٠ هـ .

٢ - البحر المحيط لأبي حيان - دار الفكر - الطبعة الثانية - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٣ - تاج العروس للزبيدى - الخيرية - ١٣٠٦ هـ .

٤ - التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهرى - مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٥ - تفسير أبي السعود - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الثانية - ١٩٩٠ م - ١٤١١ هـ - بيروت - لبنان .

٦ - الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى - تحقيق محي الدين قباوة ومحمد نديم فاضل - دار الآفاق - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

٧ - الحجة لأبي على الفارسى (مخطوط) بدار الكتب المصرية .

٨ - خزانة الأدب للبغدادى بولاق - ١٢٩٩ هـ .

٨ - الدرر اللوامع لأحمد الأمين الشنقيطى كردستان - الجمالية ١٣٢٨ .

٩ ـ الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي تحقيق د/أحمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٠ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ١٩٥٨ .

١١ ـ ديوان أبي تمام ـ شرح محي الدين الخياط ـ بيروت ـ ١٣٢٣هـ .

١٢ ـ ديوان تميم بن مقبل تحقيق عزة حسن ـ دمشق ١٣٨١ هـ .

١٣ ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان تحقيق د/ مصطفى أحمد النماس ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

١٤ ـ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى تحقيق/ أحمد محمد الخراط ـ دمشق ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

١٥ ـ شرح الألفية للأشمونى مع حاشية الصبان ـ عيسى البابى الحلبي ١٣٦٦ هـ .

١٦ ـ شرح الألفية لابن عقيل ـ دار الفكر ـ الطبعة السادسة عشرة ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١٧ ـ شرح المفصل لابن يعيش عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة .

١٨ ـ شرح التسهيل لابن مالك تحقيق د/ عبد الرحمن السيد، و د/ محمد بدوى المختون ـ هجر للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى .

١٩ ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ـ تحقيق/ عبد السلام هارون ـ لجنة التأليف ١٣٧٢ هـ .

٢٠ ـ شرح شذور الذهب لابن هشام ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد توزيع مكتبة الأزهر .

٢١ ـ شرح الكافية للرضى ـ الأستانة ١٢٧٥ هـ .

٢٢ ـ الصحاح للجوهرى ـ بولاق ١٢٨٢ هـ .

٢٣ ـ عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ تحقيق ـ التويجى ـ ١٩٩٣ م .

٢٤ ـ العينى بهامش الخزانة ـ طبعة بولاق ـ ١٢٩٩ هـ .

٢٥ ـ الغاية فى القراءات العشر للنيسابورى ـ تحقيق محمد غياث الجنبار الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٢٦ ـ القاموس المحيط للفيروزابادى ـ مؤسسة الحلبي وشركاه .

٢٧ ـ الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٢٨ ـ اللسان لابن منظور ـ دار المعارف .

٢٩ ـ المحرر الوجيز ـ لابن عطية تحقيق / المجلس العلمى بفاس مكتبة ابن تيمية .

٣٠ ـ معانى القرآن وإعرابه للزجاج ـ تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٣١ ـ معانى القرآن للفراء ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٠ م .

٣٢ ـ معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ـ تحقيق ـ أحمد شمس الدين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ .

٣٣ ـ مغنى اللبيب لابن هشام ـ تحقيق محمد محي الدين ـ مطبعة المدنى ١٣٨٧ هـ .

٣٤ ـ المفردات فى غريب القرآن للأصفهاني. دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان تحقيق محمد سيد كيلانى .

٣٥ ـ المقتضب للمبرد تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ـ القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٣١٨٨ هـ .

٣٦ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية للسيوطى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

٣٧ ـ يس على الفاكهى ـ الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧١ م ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

فهرس الموضوعات

أسماء الأفعال في القرآن الكريم

للدكتور
أحمد محمد عبد الوهاب

الحمد لله رب العالمين . خلق الإنسان . علمه البيان . والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد . . .

فقد ورد في القرآن الكريم كثير من أسماء الأفعال ، منها ماهو متفق عليه .. ومنها ماهو مختلف فيه .

وقد رأيت أن أجمع هذه الأسماء التي تناثرت في كتب النحو والتفسير مبيناً آراء النحاة فيها .

فكان منهجي فيها كما يلي :

أولا : كلمة موجزة عن أسماء الأفعال .

ثانيا : الأسماء التي وردت في القرآن الكريم .

وقد رتبتها ترتيبا هجائيا ، وهي كما يلي :

أف ـ أولى ـ تعال ـ حسب ـ عليك ـ مكانك ها أو ها ـ ه ـ هات ـ هلم ـ هيت ـ هيهات ـ وى .

وذكرت الآيات التى ورد فيها كل اسم من هذه الأسماء مبيناً سورتها ورقمها وآراء النحاة فيها .

ثم ذكرت أهم المصادر والمراجع التى تناولتها .

«وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»(١) .

د. أحمد نجيب عبد الوهاب
قسم اللغويات

---

(١) سورة هود : ٨٨

أولا : كلمة موجزة عن أسماء الأفعال

اسم الفعل هو : ماناب عن الفعل معنى واستعمالا ، ويمتاز عن الفعل بالإيجاز والمبالغة فى أداء المعنى الذى يدل عليه الفعل .

ويرد بمعنى الأمر كثيراً نحو : صه ومه بمعنى : اسكت وانكفف .

وبمعنى الماضى والمضارع نحو : شتان وهيهات بمعنى : افترق وبعد ، وأوه وأف بمعنى : أتوجع وأتضجر .

ومنه : مرتجل وضع من أول الأمر اسم فعل كما سبق .

ومنه : منقول من ظرف نحو : مكانك وأمامك بمعنى : اثبت وتقدم .

أو جار ومجرور نحو : عليك بمعنى : الزم .

أو مصدر استعمل فعله نحو : رويد زيداً ، أو أهمل فعله نحو : بله زيداً .

وهذه الأسماء سماعية إلا ما كان منها على وزن فعال من الفعل الثلاثى التام المتصرف نحو : حذار ونزال بمعنى : احذر وأنزل .

وهى مبنية ، منها : المبنى على الفتح نحو : هيهات ، والمبنى على الكسر نحو : نزال ، والمبنى على الضم نحو : آه بمعنى أتوجع ، والمبنى على السكون نحو : صه ومه ، ولا موضع لها من الإعراب على الأصح . وتعمل عمل الفعل الذى تدل عليه ، فإن كان متعدياً كانت متعدية ، وإن كان لازما ، كانت لازمة ومنها ما يكون متعدياً ولازماً نحو : هلم ، ولا تتقدم عليها معمولاتها إلا على مذهب الكوفيين(١) .

---

(١) ينظر فى ذلك : أوضح المسالك ٨١/٤ - ٩٠ ، شرح التصريح ١٩٥/٢-٢٠١ ، شرح الأشمونى بحاشية الصبان ١٩٤/٣ - ٢٠٧

ثانياً : الأسماء التي وردت في القرآن الكريم

(أف)

وردت هذه الكلمة في ثلاث آيات من القرآن الكريم هي :

قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا أياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً »(١) .

وقوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون »(٢) .

وقوله تعالى « والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ماهذا إلا أساطير الأولين »(٣) .

وهي اسم فعل بمعنى أتضجر ، وفيها لغات كثيرة(٤) .

قال ابن منظور : الأفف . الضجر ، وأف : كلمة تضجر ، وفيها عشرة

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ (٢) سورة الأنبياء : ٦٧

(٣) سورة الأحقاف : ١٧

(٤) قال السمين : وفيها لغات كثيرة وصلها الرماني إلى تسع وثلاثين . وذكر ابن عطية لفظة بها تمت الاربعون ... إلخ .

الدرر المصون ٣٨٤/٤ . وينظر أيضاً : معاني القرآن للأخفش ٣٨٧/٢ ، الخصائص ٣٩/٣ ، المحتسب ١٨/٢ ، الكشاف ٦٥٧/٢ ، البيان في غريب إعراب القرآن ٨٨/٢ ، الإملاء على الفتوحات الإلهية ٤٧٧/٣ ، شرح المفصل ٦٩/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٩٧١/٥ ، ارتشاف الضرب ٢٠٣/٣ ، البحر المحيط ٣٢/٧ ، شرح التصريح ١٩٧/٢ ، حاشية الصبان على الأشموني ١٩٨/٣

أوجه : أفٌّ له وأفَّ وأفْ وأفاً وأفةً وافٌ ، وفى التنزيل العزيز « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وأُفّى ممال وأُفى وأُفّةٌ وأُفْ خفيفة من أفَّ المشددة(١) .

(أَوْلَى)

قيل إنها اسم فعل ماض معناه : دنوت من الهلكة أو قاربك ما يهلكك أو وليك شر بعد شر .

وقد ذُكِرتْ هذه الكلمة خمس مرات فى ثلاث آيات هى :

قوله تعالى « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف .. »(٢) .

وقوله تعالى « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى »(٣) .

قال ابن الأنبارى : قوله تعالى « فأولى لهم » : مبتدأ وخبر ، وأولى اسم للتهدد كأنه قال : الوعيد لهم ، ولا ينصرف « أولى » لأنه على وزن أفعل معرفة . وقيل : إنه اسم للفعل ، فقولهم : أولى لك : اسم لقاربك ما يهلكك ، وهو أفعل من الوَلْى وهو : القرب ، يقال : تباعد عنا بعد وَلْى أى بعد قرب(٤) .

وقال ابن منظور : قوله عز وجل « أولى لك فأولى » معناه : التوعد والتهدد ، أى الشر أقرب إليك .

---

(١) اللسان ١/٩٥ (أفف) ، القاموس المحيط ٣/١١٤

(٢) سورة محمد ٢٠و٢١ ، وتمام الآية « ... فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

(٣) سورة القيامة : ٣٤ ، ٣٥

(٤) البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/٣٧٥ - ٤٧٨

وقال ابن جنى : « أولى » اسم دنوت من الهلكة . الخصائص ٣/٤٦

وقال ثعلب : معناه : دنوت من الهلكة ، وكذلك قوله تعالى « فأولى لهم » أى : وليهم المكروه ، وهو اسم لدنوت أو قاربت

وقال الأصمعى : « أولى لك » قاربك ما تكره . أى : نزل بك يا أباجهل ما تكره .

قال ثعلب : ولم يقل أحـــد فى « أولى لك » أحسن مما قال الأصمعى . . . . إلخ(١)

(تعال)

قيل أيضاً : إن هذه الكلمة اسم فعل أمر ، والصحيح أنها فعل صريح .

قال ابن الشجرى : يقال للرجل : تعال أى تقدم ، وللمرأة تعالَى وللاثنين والاثنتين تعالَيا وجماعة الرجال : تعالَوْا ، ولجماعة النساء : تعالين ، وجعلوا التقدم ضرباً من التعالى والإرتفاع ، لأن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له : تعال ، أى : ارفع شخصك بالقيام وتقدم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى . . . إلخ(٢) .

وقال أبو حيان : تعالى : تفاعل من العلو ، وهو فعل لاتصال الضمائر المرفوعة به ، ومعناه : استدعاء المدعو من مكانه إلى مكان داعيه ...إلخ(٣)

وقال السمين : تعال : فعل صريح وليس باسم فعل لاتصال الضمائر المرفوعة البارزة به . . . إلخ(٤) .

---

(١) اللسان ٦/٤٩٢٣ (ولى) ، وينظر فى ذلك أيضاً : الإملاء على الفتوحات الإلهية ٤/٤٣٥ـ الجامع لأحكام القرآن ٩/٦٢٩٤، ١٠/٧١٥٠ ، ارتشاف الضرب ٣/٢٠٦ ، البحر المحيط ٩/٤٥٦ ، الدرر المصون ٦/١٥٣ ، ٤٣٤

(٢) الامالى الشجرية ١ / ٤٧ المجلس الثامن .

(٣) البحر المحيط ٣ / ١٧٢

(٤) الدرر المصون ٢ / ١٢٢.

وقال الأشموني , غلط بعض النحويين(١) فعد هات وتعال من أسماء الأفعال وليسا منها بل هما فعلان غير متصرفين لوجوب اتصال ضمير الرفع البارز بهما ، كقولك للأنثى: هاتي و تعالَي وللاثنين والاثنتين : هاتيا وتعالَيا، وللجماعتين : هاتوا وتعالَوا وهاتين وتعالَين(٢) .

وقد وردت هذه الكلمة في ثماني آيات من القرآن الكريم هي :

قوله تعالى « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين »(٣) .

وقوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٤) .

وقوله تعالى « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »(٥)

وقوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »(٦) .

وقوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول

---

(١) قال الصبان : قال الدماميني : لا وجه للتغليط فإن الذاهب إلى هذا لا يلتزم ما قيل من أن لحوق الضمائر البارزة لا يكون إلا في الأفعال ، بل من عدهما من أسماء الأفعال يجوز لحوقهما بما قوى شبهه بالأفعال ، ويعتذر عن لحوق الضمائر بهما بقوة مشابهتهما للأفعال فعوملا معاملتها في ذلك . حاشية الصبان على الأشموني ٣ / ٢٠٥

(٢) شرح الأشموني ٣ / ٢٠٥

(٣) سورة آل عمران : ٦١

(٤) سورة آل عمران : ٦٤

(٥) سورة آل عمران ١٦٧

(٦) النساء : ٦١

قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »(١) .

وقوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »(٢) .

وقوله تعالى « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين(٣) أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا »(٤) .

---

(١) سورة المائدة : ١٠٤ (٢) سورة الأنعام : ١٥١

(٣) قال السمين : ثبتت الياء فى أمر جماعة الإناث كما تقول : يا نسوة تعالين إذ لا مقتضى للحذف ولا للقلب ، وذلك أن : تعالى يتعالى أصل ألفه ياء كترامى يترامى . وأصل هذه الياء واو ، لأنه مشتق من العلو وهو الارتفاع ، والواو متى وقعت رابعة فصاعداً قلبت ياء فصار : تعالو : تعالى فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقلب ألفاً فصار : تعالى كترامى وتعازى ، فإذا أمرت منه الواحد قلت : تعال يا زيد بحذف الألف ، وكذا إذا أمرت الجمع المذكر قلت : تعالوا ، لأنك لما حذفت الألف لأجل الأمر أبقيت الفتحة مشعرة بها . وإن شئت قلت : الأصل : تعاليوا وأصل هذه الياء واو كما تقدم ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان فحذف أولهما وهو الياء وتركت الفتحة على حالها ، وإن شئت قلت : لما كان الأصل : تعاليوا تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله وهو الياء فقلب ألفاً فالتقى ساكنان فحذف أولهما وهو الألف وبقيت الفتحة دالة عليه . والفرق بين هذا وبين الوجه الأول أن الألف هناك حذفت لأجل الأمر وإن لم تتصل به واو ضمير ، وهنا حذفت لالتقائها مع واو الضمير ، وكذلك إذا أمرت الواحدة تقول لها : تعالى ، فهذه الياء هى ياء الفاعلة من جملة الضمائر والتصريف كما تقدم ، وأما المثنى المذكر والمؤنث فإن الياء تثبت فيه كما كان فى أمر جماعة الإناث . الدر المصون ٢ / ١٢١ بتصرف .

(٤) سورة الأحزاب : ٢٨

وقوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون »(١) .

(حَسْبُ)

ذكر بعض النحويين أن هذه الكلمة اسم فعل بمعنى : ليكف ، أو اسم فعل ماض بمعنى : كفى ، وردّ ذلك فيما سنذكره بعد ذكر الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة ، إذ وردت في ثماني آيات هي :

قوله تعالى « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد »(٢) .

وقوله تعالى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »(٣) .

وقوله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »(٤) .

وقوله تعالى « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »(٥) .

وقوله تعالى « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون »(٦) .

وقوله تعالى « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم »(٧) .

وقوله تعالى « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا

---

(١) سورة المنافقون : ٥
(٢) سورة البقرة : ٢٠٦
(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٣
(٤) سورة المائدة الآية ١٠٤
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٤
(٦) سورة التوبة الآية ٥٩
(٧) سورة التوبة الآية ٦٨

عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير »(١) .

وقوله تعالى « ... ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا »(٢) .

قال أبو حيان : ومما فيه خلاف - أى من أسماء الأفعال - حسب :

تقول العرب : حسبك درهمان ، فزعم الجرمى أن حسب فى معنى الأمر ، والضمة فى الباء ضمة بناء ، والكاف حرف خطاب لا موضع له من الإعراب »(٣) .

وقال فى موضع آخر : وأما قول العرب : حسبك ينم الناس .

فذهب أبو عمرو بن العلاء والجرمى إلى أن ضمة حسبك بناء ، وهو اسم سمى به الفعل ، والكاف حرف خطاب .

وذهب الجمهور إلى أنها ضمة إعراب ، فقيل : مبتدأ محذوف الخبر لدلالة المعنى عليه ، والتقدير : حسبك السكوت ينم الناس .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٨

(٢) سورة الطلاق الآية ٢ ، ٣

(٣) وقيل : الضمة ضمة بناء ، والكاف فى موضع جر وهى مفعولة فى المعنى ولم يمنع البناء الإضافة كما قالوا : اضرب أيهم قائم .

وذهب المازنى إلى أن حسبك : مبتدأ ، ودرهمان : خبره ، وذهب بعضهم إلى أنه مبتدأ ، ودرهمان : معموله ، تقديره : ليكفك درهمان ، ولا خبر له لأنه فيه معنى الأمر .

ارتشاف الضرب ٣ / ٢٠٥

وذهب جماعة منهم الأخفش الى أنه مبتدأ لا خبر له ، إذ معناه : اكتف وهو اختيـار أبي بكر بن طاهر(١) .

وأبطل عند قوله تعالى « فحسبه جهنم »(٢) كون حسب اسم فعل حيث قال : « فحسبه جهنم » أى كافيه جزاء وإذلالا جهنم ، وهى جملة مركبة من مبتدأ وخبر .

وذهب بعضهم إلى أن « جهنم » فاعل بـ « حسبه » لأنه جعله اسم فعل ، إما بمعنى الفعل الماضى أى : كفاه جهنم ، أو بمعنى فعل الأمر ، ودخول حرف الجر عليه واستعماله صفة وجريان حركات الإعراب عليه يبطل كونه اسم فعل (٣) .

وقال السمين « حسبه » مبتدأ و « جهنم » خبره .

وقيل : جهنم : فاعل بحسب ثم اختلف القائل بذلك فى حسب ، فقيل : هو بمعنى اسم الفاعل(٤) أى الكافى . وهو فى الأصل مصدر أريد به اسم الفاعل ، والفاعل هو ؛ جهنم سد مسد الخبر ، وقوى حسب لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها ، وقيل ؛ بل « حسب » اسم فعل ، والقائل بذلك اختلف ؛ فقيل . اسم فعل ماضى أى كفاهم ، وقيل : اسم فعل أمر أى ؛ ليكفهم ، إلا أن إعرابه ودخول حرف الجر عليه يمنع كونه اسم فعل(٥)

---

(١) ارتشاف الضرب ٢ / ٢٣ (٢) سورة البقرة : ٢٠٦

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٢٣

(٤) قال الزمخشرى فى قوله تعالى « حسبنا الله ونعم الوكيل » آل عمران : ١٧٣ . « حسبنا الله» محسبنا أى كافينا ، يقال : أحسبه الشىء إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ، لأن إضافته لكونه فى معنى اسم الفاعل غير حقيقية .

الكشاف ١ / ٤٤٢

(٥) الدر المصون ١ / ٥٠٨

(عَلَيْكَ)

اسم فعل أمر بمعنى الزم ، منقول من الجار والمجرور ، وقد ورد ذكره في ثلاث آيات من القرآن الكريم هي :

قوله تعالى « والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً »(١) .

وقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون »(٢) .

وقوله تعالى « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »(٣) .

فـ « عليكم » في قوله تعالى « كتاب الله عليكم » اسم فعل بمعنى : الزموا كتاب الله على أن كتاب منصوب على الإغراء بعليكم « والتقدير : عليكم كتاب الله أي : الزموه » ، وهذا على رأى الكوفيين حيث أجازوا تقديم معمول اسم الفعل عليه ، أما البصريون فيمنعون ذلك ويؤولون الآية على أن « كتاب » منصوب لأنه مصدر ، والعامل فيه فعل مقدر . والتقدير كتب كتاباً الله عليكم ، وإنما قدر هذا الفعل ولم يظهر لدلالة ماتقدم عليه(٤) .

---

(١) سورة النساء الآية ٢٤

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٥ (٣) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٤) الإنصاف ١ / ٢٢٨ – ٢٣٥ ، مسألة رقم ٢٧ ، البيان في غريب إعراب القرآن ١ / ٢٤٨ ، ائتلاف النصرة : ٣٤ ، ٣٥

قال أبو البقاء : « كتاب » منصوب على المصدر بكتب محذوفة دل عليه قوله « حرمت »(١) لأن التحريم كتب ، وقيل : انتصابه بفعل محذوف تقديره : الزموا كتاب الله و « عليكم » إغراء .

وقال الكوفيين : هو إغراء والمفعول مقدم ، وهذا عندنا غير جائز لأن عليكم وبابه عامل ضعيف ، وفى التقديم تصرف ... إلخ(٢) .

وأما « عليكم » فى قوله تعالى « عليكم أنفسكم » فالجمهور على أنها اسم فعل أى : الزموا أنفسكم .

قال الزمخشرى : « عليكم » من أسماء الفعل بمعنى : الزموا إصلاح أنفسكم ، ولذلك جزم جوابه(٣) .

وقال ابن الأنبارى : « أنفسكم » منصوب على الإغراء ، أى : احفظوا أنفسكم كما تقول : عليك زيداً ، و « لا يضركم » فى موضع الجزم لأنه جواب « عليكم » وكان ينبغى أن يفتح آخره إلا أنه أتى به مضموماً تبعا لضم ما قبله(٤) .

وأما « عليكم » فى قوله تعالى « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » . .

فقيل : إنها اسم فعل على أن يكون الكلام قد تم عند قوله « ربكم » ثم ابتدأ فقال « عليكم ألا تشركوا » أى الزموا نفى الإشراك وعدمه .

---

(١) سورة النساء آية ٢٣ . قال تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت » ...الآية

(٢) الإملاء على الفتوحات الإلهية ٢ / ٢٢٦ ، وينظر أيضاً : المقتضب ٣ / ٢٠٣ ، البحر المحيط ٣ / ٥٨٤ ، الدر المصون ٢ / ٣٤٥ ، شرح اللمحة البدرية ٢ / ١١٣ ، أوضح المسالك ٤ / ٨٨ .

(٣) الكشاف ١ / ٦٨٦ ، وينظر أيضاً : البحر المحيط ٤/٣٨٨ ، الدر المصون ٢/٦٢٣

(٤) البيان فى غريب إعراب القرآن ١ / ٣٠٧

قال ابن الأنبارى : . . . ويجوز أن تقف على قوله « ربكم » ثم تبتدئ وتقرأ « عليكم ألا تشركوا » أى : عليكم ترك الإشراك ، فيكون « ألا تشركوا » فى موضع نصب على الإغراء بـ « عليكم »(١) واستبعد أبو حيان ذلك فقال : وهذا بعيد لتفكيك الكلام عن ظاهره(٢) وضعفه السمين فقال : وهذا ضعيف لتفكيك التركيب عن ظاهره ، ولأنه لا يتبادر إلى الذهن(٣) .

(مَكَانَكَ)

اسم فعل أمر بمعنى اثبت(٤) . منقول من ظرف المكان ، وقد ورد ذكره فى آية واحدة وهى :

---

(١) قال ابن الأنبارى قبل هذا الكلام : « ما » يجوز أن تكون اسماً موصولا ، وأن تكون استفهامية فإن كانت اسماً موصولا كانت بمعنى الذى فى موضع نصب لأنها مفعول « أتل » و « حرم ربكم » صلته ، والعائد محذوف للتخفيف وتقديره : حرمه ربكم ، و « ألا تشركوا » فى موضع نصب على البدل من الهاء أو من « ما » و « لا » زائدة وتقديره : حرم أن تشركوا . ويجوز أن تكون « ألا تشركوا » فى موضع رفع لأنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : هو ألا تشركوا ، ويجوز أن تكون « أن » بمعنى أى ، و « لا » نهى ، وتقديره : أى : لا تشركوا ، وإن كانت ما استفهامية كانت فى موضع نصب بـ « حرم » . وتقديره : أى شىء حرم ربكم ، ويجوز أن تقف . إلخ . البيان ١ / ٣٤٩ ، وينظر أيضاً : الإملاء ٢ / ٦٥٢ ، البحر المحيط ٤/٦٨٦ ، حاشية الصبان على الأشمونى ٣/٢٠٠

(٢) البحر المحيط ٤/٦٨٦ (٣) الدر المصون ٣/٢١٥

(٤) فسره الزمخشرى وابن الأنبارى وأبو البقاء وغيرهم بالزموا ، قال أبو حيان : هذا ليس جيد ، إذ لو كان كذلك لكان « مكانك » الذى هو اسم فعل يتعدى كما يتعدى : الزموا ، ألا ترى أن اسم الفعل إذا كان الفعل لازماً كان اسم الفعل لازماً ، وإذا كان متعدياً كان متعدياً . مثال ذلك : عليك زيداً ، =

قوله تعالى « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون . . »(١)

قال ابن يعيش ؛ وقالوا : مكانك بمعنى : اثبت . قال الله تعالى « مكانكم أنتم وشركاؤكم » فأكد الضمير فى « مكانكم » حيث عطف عليه الشركاء ، فهو كقولك : اثبتوا أنتم وشركاؤكم (٢) .

وقال السمين : « مكانكم » اسم فعل ، فسره النحويون باثبتوا فيتحمل ضميرا ، ولذلك أكد بقوله « أنتم » وعطف عليه « شركاؤكم »(٣) .

(هَا أو هَاء)

هذه الكلمة تكون فعلا واسم فعل أمر ، ومعناها فى الحالين : خذ ، فإن كانت اسم فعل ففيها لغتان : القصر على أنها ثنائية مثل ؛ صه ومه ، والمد على أنها ثلاثية مثل ؛ خاف وهاب .

وقد وردت هذه الكلمة فى آية واحدة هى ؛

قوله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه »(٤)

قال ابن يعيش ؛ اعلم أن ها من الأصوات المسمى بها الفعل فى الأمر ،

= لما ناب مناب الزم تعدى ، وإليك لما ناب مناب : تنح لم يتعد ، ولكون « مكانك » لا يتعدى قدره النحويون : اثبت ، واثبت لا يتعدى ، البحر المحيط ٦١/ ٤٩ . والتمس السمين العذر لهؤلاء بأنهم يقصدون تفسير المعنى حيث قال : والعذر لمن فسره بذلك ـ أى الزموا ـ أنه قصد تفسير المعنى ؛ الدر المصون ٤ / ٢٧

(١) سورة يونس ٢٨ (٢) شرح المفصل ٤/ ٧٤

(٣) الدر المصون ٤/ ٢٦ ، وينظر الكشاف ٢/ ٣٤٣ . البيان فى غريب إعراب القرآن ١/ ٤١١ . الإملاء ٣/ ٢٢٨ . الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٢٦٠

(٤) سورة الحاقة الآية ١٩

ومسماه : خذ وتناول ونحوهما ، ومنهم من يجعله ثنائياً مثل : صه ومه ، وتلحقه كاف الخطاب فيقال : هاك يا رجل ، وهاك يا امرأة ، وها كما للمثنى المذكر والمؤنث ، وهاكم وهاكن ، فالإسم ها وفيه ضمير بحسب المخاطبين . إلا أنه لا يظهر ذلك الضمير ، والكاف حرف خطاب لا موضع له من الإعراب . . ، ومنهم من يقول : هاء بهمزة بعد الألف يجعله ثلاثياً كخاف وهاب ، ويفتح الهمزة مع المذكر وبكسرها مع المؤنث . . ويكون فيه ضمير مستتر ، فإن ثنى أو جمع ظهر نحو : هاؤما وهاؤم . قال الله تعالى « هاؤم اقرؤا كتابيه » وفى جماعة المؤنث : هاؤن ، وهذه أجود لغاتها . وبها ورد الكتاب العزيز . . إلخ(١) .

وقال السمين : « هاؤم » أى خذوا . وفيها لغات . وذلك أنها تكون فعلا صريحاً ، وتكون اسم فعل ، ومعناها فى الحالين : خذ ، فإن كانت اسم فعل وهى المذكورة فى الآية الكريمة ففيها لغتان : المد والقصر ، ثم قال : فقوله « هاؤم » يطلب مفعولا وهو « كتابيه » يتعدى إليه بنفسه إن كان بمعنى خذ أو اقصد . وبإلى إن كان بمعنى : تعالوا ، و « اقرءوا » يطلبه أيضاً ، فقد تنازعا فى « كتابيه » وأعمل الثانى(٢) واختلف فى مدلولها : فالمشهور أنها بمعنى : خذوا ، وقيل : معناها : تعالوا فيتعدى بإلى ، وقيل :

---

(١) شرح المفصل ٤٣/٤ بتصرف .

(٢) قال الزمخشرى : « كتابيه » منصوب بـ « هاؤم » عند الكوفيين . وعند البصريين بـ « اقرؤا » ، لأنه أقرب العاملين . وأصله : هاؤم كتابيه اقرؤا كتابيه . فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . الكشاف ٦٠٢/٤

قال ابن مالك : مذهب البصريين ترجيح إعمال الثانى على الأول . ومذهب الكوفيين العكس وماذهب إليه البصريون هو الصحيح لأن إعمال الثانى أكثر فى الكلام من إعمال الأول ، وموافقة الأكثر أولى من موافقة الأقل .. إلخ : شرح التسهيل ١٦٧/٢ . والمسألة بتمامها فى الإنصاف ٨٣/١ - ٩٦ مسألة رقم ١٣

هي كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط .. إلخ(١) .

(هَاتِ)

وردت هذه الكلمة في أربع آيات من القرآن الكريم وهي :

قوله تعالى « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٢) .

وقوله تعالى « أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون »(٣) .

وقوله تعالى «أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٤) .

وقوله تعالى « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون »(٥) .

قيل : إنها اسم فعل أمر بمعنى : أحْضِر أو أعْطِني وناولني ، قال ابن يعيش : ومن ذلك - أي من أسماء أفعال الأمر - هات الشيء أي أعطنيه ، وهو اسم لأعطني وناولني ونحوهما ، وهو مبني لوقوعه موقع الأمر ، وكسر لالتقاء الساكنين : الألف والتاء ، وقال بعضهم : هو من آتى يؤاتي ، والهاء فيه بدل من الهمزة .. إلخ(٦) .

وقيل : إنها فعل . وهو الصحيح .

(١) الدر المصون ٦ / ٣٦٥ وينظر شرح الكافية للرضي ٢ / ٦٩ ، البحر المحيط ١٠ / ٢٦٠ ، ارتشاف الضرب ٣/١٩٩

(٢) سورة البقرة الآية ١١١ (٣) سورة الأنبياء الآية ٢٤

(٤) سورة النمل : ٦٤ . (٥) سورة القصص ٧٥

(٦) شرح المفصل ٤/٣٠ .

قال أبو البقاء : « هاتوا » فعل متعد إلى مفعول واحد ، وتقديره أحضروا(١) .

وقال السمين : اختلف فى هات على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه فعل ، وهذا هو الصحيح لاتصاله بالضمائر المرفوعة البارزة نحو : هاتوا ، هاتى ، هاتيا ، هاتين(٢) .

الثانى : أنه اسم فعل بمعنى أحضر .

الثالث : وبه قال الزمخشرى(٣) أنه اسم صوت بمعنى ها التى بمعنى أحضر .

ثم قال : وأصل هاتوا : هاتيوا فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان ، فحذف أولهما : وضم ماقبله لمجانسة الواو ، فصار هاتوا(٤) .

وغلَّظ الأشمونى مَنْ عَدَّ هاتِ من أسماء الأفعال . وقال : إنه فعل لوجوب اتصال ضمير الرفع البارز به(٥) .

---

(١) الإملاء على الفتوحات ٢٣٢/١ .

(٢) قال ابن منظور . يقال : هات يا رجل بكسر التاء أى : أعطنى . وللاثنين : هاتيا مثل آتيا . وللجمع : هاتوا . وللمرأة : هاتى بالياء ، وللمرأتين : هاتيا . وللنساء : هاتين مثل : عاطين .

اللسان ٤٧٣٢/٦ (هيت) .

(٣) الكشاف ١٧٨/١ .

(٤) الدر المصون ٣٤٤/١ .

(٥) شرح الأشمونى بحاشية الصبان ٢٠٥/٣ وقد ذكرت كلامه وكلام الصبان فى الحديث عن : تعال .

(هَلُمَّ)

اسم فعل أمر عند الحجازيين ، وفعل عند التميميين ، ذُكِرَتْ فى آيتين من القرآن الكريم هما :

قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون »(١) .

وقوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا »(٢) .

قال سيبويه : فى باب (ما لا تجوز فيه نون خفيفة ولا ثقيلة) : وذلك الحروف التى للأمر والنهى وليست بفعل ، وذلك نحو : إيه وصه ومه وأشباهها ، وهلم فى لغة أهل الحجاز كذلك . ألا تراهم جعلوها للواحد والاثنين والجمع والذكر والأنثى سواء . وقد تدخل الخفيفة والثقيلة فى هلم فى لغة بنى تميم . لأنها عندهم بمنزلة : رُدَّ ورُدَّا ورُدِّى واردُدن كما تقول : هلم وهلما وهلمى وهَلْمُمْنَ . والهاء فضل . إنما هى ها التى للتنبيه . ولكنهم حذفوا الألف لكثرة استعمالهم هذا فى كلامهم(٣) .

وقال المبرد : فى باب (ماجرى مجرى الفعل وليس بفعل ولامصدر) : ومنها : أى من أسماء الأفعال ـ مايتعدى وهو قولك : عليك زيداً ، ودونك زيداً إذا أغريته وكذلك : هلم زيداً ، فهذه اللغة الحجازية ، يقع هلمْ فيها موقع ماذكرنا من الحروف فيكون للواحد والاثنين والجمع على لفظ واحد كأخواتها المتقدمات . قال تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلم

---

(١) سورة الأنعام ١٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب ١٨ .

(٣) الكتاب ٣/٥٢٩ .

إلينا ، فأما بنو تميم فيجعلونها فعلا صحيحاً ، ويجعلون الهاء زائدة .. إلخ(١).

قال ابن جنى : وأعلى اللغتين الحجازية ، وبها نزل القرآن(٢) .

وقال ابن يعيش بعد ذكره مذهب أهل الحجاز : وهو القياس ، وبه ورد التنزيل ، وإنما كان هو القياس لأنه قد قامت الدلالة على أنه اسم وليس القياس فى الأسماء أن تتصل بها علامة الضمير المرفوع ، إنما ذلك للأفعال والذى يدل على خروجه من حكم الأفعال مخالفتهم مجراه فى لغتهم ، لأن لغتهم أن يقولوا للواحد : الم بإظهار التضعيف نحو : اردد واشدد ، فلما ركبوه مع غيره وسموا به خرج عن حكم الفعل ، فلم يظهر فيه علامة تثنية ولا جمع .

ثم قال بعد ذكره مذهب بنى تميم : واعلم أن بنى تميم وإن كانوا يجرونها مجرى الفعل فى اتصال الضمير بها لشدة شبهها بالفعل وإفادتها فائدة الفعل فهى عندهم أيضاً اسم للفعل ، وليست مبقاة على أصلها من الفعلية قبل التركيب والضم ، والذى يدل على ذلك أن بنى تميم يختلفون فى آخر الأمر من المضاعف ، فمنهم من يُتْبِع فيقول : رُدُّ بالضم وفِرِّ بالكسر وعَضَّ بالفتح ، ومنهم من يكسر على كل حال ، ومنهم من يفتح على كل حال ، ثم رأيناهم كلهم مجتمعين على فتح الميم من هلم ، وليس أحد يكسرها ولا يضمها ، فدل ذلك على أنها خرجت عن طريق الفعلية وأُخْلِصَت اسماً للفعل نحو : دونك ورويدك وعندك(٣) .

وتستعمل هلم متعدية بمعنى : أَحْضِر وقَرِّبْ ، وقاصرة بمعنى : أَقْبِل. قال ابن يعيش : وهى - أى هلم - تكون على وجهين : متعدية وغير

---

(١) المقتضب ٢٠٢/٣ .

(٢) الخصائص ٣٨/٣ .

(٣) شرح المفصل ٤٢/٤ وذكر ذلك أيضاً ابن جنى فى الخصائص ٣٨/٣ .

متعدية ، فالمتعدية نحو قولهم : هلم زيداً بمعنى : قَرِّبه وأحْضِرْه ، فتكون كهات ، قال الله تعالى « هلم شهداءكم »(١) ، وغير المتعدية قولك : هلم يا زيد بمعنى : أيت واقرُب ، قال الله تعالى « هلم إلينا »(٢) فعداه بحرف الجر .. إلخ(٣) .

وأصل هلم عند الخليل وسيبويه(٤) : ها ضمت إليها : لُمَّ أمراً من لم الله شَعَثَه أى جمعه والمعنى عليه فى هلم ، لأنه أجمع نفسك إلينا ، ثم حذفت ألف ها لكثرة الاستعمال ، وذهب الفراء : إلى أنها مركبة من : هل التى للزجر ومن أمَّ أمراً من الأمِّ وهو القصد ، وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات ، قال القرطبى : وفى كتاب العين للخليل : أصلها : هل أؤُم ، أى ، هل أقصدك ثم كثر استعمالهم إياها حتى صار المقصود بقولها : احضر ، كما أن تعال أصلها أن يقولها المتعالى للمتسافل ، فكثر استعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للمتعالى : تعال(٥) .

قال السمين : جمهور البصريين على أنها مركبة من ها التى للتنبيه ، ومن : الم أمراً من لم يلم ، ... إلخ ، حيث ذكر المذاهب كلها ثم قال : وقد رُدَّ كل واحد من هذه المذاهب بما يطول الكتاب بذكره من غير فائدة(٦) .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٠ .

(٢) سورة الاحزاب ١٨ .

(٣) شرح المفصل ٤٣/٤ ارتشاف الضرب ٢١٠/٣ البحر المحيط ٦٨٣/٤ الدر المصون ٢١٢/٣ .

(٤) الكتاب ٥٢٩/٣ قال : والهاء فضل . إنما هى ها التى للتنبيه . ولكنهم حذفوا الألف لكثرة استعمالهم هذا فى كلامهم .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٤٩/٣ .

(٦) الدر المصون ٢١٢/٣ وينظر أيضاً فى هلم عموماً : معانى القرآن للأخفش ٢٩٠/٢ المقتضب ٢٠٢/٣ المسائل العضديات ٢٧٨ الخصائص ٣٧/٣ الكشاف

(هَيْتَ)

تستعمل هيت اسماً للفعل الماضي بمعنى تهيأت ، واسماً لفعل الأمر بمعنى ؛ أقبل أو تعال ، وتستعمل فعلا بمعنى تهيأت ، وذلك بحسب اللغات التي وردت فيها .

وقد وردت هذه الكلمة فى آية واحدة هى ؛

قوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون »(١) .

قال ابن جنى : فيها لغات : هَيْتَ لك ، وهِيتَ لك ، وهيْتُ لك ، وهَيْتِ لك ، وكلها اسماء سمى بها الفعل بمنزلة ؛ صه ومه وإيه فى ذلك . ومعنى هيت وبقية أخواتها ؛ أسرع وبادر . .

ثم قال : وأما : هِئْتُ(٢) بالهمز وضم التاء فَفِعْل ، يقال فيه : هِئْتُ(٣) أهيءُ هَيْئَةً كَجِئْتُ أجيءُ جَيْئَةً أى : تهيأت ، وقالوا أيضاً : هِئْتُ ، أهاء كخِفْتُ أخافُ ، هذا بمعنى خذ . . وأما : هُيِّئْتُ لك ففعل صريح كهِئْتُ لك ،

=٧٧/٢ ؛ ٥٢٩/٣ الإملاء على الفتوحات الإلهية ٦٥:٢/٢ شرح المفصل ٤١/٤ ، شرح الكافية للرضى ٧٢/٢ لسان العرب ٤٦٩٤/٦ (هلم) المستوفى ١ / ١٥٤ ، ارتشاف الضرب ٢٠٩/٣ البحر المحيط ٦٨٣/٤ ، ٤٦٣/٨ الدر المصون ٤٠٧/٥ شرح اللمحة البدرية ١١٣/٢ شرح الأشمونى ٢٠٦/٣ .

(١) سورة يوسف ٢٣

(٢) قراءة من القراءات التى وردت فيها ، وكذلك : هيئت . المحتسب ١ / ٣٣٧ .

(٣) الهيئة: الحالة الظاهرة . يقال : هاء يهوء ويهىء هيئة حسنة إذا صار إليها . المصباح المنير ٨٨٨/٢ (هيأ) .

كقولك : أصْلِحْتُ لك ، أى : فدونك ، وما انتظارك ؟ واللام متعلقة بنفس :
هَيْتَ وهَيْتِ وهِيتَ وهَيْتُ كتعلقها بنفس هلم لك ، وإن شئت كانت خبر
مبتدأ محذوف ، أى : إرادتى لذلك ، فأما هِئْتُ لك وهُيِّئْتُ فاللام فيه متعلقة
بالفعل نفسه كقولك : أصْلِحْتُ لكذا وصَلَحتُ لكذا[1] .

وقال أبو البقاء : قوله تعالى « هيت لك » فيه قراءات :

إحداها : فتح الهاء والتاء وياء بينهما ، والثانية : كذلك إلا أنه يكسر التاء ، والثالثة : كذلك إلا أنه يضمها ، وهى لغات فيها ، والكلمة : اسم للفعل ، فمنهم من يقول : هو خبر معناه : تهيأت ، وبنى كما بنى شتان ، ومنهم من يقول : هو اسم للأمر ، أى : أقبل وهلم ، فمن فتح طلب الخفة ، ومن كسر فعلى التقاء الساكنين مثل : جير ، ومن ضم شبهه بحيث ، واللام على هذا للتبيين مثل التى فى قولهم : سقياً لك ، والقراءة الرابعة : بكسر الهاء وهمزة ساكنة وضم التاء ، وهو على هذا فعل من هاء يهاء مثل شاء يشاء ، ويهيء مثل : فاء يفيء ، والمعنى : تهيأت لك ، أو خلقت ذا هيئة لك ، واللام متعلقة بالفعل ، والقراءة الخامسة : هُيِّئْتُ لك ، والسادسة : بكسر الهاء وسكون الهمزة وفتح التاء ، والأشبه أن تكون الهمزة بدلا من الياء ، أو تكون لغة فى الكلمة التى هى اسم للفعل ، وليست فعلا ، لأن ذلك يوجب أن يكون الخطاب ليوسف عليه السلام وهو فاسد لوجهين :

أحدهما : أنه لم يتهيأ لها ، وإنما هى تهيأت له ، والثانى . أنه قال « لك » ولو أراد الخطاب لكان . هئت لى[2] .

---

(١) المحتسب ١/٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) الإملاء على الفتوحات ٣/٣٢٧ وينظر أيضاً : البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/٣٧ شرح المفصل ٤/٣٢ الجامع لاحكام القرآن ٤/٣٤٨٥ البحر المحيط ٦/٢٥٦ ، ارتشاف الضرب ٣/٢٠١ ، الدر المصون ٤/١٦٧ ، المغنى ٢٩٣ .

(هَيْهَاتَ)

اسم فعل ماضى بمعنى « بعد » وفيها لغات كثيرة أيضاً ، وورد ذكرها فى القرآن الكريم مرتين فى آية واحدة هى :

قوله تعالى « هيهات هيهات لما توعدون »(١) .

قال الفارسى : هيهات اسم سمى به الفعل فى الخبر ، كما أن رويد فى مثل : رويد زيداً وعليك ونحوهما أسماء سمى بها الفعل فى الأمر

ثم قال : فأما إعراب الاسم الواقع بعدها فى قولهم : هيهات أن يكون كذا ، وهيهات كون كذا فرفع بأنه فاعل ، فأما هيهات نفسها فلا موضع لها من الإعراب فى قول من لم يجعلها ظرفاً ، كما لا موضع لقولنا : ذهب من ذهب زيد وقام عمرو ، والاسم الذى بعدها مرفوع فى القولين بأنه فاعل ، فأما ما فى التنزيل من قوله « هيهات هيهات لما توعدون » ففيه ضمير فاعل ، وذلك الضمير يرجع إلى الإخراج الذى دل عليه قوله « أنكم مخرجون »(٢) التقدير : هيهات هيهات إخراجكم ، أى . بعد ذلك وامتنع على نحو ما كانوا عليه من إنكارهم البعث والإحياء بعد الموت : فالتقدير : بَعُدَ إخراجكم لوعدكم لأن الوعد عندهم لم يكن صحيحا .. إلخ(٣) .

قال ابن هشام : اختلف فى قوله تعالى « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون » فقيل . اللام زائدة ، وما . فاعل ، وقيل : الفاعل ضمير مستتر راجع إلى البعث أو الإخراج

---

(١) سورة المؤمنون ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون ٣٥ ، قال تعالى : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) .

(١) المسائل العضديات ١٦٧ - ١٧٣ بتصرف .

فاللام للتبين . وقيـــل : هيهات مبتدأ بمعنى البعد . والجار والمجرور : خبر(١) .

هذا وقد جمع السمين(٢) ماقيل فى هيهات إذ ذكروا فيها لغات كثيرة تزيد على الأربعين مما يضيق المقام عن ذكره .

(وَىْ)

اسم فعل مضارع بمعنى : أعجب ، وردت فى القرآن الكريم مرتين فى آية واحدة هى :

قوله تعالى « وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون »(٣) .

قال الشيخ خالد : وا ، ووى ، وواهاً كلها بمعنى : أعجب بفتح الهمزة .

كقوله تعالى « ويكأنه لايفلح الكافرون » ، فوى : اسم فعل مضارع بمعنى : أعجب لعدم فلاح الكافرين هذا قول الخليل وسيبويه(٤) .

---

(١) المغنى ٢٩٣ .

(٢) الدر المصون ١٨٣/٥ وينظر أيضاً : الكتاب ٢٩١/٣ المقتضب ١٨٢/٣ المحتسب ٩٠/٢ الخصائص ٤٣/٣ ، الكشاف ١٨٦/٣ ، البيان فى غريب إعراب القرآن ١٨٤/٢ ، الإملاء على الفتوحات الإلهية ٥٦/٤ ، شرح المفصل ٦٥/٤ ، شرح الكافية للرضى ٧٣/٢ المستوفى ١٥٥/١ ، ارتشاف الضرب ٢٠٧/٣ ، البحر المحيط ٥٦٠/٧ شرح التصريح ١٩٦/٢ شرح الاشمونى ١٩٩/٣ .

(٣) سورة القصص آية ٨٢

(٤) فى الكتاب ١٥٤/٢ :وسألت الخليل رحمة الله تعالى عن قوله « ويكأنه =

وقال أبو الحسن: وى بمعنى: أعجب، والكاف حرف خطاب، وقيل: الكاف للتشبيه بمعنى الظن، فهما كلمتان.

وقال الكسائى: وى محذوفة من: ويلك ... إلخ(٢).

قال الأشمونى: فحذفت اللام لكثرة الاستعمال، وفتح أنّ بفعل مضمر كأنه قال: ويك أعلم أنّ.

وقال قطرب: قبلها لام مضمرة، والتقدير، ويك لأن، والصحيح الأول(٣).

= لا يفلح الكافرون » وعن قوله تعالى جده « ويكان الله » فزعم أنها وى مفصولة عن كأن، والمعنى وقع على أن القوم انتهوا فتكلموا على قدر علمهم، أو نبهوا فقيل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا، والله تعالى أعلم، وأما المفسرون فقالوا ألم تر أن الله؟

قال السيرافى: فى ويكأن ثلاثة أقوال:

أحدها: قول الخليل الذى ذكرناه، تكون وى كلمة تندم يقولها المتندم ويقولها المتندم لغيره ومعنى كأن التحقيق.

الثانى: قول الفراء، تكون ويك موصولة بالكاف، وأن منفصلة ومعناها عنده تقرير كقولك: أما ترى؟

والثالث: يذهب إلى أن ويك بمعنى ويلك، وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر، كأنه قال: ويلك أعلم أن الله. هامش الكتاب ٢ / ١٥٤

(١) شرح التصريح ٢ / ١٩٧

(٢) قال الصبان: قوله: والصحيح الاول: أى كون وى اسم فعل بمعنى: أعجب والكاف للتعليل بقرينة تقويته بكلام سيبويه.

شرح الأشمونى بحاشية الصبان ٣ / ١٩٩

وقيل : إن « ويكأن » كلمة مستقلة بسيطة ، ومعناها : ألم تر ؟ (١) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

* * *

(١) الدر المصون ٥ / ٣٥٤ . وينظر فى ذلك أيضاً : الخصائص ٣/ ٤٢ ، الكشاف ٣ / ٤٣٤ البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/٢٣٧ ، الإملاء على الفتوحات الإلهية ٤/١٥٨ ،شرح المفصل٤/٧٦ الجامع لأحكام القرآن ٧/٥٢٠٦، ارتشاف الضرب ٣ / ١٩٩ ، البحر المحيط ٨/ ٣٢٩ ، الجنى الدانى : ٨٤ ، المغنى: ٤٨٣ ، أوضح المسالك ٤ / ٨٣

أهم المصادر المراجع

١ - ائتلاف النصرة فى اختلاف نحاة الكوفة والبصرة لعبد اللطيف ابن أبى بكر الشرجى. ت د / طارق الجنابى . عالم الكتب . مكتبة النهضة العربية .

٢ - ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان . ت د / مصطفى النماس . الطبعة الأولى .

٣ - الأمالى الشجرية . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت - لبنان .

٤ - الإملاء على الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين - مطبعة عيسى البابى الحلبى .

٥ - الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى . ت / الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية — صيدا — بيروت .

٦ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام . ت / الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية — صيدا — بيروت .

٧ - البحر المحيط لأبى حيان ، دار الفكر للطباعة والنشر .

٨ - البيان فى غريب إعراب القرآن - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى - دار الغد العربى .

١٠ ـ الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١١ ـ حاشية الصبان على شرح الأشمونى ـ دار إحياء الكتب العربية .
١٢ ـ الخصائص لابن جنى . ت / محمد على النجار ، الطبعة الثالثة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٣ ـ الدر المصون للسمين الحلبى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١٤ ـ شرح الألفية للأشمونى ـ دار إحياء الكتب العربية .
١٥ ـ شرح التسهيل لابن مالك . ت د / عبد الرحمن السيد ، ود / محمد بدوى المختون . هجر للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى .
١٦ ـ شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ـ دار إحياء الكتب العربية .
١٧ ـ شرح الكافية للرضى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .
١٨ ـ شرح اللمحة البدرية لابن هشام . ت د / صلاح راوى ـ الطبعة الثانية .
١٩ ـ شرح المفصل لابن يعيش ـ عالم الكتب ـ بيروت .
٢٠ ـ القاموس المحيط للفيروزابادى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٢١ ـ الكتاب لسيبويه . ت / عبد السلام هارون ـ الطبعة الثالثة .
٢٢ ـ الكشاف للزمخشرى ـ دار الريان للتراث .
٢٣ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف .
٢٤ ـ المحتسب لابن جنى . ت / على النجدى ناصف ، وعبد الفتاح

إسماعيل شلبي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ الكتاب التاسع .

٢٥ ـ المسائل العضديات لأبي على الفارسى . ت / شيخ الراشد ـ وزارة الثقافة ـ إحياء التراث العربي .

٢٦ ـ المستوفى لابن فرخان . ت د / محمد بدوى المختون ـ دار الثقافة العربية .

٢٧ ـ المصباح المنير للفيومى ـ الطبعة الخامسة ـ المطبعة الأميرية ـ بالقاهرة .

٢٨ ـ معانى القرآن للأخفش ـ ت / فائز فارس ـ الطبعة الثانية .

٢٩ ـ مغنى اللبيب لابن هشام . ت د / مازن المبارك ، ومحمد على حمد الله دار الفكر ـ الطبعة الخامسة .

٣٠ ـ المقتضب للمبرد . ت / محمد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

في اللغة والقرآن

للدكتور/ محمد أحمد عبد الهادي

المقـــدمة

أحمدك ربى حمدا يوافى نعمك ويكافىء مزيدك ، وأشهد ألا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، وصفيك وخليلك ، الرحمةُ المهداه ، والنعمةُ المسداةُ ، والسراجُ المنيرُ الوهّاجُ .

وبعـــد ،،،

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ، الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا تُحصى وجوهُ إعجازه ، ولا يشبع منه العلماء ، ولقد كان ، ولا يزال منذ أن نزل به الروحُ الأمينُ على قلب سيد المرسلين ، ليكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ، معينا لا ينضب ، وبحراً لا ينفد ، وهو أعظمُ نبراس يستضىء به الدارسون ، ويهتدى به الموحّدون ، وقصر كلُّ قلم ولسان عن وصف

إبداع هذا البيان الخالد على مر الزمان والعصور ، تلاوته عبادة ، وتدبره هداية ، وفى العمل به كل سعادة ، ولهذا حُفى ببحوثه الشريفة كثير من العلماء والنبلاء السعداء من القدماء والمحدثين والأولين والآخرين ، طمعاً فى رحمته ـ سبحانه ـ وحبه ورضاه

والقرآن الكريم أول أصل من أصول التقعيد، وفى رحاب الحفاظ عليه كانت نشأة علم النحو .

ولقد رأى العلماء أن النظر فى إعراب القرآن الكريم من أقوى الوسائل إلى فهم معانيه وقراءاته . فقاموا بالدراسة حوله ، وكرسوا جهدهم لخدمته ، فألفوا فى إعرابه الكثير من الكتب ، حتى يتسنى للمسلم فهم المعانى بسهولة ويسر .

والله ـ عز وجل ـ قد تعهد بحفظ كتابه ، الذى نزل بلسان عربى مبين ، وفى هذا حفظ وبقاء للغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »(١) .

ولما كان لبعض الحروف فى اللغة العربية عدةُ استعمالات مما يكون له أثره على المعنى المراد فى الآية القرآنية ، اخترت أحد هذه الحروف ، ألا وهو « (كى) فى اللغة والقرآن الكريم » لما لها من أثر فى بيان المعنى المراد ، ونظراً لخطأ كثير من الناس فيها ، لأنها تأتى تارة جارة ، وأخرى ناصبة ، وأحياناً محتملة للوجهين .

وقسمت هذا البحث إلى مبحثين :

الأول : تناولت فيه : آراء النحاة واللغويين فى (كى) ويتمثل ذلك فى : أوجه استعمالات (كى) ـ احتمالها التعليل والمصدرية ـ آراء

---

(١) سورة الحجر : الآية (٩) .

النحاة فيها - الفصل بينها وبين الفعل - حكم تقديم معمول معمولها عليها - أحكامها - زيادتها - كما بمعنى كيما - إضمارها -

وفى المبحث الثانى : تناولت استعمالات (كى) فى القرآن الكريم ، ثم ذيلت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال البحث .

وكان منهجى فى هذا البحث على النحو التالى :

١ - ذكرُ آراء النحاة فى المسألة التى أقوم بمناقشتها ، مرجحا ما أراه راجحا مع التعليل .

٢ - نسبة الآراء إلى أصحابها ، معتمداً فى ذلك على كتب أصحابها .

٣ - ذكرُ نصّ الآية التى وردت فيها (كى) مبينا سورتها ورقمها .

٤ - الضبطُ التامُّ للنصّ القرآنىّ على مايوافق رواية حفص عن عاصم .

٥ - ترتيبُ الآيات حسب ورودها فى القرآن الكريم .

٦ - القيامُ ببيان بعض المفردات الصعبة فى الآية ، مع عدم الإسراف فى ذلك كيلا يخرج البحث عن هدفه ، ثم أتبعت ذلك ذكر آراء النحاة فى (كى) مناقشا لتلك الآراء مرجحا ما أراه راجحاً ، مع التعليل ، ثم تلوث ذلك بإعراب الآية .

٧ - تجنبُ التكرار فى مناقشة الآيات المتشابهة ، وذلك بالإحالة إلى أول نصّ ورد فيها فى القرآن الكريم .

٨ - مناقشة الآيات بما يتلاءم مع المعنى القرآنى ، مراعيا ما تمليه قواعد النحو .

هذا وقد اعتمدت على مصادر ومراجع متنوعة تخدم البحث ، ويتمثل ذلك فى كتب اللغة ، والنحو ، والقراءات ، والتفسير ، والدراسات القرآنية ، هذا ولم آل جهداً فى إخراج هذا البحث المتواضع على هذه

الصورة، قاصداً بذلك المساهمة فى خدمة لغة القرآن الكريم - لغة الضاد - والإدلاء بدلوى فى خدمة كتاب الله المجيد ، آملا أن يفيد منه الباحثون والدارسون .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون فى ميزان حسناتى يوم القيامة ، إنه سميع مجيب ، وبالإجابة جدير ، وهو على كل شىء قدير .

الدكتور
محمد احمد عبد الوهاب المليجى
مدرس اللغويات بكلية اللغة العربية بالقاهرة

المبحث الأول

« كى فى اللغة »(*)

تستعمل (كى) فى اللغة العربية على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون اسماً مختصراً من كيف[1] ، كقول الشاعر[2] :

(*) انظر (كى) بالتفصيل فى : البحر المحيط لأبى حيان ، والتبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى ، والبيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات الأنبارى ، وتفسير النسفى ، والتوطئة ، وشرح المرادى على الألفية ، والجدول فى إعراب القرآن وصرفه لمحمود صافى ، وتفسير روح البيان لإسماعيل حقى ، وتفسير الطبرى ، والجنى الدانى للمرادى ، وحاشية محي الدين شيخ زاده على البيضاوى ، والحروف العاملة فى القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين لهادى عطية مطر ، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ عضيمة ، والدر المصون للسمين الحلبى ، وزاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ، وشرح الكافية للرضى ، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ، وشرح ابن الناظم على الألفية ، وشرح ابن عقيل ، وقطر الندى ، والمقرب لابن عصفور ، والكشاف للزمخشرى ، والكتاب لسيبويه ، والمقتضب للمبرد ، ومشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب القيسى ، ومغنى اللبيب لابن هشام ، وهمع الهوامع السيوطى ... وغير ذلك من المصادر والمراجع التى لا تطيل الحديث بذكرها الآن .

(١) انظر : توضيح المقاصد والمسالك ٤ / ١٧٤ ، وهمع الهوامع ٢ / ٥ ، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ٣/١٥٣٤

(٢) هذا البيت من أبيات سيبويه ، لم ينسب لقائل ، وهو من بحر البسيط =

أراد : كيف ، فحذف الفاء ، كما قال بعضهم : « سَوْ أفعَلُ » ، يريد : سوف(١) .

الوجه الثاني : أن تكون بمنزلة لام التعليل معنى وعملا ، وذلك فى أربعة مواضع :

١ ـ إذا دخلت على (ما) الاستفهامية ، كقولهم فى السؤال عن العلة : « كَيْمَهْ » ؟

بمعنى « لمه » ؟ فـ (كى) جارة تعليلية ، وحجة البصريين لحرفيتها حذف ألف (ما) الإستفهامية ، ولا يحذف إلا إذا كانت فى موضع جر ، واتصل بها الحرف الجار ، والهاء للسكت(٢) .

٢ ـ إذا دخلت على (ما) المصدرية(٣) ، كقول الشاعر :

إذَا أنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضُرَّ فَإنَّمَا
يُرَجَّى الفَتَى كَيْمَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ(٤)

= والشاهد : قوله (كى) . فإنه اسم مختصر من كيف .

انظره فى : توضيح المقاصد والمسالك ٤ / ١٧٤ ، وشرح ابن الناظم للألفية ص ٦٦٦ ، وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٢ / ٥٥٧ ، والحروف العاملة فى القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين ص ٤٨٩

(١) انظر : مغنى اللبيب ١ / ٣٠٩

(٢) انظر : الكتاب لسيبويه ٣ / ٦ ، وشرح ابن الناظم ص ٦٦٦ ، وهمع الهوامع ٥١٢ ، وتوضيح المقاصد ٤ / ١٧٥ ، والحروف العاملة فى القرآن الكريم ص ٤٧٨

(٣) انظر : توضيح المقاصد ٣ / ١٧٥ ، وشرح ابن الناظم ص ٦٦٦ ، وهمع الهوامع ص ٢١٢ ، والجنى الدانى ص ٢٧٦ ، ومغنى اللبيب ١ / ٣٠٩

(٤) البيت من الطويل ، وهو للنابغة ، وقيل : لقيس بن الخطيم ، شاعر =

أى : للضر والنفع ، فالمصد مسبوك من (ما) والفعل ، و (كى) جارة لا ناصبة ، لأن الحرف المصدرى لا يدخل على مثله ، وقيل : (كى) مصدرية و (ما) كفتها عن النصب ، والمصدر المسبوك من (كى) والفعل مجرور بلام مقدرة(١) .

٣ – إذا دخلت على (أن) المصدرية مضمرة ، نحو : جئت كى أتعلم ، إذا قدرت النصب بـ (أنْ) ، ولا تكون (كى) مصدرية ، حتى لا يدخل الحرف المصدرى على مثله مع إمكان الإحتراز عنه(٢) .

ولا تظهر (أن) المصدرية بعد (كى) إلا في الضرورة ، كقول الشاعر :

فَقَالَتْ أكُلَّ النَّاسِ أصْبَحْتَ مَانِحًا
لِسَانَكَ كَيْمَا أنْ تَغُرَّ وَتَخْدَعَا(٣)

= الأوس وأحد أبطالها فى الجاهلية ، وله فى وقعة بعاث التى كانت بين الأوس والخزرج أشعار كثيرة

المعنى : إذا لم يكن فى مقدورك أن تنفع من يستحق النفع والعون فضر من يستحق الضرر والإيذاء ، فإن الإنسان لم يقصد منه فى الحياة غير هذين العملين .

الشاهد : قوله « كيما » حيث جاءت « كى » جارة لدخولها على « ما » المصدرية .

انظر : همع الهوامع ٥١٢ ومغنى ، اللبيب ١ / ٣٠٩ ، وتوضيح المقاصد ٤ / ١٧٥ .

(١) انظر : مغنى اللبيب ١ / ٣٠٩ ، والحروف العاملة فى القرآن الكريم ص ٤٨١ .

(٢) انظر : مغنى اللبيب ٣٠٩/١ وشرح ابن الناظم ص ٦٦٧ ، والجنى الدانى ص ٢٧٦ .

(٣) البيت من الطويل ، لجميل بن معمر ، وهو المعروف بجميل بثينة ، وبثينة ابنة عمه ، أحبها وتهالك فى حبها ، ولكن لم يزوج منها . لأنه شبب بها . فقضى حياته متلهفا إلى أن مات فى حرقة غرامه ولوعة يأسه . =

ووجوب الإضمار مذهب البصريين، فقال سيبويه - رحمه الله «واعلم أنّ (أنْ) لا تظهر بعد (حتّى) و (كَيْ)، كما لا يظهر بعد (أمَّا) الفعلُ فى قولك: أمَّا أنت منطلقا انطلقت»(١).

أما الكوفيون فجوّزوا إظهار (أنْ) بعد (كى) فى السعة، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى، فقال:(٢) «وإضمار (أنْ) بعد الجارة على جهة الوجوب فلا يجوز إظهارها عند البصريين إلا فى الضرورة، وجوّزه الكوفيون فى السعة، قال أبو حيان: والمحفوظ اظهارها بعد (كى) الموصولة بما، كقوله: كَيْمَا أنْ تغرّ وتخدعا، ولا أحفظ من كلامهم: جئت كى أن تكرمنى» اهـ.

فـ (كى) فى البيت السابق حرف جر، ويمتنع أن تكون ناصبة لئلا يدخل الحرف المصدرى على مثله مع امكان الإحتراز عنه.

ويضعف أن تكون (أن) تأكيداً لـ (كى)، لأن الأصل فى عمل النصب لـ (أن) فلا تكون تأكيداً لما حمل عليها(٣)، ومجىء (أنْ) بعد (كى) ضرورة أو قليل، كما ذكرت آنفاً.

ولا فرق فى تعيّنها للجر بين أن تكون (أنْ) ظاهرة كما فى الشاهد السابق، أو مضمرة كما فى نحو: جئت كى أفهم، إذا قدرنا أنّ الناصب للفعل هو (أن) المضمرة.

= والشاهد فى قوله (كيما أن تغر) حيث جمع بين (كى) و (أن) للضرورة الشعرية.

انظر: مغنى اللبيب ٣١١/١ وهمع الهوامع ٥١٢ وابن الناظم ص ٦٦٧ والكافية ٢٣٩/٢ والجنى الدانى ص ٢٧٦.

(١) انظر: الكتاب لسيبويه ٧/٣.

(٢) انظر: همع الهوامع ٥١٢ ودراسات لأسلوب القرآن ٤٣٠/٢.

(٣) انظر: شرح التصريح على التوضيح ٢٣١/٢.

٤ — إذا دخلت على اللام ، نحو : جئت كى لأتعلم . فـ (كى) هنا جارة تعليلية ، واللام مؤكدة لها ، والفعل منصوب بـ (أنْ) مضمرة بعد اللام ، ولا يجوز جعل (كى) ناصبة للمضارع ، وذلك للفصل بينها وبين الفعل باللام .

فإذا وقعت (كى) قبل اللام تعينت للجر ، وذلك عند سيبويه والجمهور ، وهذا التركيب نادر ، نحو : جئت كى لأقرأ ، ونحو قول حاتم الطائى :

وَأَوْقَدْتُ نَارِي كَيْ لِيُبْصَرَ ضَوْؤُهَا
وَأَخْرَجْتُ كَلْبِي وَهْوَ فِي الْبَيْتِ دَاخِلُهْ[١]

وقول عبد الله بن قيس الرقيات :

كَيْ لِتَقْضِينِي رُقَيَّةُ مَا وَعَدَتْنِي غَيْرَ مُخْتَلَسِ

فـ (كى) فى هذين البيتين جارة تعليلية ، واللام مؤكدة لها ، والفعل منصوب بـ (أن) مضمرة بعد اللام ، ولا يجوز أن تكون (كى) ناصبة ، للفصل بينها وبين الفعل باللام ، ولا يجوز الفصل بالجار ولا بغيره ، ولا يجوز أن تكون (زائدة ، لأن (كى) لم يثبت زيادتها فى غير هذا الموضع ، فيحمل هذا عليه[٢] .

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل . وقائله : حاتم بن عدى الطائى .

والشاهد : قوله « كى ليبصر » فإن « كى » هنا تتعين أن تكون حرفاً جاراً للتعليل بمعنى اللام . لظهور اللام بعدها . وجمع بينهما للتأكيد . وهذا التركيب نادر .

انظر : شرح الكافية للرضى ٢/٢٤٠ وتوضيح المقاصد للمرادى ٤/١٧٦ .

(٢) انظر : همع الهوامع للسيوطى ٥١٢ .

ومن النحاة من يرى أن اللام في نحو : «كي لتقضيني» زائدة أو بدل من (كي)(1) .

و (كي) في كل تخريج لِلَّام متعيِّنة للجر عند البصريين ، للفصل بينها وبين الفعل ،

الوجه الثالث : أن تكون بمنزلة (أنِ) المصدرية معنى وعملا ، وذلك إذا وقعت (كي) بعد اللام وليس بعدها (أن) كقولك : جئت لكي أتعلم ، وكما في قوله تعالى : «لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ»(2) فاللام هنا جارة تعليلية و (كي) ناصبة مصدرية لا جارة لدخول حرف الجر عليها ، والجار لا يدخل على الجار في الفصيح بلا ضرورة تدعو إليه(3) .

فـ(كي) من نواصب المضارع ، ومذهب سيبويه والأكثرين أنها حرف مشترك ، فتارة تكون حرف جر بمعنى اللام تُفْهِمُ العلّة ، وتارة تكون حرفاً ينصب المضارع بعده ، واختلف هؤلاء :

فذهب سيبويه إلى أنها تنصب بنفسها ، وذهب الخليل والأخفش أنَّ (أنْ) مضمرة بعدها .

وذهب الكوفيون إلى أنها مختصة بالفعل ، فلا تكون جارة للاسم ، وقيل : إنها مختصة بالإسم ، فلا تكون ناصبة للفعل .

واحتج من قال : إنها مشتركة ، بأنه سمع من كلام العرب : جئت لكي

---

(1) انظر : شرح الكافية ٢/٢٤٠ .

(2) من الآية ٢٣ من سورة الحديد .

(3) انظر : شرح ابن الناظم ص ٦٦٧ وهمع الهوامع ٢ / ٥ والجنى الداني ص ٢٧٧ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عضيمة ٢/٤٣٠ .

أتعلم، وسمع من كلامهم: كَيْمَهْ؟، فأمّا (لكى أتعلم) فهى ناصبة بنفسها لدخول حرف الجار عليها، وليست (كى) فيه حرف جرّ، لأن حرف الجر لا يدخل على حرف الجر، وأما (كَيْمَهْ) فهى حرف جر بمعنى اللام، كأنه قال: لِمَهْ؟:

ويوجه الإستدلال من هذا اللفظ أنه قد تقرر من لسان العرب أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر حذفت ألفها، نحو: بم، ولم، وفيم، وعم، فإذا وقف عليها جاز أن تلحقها هاء السكت(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى المواضع التى يتعين فيها بأن تكون (كى) جارّة.

احتمال (كى) التعليل والمصدرية:

تحتمل (كى) أن تكون جارة تعليلية وناصبة مصدرية فى موضعين:

الأول: أن تقع متوسطة بين اللام و (أن)، كقول الشاعر.

أَرَدْتَ لِكَيْمَا أَنْ تَطِيرُ بِقِرْبَتِى ... فتتركها شَنًّا بِبَيْدَاء بَلْقَعِ(٢)

---

(١) انظر: همع الهوامع ٢/٥

(٢) البيت من الطويل. وهو غير منسوب لقائل.

اللغة: تطير: تذهب بسرعة. شنا: القربة الخلق البالى. بيداء: المفازة. بلقع — بفتح الباء وسكون اللام وفتح القاف — قفر خالية من كل شيء.

المعنى: يخاطب الشاعر طائراً جارحاً أو سارقاً ماهراً، فيقول: رغبت أن تأخذ قربتى بسرعة وتتركها قطعة ممزقة بصحراء لا يصل إليها إنسان.

الشاهد: قوله «لكيما أن تطير» حيث يجوز أن تكون «كى» مصدرية و «أن» مؤكدة لها: وأن تكون تعليلية موكدة اللام: ولولا وجود «أن» لوجب أن تكون «كى» مصدرية: ولولا وجود اللام لوجب أن تكون تعليلية.

فـ (كى) إما تعليلية مؤكدة لِلاّم ، أو مصدرية مؤكدة بـ (أن). ولا تظهر (أنْ) بعد كى إلا فى الضرورة ، أما فى السعة فلا ، كما ذكرت سابقا(١) . ويترجح فى البيتُ كونُ (كى) جارة تعليلية مؤكدة لِلاّم على كونها ناصبه مؤكدة بـ (أنْ) . لأنّ (أنْ) هى التى وليت الفعل ، وهى أُمُّ الباب ، وما كان أصلا فى بابه لا يجعل تأكيداً لما ليس أصلا ، مع ما فيه الفصل بين الناصب والمنصوب ، وأيضا لو جعلت (كى) ناصبة و (أن) مؤكدة لزم تقديم الفرع على الأصل .

الثانى : أن تنفرد عن اللام و (أن)(٢) نحو قوله تعـــالى . « كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغْنِيَاءِ مِنْـكُمْ »(٣) .

فإن قدرت قبلها اللام فهى مصدرية ، وإن لم تقدر قبلها اللام فهى تعليلية ، فيكون الفعل على الأول منصوبا بـ (كى) نفسها ، وعلى الثانى منصوباً بـ (أن) مضمرة بعد (كى) ، والأولى أن تكون مصدرية(٤) . لأنه كثيراً ما يصرّح باللام قبل (كى) ، بخلاف (أنْ) فإن ظهورها بعد (كى) شاذ أو قليل .

= انظر : مغنى اللبيب ١ / ٣١٠ وهمع الهوامع ٢ / ٥ وتوضيح المقاصد ٤ / ١٧٨ وشرح الـكافية الشافية لأن مالك ٣ / ١٥٣٣ وشرح الـكافية للرضى ٢ / ٢٣٩ .

(١) انظر : شرح ابن الناظم ص ٦٦٧ ومغنى اللبيب ١/ ٣١٠ ، ٣١١ وهمع الهوامع ٢/٥ والجنى الدانى ص ٢٧٦ وشرح الـكافية للرضى ٢/٢٣٩ .

(٢) انظر الجنى الدانى ص ٢٧٧

(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر

(٤) شرح التصريح ٢٣١/١

ويرجّح كونَ (كى) ناصبة أيضا أن الإضمار خلاف الأصل ، أمّا حذف حرف الجر فهو مقيس قبل (كى) المصدرية .

ومجى (كى) ناصبة مصدرية وجارة تعليلية هومذهب جمهور البصريين، أما الكوفيون فيذهبون إلى أنها ناصبة للفعل دائماً(١) ، ولا تقع جارّة أبداً ، وقول البصريين هو القول الراجح لسلامته عما وجه إلى غيره من اعتراضات .

آراء النحاة فى (كى) .

اختلف النحاة فى (كى) ، أهى حرف مختص بالاسم ، أم هى حرف مشترك ، أم هى حرف مختصّ بالفعل ؟ فتراهم قد أنقسموا إلى ثلاثة مذاهب .

أولا : مذهب الأخفش والخليل :

ذهب الخليل والأخفش إلى أنها لاتجىء إلاّ جارّة ، وإذا وقع الفعل بعدها منصوباً فـ (بأن) مضمرة او مظهرة ، و (كى) عندهما حرف مختص بالاسم ، فلا تكون ناصبة للفعل .

ويردّه نحو : « لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ »(٢) .

فإن زعم أن (كى) تأكيد للام كقوله :

فَلاَ وَاللهِ لاَ يُلْفَى لِمَا بِى
وَلاَ لِلِمَا بِهِمْ أَبَداً دَوَاء

---

(٥) انظر : همع الهوامع ٥١٢ والجنى الدانى ص ٢٧٦ وشرح الكافية للإمام الرضى ٢٤٠/٣ وتوضيح المقاصد للمرادى ١٧٨/٤ والحروف العاملة فى القرآن الكريم ص ٦٦٢ .

(١) من الآية ٢٣ من سورة الحديد

رُدَّ بأنّ الفصيح المقيس لا يُخَرَّج على الشاذّ ، لأن اجتماع حرفى جرّ عند إمكان الإحتراز منه شاذ(١) .

ثانياً . مذهب سيبوية والجمهور .

ذهب سيبوية والجمهور إلى أن (كى) حرف مشترك ، فتارة تكون حرف جر بمعنى اللام فتفهم العلة ، وتضمر (أن) بعدها ، وتارة تكون حرفاً ينصب المضارع بعده(٢) .

أمّا دليل مجيئها جارة فقد تقدم ، وأمّا دليل مجيئها مصدرية فهو دخول حرف التعليل عليها فى نحو قوله تعالى . « لكيلا تأسوا »(٣) . ولصحة حلول (أن) محلها .

فـ(كى) فى الآية وفى نحو قولهم . جئت لكى أتعلم ، ناصبة بنفسها لدخول حرف الجر عليها ، لأن حرف الجر لا يدخل على الجر إلا شذوذاً .

هذا عند سيبوية والجمهور ، وقد تتعين (كى) للجر أو النصب فى مواضع ، وتحتمل إحداهما فى مواضع أخرى ذكرناها آنفاً .

ثالثاً : مذهب الكوفيين :

يرى الكوفيون أن (كى) ناصبة دائما ، ويَرِدُّه قولهم : كَيْمَهْ ؟ ، كما يقولون : لِمَهْ ؟ ، وقول حاتم :

---

(١) انظر : مغنى اللبيب ١ / ٣١٢ والحروف العاملة فى القرآن الكريم ص ٤٨١ وتوضيح المقاصد والمسالك ٤ /١٧٨ وشرح الكافية للإمام الرضى ٢٣٩/٤ وهمع الهوامع ٥/٢ .

(٢) انظر : همع الهوامع للسيوطى ٥/٢

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الحديد .

وَأَوْقَدْتُ نَارِي كَيْ لِيُبْصَرَ ضَوْؤُهَا
وَأَخْرَجْتُ كَلْبِي وَهْوَ فِي الْبَيْتِ دَاخِلُهْ

لأن لام الجر لا تفصل بين الفعل وناصبه .

وأجابوا عن الأول : بأن الأصل : كَيْ يَفْعَلَ مَاذَا ؟ فيلزمهم كثرةُ الحذف ، وإخراجُ (ما) الاستفهامية عن الصَّدْر ، وحذفُ ألفها في غير الجر ، وحذف الفعل المنصوب مع بقـــاء عامل النصب ، وكل ذلك لم يثبت(١) .

ولا يخفى أيضا ما في هذا التأويل من التكلف .

وإن ادّعوا أن حذف المنصوب وبقاء ناصبه قد ثبت في صحيح البخارى في تفسير قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ »(٢) فيذهب كَيْمَا فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طبقاً واحداً » ، أى : كما يسجد .

فقد قال ابن هشام معقباً على ذلك : « إنه غريب جداً لا يحتمل القياس عليه »(٣) .

الفصل بين (كى) والفعل :

إذا فصل بين (كى) والفعل لم يبطل عملها ، خلافا للكسائى نحو : جئت كى فيك أرغب ، والكسائى يجيزه بالرفع لا بالنصب ، قيل : والصحيح : أن الفصل بينها وبين الفعل لا يجوز في الإختيار إلا بـ (لا)

---

(١) انظر : مغنى اللبيب لابن هشام ١ / ٣١٢ ، والجنى الدانى ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) القيامة ٢٢

(٣) انظر : مغنى اللبيب ٣١٢/١ والجنى الدانى ص ٢٧٧

أو بـ (ما) الزائدة ، أو بهما معاً ، نحو : أرضِ ربك لكيما لا تفشل(١) .

قال أبو حيان : وأجمعوا على أنه يجوز الفصل بينها وبين معمولها بـ (لا) النافية نحو « كيلا يكون دولة » ، وبـ (ما) الزائدة ، وبهما معاً ، وأما الفصل بغير ذلك فلا يجوز عند البصريين وهشام ومن وافقه من الكوفيين فى الإختيار ، وجوّزه الكسائى بمعمول الفعل الذى دخلت عليه ، وبالقسم ، وبالشرط ، فيبطل عملها ، فتقول : أزورك كى والله تزورنى »(٢) .

تقديم معمول معمولها عليها :

منع الجمور تقديم معمول معمولها عليها ، فلا يقال : جئتك زيداً كى تضرب ، لأن (كى) المصدرية من الموصولات الحرفية ، ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول ، أما الكسائى فأجاز ذلك . نحو : « جئت النحو كى أتعلم »(٣) .

وتقديم معمول معمول (كى) له عدة صور أشار إليها السيوطى ـ رحمه الله فى الهمع . فقال(٤) : « وتقدم معمول معمولها ممنوع . وله ثلاث صور :

---

(١) انظر : توضيح المقاصد والمسالك ٤ / ١٧٩ والهمع ٢/٥ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/ ٤٣٠

(٢) انظر : جمع الهوامع ٢/٥ والحروف العاملة فى القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين ص ٦٦٣

(٣) انظر : توضيح المقاصد للمرادى ٤/١٧٨ وشرح الكافية فى النحو للإمام الرضى ٢/٢٤٠ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢ / ٤٣٠ وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك ص ٢٠٣

(٤) انظر : همع الهوامع ٢/٦

إحداها : تقدمه على المعمول فقط ، نحو : جئت كى النحو أتعلم .
الثانية : على (كى)[1] والمعمول ، نحو : جئت النحو كى أتعلم .
الثالثة : على (كى) وعاملها[2] ومعمولها أيضا نحو : النحو جئت كى أتعلم .

وعلة المنع : فى الأول للفصل ، وفى الثانية والثالثة أن (كى) من الموصولات ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول » اهـ .

أحكام (كى) :

تأخير المعلول :

من أحكام (كى) أنه لا يمتنع تأخير معلولها ، فيجوز أن تقول : كى تكرمنى جئتك ، سواء كانت الناصبة ام الجارة . وذلك انها فى المعنى مفعول من أجله ، وتقدم المفعول من أجله سائغ[3] .

زيادة (كى) :

ذكر السيوطى أنه لا يجوز أن تكون زائدة ، ولا يجوز أن تكون تأكيدا[4] لـ (أن)

وقد رجح بعض النحاة كونها جارة إذا لم تقترن باللام ، أو إذا ظهرت (أن) بعدها ، فإن اقترنت باللام فهى الناصبة للفعل ، وإن تجردت فالنصب لـ (أن) المضمرة[5] .

---

(1) فى الهمع ٢/٦ : « على كى فقط » ولعل الصواب ما أثبته .
(2) فى الهمع ٢/٦ : « على المعمول أيضا » ولعل الصواب ما أثبته
(3) انظر : همع الهوامع ٢/٥
(4) السابق نفسه .
(5) انظر : الحروف العاملة فى القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين ص ٦٦٣ ، ٦٦٤

كما بمعنى كيما :

أثبت الكوفيون من حروف النصب (كما) بمعنى (كيما) ، ووافقهم المبرد(١) ، واستدلوا بقول الشاعر :

وطرفُكَ إمَّا جئتنا فاصْرِفَنَّهُ

كَمَا يَحْسَبُوا أنَّ الهوى حيثُ تنظر(٢)

وأنكر ذلك البصريون وتأولوا ما ورد على أن الأصل (كيما) حذفت ياؤه ضرورة ، أو الكاف الجارة كفت بـ (ما) ، وحذفت النون من الفعل ضرورة(٣) .

---

(١) انظر : توضيح المقاصد والمسالك للمرادى ١٧٩/٤ ، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ١٥٣٥/٣

(٢) قائلة : جميل بن معمر ، وقيل : لبيد العامرى . وهو من الطويل .

اللغة : طرفك ـ بفتح الطاء ـ العين ، والمعنى : وعينك

الإعراب : (طرف) : مبتدأ والكاف مضاف إليه ، (إما) : أصله (إن ما) ، و (إن) : للشرط ، و (ما) : زائدة . (جئتنا) : فعل وفاعل ومفعول . وهو فعل الشرط ، (فاصرفنه) : الفاء واقعة فى جواب الشرط ، والضمير المنصوب يرجع إلى الطرف ، والجملة كلها فى موضع الرفع على الخبرية (الهوى) : اسم أن (حيث تنظر) : خبر أن . وأن مع اسمها وخبرها سدت سد المفعولين ليحسب .

الشاهد : قوله (كما يحسبوا) حيث إن (كما) تنصب بنفسها بمعنى كيما ، واستدل به الكوفيون والمبرد . وعلامة النصب سقوط النون . والصحيح ماذهب إليه البصريون . وهو المنع ، ويحتمل أن تكون النون حذفت للضرورة . أو يكون الأصل (كيما) فحذفت الياء للضرورة .

انظر : توضيح المقاصد ٤ / ١٧٩ وشرح الكافية الشافية لابن مالك ١٥٣٥/٣

(٣) همع الهوامع ٦/٢

وقد جاء الفعل بعدها مرفوعا فى قوله : لا تشتم الناس كما لا تشتم (١) .

إضمار (كى):

نبه ابن هشام فى المغنى(٢) إلى: « أنه إذا قيل :جئت لتكرمنى ، بالنصب، فالنصب بـ (أن) مضمرة ، وجوز أبو سعيد كون المضمر (كى) ، والأول أولى ، لأنّ (أنْ) أمكن فى عمل النصب من غيرها ، فهى أقوى على التجوُّز فيها بأن تعمل مضمرة » ا هـ .

وقد أشار ابن الناظم أيضا فى شرحه على الألفية إلى أن الراجح والأولى أن يكن المضارع منصوبا بـ (أن) مضمرة(٣) .

أما قولك : « جئت كى أتعلم » و « جئت كى تُحْسِنَ إلىّ » وذلك إذا وقع الفعل بعد (كى) لا اللام ، فالوجه أن تكون (كى) مصدرية ناصبة للمضارع ، ولام الجر قبلها مقدرة : وذلك لكثرة وقوع اللام قبلها ؛ كقوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم »(٤) ؛ وحرف الجر لا يدخل

---

(١) قائله : هو رؤبة بن العجاج ، وهو من الرجز .
المعنى : إنك إن شتمت شتمت وإذا لم تشتم لم تشتم ،ولعلك إن لم تشتم لا تشتم.
الإعراب : (لا) ناهية (تشتم) فعل مضارع مجزوم بلا ، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، والفاعل ضمير مستتر فيه (الناس) مفعول به (كما) ما. كافة (تشتم) فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة ، والفاعل ضمير مستتر فيه .
الشاهد : قوله (كما لا تشتم) حيث رفع الفعل بعد قوله (كما) ولم ينصب ، فقال الكوفيون : لأنها لم تكن بمعنى (كيما) ، فلذا لم تنصب ،وقال البصريون: هذا على أصله . لأن (كما) ليست من النواصب .
انظر : توضيح المقاصد والمسالك للمرادى ٤ / ١٨٠ ، والكافية للرضى ٢ / ٢٤٠ ، وهمع الهوامع ٢ / ٦ ، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ٣/١٥٣٥
(٢) انظر : مغنى اللبيب ١ / ٣١٢ .
(٣) شرح ابن الناظم ص ٦٦٧ (٤) الحديد : من الآية (٢٣)

على مثله ولا يباشره إلا فى ضرورة قليلة ؛ وإنما يدخل على اسم : إما صريح أو مؤول به .

فلولا أن (كى) هنا مع الفعل بمنزلة المصدر ما جاز أن تدخل عليها اللام ، ويجوز فى (كى) مع الفعل إذا كانت مجردة عن اللام أن تكون الجارة والفعل بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة ، كما ينتصب بعد اللام ، بدليل ظهور (أن) بعد (كى) فى الضرورة ، كقول الشاعر :

فَقَالَتْ : أَكُلَّ النَّاسِ أَصْبَحْتَ مَانِحًا
لِسَانَكَ كَيْمَا أَنْ تَغُرَّ وَتَخْدَعَا ؟[1]

---

(١) انظر : شرح ابن النــاظم على الألفية ص ٦٦٧ ، وهمع الهوامع للسيوطى ٢ / ٥ .

المبحث الثاني

(كى) فى القرآن الكريم

بعد أن تناولنا آراء النحاة واللغويين فى (كى) الناصبة للمضارع بالبحث والدراسة، ننتقل إلى المبحث الثانى، وهدفنا فيه توثيق ما ذكره النحاة واللغويون، وتطبيق ذلك على آيات الذكر الحكيم من خلال دراستنا لمواضع (كى) فى القرآن الكريم، وقد التزمت بما يأتى :

١ ـ استقصاء مواضع (كى) فى القرآن الكريم ،ومناقشة كل موضع من هذه المواضع، وذكر الرأى الراجح .

٢ ـ ذكر كل ما تحتمله (كى) الناصبة من ناحية الإستعمال، هل تتعين ناصبة ؟ أو يحتمل أن تكون جارة ؟ ومن ناحية الموقع الإعرابى، هل تتعين لموقع معين أولا ؟ وذكر ذلك من خلال ما يوائم المعنى القرآنى دون النظر إلى صاحب الرأى أو انتمائه إلى مذهب بعينه .

٣ ـ مناقشة كل استعمال ورد لـ (كى) فى القرآن الكريم، مع ذكر آراء النحاة واختيار ما أراه راجحاً .

وبعد أن ذكرنا آراء النحاة فى (كى) وأن بعضهم يراها ناصبة دائما، وبعضهم يراها جارة دائما، وآخرون يجوزون مجيئها جارة وناصبة، نأتى إلى تناول الآيات التى وردت فيها (كى) فى القرآن الكريم بالبحث والدراسة .

وإذا عرضنا هذه الآيات على مذهب سيبويه والجمهور نراها تتعين لأن تكون حرفاً مصدرياً ناصبا للمضارع إذا دخلت عليها اللام الجارة ، إذا الجار لايدخل على الجار ، وذلك فى الآيات الآتية :

١ - قوله تعالى : « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »[١] .

فقوله (لكيلا) اللام لام كى ، وهى لام جر والنصب هنا بـ(كى). لئلا يلزم دخول حرف جر على مثله ، وفى متعلق هذه اللام قولان :

أحدهما : أنه (فأثابكم) ، وفى (لا) على هذا وجهان .

الأول : أنها زائدة ، لأنه لايترتب على الاغتمام انتفاء الحزن .

والمعنى : أنه غمهم ليحزنهم عقوبة لهم على تركهم مواقعهم .

الثانى : أنها ليست بزائدة .

القول الثانى : أن اللام تتعلق بـ (عفا)[٢] ، لأن عفوه أذهب كل حزن[٣] .

وقد أشار أبو البقاء العكبرى إلى زيادة (لا) أيضا فقال[٤] : « قيل : (لا) زائدة ، لأن المعنى أنه غمهم ليحزنهم عقوبة لهم على تركهم مواقفهم،

---

(١) آل عمران : الآية ١٥٣ .

(٢) فى الآية السابقة ، وهى قوله تعالى : (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) سورة آل عمران من الآيه ١٥٢ .

(٣) انظر : التبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى ١ / ٣٠٢ والدر المصون للسمين الحلبى ٤٤٣/٣ وجامع البيان لابن جرير الطبرى ١٣٤/٣ ، ١٣٥ وتفسير النسفى ٦٢/١ وزاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٧٤٩/١ .

(٤) التبيان ١ / ٣٠٢

وقيل : ليست زائدة ، والمعنى على نفي الحزن عنهم بالتوبة ، و (كى) هىنا هى العاملة بنفسها لأجل اللام قبلها » اهـ .

٢ ـ قوله تعالى: « وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا »(١) .

أرذل العمر : آخره الذى تفسد فيه الحواس ، ويختل النطق والفكر ، وخص بالرذيلة ، لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد(٢) .

وقد أشار الإمام الزمخشرى فى الكشاف(٣) إلى أن أرذل العمر : أخسه وأحقره ، وهو خمس وسبعون سنة عن على رضى الله عنه ، وتسعون سنة عن قتادة ، لأنه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم .

قال أبو حيان(٤) : « واللام فى (لكيلا) قال الحوفى : هى لام (كى) دخلت على (كى) للتوكيد ، وهى متعلقة بـ (يرد) ، فيكون بذلك قد ذهب مذهب الأخفش فى كون (كى) جارة و (أنْ) مضمرة بعدها ، والذى ذهب إليه محققو النحاة فى مثل (لكى) : أن (كى) حرف مصدرى إذا دخلت عليها اللام ، وهى الناصبة كـ (أنْ) واللام جارة ، فينسبك من (كى) والمضارع بعدها مصدر مجرور باللام تقديراً ، فاللام على هذا لم تدخل على (كى) للتوكيد . لاختلاف معناهما واختلاف عملهما : لأن اللام مشعرة بالتعليل و (كى) حرف مصدرى واللام جارة و (كى) ناصبة » اهـ .

---

(١) النحل : ٧٠
(٢) انظر البحر المحيط ٥٦٢/٦
(٣) الكشاف ٦١٩/٢ ، وانظر : زاد المسير ٦٤٧/٤ ، والنسفى ٢١٤/٢
(٤) انظر : البحر المحيط لأبى حيان ٥٦٢/١٦

الإعراب :

اللام حرف جر (كي) حرف مصدري ونصب (لا) نافية (يعلم) مضارع منصوب والفاعل (هو) ، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (يعلم) ، (علم) مضاف إليه مجرور (شيئا) مفعول به للمصدر (علم) ، ومفعول (يعلم) ضمير مستتر يعود على (شيئا) على سبيل التنازع ، وقد يصح العكس على مذهب الكوفيين(١) .

وقد ردَّ السمينُ الحلبي في تفسيره رأي الكوفيين ، فقال(٢) : « قوله : (شيئا) يجوز فيه التنازع . وذلك أنه تقدمه عاملان : يَعْلَمَ وعِلْمٍ فعلى رأي البصريين - وهو المختار - يكون منصوبا بـ (عِلْم) ، وعلى رأي الكوفيين يكون منصوبا بـ (يعلم) وهو مردود . إذ لو كان كذلك لأضمر في الثاني . فكان يقال : لكيلا يعلم بعد علم إيّاه شيئا » اهـ .

٣ - قوله تعالى : « وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً »(٣) .

المعنى : (لكيلا يعلم) أي : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئا ثم يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه ، وقيل : يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر ، وقد قيل : هذا لا يكون للمؤمن : لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه : وقيل المعنى : لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئا وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه .

---

(١) انظر : الجدول في إعراب القرآن وصرفه - المجلد السابع ص ٢٩٣

(٢) الدر المصون ٧/ ٢٦٤ ، وانظر : جامع البيان للطبري ٨/١٤٢ ، وحاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/١٨٩

(٣) سورة الحج : الآية (٥)

وقال القرطبي(١): «والمعنى المقصود: الاحتجاج على منكري البعث، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه» اهـ.

الإعراب: (لكيلا) اللام حرف جر، و (كي) حرف مصدري ونصب (لا) حرف نفي (من بعد) متعلق بـ (يعلم)، والمصدر المؤول (كيلا يعلم) في محل جر باللام متعلق بـ (يرد)(٢).

٤ ـ قوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا»(٣).

فـ (كي): ناصبة مصدرية عند سيبويه والجمهور؛ (لا): نافية، وهي فاصلة بين العامل ومعموله، وقد ذكرنا أنه يجوز الفصل بلا بين كي والفعل، (على المؤمنين) متعلق بخبر (يكون)، (حرج): اسم يكون، وجملة (لا يكون..) لا محل لها صلة الموصول الحر في (كي)(٤).

٥ ـ قوله تعالى: «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»(٥).

فاللام في (لكيلا) حرف جر، (كي) حرف مصدري ونصب (لا)

---

(١) تفسير القرطبي ١٤١/١٠، وانظر: تفسير أبي السعود ٦/٤، ٧، وروح البيان ٧/٦

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ـ المجلد التاسع ص ٥٩

(٣) الأحزاب: ٣٧

(٤) انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه ـ المجلد العاشر ص ٢٦٤

(٥) الأحزاب: الآية ٥٠

نافية (عليك) متعلق بخبر (يكون) ، والمصدر المؤول (كى لا يكون . .) فى محل جر باللام متعلق بـ (أحللنا)(١) .

٦ ـ قوله تعالى : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »(٢) .

(لكيلا) : اللام لام الجر : و (لا) نافية ، و (تأسوا) منصوب بـ (كى) لا بتقدير (أن) بعدها ، لأن اللام ههنا حرف جر ، لأن حرف جر وقد دخلت على (كى) ، فلا يجوز أن تكون (كى) ههنا حرف جر ، لأن حرف الجر لا يدخل على حرف الجر والمصدر المؤول (كيلا تأسوا) فى محل جر باللام ، واللام متعلقة بما تعلق به (فى) فى قوله تعالى : « فى كتاب »(٣) ، والتقدير : إلا مقدر فى كتاب لكيلا تأسوا ، وقيل : متعلقة بمحذوف ، أى : أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا »(٤) .

وجملة (تأسوا) لا محل لها صلة الموصول الحرفى (كى) ، وكذا جملة (فاتكم) لا محل لها أيضاً صلة الموصول (ما) الأول ، وجملة (تفرحوا) لا محل لها معطوفة على جملة (تأسوا) ؛ وجملة (أتاكم) لا محل لها صلة الموصول (ما) الثانى ، وجملة (والله لا يحب . .) لا محل لها استئنافية(٥) .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٢٤٢/٧ ، والجدول فى إعراب القرآن ـ المجلد العاشر ص ٢٧١

(٢) الحديد : الآية ٢٣

(٣) فى الآية السابقة ، وهى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » .

(٤) انظر : البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات الأنبارى ٤٢٤/٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٢٢٥/٨

(٥) انظر : الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ـ المجلد الثانى عشر ص ٢٧٧

٧ ـ قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[1] .

قرأ الجمهور « لئلا يعلم أهل الكتاب » ، وقد وضعت هذه الآية هنا ، لأن هناك قراءة منسوبة إلى عبد الله بن عباس ، وهى : (كى يعلم) ، وعنه أيضا (لكيلا يعلم) ، وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة : (لكى يعلم)[2] .

و (كى) فى القراءتين (لكيلا ـ لكى) تتعين عند سيبويه والجمهور للمصدريه لدخول الجار عليها (اللام) ، وقوله (لكيلا) متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة معنى الشرط ، إذ التقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب ، أى : ليعلموا ، و (لا) مزيدة ، كما ينبىء عنه قراءة (ليعلم) و (لكى يعلم) و (لأن يعلم)[3] .

مجىء (كى) محتملة للتعليلية والمصدرية :

جاءت (كى) محتملة لأن تكون حرفا مصدريا ناصبا للمضارع ، وأن تكون جارة وتضمر (أن) بعدها على مذهب سيبويه والجمهور فى الآيات القرآنية الآتية :

(١) الحديد : الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

(٢) انظر : البحر المحيط لأبى حيان ١٠ / ١١٧ ، وتفسير روح البيان ٣٨٦/٩

(٣) انظر : تفسير أبى السعود ٦ / ١٤٢

١ ـ قوله تعالى : « اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً »(١) .

فـ (كي) في الآية القرآنية تحتمل أن تكون مصدرية ، وأن تكون جارة ، وذلك عند سيبوية والجمهور .

فإذا عددناها جارة كانت (أن) مضمرة بعدها ، والفعل منصوب بـ (أن) المضمرة . أما الأخفش فلا يراها إلا جارة ، وكذلك الخليل . والنصب يكون بـ (أن) مضمرة ، كما وضحنا في المبحث الأول ، وجمهور الكوفيين لا يرونها إلا ناصبة .

وعلى ذلك فـ (كي) حرف مصدري ونصب ، و (كثيرا) نعت لمصدر محذوف ، تقديره ؛ تسبيحك كثيرا . أو نعت لوقت محذوف . تقديره . نسبحك وقتا طويلا(٢) .

٢ ـ قوله تعالى : « فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ »(٣) .

فـ (كي) هنا محتملة أن تكون ناصبة للمضارع . وأن تكون جارة والمضارع بعدها منصوب بـ (أن) المضمرة . وكون (كي) ناصبة أرجح . لأن الإضمار خلاف الأصل .

٣ ـ قوله تعالى : « فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(٤) .

---

(١) سورة طه : الآيات ٣١ ـ ٣٣

(٢) انظر : التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٢٩٠ ، والبيان في غريب إعراب القرآن ٢ / ١٤٢

(٣) سورة طه ، الآية ٤٠

(٤) سورة القصص : الآية ١٣ .

فـ (كي) ناصبة . ويجوز كونها جارة . أما كونها ناصبة فهو الراجح. و (تقر) منصوب بها ، وجملة (كي تقر) في تأويل مصدر في محل جر بلام مقدره متعلق بـ (رددناه)(١)

٤ ـ قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(٢) .

فـ (كي) حرف مصدري ونصب ، (لا) حرف نفي ، واسم (يكون) ضمير يعود على الفيء ، و (بين) ظرف زمان متعلق بنعت لـ (دولة).

والمصدر (كيلا يكون) في محل جر بحرف جر محذوف هو اللام متعلق بفعل محذوف . أي . جعل الفيء كذلك لكي يكون(٣) .

---

(١) انظر : الجدول في إعراب القرآن وصرفه ـ المجلد الثامن ص ٣٠٠
(٢) سورة الحشر : الآية ٧
(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ـ المجلد الثامن عشر ص ٣١٥

الخاتمة

نتائج البحث

بعد الدراسة التى قدمتها عن (كى) فى اللغـــة واستعمالاتها فى القرآن الكريم ، يمكننا أن نلخص النتائج التى توصلنا إليها فيما يلى : -

١ - لم تأت (أن) مظهرة بعد (كى) فى القرآن الكريم .

٢ - لم ترد (كى) فى القرآن الكريم متعينة للجر إلا بعد إضمار (أن) فى نحو « كى تقر عينها »(١) عند سيبويه والجمهور ، على عكس الأخفش الذى يراها متعينة للجر دائما ، ورأى الجمهور هو الراجح كما ذكرت .

٣ - ورد الفصل بين (كى) والفعل بـ (لا) زائدة أو نافية فى آيات الذكر الحكيم على النحو الآتى :

ورد الفصل بـ (لا) الزائدة فى الآية رقم (١٥٣) من سورة آل عمران باحتمال ، والآية رقم (٢٩) من سورة الحديد على قراءة ابن عباس وجاء الفصل بـ (لا) النافية فى الآية رقم « ١٥٣ » من سورة آل عمران باحتمال ، والآية « ٧٠ » من سورة النحل ، والآية « ٥ » من سورة الحج ، والآيتين « ٣٧ ، ٥٠ » من سورة الأحزاب ، والآية « ٢٣ » من سورة الحديد .

٤ — جواز الفصل بين (كى) ومعمولها بـ (لا) النافية و (ما) الزائدة ، وقد ورد ذلك فى آيات الذكر الحكيم كما ذكرت آنفا .

تم بحمـــد الله وفضله

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة طه .

مصادر البحث ومراجعه

١ - القرآن الكريم .

٢ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي - دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

٣ - البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري ت د / طه عبد الحميد طه الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ ت / علي محمد البجاوي - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٥ - تفسير القرآن الجليل للإمام النسفي - بيروت - لبنان .

٦ - التوطئة لأبي علي الشلوبيني - دراسة وتحقيق - رسالة ماجستير إعداد / يوسف أحمد المطوع بكلية دار العلوم ١٩٧٢ م .

٧ - تفسير روح البيان للامام الشيخ / إسماعيل حقي البروسوي الناشر المكتبة الإسلامية .

٨ - توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي ت د / عبد الرحمن علي سليمان - ط ١ - ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م الناشر مكتبة الكليات الأزهرية .

٩ - الجدول في إعراب القرآن وصرفه - تصنيف / محمود صافي - مراجعة / لينه الحمصي دار الرشيد - بيروت .

١٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - دار الفكر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م

١١ - الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ت / طه محسن ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر .
١٢ - جواهر الأدب في معرفة كلام العرب لعلاء الدين بن علي الأربلي تقديم السيد محمد مهدي — المطبعة الحيدرية ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م
١٣ - حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي — المكتبة الإسلامية — تركيا .
١٤ - الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين اعداد هاوي عطيه مطر — عالم الكتب — ط ١ — ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م
١٥ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم — تأليف / محمد عبد الخالق عضيمة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م
١٦ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي — ت د / أحمد محمد الخراط دار القلم — دمشق — ط ١ — ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م
١٧ - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي — المكتب الإسلامي .
١٨ - شرح الكافية في النحو للامام الرضي — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان .
١٩ - شرح ألفية ابن مالك لابن الناظم ت د / عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد — دار الجيل — بيروت .
٢٠ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ت / الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد — مكتبة دارالتراث — ط ٢٠ — ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م
٢١ - شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري المتوفى سنة ٧٦١ هـ ت / محمد محي الدين عبد الحميد — دار الفكر

٢٢ - شرح الكافية الشافية لابن مالك - حققه وقدم له د / عبد المنعم هريدى - دار المأمون للتراث .
٢٣ - المقرب لابن عصفور ت د / أحمد عبد الستار الجوارى وعبدالله الجبورى - مطبعة العانى بغداد - ط ١ - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م
٢٤ - الكشاف للامام الزمخشرى - ترتيب وضبط / مصطفى حسين أحمد - الناشر - دار الريان للتراث - ط ٣ - ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .
٢٥ - الكتاب لسيبويه - شرح وتحقيق / عبد السلام محمد هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م .
٢٦ - المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - ت الشيخ / محمد عبد الخالق عضيمه ١٣٩٩ هـ
٢٧ - مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب القيسى - ت / ياسين محمد السواس ، دار المأمون للتراث .
٢٨ - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام - حققه وبوبه ح . الفاخورى . دارالجيل بيروت - ط ١ - ١٤١١ هـ ١٩٩١ م
٢٩ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع للامام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ - تصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى - دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

القسم الثالث

قسم البلاغة :

١ – «وراء»
مواضعها وأسرارها فى نظم القرآن الكريم

د/ إبراهيم صلاح الهدهد

٢ – الأثر النفسى للأسلوب البلاغى

د. / نعمان شعبان علوان

وراء مواضعها وأسرارها

في نظم القرآن الكريم

بقلم الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

توطئـــة :

إن تدبر مطارح لفظة ما ، وإبصار مواقعها فى آيات الله هو من النصيحة لكتاب الله ـ عز وعلا ـ ولا سيما ما اشتجر الخلاف فى دلالته . وما من ريب فى أن تحرير معانى الألفاظ فى معجمات العربية قائم على إبصار مواضعها فى سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة ، وذلك لأمر ظاهر قاهر ، هو أن للسياق نوراً ـ ولا سيما فى الكتاب العزيز ـ يشع فى دلالة اللفظ ، يصير اللفظ فيه لؤلؤة منظومة فى عقد من اللآلىء ، فإذا أبنتها عن موضعها انفرطت حبات هذا العقد ، وانطفأ وهج تلك اللؤلؤة . وهو كلام يحتاج إلى تبيان وإيضاح بالرجوع باللفظ إلى سياقاته .

يذكر كثير من الأئمة أن « وراء » فى القرآن تأتى بمعنى « بعد » ، « سوى » ، « خلف » ، « قدام » فلم لم تقع هذه الألفاظ فى موقع « وراء » ، وأى جناية على سياقة المعنى بوضع ما يقارب « وراء » فى موضعها ؟ والسبيل

إلى الجواب هو تدبر وإبصار سياقاتها فى الكتاب العزيز ، وهذه اللفظة التى نبحر بها فى الكتاب العزيز ، أو تبحر بنا هى ذات اعتلاق وثيق بقضية الأضداد عند اللغويين ، وقد قال بالأضداد ناس وأنكره آخرون . والذين قالوا بالأضداد عدوها ضربا من المشترك اللفظى ، ولا يمكن عندهم أن يجتمع الضدان فى الصدق على شىء واحد ، ولا بد من استعمال اللفظ ذى المعنيين المتضادين فى لغة واحدة والأضداد عندهم من سنن العربية ، والذين أنكروا زعموا أن فى إثبات الأضداد طعنا فى حكمة العرب وبلاغتهم ، وأن ذلك يفضى إلى كثرة الالتباس فى المحاورات والمخاطبات ، وتأولوا ما جاء على الوجه بالاتساع ، وأن يكون أحد المعنيين لحى من العرب والآخر لحى غيره ثم أخذ بعضهم عن بعض ، وحججهم عقلية كما ترى ويبقى كلامهم منقوضا حتى تقيمه البراهين اللغوية .

والذين قالوا بالأضداد كثر . ذكر ابن فارس أن الأضداد من سنن العرب ثم قال : وقد أنكرها قوم وليس بشىء محتجا بما روى عن العرب ، وقد ذكر السيوطى القائلين والمنكرين ، والذى يعنينا هو رد القائلين أدلة المنكرين ، فقد ردوا اعتراضهم بالالتباس فى المحاورات والطعن فى الحكمة والبلاغة ، بأن ذلك مدفوع بالحكومة إلى السياق فى ضبط دلالة معنى اللفظ ، وهذا شأن العربية الأعظم فى فقه المعنى قالوا : والجواب « أن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطأ منه إلا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين ، لأنها تتقدمها ، ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، فلا يراد بها فى حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد ، ويجرى حروف الأضداد مجرى الحروف التى تقع على المعانى المختلفة وإن لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها إلا بما يتقدم الحروف ، ويتأخر بعده بما يوضح تأويله ، وفى ألفاظ كثيرة يطول

إحضاؤها ، تصحبها الجزب من الكلام ما يدل على المعنى المخصوص منها » وهذا الضرب من الألفاظ هو القليل الظريف فى كلام العرب »(١) وإبصار اللفظ فى سياقه هو الطريقة فى فقه المعنى وهو واجب شرعى قال الشاطبى : ـ رحمه الله ـ « المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، وهذا معلوم فى علم المعانى والبيان ، فالذى يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية وما اقتضاه الحال منها لا ينظر فى أولها دون آخرها ، ولا فى آخرها دون أولها ، فإن القضية ، وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة فى شىء واحد ، فلا محيص للتفهم عن رد آخر الكلام إلى أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع فى فهم المكلف فإن فرق فى النظر فى أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده »(٢).

دلالة وراء عند اللغويين والمفسرين :

الذى يراه ابن جنى « أن همزة وراء » يجب أن تكون مبدلة من حرف علة ، لقولهم : تواريت عنك ، إلا أن اللام لما أبدلت همزة أشبهت الزائدة فى « ضهيأة » ، فكما أنك لو حقرت ضهيأة لقلت : ضهيئة ، فكذلك قالوا فى تحقير وراء : وريئة ، ويؤكد ذلك قول بعضهم فيها ورية ... وأما أبو علىّ ـ رحمه الله ـ فكان يذهب إلى أن لامها فى الأصل همزة ، وأنها من تركيب (وراء) وأنها ليست من تركيب (ورى) واستدل على ذلك بثبات الهمزة فى التحقير على ما ذكرنا ، وهذا ـ لعمرى ـ وجه من

---

(١) انظر هذا الموضوع فى فقه اللغة وسر العربية ص ٢٤٧ ، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٣٨٧/١ - ٤٠١ بتصرف ومقدمة فى فقه اللغة العربية واللغات السامية د/ البركاوى .

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة ٣١٣/٣

القول ، إلا أنك تدع معه الظاهر والقياس جميعا ، أما الظاهر ، فلأنها فى معنى توازيت ، وهذه اللام حرف علة لا همزة ، وأن تكون ياء واجب ، لسكون الفاء واوا ، وأما القياس فما قدمناه : من تشبيه البدل بالزائد(١) ، وعلى هذا الظاهر جرت كتب اللغة ، فإن اللغويين يوردونها فى مادة (ورى) والمادة ، دائرة حول معنى الستر ، فتوارى : استتر ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد غزوا ورى بغيره ، وذلك إذا ستر خبرا وأظهر غيره ، والورى : الخلق قال الخليل : الورى الأنام الذين على وجه الأرض فى الوقت ، ليس من مضى ولا من يتناسل بعدهم ، فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم.

ووراء : إذا قيل : وراء زيد كذا ، فإنه يقال : لمن خلفه نحو قوله (ومن وراء إسحق يعقوب(٢) - ارجعوا وراءكم(٣) - فليكونوا من ورائكم (٤)) ويقال لما كان قدامه نحو : (وكان وراءهم(٥)) وقوله : (أو من وراء جدر(٦)) فإن ذلك يقال فى أى جانب من الجدار ، فهو وراءه باعتبار الذى فى الجانب الآخر ، وقوله : (وراء ظهوركم(٧)) أى خلفتموه بعد موتكم ، وذلك تبكيت لهم فى أن لن يتوصلوا بما لهم إلى اكتساب ثواب الله تعالى به ، وقوله : (فنبذوه وراء ظهورهم(٨)) تبكيت لهم أى لم يعملوا به ، ولم يتدبروا آياته ، وقوله : (فمن ابتغى وراء ذلك(٩)) أى من ابتغى أكثر مما بيناه وشرعناه ، من تعرض لمن يحرم التعرض له فقد تعدى

---

(١) الخصائص ٢٨١/٣ ، ٢٨٢
(٢) سورة هود الآية ٧١
(٣) سورة الحديد الآية ١٣
(٤) سورة النساء الآية ١٠٢
(٥) سورة الكهف الآية ٧٩
(٦) سورة الحشر الآية ١٤
(٧) سورة الأنعام الآية ٩٤
(٨) سورة آل عمران الآية ١٨٧
(٩) سورة المؤمنون الآية ٧

طوره، وخرق ستره، (ويكفرون بما وراءه(١)) اقتضى معنى ما بعده.

وأكثر ما يكون مجيئها بمعنى خلف وقدام فى المواقيت من الأيام والليالى، لأن الوقت يأتى بعد مضى الإنسان فيكون (وراءه) وإن أدركه الإنسان كان قدامه، وشواهد هذه الاستعمالات من الشائع المستفيض فى كلام العرب أوردت المعاجم طرفا منها، فلتراجع فى مواضعها، وقيل: الوراء أيضا: ولد الولد، وفى حديث الشعبي: أنه قال لرجل رأى معه صبيا: هذا ابنك؟ قال: ابن ابنى، قال: هو ابنك من الوراء، قال لولد الولد: الوراء(٢).

وقد نازع فى كونها من الأضداد ناس منهم الآمدى، وهو يرد قول من يقول بأن «دون» من الأضداد مثل «وراء» بأن معنى «دون» التقصير عن الغاية، وذلك يتأتى فى الخلف والأمام.

ثم يقول: وكذلك «وراء» إنما هى من الموارة والاستتار، فما استتر عنك فهو وراء: خلفك كان أو قدامك، هذا إذا لم تره ولم تشاهده، فأما إذا رأيته فلا يكون أمامك وراء، وإنما قال لبيد:

أليس ورائى إن تراخت منيتى
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

بمعنى أليس أمامى، لأنه قال ذلك قبل أن يرى ويشاهد نفسه، وقد لزم العصا وكذلك قول الله تعالى: (وكان وراءهم ملك يأخذ كل

---

(١) سورة البقرة الآية ٩١

(٢) انظر: المفردات فى غريب القرآن للراغب واللسان والقاموس المحيط والمصباح المنير مادة (ورى).

سفينة غصبا) قالوا : إنه كان أمامهم ، وصلح ذلك لأنهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه(١) » .

وكلامه ظاهر فى أن قرائن الحال والمقال، هى الفاصلة فى ضبط الدلالة، وأن اللفظة بطبيعة وضعها اللغوى تطلق على المعنيين ، لذلك فقد أورد الشهاب الخفاجى كلامه السابق ، ثم بين أنه لا تعارض بين كلام الآمدى والبيضاوى ، قال : ـ رحمه الله ـ « وهذا لا ينافى قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ ولذلك عد من الأضداد ، لأن معناه أنه لما أطلق على « خلف وقدام » وهما ضدان عد ضدا تسمحا على عادة أهل اللغة وإن كان موضوعا لمعنى شامل لهما ، لأنه مصدر بمعنى الستر فيهما ، لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر ، وقد يستعمل بمعنى المستور ، ولذا قال فى القاموس : هو من الأضداد أولا ، وقيل : إنه مضاف إلى الفاعل مطلقا ، لأن الرجل يوارى ما خلفه على من هو قدامه ، وما قدامه على من هو خلفه »(٢) .

فالقائلون بأن « وراء » من الأضداد ناظرون إلى المعانى التى تطلق عليها اللفظة ؛ وهى معان متضادة ؛ والرافضون ناظرون إلى أصل دلالة اللفظ ؛ وهما قولان متجاوران متحاوران ؛ وليسا متناقضين متنافرين عند التحقيق كما سيأتى بيانه .

وقد تأول أئمة التفسير لفظ « وراء » بمعنى أمام ؛ وبمعنى خلف فى آيات الذكر الحكيم ؛ وقد وجدت ذلك عندهم مطردا فيما استقريت من التفاسير(٣) ؛ بيد أنى وجدت العلامة ابن عاشور دون غيره من المفسرين

---

(١) الموازنة ١/١٨٢ ، ١٨٣

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٢/٢٠٤

(٣) انظر فى الآيات الوارد فيها « وراء » الكشاف ، مفاتيح الغيب ، جامع القرطبى ، نظم الدرر للبقاعى ، وفتح القدير للشوكانى ، وتفسير أبى السعود ،=

يجعل « وراء » بمعنى خلف أبدا ؛ فإذا ماتظاهر السياق بأن معناها « أمام » جعل ذلك من باب الاستعارة(١) ، ثم عد ما دونته كتب اللغة بأنه من غلط اللغويين لأنه منقول عن المفسرين ؛ ولعمرى ما أدوات المفسرين ؟ فهم حفاظ اللغة ورواة الأحاديث يقول : ـ رحمه الله ـ « وبعض المفسرين فسروا (وراءهم ملك بمعنى أمامهم ملك ؛ فتوهم بعض مدونى اللغة أن وراء من أسماء الأضداد ، وأنكره الفراء . وقال : لا يجوز أن تقول للذى بين يديك هو وراءك برد شديد . وإنما يجوز ذلك فى المواقيت من الليالى تقول : وراءك برد شديد . وبين يديك برد شديد . يعنى أن ذلك على المجاز . قال الزجاج : « وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة(٢) » والحق أن المنكرين هم البعض .

فاصـــلة :

الذى أبصرته فى مواقع الكلمة فى القرآن الكريم هو أن السياق إذا تظاهر على تحديد معنى « الخلف » فى وراء . فإنه يضبط الدلالة بقرينة تصرف اللفظ إلى هذه . تدبر : (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم(٣) ـ فنبذوه وراء ظهورهم(٤) ـ واتخذتموه وراءكم ظهريا(٥) ـ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم(٦) ـ قيل ارجعوا

ـــــ وتفسير البيضاوى ، والشهاب على البيضاوى ، وبحر العلوم للسمرقندى ، والفتوحات الإلهية للشيخ الجمل والصاوى على الجلالين ، تفسير ابن كثير وأرقام الصفحات مذكورة فيما يرد فى البحث فى كل موضع .

(١) انظر التحرير والتنوير فى الآيات الوارد فيها « وراء » .

(٢) التحرير والتنوير ١٦/١١ (٣) سورة البقرة الآية ١٠١

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٧ (٥) سورة هود الآية ٩٢

(٦) سورة الأنعام الآية ٩٤

فالتمسوا نورا(١) ـ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره(٢)) لو لم تكن «وراء» دالة على الأمام لما أضافها إلى الظهر ، وإنما أراد النظم أن يمحضها لهذه الجهة ، والذى يوقع ما أبصرته عندك موقعا حسنا أن لفظ (خلف) لم يضف للظهر أبدا ، ولم يطلب قرائن تضبطه بهذه الجهة لأنه منضبط بها ، واستعمل مقابلا لبين أيديهم فى أغلب المواطن(٣) وأظنك الآن تبصر ثراء « وراء » على خلف فى المواطن التى استخدمت فيها وراء ، فما موقع كلام العلامة ابن عشور عندك الآن ؟

والقرائن المقالية أبدا تضبط المراد وتحدده . والبديع أن القرآن فى سياقات استخدام « وراء » بمعنى « أمام » أو « قدام » يضع قرائن حالية ، ويترك القرائن اللفظية ، وذلك كقوله تعالى : (وكان وراءهم ملك ـ ومن ورائهم برزخ ـ من ورائه جهنم) .

فالقرائن الحالية والسياقية هى التى تغلب معنى الأمام والقدام فى « وراء » وهناك مواضع أخر لا ترى فيها قرائن لفظية ولا حالية ، وذلك عندما يريد القرآن الجهتين كما سيأتى بيانه ـ إن شاء الله ـ فى التحليل . فاحتياج وراء إلى قرائن فى الجهتين دال على وضعها لهما ، لذا ترد فى بعض مواطن الذكر الحكيم مرادا بها الجهتان ، وهو مما يجعل لها ثراء فى مواطنها على غيرها مما يقاربها ، على أنك تبصر أن الأشهر فى استخدام (وراء) هو معنى الخلف لذا تراه متواريا فى معناها عند إيرادها فى معنى الأمام .

---

(١) سورة الحديد الآية ١٣

(٢) سورة الانشقاق الآية ١٠

(٣) أبصر فى الكتاب العزيز : يونس ٩٢ ، البقرة ٦٦ ، ٢٥٥ ، آل عمران ١٧٠ ، النساء ٩ ، الرعد ١١ ، الأنفال ٥٧ ، الأعراف ١٧ ، مريم ٦٤ ، الأنبياء ٢٨ ، طه ١١٠ ، يس ٤٥ ، فصلت ٤٢ ، الحج ٧٦ ... إلخ .

وبعد الإبحار فى التأويل النظرى لـ « وراء » نبحر فى التأويل الجمالى بـ « وراء » فى الكتاب العزيز .

مواضع « وراء » فى القرآن الكريم :

ذكر الشيخ عبد الخالق عضيمة(١) أنهـا وقعت فى ثلاثة وعشرين موضعا ، وقد وجدناها أربعة وعشرين موضعا (البقرة ٩١ ، ١٠١ - آل عمران ١٨٧ - النساء ٢٤ ، ١٠٢ - الأنعام ٩٤ - هود ٧١ ، ٩٢ - ابراهيم ١٦ - ١٧ - الكهف ٧٩ - مريم ٥ - المؤمنون ٧ ، ١٠٠ - الأحزاب ٥٣ - الشورى ٥١ - الجاثية ١٠ - الحجرات ٤ - الحديد ١٣ - الحشر ١٤ - المعارج ٣١ - الإنسان ٢٧ - الإنشقاق ١٠ - البروج ٢٠) وقد أضيفت فى مواضعها هذه ، وجرت بمن فى اثنى عشر موضعا منها .

مقامات استعمال ، وراء » فى القرآن الكريم :

استعملت وراء فى الذكر الحكيم فى مقامات كثيرة ، وتناولنا لها بحسب المقامات لاستكشاف وفائها بحق المقام والسياق الذى وردت فيه بحيث لايفى بحق المقام الذى جاءت فيه سواها . ولا يؤدى دورها غيرها .

مقام الإعراض والغفلة :

وقد جاءت فى هذا المقام فى عدة مواضع الأول منها قوله تعالى : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون - البقرة ١٠١) .

السياق الذى أحاط بالآية الكريمة من بين يديها ومن خلفها يتظاهر على بيان إعراض اليهود عن نبيهم وكتابهم ، وكل أمر الله بعامة (وإذ قال موسى

(١) راجع دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ج ٢/٧١٢ ، ٧٧٨

لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . . .) (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية . . .) (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم . .) (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة . .) وقصة البقرة العجيبة الشأن (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة .) وهى غاية فى البيان عن الإعراض ثم البيان عن تحريف الكتاب ، ثم نسبته إلى الله ، ثم نقض الميثاق وسفك الدماء ، ثم إخبارهم عن أنفسهم بغاية الأعراض (وقالوا قلوبنا غلف . . .) وهو منتهى التبجح وكانوا من قبل مبعث نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستنصرون به على الكافرين ، فلما بعث كفروا به ، ثم إعراضهم عن الإيمان به ، ورفضهم الإيمان بغير التوراة ، والحق أنهم يكفرون بالتوراة ، وآية ذلك قتلهم أنبياء الله ، والسياق يحشد الأخبار الكاشفة عن إعراضهم فى تواصل عجيب ، لو تأملت قوله : (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم . . .) لوجدته مناديا على قوله تعالى من قبل (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون . . .) وقوله من قبل : (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ...) وقوله من قبل : (وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) إلى غيره فى هذا السياق البديع ، وقوله تعالى : (أو كلما عاهدوا . . .) عقد لأخبارهم السابقة وبدء لأخبار لاحقة ، فكل مامضى يفيد الإعراض عن أمر الله وراسه الإعراض عن التوراة ، وما لحق يفيد اتباعهم ماتتلو الشياطين . . هذه وجازة لابد من ذكرها فى تناول الآية الكريمة .

وقد وقع لفظ وراء « متعلقا » بقوله تعالى : (نبذ) « والنبذ : الطرح والإلقاء وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشىء فلا يعمل به . تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك ، ودبرا منك ، وتحت قدمك ، أى اتركه وأعرض

عنه »(١) وقال الشهاب : « النبذ أصله ما لا يعتد به كالنعل البالية »(٢) والكلام على المجاز ، فقد « شبه تركهم كتاب الله وإعراضهم عنه بحالة شيء يرمى به وراء الظهر ، والجامع عدم الالتفات وقلة المبالاة(٣) وذلك على سبيل الاستعارة ، ومجيئه على سبيل الاستعارة أعطى الكلام ثراء وخصوبة لأن الأئمة قد اختلفوا فى المفعول به (كتاب الله) أهو التوراة أم القرآن؟ وذلك آت من إجراء النبذ على الحقيقة لأن الواقع يأبى تأويل النبذ بالحقيقة ، لأنه يتعاند مع تأويل الكتاب بالتوراة ، فلم يطرحوها وراء ظهورهم على الحقيقة ، بل هم يعظمونها ويقرءونها إلى زماننا هذا ، ويتعاند مع القرآن أيضا ، لأنهم لم يصنعوا به هذا بل إنهم لم يقبلوه أصلا والذى يشهد به السياق - والله أعلم - أن المراد بكتاب الله التوراة رأسا وبالذات والقرآن ضمنا ، وأن الأسلوب - كما قال الصاوى رحمه الله - « كناية عن عدم العمل بما فى التوراة(٤) » إن إنكارهم صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتبديلها عدم إذعان لأحكام التوراة والسياق شاهد أنهم نبذوا التوراة ، ونبذوا القرآن وأنكروا الرسول - صلى الله عليه وسلم .

المهم أنك ترى هذه الاستعارة وقعت فى امتداد سياق كشف عن نبذ اليهود أمر الله ويجيب أبو السعود - رحمه الله - عن إعادة ذكر النبذ ، برغم وروده فى الآية الماضية بما يكشف لنا أن الآية فاصلة بين حالين من أحوال اليهود ، الحال الأول حال تمام الإعراض ، والحال الثانى حال

---

(١) تفسير القرطبى ١/٥٣٧ ، ٣٨ ، الكشاف ١/٣٠٠ . مفاتيح الغيب ٢٧٥/٣ ، فتح القدير ١/١١٩ ، بحر العلوم ١/١٤٠

(٢) الشهاب على البيضاوى ٢/٢١٣

(٣) السابق عن الطيبى ٢/٢١٤.

(٤) الجلالين والصاوى عليه ١/٤٨

تمام الاتباع ، يقول رحمه الله « وإفراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله ـ عز وجل ـ (أو كلما عاهدا . . .) لأنه معظم جناياتهم ولأنه تمهيد لذكر إتباعهم لما تتلو الشياطين ، وإيثارهم عليه(١) » ألست تبصر معى أن اليهود واقفون ، وقد طرحوا التوراة وراءهم ، وأقبلوا على ماتتلو الشياطين بكل قلوبهم ، ثم تأمل بدائع الذكر الحكيم فى المفارقة الدقيقة بين الاستعارتين المذكورتين فى الآيتين (نبذ) و (نبذه) ألا تراه قال فى الآية الأولى (نبذه) دون ذكر القيد الذى جاء مع الاستعارة الثانية (وراء ظهورهم) وكأنه بناء متتابع يقفك على جلال توليد المعانى فى الذكر الحكيم ، فالأولى تفيد الطرح وعدم الاعتداد ، أما الثانية فقد أفاد القيد الأول (وراء) النسيان ، وقد أفاد (ظهورهم) الإغراق فى النسيان ، فكانت الأولى تمهيدا للثانية ، فقد أفادت الأولى الترك والإعراض . وأفادت الثانية الثانية ما أفادته الأولى مع الإغراق فى النسيان ، وذلك لأن « وراء » لا يغادر الستر معناها بعكس خلف ، فلو قال: خلف ظهورهم ، لما أضاف إلا تمام الطرح والترك المفاد من الاستعارة ، أما وراء فقد أضافت ما ذكرنا ، وهو المتناسب مع موقع الاستعارة وعلائقها بسوابقها ولواحقها ، وإنما يظهر هذا المعنى إذا عرفت أنه لا يقال وراء ظهرك إلا إذا كان يعقبك مباشرة بحيث لا تراه إلا إذا التفت إليه برأسك ، فإذا تمكنت من رؤيته دون التفات كان خلف ظهرك ولم يكن وراء ظهرك ، فإن الخلف من الممكن أن يكون خلفك بحذاء يمينك أو بحذاء شمالك(٢) لما أبان عن تمام الحفظ قال : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) الرعد ١١ . ولما أراد أن يبين عن إحاطته علما بالمخلوقين قال : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ـ البقرة ٢٢٠) ألا ترى إلى الشيطان

(١) تفسير أبى السعود ٦٤٢/١ بهامش الرازى .

(٢) انظر لسان العرب مادة (خلف) .

عندما أراد أن يكنى عن تمام إحاطته الإنسان بالغواية قال : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) - الأعراف (١٧) ولا تراها إلا فى حديث الله عن الشيطان عندما يصعد القرآن بيانه فى التحذير من غواية الشيطان يذكر جهتى اليمين والشمال ، ولكنك لا تراهما فيما مضى ، وذلك لأن معنى الخلف على ما ذكرت من كلام اللغويين يشمل الجهتين ضمنا ، ولذا لم يقل : يعلم ما بين أيديهم وما وراءهم . ومما عرضت تستطيع أن تتبين لماذا اصطفى الذكر الحكيم « وراء » على « خلف » وغيرها مما يقاربها ، فإن التعبير بـ « وراء » متناسب مع تمام الإعراض المعبر عنه بالنبذ ، وتمام الإقبال المعبر عنه بالاتبـــاع فى قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين . . . «) فالله أعلم . ومما يزيدك بصرا بموقع هذه الاستعارة قول الشيخ الجمل « وهذا أشنع عليهم مما قبله حيث أفاد أنهم نبذوا كتابهم الذى كانوا قبلوه(١) » وقول السدى : « لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة ، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوها لموافقة القرآن لها ، وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى : (ولما جاءهم رسول . . .(٢) » ، وما جاء عليه التركيب يشمل كل لون من ألوان إعراضهم ، مما هو مذكور فى كتب التفسير ، لأن التركيب ينظر على بيان إعراضهم ألا ترى إلى قوله تعالى :(كأنهم لا يعلمون) وهو تشبيه لهم بمن لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل . فيجىء من اللفظ أنهم كفروا علم(٣) » ومما مضى تبين لك وفاء « وراء » بحق المقام :

الموضع الثانى : قوله تعالى : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/٨٤

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٣٤ ، القرطبى ١/٥٣٨

(٣) القرطبى ١ / ٥٣٩ ، فتح القدير ١ / ١١٩ ، الصاوى ١ / ٤٨

لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) - آل عمران ١٨٧) .

كن على ذكر من أن القرآن الكريم كله سياق واحد ، وأن هذه الآية امتداداً لحديث القرآن عن اليهود فى سورة البقرة ، والسياق لتبيان إعراض أهل الكتاب عن أمر الله - عز وعلا - والملحوظ أن الآية مستهلة بالتذكير بأخذ الميثاق ، والميثاق أشد فى التأكيد من العهد ، وأخذ الميثاق هاهنا متعلق بالكتاب (التوراة) لذا فقد اصطفى القرآن الاستعارة الثانية من سورة البقرة ، لذا لو قال فنبذوه واشتروا .... لكان كلاما فاسدا . ثم إنه عبر بوراء ظهورهم ، تناسبا مع الآمر والنهى السابقين على فعلتهم ، ألا تراه أكد الأمر بالتبيين « لتبيينه » من بعد ما بين أنه ميثاق فجاء الكلام كله على لاحب التوكيد ، ثم عطف النهى الذى جاء فى صورة الخبر على الأمر ، وفى إيراد الخبر معربا عن النهى « إيماء إلى أنه من حقه ألا يكون منهم فيخبر به عنهم[1] » وهو ضرب من توكيد النهى بديع جاء على نهج قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ... - البقرة (٢٢٨) « فكأنه قيل : « ليتربصن ولا يكتمن » فكما أكد الأمر بالتربص وأخرجه فى صورة الخبر ، أكد النهى عن كتمان ما خلق الله فى أرحامهن من حيض أو ولد ، فأخرجه فى صورة الخبر ، إذ الغاية فيهما الإبلاغ فى دعوتهن إلى الحرص على إيفاء الرجل حقـــه فى الرجعة »[2] .

وإيراد الخبر معربا عن النهى فيما نحن فيه « إعراب لهذه الأمة عن أنه

---

(١) صورة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم د / محمود توفيق ٨٥ .

(٢) السابق ٨٧ .

إذا ما كان هذا مطلوبا مرغوبا فيه من بنى إسرائيل فى زمان موسى فكيف هو فيكم فى زمان النبى - الخاتم الأعظم - صلى الله عليه وسلم »(١).

وتأكيد النهى كما رأيت قوبل من أهل الكتاب بما هو علم فى الإعراض (وراء ظهورهم) فهو فى الحسيات مبين عن تمام النسيان ، وفى المعنويات كاشف عن تمام الكتمان ، لذا اصطفى القرآن وراء على خلف ، إذ هى لا تفيد تمام النسيان ، وإنما تفيد تمام الغفلة وليس ذلك متناسبا مع السياق الذى حدثتك عنه ، ومما يرشح ذلك أن الكتمان كان ذا مقابل (واشتروا به ثمنا قليلا) ، مما يفتح لنا أن الأمر بالتبيين غير النهى عن الكتمان ، فقد يكفى النبذ فى عدم التبيين ، وذلك لأن التبيين لكشف ما استتر ، والكتمان لإخفاء ما ظهر ، كأنهم مأمورون بتبيين ما استتر ومنهيون عن إخفاء ما ظهر ، ومعلوم أن الثانى يحتاج إلى إجتهاد أكثر ، فكشف القرآن بالتعبير بوراء عن هذا الاجتهاد رغم أنه كفاء ثمن قليل ذمه الذكر الحكيم (فبئس ما يشترون) من بعد ما مهد له بهذا التشبيه البليغ (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور - آل عمران ١٨٥) ، ولن يعكر صفاه هذا الفهم أن يعود الضمير فى « لتبيننه » إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيكون النهى كتمان نعته عندهم ، وذلك هو الأعلى عندهم فى الاجتهاد فى الكتمان ، أو أن يكون عائدا للتوراة ، فإن نعت النبى - صلى الله عليه وسلم - من أحكامها وكثيرا ما يكون هذا الاختلاف ناظر إلى السياق فالقائلون بالرأى الأول ناظرون إلى قوله تعالى : (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب) والقائلون بالثانى : يعيدون الضمير إلى أقرب مذكور(٢) ، والذى يعنينا هو ما بيناه

---

(١) السابق ٨٦

(٢) راجع الكشاف ١/٤٨٦ ، بحر العلوم ١ / ٥٠٢ القرطبى ٣ / ٢٥٦٥ ، مفاتيح الغيب ٦ / ٤٤٣ ، البيضاوى ١ / ٣٢٢ والفتوحات الإلهية ٢ / ٦٥ ، والصاوى على الجلالين ٢ / ٣٣ ، والتحرير والتنوير ٤ / ١٩٢ .

من اتصال وراء بهذا المقام . بحيث لاينهض بدورها ها هنا سواها . والله أعلم .

الموضع الثالث : قوله تعالى : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراء ظهوركم إن ربى بما تعملون محيط ـ هو ٩١ ، ٩٢) .

جاءت الآية الكريمة فى معرض تبيان إعراض الكافرين عن دعوة النبيين وإنما وقع هذا التركيب فى قصة شعيب خصوصا ، لخوف قومه من رهطه دون الله ، وذلك لم يقع فى قصة أخرى فى السورة الكريمة على حشدها قصص النبيين على الترتيب التاريخى وهى خصيصة لها دون سواها من سور الذكر الحكيم(١) . وظاهر من كلامهم فى الآية السابقة على شاهدنا أنهم تناسوا قوة الله ـ عز وعلا ـ وقدرته ، ولم يخشوا إلا بأس رهط شعيب عليه السلام ـ وهذا يدل على تمام الغفلة .

والذى نلحظه هو أن الفعل الذى يتعلق به (وراء) اختلف عنه فى الموقعين السابقين ، وإنما عبر فى الموضعين السابقين بالنبذ الذى أصله الطرح ، لأن الخطاب لأهل الكتاب ، وكان التوبيخ عليهم أن أخذوا التوراة ثم تركوها ولم يعملوا بها ، أما قوم شعيب ، فلم يقبلوا حتى يقال فيهم نبذوا ، لذا فقد توفر السياق ها هنا على بيان غفلتهم ، والأعلى أن يكون الضمير فى (واتخذتموه) عائدا على الله ، (واتخذتموه وراءكم ظهريا) استعارة أيضا : قال جار الله : (واتخذتموه . . ونسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر ، والظهرى منسوب إلى

---

(١) راجع علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم دكتوراه للكاتب بكلية اللغة العربية بالقاهرة سورة هود من الباب الثانى .

الظهر(١) » وعلق الشهاب على قول البيضاوى المنقول عن الكشاف « يشير إلى أنه استعارة تصريحية شبه إشراكهم بالله وإهانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنسيان والرمى وراء الظهر(٢) » ، وقد جوزوا أن يكون « ظهريا » مفعولا ثانيا ، والهاء مفعولا أول ووراءكم ظرف ، أو أن يكون « وراءكم » مفعولا ثانيا(٣) والجملة برمتها في موضع الحال من اسم الجلالة أى الله أعز عليكم فى حال أنكم نسيتم ذلك »(٤) والأظهر أن «ظهريا» حال مؤكدة للظرف ، فيكون الظرف مفيدا النسيان ، ويكون الحال مفيدا الإغراق فى النسيان ، لأن السياق هاهنا يتظاهر على بيان الغفلة والإعراض ، ألا ترى إلى قولهم : (ما نفقه كثيرا مما تقول) ، والفرق بين إضافة (وراء) إلى المخاطب (وراءكم) وإضافتها إلى الظهر مباشرة (وراء ظهوركم) فرق كبير جدا فإنه فى الموضعين السابقين أضاف الظرف إلى الظهر ، ثم أضاف الظهر إلى ضمير المخاطبين (اليهود) فكان كشفا أنهم أعرضوا عن علم ، ورشح هذا الفهم قوله تعالى : (كأنهم لا يعلمون) فى البقرة ، والذى يظهر أن الإضافة تشبه الملك ، فيكون فى إضافة الظهر إليهم ، كشف عن علمهم بمطارح الكتاب ، أما المخاطبون هنا فمعرضون عن جهل لذا رأيت (ظهريا) معراة من الإضافة ، كأنهم أطرحوه وراء أى ظهر ، المهم عندهم أن يكون وراء . فكان فى التعرية عن الإضافة كشف عن جهلهم بالمطارح . وشىء آخر هو أن الله قال فى اليهود (أوتوا الكتاب) فدل ذلك على تملكهم إياه ، فشاكل البناء فى الإعراض البناء فى الإعطاء وشىء آخر هو

(١) الكشاف ٢/٢٨٩

(٢) حاشيه الشهاب على البيضاوى ٥/١٣١

(٣) راجع الوجوة الإعرابية فى الفتوحات الإلهيـة ٢/٤١٨ ، ٤١٩ ، والصاوى ٢/٢٢٦

(٤) التحرير والتنوير ١٢/١٥٢

أن في تركيب بني اليهود بيانا عن حكمتهم في إعراضهم وفي هذا التركيب بيان عن غباوتهم وجهلهم إذ لم يطرحوه وراء ظهورهم هم، ربما ثابوا إلى رشدهم فوجدوه كفعل الحكماء بما لم يحتاجوا إليه، لكنهم اطرحوه اطراح جهالة لذا كان من أمرهم ما كان من الإهلاك، وكان من أمر اليهود ما نرى ونسمع، وشيء آخر هو أنك لو قلت في آيتي اليهود فنبذوه وراءهم ظهريا لكان كلاما فاسدا نابيا عن السياق فوجد أنه مخالف للواقع. أما مخالفته للسياق، فإنه يتنافى مع أمرهم بالتبيين ونهيهم عن الكتمان، وأما مخالفته للواقع فإن الواقع يشهد بأن التوراة في أيديهم مع أنها محرفة، وفرق بين اطراح العمل بالشيء. واطراح الشيء ذاته وفرق بين مدعي التوحيد والكافر بالواحد المجيد. ومما يقرب هذا الفهم أن الظهر يجيء مضافا إلى الضمير بعد إضافة الوراء إليه عند حديثه عن شيء ينسب ملكا لذاك الضمير (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - الأنعام ٩٤) (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره - الانشقاق ١٠) فالكتاب كتابه، والمال ماله وهذا فرق دقيق جداً فتدبره.

مقام التهديد والوعيد :

وهو أكثر مقامات مجيء «وراء» في الذكر الحكيم وقد جاءت في مواطن متعددة: الموضع الأول: قوله تعالى: واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد - من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ - إبراهيم ١٥، ١٦، ١٧».

أكثر أهل العلم على أن (من ورائه) هنا بمعنى «من بين يديه» أو «من أمامه»(١). قال أبو السعود: أي بين يديه فإنه مرصد لها واقف

---

(١) انظر بحر العلوم ٢/٢٠٣، الكشاف ٢/ ٣٧١ ابن كثير ٢/٥٢٦ =

على شفيرها فى الدنيا مبعوث إليهـــا فى الآخرة(١) ، وخالف فى ذلك ابن عاشور قال : « والوراء » : مستعمل فى معنى ما ينتظره ويحل به من بعد ، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول كالشيء الذى يكون من وراء المرء لا يشعر به ، لأنه لا يراه كقوله تعالى : (وكان وراءهم ملك ...) أى وهم غافلون عنه ، ولو ظفر بهم لأفتك سفينتهم «(٢) ولعمرى ألو كان الشيء امامك ولا تراه أتشعر به ؟ فوراء تطلق على ما كان متواريا عنك من الأمام ، وتطلق على ما كان متواريا عنك فى الخلف من أجل ذلك امتازت على (أمام وخلف) .

والذى تجب الإجابة عنه هو : لم اصطفى النظم الكريم « وراء » هنا على ما تأولها به الأئمه من الألفاظ ؟ والجواب أن الحكومة إلى السياق ، سياق السورة بخاصة وسياق القرآن بعامة .

وأول جهات النظر فى السياق أن نبصر المقصود بالتهديد (كل جبار عنيد) والجبار هو المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب له ، وقيل هو من العند وهو الناحية ، وعاند فلان أى أخذ فى ناحية معرضا ، والعنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبدا كما قال أهل العلم(٣) ، فالمقصود بالتهديد معرض ، لا لخفاء الدليل على الحق ، وإسناد الخيبة إليه ترشح لهذا ، وإنما يقال خاب لمن كان الأمر ظاهرا بين يديه ، ولم يلتفت إليه ، لذا لم يكن النظم خسر أو هلك . والذى

= مفاتيح الغيب ٩ / ٣١٢ الصاوى على الجلالين ٢ / ٢٨٢ الفتوحات الإلهية ٢ / ٥١٩ ، البيضاوى ١ / ٥٢٧

(١) تفسير أبى السعود ٥ / ٣٢٩

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٢١٠

(٣) انظر تفسير القرطبى ٥ / ٣٨٦ ، ٣٦٨٧

يرشح هذا أيضاً أن الجبار العنيد جاء فى مقابل من خاف الله والوعيد . والذى شأنه هذا يكون موقف الحساب نصب عينيه ؛ ووعيد الله بين يديه . وذلك ليقينهم بأدلة عذاب الله الشاهدة على عذابه الغائب . وإهلاك الظالمين له أدلته الشاهدة ، انظر ما قبل هذه السورة (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين — آل عمران ١٣٧) (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ الأنعام ١١) أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . — يوسف ١٠٩) .

وهذا ظاهر فى أن ذلك من عذاب الله الشاهد أمامهم وكان الواجب أن يكون يقينا على عذاب الله المستور أمامهم . والتعبير عن الأمام المستور بالوراء فى مقامات التحذير والخوف سائغ شائع عربية .

قال الشاعر :

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا بادي

وقول لبيد :

أليس ورائى أن تراخت منيتى لزوم العصا تحنى عليها الأصابع(١)

وفوق هذا فإن التحذير بالمستور هو الأعلى فى مقام التهديد من التحذير بالمشهود .

والذى يظهر من سياقات القرآن الكريم والسنة المطهرة . أن جهنم وإن كانت مستورة هنا . فهى عند الهالكين غير مستورة . بل إن تعذيبهم فى مشاهدتها . أليس يبصر الظالم مقعده من النار ، فيكون ذلك أشد فى تعذيبه وإيلامه . وذلك من جنس عمله . لما لم يوقن بعذاب الله الشاهد .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٣٦٨٧ .

فيخشى عذاب الله الغائب تدبر قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب - غافر ٤٦) .

وهو إن تدبرت شرح لقوله تعالى هنا : (ومن ورائه جهنم . . ومن ورائه عذاب غليظ) فيكون التعبير عن القدام بوراء فى هذا المقام وراء المستور بالنسبة لمخاطب حى . ووراء المشهود بالنسبة للميت . أرأيت لو قال من قدامه أيكون متناسبا مع المخاطبين ؟ ولو كان من خلفه لكان متناقضا مع الذكر الحكيم . ثم ماذا ترى أيعرض عليه مقعده من أمامه أم من خلفه؟ ومع هذا العذاب يطن العنيد . إذا ما شاهد عذاب يوم القيامة . أنه كان فى مرقد . فذلك قوله : ومن ورائه عذاب غليظ) وهذا الغليظ من الأمام المستور بهذا التركيب البديع كل عذاب مشهود أمامك ينبغى أن يوقنك بالعذاب المستور أمامك فالعذاب الغليظ أمام المستور بالنسبة لهم أيضا .

تأمل كلمة الزمخشرى (من ورائه) « من بين يديه وهو على شفيرها(١) » فى نور آية غافر الماضية . وتأمل كلمة أبى السعود « أى بين يديه فإنها مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث إليها فى الآخرة(٢) » مع وعيهما رحمهما الله - أن المقام للتهديد والوعيد .

ألا يمكن أن نقول مع كل ما مضى : إن التعبير بكلمة (وراء) فيه تناسب مع المتكلم الله عز وعلا - فكل شىء بالنسبة إلى علمه خلف معروف على الوجه الأتم . فتكون وراء بمعنى « خلف » بالنسبة إلى الذات العلية . وتكون بمعنى (قدام) بالنسبة إلينا وإلى علمنا . مع أن هذا يقين عقدى . إلا أنه بيان أسلوبى . على أنى أحس فوق هذا أن فى التعبير بـ (وراء) هنا إيحاء بتصور المستور عنا من العذاب بآيات الترهيب فى الذكر الحكيم .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٧١

(٢) أبو السعود ٥ / ٣٢٩ بهامش الرازى .

الموضع الثانى : قال تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) (المؤمنون ٩٩ - ١٠٠) .

الآية كما ترى واردة بعد آية الاحتضار ، وهو سياق متواصل مع قوله تعالى : أئذا متنا وكنا ترابا . [إلى قوله] : إن هذا إلا أساطير الأولين) كما قال القرطبى ، وقال رحمه الله : ودلت الآية على أن أحدا لايموت حتى يعرف اضطرارا أهو من أولياء الله أم من أعداء الله ؛ ولولا ذلك لما سأل الله الرجعة(١) .

والخطاب - كما ترى - لمنكرى البعث وهو من الأمام المستور ؛ فإذا ما كانوا فى مقام الاحتضار آمنوا وأيقنوا وأبصروا أمامهم ما كانوا ينكرون ؛ فكان مشهودا أمامهم مستورا أمامنا ؛ وقد تأول الأئمة (وراء) هنا بمعنى أمام(٢) وقد اصطفاها القرآن الكريم دون غيرها من الكلمات المتقاربة ؛ لتناسبها مع حالهم وحالنا وحال الأحياء من حول المحتضرين والملحوظ أن (من ورائهم) خبر مقدم و (برزخ) مبتدأ مؤخر ؛ والبرزخ هو مابين الدنيا والآخرة . أو هو حاجز بين ماهو فيه وبين الدنيا والقيامة مستمر لايقدر أحد على رفعه وعند السمرقندى يقال : لكل حاجز بين الشيئين برزخ . ويقال هو بين النفختين . وقال الحسن : القبر بين الدنيا والآخرة . وكل ذلك دائر حول الحجز والستر . فالمتناسب معه وراء . لأنه يحجز الميت فلا هو يرجع إلى الدنيا . ولا هو يذهب إلى البعث . وآية ذلك قوله تعالى بعد (فإذا نفخ فى الصور . . .) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٤٦٨٣

(٢) انظر بحر العلوم ٢ / ٤٢١ ، الكشاف ٣ / ٤٢ ، الصاوى ٣ / ١٢٥ ، ابن كثير ٣ / ٢٥٥ ، مفاتيح الغيب ١١ / ٤٠٦ ، والشهاب على البيضاوى ٦ / ٣٤٦

قال البقاعي ـ رحمه الله ـ في « من ورائهم » « من خلفهم ومن أمامهم محيط بهم »(١) .

وكذا قال القرطبي « من أمامهم وبين أيديهم »(٢) وذلك نظرا لطبيعة دلالة المسند إليه لذا وقعت (وراء) هنا ناهضة بالمعنيين على بابها من المواراة والستر ، فكان ذلك دالا على الإيجاز وعند ابن عاشور « أن الوراء هنا مستعار للشيء الذى يصيب المرء لامحالة وينالّه وهو لايظنه يصيبه. شبه ذلك بالذى يريد اللحاق بالسائر فهو لاحقه »(٣) .

الموضع الثالث : قوله تعالى : (وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) الجاثية ٩ ، ١٠ .

المقام مقام تهديد . ومع ذلك فإنك تجد أهل العلم(٤) يفسرون وراء هنا بـ (قدام) وهذا يعنى أن الأنسب بالمقام أن تفسر بذلك ، وذلك غير من جعلها في الخلف على الحقيقة ثم جره ذلك النظر إلى إجرائها على الاستعارة ، قال ابن عاشور : وفى قوله (من ورائهم) تحقيق لحصول العذاب ، وكونه قريبا منهم ، وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ، ليأخذه ، فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمنا ، فى الوراء استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة . . . ومن فسرو (وراء) بـ (قدام) فما رعى حق الكلام(٥) والأعلى أن من فسره بالخلف فما رعى حق المقام ولوكان النظم

---

(١) نظم الدرر ١٣ / ١٨٦
(٢) تفسير القرطبي ٦ / ٤٦٨٤
(٣) التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٤
(٤) بحر العلوم ٣ / ٢٢٣ ، الكشاف ٣ / ٥١٠ ، مفاتيح الغيب ١٤ /١٧١ ، القرطبي ٩ / ٦٢٠٩ ، الصاوى ٤ / ٦٨ ، الفتوحات ٤ / ١١٤
(٥) التحرير والتنوير ٢ / ٣٣٣

على ما زيد ـ رحمه الله لكان . ومن خلفهم جهنم دون هذا الإشكال ، ولئن كان كما ذهب ـ رحمه الله ـ فلماذا عبر عن (خلف) بـ (وراء) أليس كذلك لأن (وراء) خلف مستور على ما ذكرنا من أصل معناه .

والظاهر أن الآية جارية على التهديد من أمام مستور، وذلك هو الأولى بأخذ الحذر والألصق بمقام النصح ، وشيء آخر هو أن المقصود بالتهديد فى الآيات السابقة (ويل لكل أفاك . . .) يجعل آيات الله وراءه ظهريا على حد ماعرضت فى قوم شعيب كان المعنى : إذا تتلى عليه آياتنا اتخذها وراءه ظهريا ومن ورائه جهنم . . . هذا ما ينير به السياق ـ فيما أرى ـ وشيء آخر هو فى جملة (ولا يغنى عنهم ما كسبوا . . .) وهى فى قوة قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) . . (الأنعام ٩٤)

فالملحوظ أنه مقام تهديد مع التحسير . تهديد بما هو آت ، وتحسير على ما فات ، والآفة أن القائلين بأنها بمعنى (خلف) يرون ذلك ألصق بالتهديد، والأمر كما بينت لك . ثم كشف أبو السعود والبيضاوى عن أن (وراء) ههنا سواء أولت بمعنى خلف أو قدام فإن سواها لا يقوم مقامها ، لأنها وفت بحق المقام والسياق ، وتلك طريقة القرآن الكريم العليا فى تكثير المعنى وتقليل اللفظ . قال البيضاوى : « من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم » (١) وفى كلتا الحالتين هى متوارية عنهم . وقال أبو السعود : « أى من قدامهم ؛ لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم ؛ أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا ؛ فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام(٢) » وقال ابن كثير ، أى كل

(١) البيضاوى ٢ / ٣٨٠

(٢) أبو السعود ٧ / ٤٨٢

من إتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة(١) » .

فكما ترى ، جاءت هذه الكلمة لتوائم كل التأويلات ، ولكل مستند في السياق إما بقرينة لفظية ، وإما بقرينة حالية ، والذى أطمئن إليه أن (وراء) هنا قدام مستور ، وهو الأولى بمقام التحذير ، والله أعلم .

الموضع الرابع : قوله تعالى : (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) (الانسان ٢٧) .

تأول العلماء(٢) « وراء » هنا بمعنى « قدام » ، أو بمعنى « خلف » ، وظاهر كلامهم الاختلاف وليس كذلك ولكن لما وجد في السياق مايعين على القول بالمعنيين وقع كلامهم على حسب جهة النظر ، وليسوا من أهل الغفلة حتى يوقعوا المعنيين المتضادين على اللفظ الواحد من جهة واحدة ، قال الزمخشري : (وراءهم) « قدامهم ، أو خلف ظهورهم لا يعبأون به » (٣) وشرحه أبو السعود بقوله : « أى أمامهم لا يستعدون » أو ينبذون وراء ظهورهم » (٤) وهو كما ترى يبين أن الترك على وجهين إما بعدم الاستعداد وإما بشدة الإعراض ، فعل من يطرح الشيء وراء ظهره على ما عرفت في آيتي أهل الكتاب في البقرة وآل عمران ، والحق أن التركيب يحتمل كل هذه التاويلات فلو أراد النظم الحكيم أن يمحضها لمعنى (خلف) لكان : ويذرون وراء ظهورهم يوما ثقيلا . ولو أراد أن يمحضها لمعنى قدام ، لكان : ويذرون وراءها يوما ثقيلا ، ثم إن في السياق مايسمح بان تكون بمعنى خلف قدام ، لذا وجدنا العلماء هنا يوردون المعنيين .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٤٨

(٢) بحر العلوم ٣ / ٤٣٣ ، تفسير ابن كثير ٤ /٤٥٨ ، البيضاوى ٢/٥٢٨ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٤٦٢

(٣) الكشاف ٤ / ٢٠٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ / ٤٠٣

فيما يعين على جعل الوراء بمعنى الخلف ، هو الجهة المقابلة فهم يستقبلون العاجلة ويستدبرون الآخرة ، وذلك كشف عن قلب أوضاعهم وغفلتهم فى تفكيرهم ، وهو وجه جيد يعين النظم عليه ، وربما يعظم هذا عندك إذا نظرت إلى مقابلهم (إن الأبرار ... يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره ... إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا - من ٥—١١) فكان نظارهم متعاكسا مع نظر هؤلاء المحبين للعاجلة ، والبذل هو رأس الأمر فى الصالحات المذكورة فى السورة ، فهؤلاء يخافون وراءهم يوماً ثقيلا - وهؤلاء يذرون وراءهم يوما ثقيلا . فالأسلوب جار على طريقة التهديد بالنظر إلى كلية السورة . فالذى فسر الوراء بالخلف نظر إلى تصرفاتهم وأعمالهم لهذا اليوم ، والذى فسر الوراء بالأمام نظر إلى أن هذا اليوم لم يقع . ومما يعين على تأويله بمعنى قدام أن العاجلة يقابلها الآجلة ، فكأنهم يحبون عاجلا ويذرون آجلا غفلة وإعراضا ، فمفاد التركيب أن اليوم المتروك الاستعداد له فى الآجلة ، فهم يحبون ما أمامهم على حقارته ، ويتركون ما بعده على نفاسته ، وربما يقوى هذا عندك أن (وراء) حال من (يوما) مقدم عليه لأنه نعت نكرة قـــدم عليها . وقرائن السياق متظاهرة على أن « يوما » أمام ، ومادام فى السياق ما يؤيد الجهتين ، فلا حاجة إلى جعل اللفظ من المجاز ، كما قال ابن عاشور « ومثلوا بحال من يترك شيئا وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه(١) » فتكون بمعنى الخلف كاشفة عن نظر المحبين للعاجلة إلى هذا اليوم ، وبمعنى قدام كاشفة أيضا عن غفلتهم ومتناسبة مع القرينة الحالية ، ومن ثم لم يصلح سواها أن يقع موقعها ، لذا أورد الفخر الرازى سؤالا ، لم قال : وراءهم ، ولم يقل : قدامهم ؟ الجواب من وجوه :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٨ ٤

أحدها : لما لم يلتفتوا إليه وأعربوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها : المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف .

ثالثها : أن « وراء » تستعمل بمعنى قدام(١) . وقال القرطبي « أى بين أيديهم ... وقيل : وراءهم أى خلفهم ، أى : ويذرون الآخرة خلف ظهورهم ، فلا يعملون لها(٢) فتكون غفلتهم غفلة الرجل عن الشيء يأتيه من خلفه ، ويكون عدم اعتدادهم بشيء مهم بين أيديهم غفلة أيضا » وكان يجب أن تكون فى المقام الأول فى التصنيف ولكننا وضعناها هنا بالنظر إلى سياق السورة الوارد فيها الآية ، لأنها ناظرة إلى قوله (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ـ الإنسان) .

الموضع الخامس : قوله تعالى : (بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ـ البروج ١٩ ، ٢٠) .

تأمل كيف وضع الذكر الحكيم الكفار فى محيط من التكذيب من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فكان الجزاء من جنس العمل ، فكان أن أحيطوا ببطش الله الشديد (إن بطش ربك لشديد ـ البروج ١٢) وهو مع شدته محيط ، قال ابن عاشور رحمه الله ـ « وقد قوبل جزاء إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب بهم جزاء وفاقا ، خبر مستعمل فى الوعيد والتهديد(٣) » ، قال الزمخشرى : « والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم ، وهم لا يعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم مثل لأنهم لا يفوتونه ، كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به(٤) » ولخصه البيضاوى بقوله :

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦ / ٨٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧١٧٦

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٢

(٤) الكشاف ٤ / ٢٤٠

«لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط(١)» وقال أبو السعود «تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط(٢)» والذى أبصر أن الأسلوب حقيقة، لأن الكل فى قبضة الله علما وقدره، والذى يعنينا هو بيان فضل وراء فى هذا التركيب، الذى يفهم من الزمخشري والبيضاوى وأبي السعود أن الوراء بمعنى الخلف والقدام هنا، أى أنه يسترهم بإحاطته من كل جانب، وهى على بابها من الموارة والستر، أى أنهم يكونون وراء إحاطة الله -عز وعلا- حيثما طلبتم، وهذا أولى من أن يقال: المراد وصف اقتداره عليهم، وأنهم فى قبضته وحوزته، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه فلا يجد مهربا(٣)» لأن التعبير بها على بابها جعل الإحاطة بهم من كل جهة. وهو أولى مما قاله ابن عاشور من أن الآية «تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم، وهم فى غفلة عنه بحال من أحاط به العدو من ورائه، وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدو محيطا به(٤)» لأن فيها معنى المغافلة على هذا التاويل، وذلك متناف مع ما مضى من وصف البطش بالشدة، ومتوافق مع ماوصفهم به القرآن من التكذيب، لذا قال القرطبي: أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون والمحاط به كالمحصور(٥)»، والمحصور يحاط به من كل جانب، وفوق هذا فإن المتناسب مع الإحاطة بمدلولها اللغوى هو وراء لا غيرها من خلف أو قدام، وليست هنا قرائن تضبطها بالخلف ولا بالقدام، فكانت على بابها من الاتساع متناسبا مع الإحاطة، وما تدل عليه من الاتساع.

---

(١) البيضاوى ٢ / ٥٥١ (٢) أبو السعود ٨ / ٥٢٧

(٣) مفاتيح الغيب ١٦ / ٣٢٨.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٥٢

(٥) تفسير القرطبي ١٠ / ٧٣٣٥

مقام التحسير والتبكيت :

ورد ذلك فى ثلاثة مواضع فى الذكر الحكيم :

الموضع الأول : قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون — الأنعام ٩٤) .

الآية السابقة على الآية هى قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون [إلى قوله] اليوم تجزون عذاب الهون ـ الأنعام ٩٣) والمقام مقام تحسير وتنديم ، وقد بدأه بقوله : (ولقد جئتمونا فرادى) فكان قوله : (كما خلقناكم أول مرة) شرحا لهذا الانفراد ، ثم جاء من بعد بقوله : (وتركتم ...) بيانا للمقصود من هذا الخبر ، وهو ذروة التحسير والتنديم فى هذه الآية وقد وقع وراء متعلقا بـ (تركتم) وفيه تهكم بهم ، وكأنهم تركوه باختيارهم ، إلماعا إلى ما كانوا يبصرون به فى الدنيا من إمكان إتيانهم بمالهم غير فرادى بطريق تقديم الصالحات ، وقد جاء (وراء) مضافا إلى الظهر والظهر مضافا إلى المقصودين بالتحسير من بعد ما نسب الترك إليهم ، إلماعا إلى أنهم اجتهدوا فى ستره من خلف ظهورهم ، لغاية أن جعلوه بمثابة ما لا سبيل إليه ، ولو قال خلف ظهورهم ، لأظهر إمكان حصولهم عليه ، أبصر قوله تعالى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ـ النساء ٩) لأن القرآن هاهنا يوحى إليهم بقصور ترك الذرية فهم يتصورونهم خلفهم ، ولكنهم يرونهم ، لذا لو قال من ورائهم ما لاءم السياق .

المهم أن لوراء فائدة كبيرة فى إظهار التحسير ، ولا سيما فى نسبة الترك إليهم ، أى نبذتم وراء ظهوركم هذا اليوم بالمال باختياركم ، والآن تركتم المال وراءكم رغم أنوفكم .

يقول الفخر رحمه الله - « فبقيت الأموال التي اكتسبها ، وأفنى عمره في تحصيلها وراء ظهره ، والشيء الذي يبقى وراء ظهر الإنسان ، لا يمكنه أن ينتفع به ، وربما بقي منقطع المنفعة معوج الرقبة ، معوج الرأس بسبب التفاته إليها مع العجز عن الانتفاع بها ، وذلك يوجب نهاية الخيبة والغم والحسرة(١) ، وقد جعل أبو البقاء الجملة حالا من الواو في (جئتمونا) فيصير ترك ما خولوه هو محل التشكيل(٢) ، وكونه وراء الظهر ، يوهم بالاقتراب ويبعد في التشكيل ، وهو ظاهر في إضافة الظهر إليهم .

الموضع الثاني : قال تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العـــذاب ــ الحديد ١٣) .

الذين قالوا : إن (وراء) لا يكون إلا خلف الشيء ، قالوا : إن وراء هنا اسم فعل فيه ضمير فاعل ، أي ارجعوا ـ ليس ذلك مقيسا ولا مسموعا عند العرب ـ قالوا : لأن عده ظرفا لا رجعوا لا يكون وراءه كبير فائدة. وذلك لأن الرجوع لا يكون إلا إلى وراء ، فماذا يقال في قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ـ الأنعام ٣٨)(٣) ، ثم إن كلام أهل العلم دال على أن « وراء » في التركيب نصت على مكان التماس النور ، وهذا يعني أنه لا يجوز أن يقال : (قيل ارجعوا فالتمسوا نورا) وذلك لأمر ظاهر ، هو فوت النص على المكان ،

---

(١) مفاتيح الغيب ٦ / ٤٤٣

(٢) الفتوحات الإلهية ٢ / ٦٥ ، الصاوي ٢ / ٣٣ .

(٣) انظر الفتوحات الهية ٤ / ٢٨٩ ، التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٨٣ ، صورة الأمر والنهي د / محمود توفيق ٥١ وما بعدها .

وذلك مخل بمقام التحسير والتبكيت الذى يسير السياق على لاحبه ، بل إن عنده اسم فعل على ما زعموا ، لجعل « وراء » تأكيدا لا رجعوا يفيد أنه يمكن أن يقال : (قيل التمسوا وراءكم نورا) وذلك قد يخرج الكلام إلى الإرشاد لما فى معنى الالتماس من الرغبة فى نجاة المخاطب ، وهذا غير (ارجعوا) فى أنه يفيد انتفاء الرغبة فى نجاتهم ، وليس التأكيد هنا على لا حب قولنا : رجع القهقرى كما قال ابن عاشور(١) فالقهقرى وصف للرجوع ، كما أن الوراء تنبيه إلى مكان الرجوع ومجله ، وسواء كان تعلق « وراء » بالتمسوا أو ارجعوا ، فإن ذلك كله يغرى بالتماس النور ، ويعلى من الإطماع فى طلبه ، وأهل العلم فى تحديد محل وراء على قولين(٢) ، وهما متجاوران ، الذين قالوا إن ذلك فى الموقف نظروا إلى سياق السورة الكريمة ، والذين قالوا : إن ذلك فى الدنيا أى ارجعوا إلى الدنيا نظروا إلى سياق القرآن الكريم كله ، وهو فيما أرى ـ أبعد فى التحسير ، فنى السورة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ـ ٢٩) . وفى موضع آخر « واتبعوا النور الذى أنزل معه ـ الأعراف ١٥٧) وفى موضع آخر (ولكن جعلناه نورا ـ الشورى ٥٢) ، وهو ما يرجح الفرق بين خلف ووراء ، وعد وراء هنا من الخلف المستور هو الأعلى ـ فيما أرى ـ ألا تراه قال فى المؤمنين (يسعى نورهم)فأضاف النور إليهم ، لإتقانهم سببه فى الدنيا ، ولما أضاف النور إلى المنافقين ، أى ارجعوا إلى وراء خاص بكم ، فكان محل التماس النور فى هذا المقام فى الخلف المستور سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى

---

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٨٣

(٣) انظر الكشاف ٤ / ٦٣ ، البيضاوى ٢ / ٤٥٤ ، والقرطبى ٩ /٦٦٤٨ ، بحر العلوم ٣/٣٢٥ ، مفاتيح الغيب ١٢٩/٨ ، أبو السعود ١٢٨/٨ بهامش الرازى ، ابن كثير ٤ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، الصاوى على الجلالين ٤ / ١٧٢

الآخرة ، ثم إن في الوراء في الآخرة إطماعا في الرغبة ، لأن الوراء هو مما يلي الظهر ، وهو تنصيص على المكان أكثر من خلف ، وكل هذه التأويلات تتناغى مع هذا المقام .

الموضع الثالث : قال تعالى : (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ـ الانشقاق ١٠ ، ١١ ، ١٢) .

حاول العلماء التوفيق بين ما هنا وما فى الحاقة فقالوا : المراد أنه تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ، وقيل : تخلع يده اليسرى من وراء ظهره ، وقيل : يتحول وجهه فى قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك ، وقيل : يحتمل أن يكون بعضهم يعطى بشماله ، وبعضهم يعطى من وراء ظهره(١) ، والذى أبصره أن التأويل فى الكيفية ضرب فى غيهب الغيب ، ولكن الذى ينبغى إبصاره ، هو أن ما قالوه يفيد أن ما فى الانشقاق أبعد فى التحسير والتحقير مما فى الحاقة ، وذلك لأمر ظاهر ، هو أن « الانشقاق » تشبه أن تكون تفصيلا لما أجملته الحاقة : (وانشقت السماء ...) ، أما الانشقاق فهى مفتتحة بالحديث عن انشقاق السماء ، من بعد وقوع السورة بعد التكوير والانفطار ، ثم إن الجهة المقابلة فى الانشقاق (فسوف يحاسب حسابا يسيرا دالة على الحساب العسير لأهل الشمال ، والذى أبصره أيضا أن القرآن فى الانشقاق يتصاعد بيانه لتحسير أصحاب الشمال كأن التركيب فى السورتين : فأما من أوتى كتابه بشماله وراء ظهره ... فأضاف فى الانشقاق النص على موضع الكتاب ، وبـ (وراء)

---

(١) انظر بحر العلوم ٣ / ٤٦١ ، الكشاف ٤ / ٢٣٥ ، مفاتيح ١٦ / ٢٩٧ ، القرطبى ١٠ / ٧٣٠٩ ، البيضاوى ٢ / ٥٤٨ ، ابن كثير ٤ / ٣٨٩ ، أبو السعود ٨ / ٥١٢ ، الفتوحات ٤ / ٥١٠ ، الصاوى ٤ / ٣٠٢ ، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٢٢٣

مضافة إلى الظهر وفيها من الاستتار ما ليس فى الخلف ، وهو مما يعنى أنهم لا يبصرون الذى يناولهم الكتاب ، بل يتلمسونه بأيديهم ، لا يتاح لهم النظر إليه قبل امتداد اليد إليه ، إمعانا فى التحسير والتبكيت ، والذى يعظم ذلك عندك أن الانشقاق واقعة بعد الحاقة فى ترتيب المصحف ، وفى ترتيب النزول أيضا ، ودائما يتعانق الترتيبان فى التظاهر على بيان المعنى ثم الحظ تفصيل الثبور فى الحاقة ، والإشارة إليه فى الانشقاق ، فلا ينبغى للحقير أن يشرح فى الانشقاق اقتضاء للمقام .

مقام التشديد فى التحريم والنهى :

الموضع الأول : قال تعالى : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين - النساء ٢٤) .

سياق الآية يتظاهر على التشديد فى التحريم ، وقد وقعت (وراء) فى سياق تحريم وتحليل ، وهما أمران أحاط بهما كثير من وسائل التشديد ، تأمل قوله : (كتاب الله عليكم) وهو مصدر مؤكد « أى كتب الله عليكم كتابا وفرضه فرضا(١) وقد توسط بين التحليل والتحريم » للمبالغة فى الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة(٢) ، وأضاف وراء إلى اسم الإشارة ، للتذكير بما فى كل واحدة من حكم الحرمة ، وفى الآيتين عدة أستار ستر التحريم وستر (والمحصنات) وبعد وراء ستر (محصنين) وقد تأول العلماء (وراء) هنا بـ (سوى)(٣) وعند ابن عاشور هى بمعنى غير

---

(١) الكشاف ١ / ٥١٨

(٢) أبو السعود ٣ / ٢٧٩ بهامش الرازى .

(٣) انظر بحر العلوم ١ / ٣٤٥ ، مفاتيح الغيب ٥ / ١٤٠ ، القرطبى ٢ / ١٧٨٩ ، =

أو دون(١) ، والذى أبصره أن إيثار (وراء) يلائم السياق والمقام ، لما فيها من معنى الاستتار ، وهو مما يحدو بالأمة نحو يفاع الطاعة ، فليس المقصود تحريم النكاح فحسب ، وإنما المقصود مع ذلك تحريم النظر بشهوة إلى من يحرم ، ومن يحل من النساء ، فبرغم أن الكل أمام منظور ، إلا أن الشرع يلزم أن الكل أمام مستور ، سوى من نظرا بتغاء إحصان عند توفر المال معه (أن تبتغوا بأموالكم محصنين) وهو مما يلزم الطائعين لله غض البصر ، وتنزيهه عما حرم الله ؛ وإيحاء بما يجب أن يلقيه الزواج من ستر البصر (محصنين) فهذا موقع وراء ؛ وتناغيها مع ما بين يديها وما خلفها من آيات الله .

الموضعان الثانى والثالث : قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ـ المؤمنون ٥-٧ ؛ المعارج ٢٩-٣١) .

وقعت هذه الآيات فى هاتين السورتين ؛ وسورة المعارج بعد (المؤمنون) ترتيباً مصحفياً ونزولياً .

ولئن كان حديث « المؤمنون » عن فلاح المؤمنين ؛ فإن حديث المعارج مصدر بميقات هذا الفلاح . أى قد أفلح المؤمنون يوم تعرج الملائكة ... فالله أعلم ؛ والسياق للطائعين لله المتواضعين لشرع الله ؛ تأمل هذا القيد الذى لا نظير له فى سورة أخرى (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ؛ وهو إيماء إلى أن الحديث عمن امتنع عن الكبائر قطعا وعن الصغائر اجتهاداً أو تسديداً ؛ فقد أبان السياق بعد أنهم ألقوا بستر الشرع على الفرج.

= ابن كثير ١ / ٤٧٤ ، البيضاوى ١/٢١٣ ، فتح القدير ١ / ٤٤٩ ، الفتوحات الإلهية ١ / ٣٧٢ ، الصاوى ١ / ٢١٣ .

(١) التحرير والتنوير ٥ / ٧

بالأزواج وما ملكت الأيدى ، واستجابوا لأمر الله ولم يتعدوه . وهم لا يبتغون وراء ذلك محلا ولا وسيلة ، لأنهم ليسوا بعادين، كما يفيده مفهوم ما بعده . فقد جعل النظم الكريم « المستثنى حدا أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه ... فأولئك هم الكاملون فى العدوان المتناهون فيه(١) » وحذف مفعول ابتغى ألمع إلى تحريم كل ما يؤدى إلى إفراغ الشهوة فى غير حلها اقترابا بنظر وغيره ، وطريقة بلواط وغيره ، وتعلقت (وراء) بابتغى فألقت سترا على الحلال ، وألقت سترا على الحرام ، والعادى على أيهما خارق للستر ، ثم تأمل مايفيد التركيب من أن الخارق لهذا الستر متناهى الكمال فى العدوان ، ومفهومه أن حافظ الستر متناهى الكمال فى الحفظ ، كما يفهم من كلام الزمخشرى هكذا أضاءت (وراء) السياق ، وأضاءها السياق ، قال الراغب : ـ رحمه الله فى تأويلها فى هذا المساق « أى من ابتغى أكثر مما بيناه ، وشرعناه ، من تعرض لمن يحرم التعرض له ، فقد تعدى طوره ، وخرق ستره(٢) » تأمل دقة الكلام الناظرة إلى نور السياق .

هذا .. وقد تأول العلماء (وراء) هنا بمعنى سوى(٣) وقال ابن عاشور: « وراء منصوب على المفعول به ، وأصل الوراء اسم الذى فى جهة الظهر ، ويطلق على الشىء الخارج عن الحد المحدود ، تشبيها للمتجاوز الشىء بشىء(٤) » ولست أرى له موقعا ، وكونه تشبيها تكلف لما بيناه .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣١٦ (٢) المفردات (ورى)

(٣) انظر بحر العلوم ٢ / ٤٠٨ ، القرطبى ٦ / ٤٦٤٠ ، مفاتيح الغيب ١١ / ٣٤٨ ، البيضاوى ٢ / ١٠٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ١٨٤

(٤) التحرير والتنوير ١٨ / ١٥

وما قيل فى آية « المؤمنون » يقال فى آية « المعارج » مع إبصار السياق فى الموضعين :

الموضع الرابع : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما — الأحزاب ٥٣) .

وقعت وراء فى سياق تعظيم حرمة أزواج النبى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأزواج المؤمنين من بعد ما استشعر الكثير الإيذاء من التلاقى والاختلاط كفاحا ، وقد وقع (من وراء حجاب) متعلقا بـ (فاسألوهن) الواقع جوابا لقوله (إذا سألتموهن . . .) المؤذن لتقييده بإذا بضرورة السؤال ، وقد جاء الجواب عن هذه الضرورة مقيدا (من وراء حجاب) وقد أضيفت « وراء » لـ (حجاب) والحجاب هو الستر كما قال أهل العلم(١) ، وفى وراء معنى الاستتار ، فتناسب المضاف والمضاف إليه ، وهو مما يوحى بأنه إذا ما كان الله - عز وعلا - آمرا السائل بالتزام بالسؤال من وراء حجاب ، فهو آمر المسؤولة بالتزام الاستتار ، وأن يجعل كل منهما الحجاب سترا بينه وبين الآخر سدا للذرائع ، وقطعا لكل سبيل إلى المعصية ، وتعظيما لحرمة العرض ، وإنما كانت « وراء » لتجعل كلا من السائل والمسؤول وراء الحجاب بالنسبه إلى الآخر ، ولن تفيد ذلك خلف

---

(١) انظر البيضاوى ٢ / ٢٥٤ ، والصاوى ٣ / ٢٨٦ ، والفتوحات الإلهية ٣ / ٤٥٣

ولا غيرها ، فوق أنها لا تناسب المضاف إليه و (وراء) مما يجعل الكلام في قوة قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ـ النور ٣٠-٣١) وما أوحت به « وراء » من الاستتار بلزم الطائعين لله ـ إذا ما انتفى الستر الحسى ـ بالستر الإيمانى ، انظر إلى قوله كاشفا العلة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) لما كانت الرغبة منوطة بجنس الرجال أولا قدمهم . قال الفخر : « يعنى العين روزنة القلب فإذا لم تر العين لا يشتهى القلب ، أما إن رأت العين ، فقد يشتهى القلب ، وقد لا يشتهى فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر(١)» فكانت وراء وافية بحق مقام التشديد فى التحريم والنهى . بما أفادته من الإغراق فى الاستتار بالإضافة إلى الحجاب ملاءمة للسياق .

الموضع الخامس : قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ـ الحجرات ٤) .

السياق من أول السورة لتعظيم حضرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بدأت السوررة بالنهى عن مطلق التقديم وذلك بحذف مفعول (لا تقدموا) ثم النهى عن رفع الصوت بحضرته . ثم الجهر معه بالقول . وجعل رفع العمل بتنفيذ ما مضى . وإحباطه فى عدم الإذعان له ، وبلغ التحذير الذروة بقوله : (وأنتم لا تشعرون) ومعلوم أن النهى ليس متوجها إلى ما يقارن رفع الصوت والجهر من الاستخفاف فذلك كفر كما أفاده أبو السعود(٢) وبعد الترهيب من الاخلال . رغب النظم فى الانتهاء بقوله : (إن الذين يغضون . . .) جاءت (وراء) فى الاية الواقعة فى هذا السياق . وهنا يتصاعد البيان القرآنى لتعظيم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقعت

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢ / ٦١٥

(٢) انظر تفسير أبى السعود ٧ / ٥٨٤ وما بعدها .

(وراء) متعلقة بـ (ينادونك) وقد ذكر أهل العلم أنها بمعنى خلف[1] أو قدام ، لذا قد اتسع القول من قائل إن النداء من المسجد أمام الحجرات. أو خارجه خلف الحجرات . ولو قال القرآن : خلف أو قدام ، لكان النهى عن جهة واحدة ، وهو ما ينبو عنه السياق والسباق ، حيث يتنافى مع المساق من أول السورة ، المتظاهر على تعظيم حرمة حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالمقصود النهى عن ندائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيثما كان متواريا عن الأعين ، والجناية على المعنى بحذفها أو استبدالها كما ترى .

يقول جار الله : « والذى يقول : نادانى فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ، ولا دبرها ، ولكن أى قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم فى أدبار الحجرات أو فى وجوهها ، وإنما أنكر عليهم ، أنهم نادوه من البر والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة[2] » ولست أدرى كيف يحمل العلامة ابن عاشور[3] (وراء) هنا مجازا فى الجهة المحجوبة ، منكرا ما تظاهرت به المعاجم وسياقات القرآن .

مقام المبالغة فى الكفر :

وذلك فى قوله تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ـ مبقرة ٩١) .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٤ / ٣٦٥ ، القرطبي ٩ / ٦٣٥٩ ، بحر العلوم ٣ / ٢٦٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ١٧٦ ، حاشية الصاوى ٤ / ١٠٩

(٢) الكشاف ٣ / ٥٥٨

(٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٢٦

سياق الآية على ما عرفت فى الموضع الأول من المقام الأول ، وهى تعد مهادا لنبذ اليهود العهود والكتاب ، وقد ذكر أهل العلم أن بما وراءه هنا بمعنى بما سواه أو بما بعده أو بما خلفه أو بالإنجيل والقرآن(١) وقد وقعت (بما وراءه) فى سياق يتظاهر على بيان كفر اليهود بما فى أيديهم ، فقد كان الأمر إليهم بالإيمان بكل منزل (آمنوا بما أنزل الله) « أى بكل ما أنزل الله ، والقائلون بالعموم احتجوا بهذه الآية على أن لفظه (ما) بمعنى الذى تفيد العموم ، قالوا : لأن الله تعالى أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمهم على ذلك ، ولولا أن لفظة (ما) تفيد العموم لما حسن هذا الذم(٢) » وكان جوابهم (نؤمن أنزل علينا) « ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم(٣) » لأنه تعريض بأن ما سوى التوراة ليس منزلا ، ووقع قوله (ويكفرون بما وراءه) حالا من الضمير فى قالوا(٤) أى « قالوا » ما قالوا وهم يكفرون بما عداه ، وليس المراد مجرد بيان أن إفراد إيمانهم بما أنزل عليهم حقيقة(٥) ، وقد نصب النظم الكريم القرائن الكاشفة لمستور قولهم ، فقوله : (وهو الحق مصدقا لما معهم) جملة وقعت حالا من فاعل يكفرون ، والمعنى : « قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، وهم يكفرون بالقرآن ، والحال أنه مصدق لما آمنوا به ، فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ، ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة ، والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر بها(٦) » وجاء قوله : (قل فلم تقتلون

---

(١) انظر بحر العلوم ١/ ١٣٧ ، ابن كثير ١ / ٦٢٥ ، والكشاف ١/٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الصاوى على الجلالين ١ / ٤٥ ، فتح القدير ١ / ١١٣

(٢) مفاتيح الغيب ٢ / ٢٥٤

(٣) تفسير أبى السعود ١ / ٢٢٢ - ٦٢٣

(٤) تفسير البيضاوى ١ / ٦٩ (٥) تفسير أبى السعود ١ / ٦٢٤

(٦) تفسير أبى السعود ١ / ٦٢٥

أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) ردا لادعائهم الإيمان « أى قل لهم إلزاماً وبياناً لكفرهم بالتوراة التى ادعوا الإيمان بها(١) » وقد تجاوبت (وراء) مع هذا السياق والمقام الذى يتظاهر على كشف مستور اليهود ، ولو وقع سواها موقعها ، لما لاءم السياق ولما وفى بحق المقام .

مقام المبالغة فى الجبن :

وقع ذلك فى قوله تعالى : (لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ـ الحشر ١٤) .

جاءت الآية ذروة البيان من جبن اليهود وفرط رهبتهم . فقد جاء فى مفتتح السورة قوله : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ـ ٢) فإن شدة بأسهم ومنعتهم جعلت المسلمين يظنون أنهم لن ينتصروا ، وأبان النظم عن خصيصة فيهم (وظنوا أنهم . . . .) أى أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، « وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إن ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتهم بها . واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة بسببها(٢) » لكن الله أثبت فى قلوبهم الرعب ، ثم يتصاعد القرآن ببيانه ؛ ليكشف فرط رعبهم من المسلمين (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ـ ١٣) » أى رهبتهم فى السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله ؛ فإنهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى(٣) ثم جاء قوله : « لا يقاتلونكم . . . » علما على هذا الرعب ؛ بادئا بالأدنى منتهيا بالأعلى ، لما فى الثانى من التخصيص عن الأول « إلا فى قرى محصنة » « أو من وراء جدر » أى

---

(١) القرطبي ١ / ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، والفتوحات الإلهية ١ / ٧٨

(٢) البيضاوى ٢ / ٤٦٤ (٣) أبو السعود ٨ / ١٨٠

« دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم(١)» وقد وقعت (وراء) هنا كاشفة عن أنهم كانوا يستترون تمام الاستتار ، لذا لم يصلح فى هذا المقام والسياق أن يعبر « بخلف » لأن مدار البيان على اجتهادهم فى الاستتار ومما يعين عليه قراءة من وحد الجدر (جدار) ، وقول القرطبي « أى من خلف حيطان يستترون بها(٢) » .

تأمل كيف نص على الاستتار ، ثم إن المقام فى الكشف عن مستور قلوب اليهود ، وما فيها من فرط الجبن فوراء أولى به وألصق .

مقام المبالغة فى الظلم :

وقع ذلك فى قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (الكهف ٧٩) .

عندما تقوى القرائن لتأويل وراء بـ (أمام) يقوى التكلف لتأولها بـ (خلف) هذا ما جرى فى هذا الموضع ، والوجه الأول هو الأعلى عند المفسرين ، وذلك لأن هذا المعنى بالمقام ألصق ، ولأن ابن عباس وابن جبير اقرأ (وكان أمامهم) ، والذين تأولوها بـ (خلف) قالوا :إن رجوعهم كان عليه ، أو أنه كان من خلفهم زمنا عند من قال بأنها من الأضداد فى المواقيت والأزمان «وتأولوا قراءة (أمامهم) بأن المراد بالظرف المكان(٣)» والذى يتظاهر عليه السياق ، هو البيان عن مبالغة هذا الملك فى الظلم ، والذى

---

(١) الكشاف ٨٥/٤ (٢) القرطبي ٧٥٨/١٠

(٣) انظر بحر العلوم ٢٠٩/٢ ، والكشاف ٥٩٥/٢ ، القرطبي ٤٢٠٣/٦ وما بعدها ، مفاتيح الغيب ٣٦٦/١٠ ، البيضاوى ٢٢/٢ ، الشهاب على البيضاوى ١٢٧/٦ ، ١٢٨ ، والفتوحات الإلهية ٣٩/٣ ، الصاوى ٢٣/٣ ، أبى السعود ٧٣٤/٥ ، التحرير والتنوير ١٦/١١ وما بعدها .

من شيمته ـ كما يفيده التركيب ـ شدة القسوة واتساع السطوة (فكانت لمساكين يعملون فى البحر) (يأخذ كل سفينة غصبا) وهو مما يعلى وجه الحكمة فى صنيع الخضر ـ عليه السلام ـ ألا تراه حذف الصفة إشعارا بالمبالغة فى الظلم، وهذا القيد (غصبا) مما يعين عليه أيضاً .

والتعبير بوراء هنا لاءم السياق ووفى بالمقام ، إذ هى تفيد أنه كان متوارياً عنهم راصدا لهم ، وكانوا فى غفلة منه ، لعدم معرفتهم بظلمه وغشمه ، وقد ذكر البقاعى فى هذا الموضع كلاما يظهر فيه نور السياق فى وراء قال رحمه الله : « وكان وراءهم أى أمامهم ، ولعله عبر بلفظ (وراء) كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر فى كل وجهة وارتهم وواروها ، وفسره الحرالى فى سورة البقرة : بأنه وراءهم فى غيبة عن علمهم ، وإن كان أمامهم فى وجهتهم ؛ لأنه فسر الوراء بما لا يناله الحس ، ولا العلم حيثما كان من المكان قال: فربما اجتمع أن يكون الشيء وراء من حيث إنه لا يعلم ، ويكون أماما فى المكان(١) » وهو عين ما فهمناه من أن الأمام المستورة وراء والخلف المستور وراء حسا ومعنى ، ولو وقعت خلف أو قدام هنا لنبت عن السياق ، وقصرت عن المقام .

مقام التحذير :

ومع ذلك فى قوله تعالى : (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » (النساء ١٠٢) .

المقام مقـــام حرب ، وقد وردت « وراء » متعلقة بقوله تعالى :

---

(١) نظم الدور فى تناسب الآيات والسور ١٢/١١٩

(فليكونوا) وهو أمر وارد على لا حب الإرشاد والتوجيه ، إبلاغا فى أخذ الحذر ، واقترانه بالفاء المؤذنة بسرعة التعقيب مما يعلى هذا ، وقد دخلت من الابتدائية على وراء ، إلماعا إلى التصاق الحارسين بظهور المصلين ، وما فى وراء من معنى الاستتار يوحى بموازاة المصلين بالحراسة ، ولو قال من خلفكم لما تساوق مع الكلام ، ولما وفى بالمقام ، والظاهر أن القرآن يصعد بيانه فى أخذ الحذر تأمل كيف قال قبل وراء (وليأخذوا أسلحتهم) وقال بعدها (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) وذلك لأن العدو لم يلتبه إلى أنهم يصلون فى مبتدأ الصلاة ، وفى إكمالها تنبه بلا ريب ، فترصدهم على ما ذكر الفخر ـ رحمه الله(١) ـ ثم تأمل ما أبان به القرآن الكريم عن شدة تربص العدو بالمؤمنين والتى يلائمها شدة التحذير (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) وسياق (وراء) كما ترى ، والأعلى فى مقام أخذ الحذر هو وراء لا خلف إلماعا إلى شدة الانتباه ، وإبلاغا فى أخذ الحذر ، وتجد العلماء يذكرون أن (من ورائكم) هنا أى (يحرسونكم(٢)) وقد أبانت وراء عن وجه الحراسة ، وجعلت المصلين غيبا إذا ما نظر العدو إليهم ، لما عليه الحارسون من تمام سترهم وحماية ظهورهم .

مقام الرغبة :

قال تعالى : (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ـ مريم ٥ ، ٦)

اتفق المفسرون أن (من ورائى) هنا بمعنى (من بعدى) ، ولا يمكن

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٥ / ٤٢٣

(٢) انظر الكشاف ١ / ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، البيضاوى ١ / ٢٤٠

ان تكون متعلقة بخفت لفساد المعنى ، فهى إما متعلقة بمحذوف ، والتقدير : خفت فعل الموالى من ورائى ، وإما بمعنى الولاية فى الموالى ، والتقدير : خفت الذين يلون الأمر من ورائى(١) ، وهو قائم على أن الأنبياء لا يخشون إلا الله ، والسياق للرغبة بإظهار التضرع بين يديها كما يتظاهر عليه سياق السورة . وما من ريب فى أن خوفه أعلى أسباب الطلب ، وأن الخوف من أجل وراثة العلم والنبوة ، لا من أجل وراثة المال كما هو لائق بمقام النبوة ، وقد كشفت من ورائى أن خوفه من المستور أمامه ، كان قائما على ما رآه فى المنظور أمامه ، وهو ما تؤيده القراءة الأخرى بتشديد (خفت) وإن كان (ورائى) بمعنى خلفى أو بعدى فهو متعلق بالموالى والمعنى . أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين ، وأنه سأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولى يرزقه ، وإن كان ورائى بمعنى (قدامى) فهو متعلق بالفعل (خفت) والمعنى أنهم خفوا ، ودرجــوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد(٢) ، والقراءتان متظاهرتان على بيان المعنى ، ويكون المعنى عليهما ، وإنى خفت انعدام الموالى من بعدى لما رأيت خفتهم قدامى ، وذلك أدعى لطلب المولى ، وألصق بالرغبة ، لذا كانت ألصق بها من الأسباب السابقة عليها ، ثم إن التعبير بوراء نص فى أنه لا مولى فى وجوده وحضرته ، وإنما يكون ذلك بعد وفاته ، وذلك غير (من بعد) فليست نصاً فى هذا المعنى ، ثم إن (وراء) تجرى على لا حسب مقام النبوة فى خوفهم على دينى الله حتى بعد موتهم ، ووراء نص فى الاستتار ، فيكون ذلك بيانا عن خوفهم على دين الله فى الزمان المنظور والزمان المستور ، ولا يفى سواها بهذا الغرض . وشىء آخر هو أن الأسباب المسوقة بين

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٥٠٢

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١٠ / ٣٩٨ وما بعدها وقد رد القرطبي هذه القراءة . انظره ٦ / ٤٢٤٩

يدى الرغبة من أول السورة ، تدور بين سبب باطن وسبب ظاهر تأمل (رب إنى وهن العظم منى) وهو سبب باطن (واشتعل الرأس شيبا) وهو سبب ظاهر ، (ولم أكن بدعائك رب شقيا) وهو سبب ظاهر ، (وإنى خفت الموالى من ورائى) وهو سبب باطن (وكانت امرأتى عاقراً) وهو سبب ظاهر ، فجاء بوراء فى السبب المستتر ، لأنه كان فى غيهب الغيب بالنسبة إلى سيدنا زكريا عليه السلام . فهو خوف من مستور أمامه .

مقام تأكيد البشارة :

قال تعالى : (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب ـ هود ٧١) .

وقعت هذه البشارة فى ثلاثة مواضع ، هذا الموضع والذى فى الحجر (قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ـ ٥٣) وفى الذاريات (قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ـ ٢٨) ، فجاءت البشارة هنا ذاكرة اسم الولد ، واسم ولد الولد ، لذا عقب النظم البشارة فى سورة هود بقوله : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ـ هود ٧٦) . وليست مذكورة فى الموضعين الآخرين ، وهو المتناسب مع سياق تأكيد البشارة ، واختصت الحجر بتعجب سيدنا إبراهيم من البشارة ، واختصت الذاريات بالإخبار عن زوجه بأنها صكت وجهها ، وبرغم تأكيد البشارة هنا وغرابتها ، فإنها لم تصك وجهها ، بل ولم تذكر السبب الأعلى فى عدم الإنجاب كما فى الذاريات (وقالت عجوز عقيم) وفى هود (أألد وأنا عجوز) ، وهو مما يؤيد تفسير الضحك بالحيض ، فيما روى عن مجاهد وعكرمة ثم ان النص على دهاب الروع هنا معلم دال على تأكيد البشارة ، والذى ينبغى بيانه فى هذا المقام أن الأكثرين من أهل العلم على أن (من وراء) بمعنى (من بعيد) وفسرها بعضهم بأن معناها ولد الولد ، إستنادا إلى ماروى عن الشعبى وابن عباس فى قول الأخير لرجل معه ابن ابنه هذا ابنك من وراء ، وهو

بعيد فى التعسف عند الفخر ، والذى أبصره أنهم أرادوا البيان عن تأكيد البشارة لإبراهيم عليه السلام - فى أنه سيعيش ويرى ولد ولده ، أما فضل وراء فى هذا الموضع ، فإنها جعلت « إسحق » أمام سيدنا إبراهيم المنظور ، وجعلت يعقوب أمامه المستور كأن التبشير بوجود إسحق أمر فرغ منه كأنه منظور ، يستر أمامه المستور ، والذى يوضح هذا أنه قد قرىء برفع يعقوب ، والمعنى ويكون من وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود ، أو ثبت لها من وراء إسحق يعقوب ، أو يكوى فى موضع الحال ؛ والمعنى : بشروها بإسحق مقابلا له يعقوب ، فيكون كل من النبيين وراء بالنسبة إلى بالآخر ، وبكل المعانى فإسحق عليه السلام يصبح كالأمام المنظور بالنسبة لأبيه ، ويعقوب أمام مستور بالنسبة لجده ، وقر الفتح (يعقوب) تؤيد هذا أيضا فالمعنى : فبشرنا من وراء إسحق يعقوب ، أو ووهبنا من وراء إسحق يعقوب ، فالتعبير بوراء أكد على التبشير بإسحق ومكن فى التبشير بيعقوب ، فقد جعلتهما وراء متقابلين على ما عرفت . وذلك هو الأعلى فى مقام تأكيد البشارة ؛ إذا ما أبصرنا مواضعها فى الذكر الحكيم ، وذلك لأن الاستتار لا يغادر معنى وراء ، وهذا غير من بعد لأنها لا تؤكد البشارة بالنبيين .

مقام تنزيه الذات العلية عن المكان والجهة :

قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم - الشورى ٥١) .

السورة سورة الوحى ، وهذه الآية تنادى على قوله سبحانه فى أول السورة (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم - الشورى ٣) وبعد الآية محل الشاهد (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا - ٥٢) فالآية محل الشاهد كاشفة عن طرائق هذا الوحى المذكور

فى أول السورة وفى آخرها ، و (من وراء) تتعلق بقوله سبحانه (يكلمه) وقد زعم البعض أن فى الآية نصاً على الجهة ، وقد اشتغل المفسرون بالرد على هؤلاء البعض ، والخطب هين ، لأن القرآن لو قال من خلف حجاب ، أو من أمام حجاب ، لكان لزعمهم وجه ، لكنه لما عبر بوراء ؛ وهى هنا ـ فيما أرى ـ تدل على الجهتين معاً ؛ فالله فى كل مكان وكل جهة ـ سبحانه وتعالى ؛ فالوراء كل خلف أو قدام استتر عنك ؛ « والمراد من الحجاب لازمه ؛ وهو عدم الرؤية ؛ والحجاب وصف العبد لا وصف الرب(١) » وقد ذكر أهل العلم أن موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوت الله من كل ناحية عندما كلمه ؛ وكان الكلام فى كل ذلك من وراء حجاب ؛ فلو وقع هنا خلف أو قدام ؛ لتنافى مع الكمال ؛ واقتضى المكان والجهة ؛ وربما يزيدك بصرا تذكرك ما عرض عليك فى سورة الحجرات ؛ مع إبصارك أن الحجرة محيطة بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما هنا فالحجاب محيط بالعبد ؛ لأن الله سبحانه يحيط ولا يحاط به ؛ فهو لا يكلم بشراً إلا مستتراً عنه ؛ والملائم لمقام التنزيه ألا تعد الآية من التشبيه كما قال الزمخشرى « أى كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه ؛ وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ، ولا يرى شخصه(٣) فإنه من فساد التأويل ؛ وقد روى « أن موسى ـ عليه السلام ـ لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء ؛ وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه ؛ فنودى يا موسى ؟ قال : لبيك إنى أسمع صوتك ؛ ولا أراك فأين أنت ؟قال: أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك ، وأقرب إليك منك ؛ إن ابليس

---

(١) انظر فى هذه الوجوه الإعرابية الكشاف ٢ / ٢٨١ ، مفاتيح الغيب ٨ / ٥٧١ القرطبى ٤ / ٣٣٨٧ الفتوحات الإلهية ٢ / ٤١٠ ، الصاوى ٢ / ٢٢٢ ، التحرير والتنوير ١٢ / ١١٩ ، ١٢٠

(٢) الصاوى على الجلالين ٤ / ٥٤

(٣) الكشاف ٣ / ٤٧٥

أخطر بباله هذا الشك ، وقال : ما يدريك أنك تسمع كلام الله ؟ فقال : لأنى أسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى ، وعن شمالى ، كما أسمعه من قدامى ، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين(١) » وما يقال فى آية الأحزاب غير ما يقال هنا ، فالسياق غير السياق ، والمقام غير المقام ، فالأولى فى مقام توجيه المخلوقين ، والتى هنا فى المقام حديث الخالق عن نفسه .

وبعد . . .

فهذا ما قبسناه من نور وراء فى سياقتهـــا فى الذكر الحكيم ، وقد أبصرناها ـ فى مقامات تكشف عوار اليهود ، وغفلة المعرضين ، ومقامات تبكيت الضالين . وتعظيم حرمة سيد المرسلين ، وتنزيه رب العالمين ، ووجدنا لها إيحاء يحدو بالمخلصين نحو يفاع الطاعة ـ فى مقامات التشديد فى التحريم والنهى ، وقد حاولنا الكشف عن وفائها بحق المقام والسياق ملتزمين فى كل ذلك الإيجاز ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠ / ٥٤٢

أهم مصادر البحث

القرآن الكريم :

١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود بهامش الرازي بدون تاريخ .

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوى ط الحلبي ١٣٨٨هـ

٣ - بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ط دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ

٤ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٨٤ م

٥ - تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ط عيسى الحلبي .

٦ - حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضي البيضاوى ط بولاق بدون تاريخ .

٧ - حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ط دار الفكر ١٣٩٧ هـ

٨ - الخصائص لابن جنى ت الشيخ / محمد على النجار ط الهيئة العامة للكتاب ١٤٠٨ هـ .

٩ - دراسات لأسلوب القرآن د / محمد الخالق عضيمة ط حسان .

١٠ - صورة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم د / محمود توفيق محمد سعد ط الأمانة ١٤١٣ هـ .

١١ ـــ علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم دراسة بلاغية (نظرية ـ تطبيقية) .
مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة إشراف (د / محمد أبو موسى ، د / محمد جلال الذهبى) للكاتب د / إبراهيم صلاح الهدهد .

١٢ ـــ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للشيخ الجمل ط عيسى الحلبي .

١٣ ـــ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى ط دار المعرفة بدون تاريخ .

١٤ ـــ فقه اللغة وسر العربية للثعالبى ط بيروت بدون تاريخ .

١٥ ـــ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادى ط بيروت .

١٦ ـــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ط مصطفى الحلبي ١٣٩٢ هـ .

١٧ ـــ لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

١٨ ـــ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ت محمد جاد المولى وآخرين ط بيروت ١٩٨٦ م .

١٩ ـــ المصباح المنير للفيومى ط المكتبة العلمية .

٢٠ ـــ مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى ط دار الغد العربى .

٢١ ـــ المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ت كيلانى ط الحلبي ١٣٨١ هـ .

٢٢ ـــ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ت / السيد صقر
ط دار المعارف الرابعة .

٢٣ ـــ الموافقات في أصول الشريعة ، ت / الشيخ عبد الله دراز
ط المكتبة التجارية .

٢٤ ـ مقدمة في فقه اللغة العربية واللغات السامية د / عبد الفتاح
البركاوى ١٤١٤ هـ .

٢٥ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي
ط الهند ١٣٨٩ هـ .

محتـــويات البحث

الموضـــوع	الصفحـة



بقلم الدكتور
نعمان شعبان علوان

مقدمة

الحمد لله رب العالمين كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه القائل فى كتابه العزيز « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين معلم البلاغة والفصاحة والناطق بما للبيان من تأثير على النفوس والقلوب وأنه يصنع فيها صنيع السحر فقال عليه الصلاة والسلام (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة) .

بعد عملية استقراء واسعة فى أصول البلاغة العربية ، ومن أجل العمل على ارجاع البلاغة إلى مصدر الحياة الفنية ، ووصلا لأصول فن الكلام بأصول الحس والذوق والتأثير ، ومن أجل بناء جسم بلاغى جديد يجمع بين هذه المتفرقات التى تشير إلى وجود أثر نفسى فى أساليب البلاغة العربية.

قمت بهذه الدراسة التى تهدف إلى إظهار الأثر النفسى للأساليب البلاغية من جهة ، وكيف تخدم هذه الأساليب المعانى النفسية من جهة أخرى .

ولقد تنوعت الأساليب البلاغية التى ذكرتها فشملت علوم البلاغة الثلاثة (البيان — المعانى — البديع) .

أما علم البيان ففيه (التشبيه ـ المجاز ـ الاستعارة ـ الكناية) .

وأما علم المعانى ففيه (الاستفهام ـ التكرار ـ التقديم والتأخير ـ القصر ـ الاعتراض ـ الإيجاز) .

وأما علم البديع ففيه (الطباق ـ المقابلة ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ التكميل ـ التهذيب والتأديب ـ الفرائد).

وسأتناول هذه الأساليب بالدراسة والتحليل معتمدا اعتمادا كبيرا على الشواهد القرآنية ومظهرا الأثر النفسى لكل أسلوب على حدة .

وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأساليب البلاغية

أولا : التشبيه :

التشبيه عند البلاغيين أشبه بوسائل الإيضاح التى تهدف إلى زيادة التأثير فى النفس ، وتثبيت المعـــانى فيها إذ يعقد صلة بين أمرين أو أكثر يشتركان بقصد إبراز هذه الصفة فى أحدهما ، وتجسيمهما وتوضيحهما(١) .

والتشبيه يضفى على المعنى شرفا ووضوحا ويزيده قوة وتأكيدا ويرفع من قدره الكلام ويتحرك القلب إليه ، لأنه ينتقل من المعنى الأصلى إلى صور تشبهه وكلما جلا التشبيه المعنى وزاده قوة ووضوحا كان أملك للنفس وأبعد للتأثير(٢) .

قال تعالى : « قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا »(٣) .

يريد القرآن أن يبرز الحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد ويرتد على عقبيه إلى الكفر ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال فتبرز صورة هذا المخلوق الذى

---

(١) الصورة بين البلاغة والنقد ، د . بسام ساعى ، ص ٤٥ . المنار للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٤ م .

(٢) القرآن والصور البيانية ، د. عبد القادر حسين ، ص ٩٨ ، دار المنار ، القاهرة ١٩٩١ م .

(٣) سورة الأنعام الآية ٧١

استهوته الشياطين فى الأرض . ولفظ الاستهواء لفظ مصور لمدلوله ويا ليته يتبع هذا الاستهواء ، ولكن هناك من الجانب الآخر إخوان له يدعونه إلى الهدى وينادونه « ائتنا » وهو بين الاستهواء وهذا الدعاء حيران موزع القلب لا يدرى أى الفريقين يجيب ولا أى الطريقين يسلك فهو قائم هناك شاخص متلفت(٤) . فالقرآن الكريم يصور لنا الحالة النفسية والمعنويه لهذا الإنسان التعيس .

بالعودة إلى النسق التعبيرى يتبين لنا سبب تلك الحيرة ، فالاستفهام فى صدر الآية « قل أندعو من دون الله » وقوله « مالا ينفعنا ولا يضرنا » وقوله « نرد على أعقابنا » . ثم هذا التشبيه الذى يعقد صلة نفسية بين المتردد الضعيف ومن استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ، ذلك كله يبرز أسباب الحيرة ويكشف عن شخصية الحيران ممزقة واهنة لا تملك من أمرها أمرا(٥) .

هذه النفسية الحائرة التى يصورها القرآن الكريم والتى لا تستطيع أن تثبت فى مهب الريح أو تستقر فى مكان تحكم على نفسها بالفناء والعدم عند سماعها قول الحق وصوت اليقين « قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .

.. وكقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون(٦) » .

---

(٤) التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ص ٤١ دار المعارف . القاهرة.

(٥) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : د. فتحى أحمد عامر ، ص ٣٥٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٤

(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٧٤ - ١٧٥

يقول الرماني (انظر كيف صور دخائل النفس الإنسانية والحيوانية وكيف تلتقيان فى المعصية الخسيسة المدبرة عن عمد(٧)) .

فالرماني فى هذه الآية لا يتحدث عن التشبيه على أنه صورة من صور علم البيان بأن يذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه وإنما تناوله تناولا ذوقيا يكشف فيه عن الغرض النفسي ، واعتبره صورة من صور البيان المعجز فى النظم القرآنى وذلك لما تحمله هذه الصور من سبحات تأملية تسبح فيها العاطفة والعقل معا . فليس التشبيه صورة شكلية جامدة وإنما هو نبض وحركة وتصوير وانفعال وإثارة شعورية .

فصفته التى هى مثل الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخس أحواله وأذلها ، وهى حال دوام اللهث به واتصاله ، سواء حمل عليه ، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه ، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حمل عليه ، وقيل معناه إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته لهث ، وإن تركته على حاله لهث ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالين(٨) .

فالقرآن يقرر ملازمة صفة الضـــلال فى الرجل لزوم صفة اللهثان فى الكلب فلو زالت صفة اللهثان عن الكلب تزول صفة الضلال عن الرجل ، وهذا ضرب من الاستحالة كما فى قوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين »(٩) .

---

(٧) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، الرمانى ، الخطابى ، عبد القاهر ص ٧٥ تحقيق : د. محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦م.
(٨) الكشاف . الزمخشرى جـ ٢ ص ١٢١ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣هـ.
(٩) سورة الأعراف الآية ٤٠

فعلقهم القرآن بأمر مستحيل وهذا له أثر شديد على النفس . فالمعاناة مستمرة وباقية بقاء الانتظار فى تحقيق المستحيل .

وكذلك تصوير الصراع النفسى للإنسان الكافر فى قوله تعالى : «إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر(١٠)» .

«من خلال هذا المشهد الحافل يعيش المؤمن بين الخوف من النار والرجاء فى دخول الجنة ، ويعيش الكافر فى صراع نفسى قد يصل به إلى الإيمان فينجو أو إلى العناد فيهلك(١١) .

وكقوله تعالى : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه»(١٢) .

شبه أعمال البر والخير التى يعملها الكافرون ظانين أنها ستنفعهم بالسراب الذى لا حقيقة له ، فالصورة الأولى عقلية شبهها بصورة حسية حتى تستقر فى النفس وتتضح معالمها فى الذهن فتصبح صورة واضحة لا غموض فيها .

فلو أن القرآن قال : أعمالهم غير مثمرة . لم يكن له فى النفس هذا الأثر القوى الذى يصور عدم جدوى هذه الأعمال(١٣) .

وكقوله تعالى : «وعنـــدهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون»(١٤) .

---

(١٠) سورة المرسلات الآيتان ٣٢ - ٣٣

(١١) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ، د. فتحى أحمد عامر ص ٢٢٥ ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ١٩٧٦ م .

(١٢) سورة النور الآية ٣٩

(١٣) البيان فى ضـــوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ص ٥٩ دار المعارف ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٨٥ م .

(١٤) سورة الصافات الآيتان ٤٨ - ٤٩

وقوله تعالى : « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون »(١٥) .

وقوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان »(١٦) .

كل هذه الألفاظ تبرز معانى الجمال والحسن ثم كان التشبيه مصورا هذا الجمال مبدعا فى إظهاره ، فهن بيض النعـــام ذو اللون الأبيض المشرب بصفرة ، وذلك أجمل وأحسن ألوان النساء ، والبيض قد كن وستر فلا يصل إليه غبار ، وهن لؤلؤ مكنون ، وهن كأنهن ياقوت ومرجان والنفس شديدة الرغبة فى هذه الأنواع الكريمة وتلك الأحجار النفيسة محبة لها ، شديدة الحرص عليها وذلك عامل نفسى قوى يحبب هؤلاء النساء ويعلى شأنهن فى نفس المؤمن(١٧) .

وقد يستخدم الإنسان من التشكيل البلاغى ما يخدم المعانى النفسية التى تجول فى صدره فاستخدامه للمصطلحات الهادئة ذات الرجع النفسى طويل المدة غير استخدامه للمصطلحات التى تحمل معنى الحماسة والمغاضبة ذات الأثر النفسى قصير المدة ولذلك فاستخدام الشاعر البهاء زهير مثلا للتشبيه كامل الأركان يكون فى إطار هدوء النفس ، ومقام يحتاج معه الإنسان إلى وقت فى شرحه وسماعه والتمتع بتلقيه .

ومن ذلك مدحه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أخا السلطان الملك صلاح الدين يوسف وذلك سنة اثنتين وعشرين وستمائة وأولها .

وعد الزيارة طرفه المتملق   وبلاء قلبى من جنون تنطق

إلى أن يقول :

يا عاذلى أنا من سمعت حديثه   فعساك تحنو أو لعلك ترفق

---

(١٥) سورة الواقعة الآيتان ٢٢ - ٢٣

(١٦) سورة الرحمن الآية ٥٨

(١٧) علم البيان : د. بسيونى عبد الفتاح ص ٢٤ مطبعة السعادة القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٨ م .

لوكنت منا حيث تسمع أو ترى ... لرأيت ثوب الصبر كيف يمزق
ورأيت ألطف عاشقين تشاكيا ... وعجبت ممن لا يحب ويعشق
أيسومنى العذال عنه تصبرا ... وحياته قلبي أرق وأشفق
إن عنفوا أو صوفوا أو سوفوا ... لا أنثنى لا انتهى لا أفرق
أبدا أزيد مع الوصال تلهفا ... كالعقد فى جيد المليحة تعلق
ويزيدنى تلفا فأشكر فعله ... كالمسك تسحقه الأكف فيعبق(١٨)

هذا الجو النفسى للشاعر هو الذى دفعه إلى استخدام التشبيه فى أركانه الكاملة فهو يزيد فى حبه لمدوحه وينبىء عن ارتياح نفسية الممدوح وحبه لسماع هذا المدح كما أنه ينبىء عن رضى نفسية القائل ولذلك اختار من عناصر التصوير البلاغى مايصور هدوء النفس وراحة البال(١٩) .

ومن التشبيهات التى تعارفت عليها العرب واستخدمتها وكان لها الأثر النفسى عندهم تشبيههم الحديث بالعسل فى قول ذى الرمة :

وقلنا سقاطا فى حديث كأنه ... جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

فقد شبه الحديث بالعسل ولم يكن حبهم للعسل بسبب حلاوته وطيب طعمه فحسب ، وإنما لأنهم اعتقدوا فيه الشفاء من أمراضهم وجربوه علاجا ناجحا لأكثر الأمراض(٢٠) .

وهذا يبين ارتباط العسل بقضية نفسية عند العرب مرتبطة بقضية

---

(١٨) ديوان البهاء زهير : ص ١٧٥ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد طاهر الجبلاوى ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧ م .

(١٩) البلاغة : عرض وتوجيه وتفسير ، د. محمد بركات أبو على ص ٩٧ ، دار الفكر ، عمان ط ١ ١٩٨٣ م .

(٢٠) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ، واجد مجيد الأطرقجى ص ١١٢ وزارة الثقافة ، بغداد ١٩٧٨ م . وانظر البلاغة عرض وتوجيه وتفسير ص ٩٨

إيمانية مستوحاة من قوله تعالى : «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»(٢١) .

الإمام عبد القاهر الجرجاني والأثر النفسي للتمثيل

بين الإمام عبد القاهر الجرجاني الأثر النفسي للتمثيل بشقيه التشبيهي والاستعاري بقوله «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها... فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم ... وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد . وان كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب .. وان كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر(٢٢) .

فلو تأملنا كل هذه العبارات التي ذكرها الإمام لوجدناها موجهة إلى إظهار التأثير على النفس وقبول النفس لها .

---

(٢١) سورة النحل الآية ٦٩

(٢٢) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني جـ ١ ص ٢٢٥ ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ط ٣ ١٩٧٩ . بتصرف

العقاد والأثر النفسي للتشبيه

بين الأستاذ عباس محمود العقاد الأثر النفسي للتشبيه من خلال أثره في وصل الطبيعة ومشاهدها المثيرة بنفوسنا وعواطفنا فقال « إن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه، وإنما مزيته أن يقول ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به، وليس هم الناس من القصيدة أن يتسابقوا في أشواط البصر وإنما همهم أن يتعاطفوا، ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وخلاصة ما استطابه أو كرهه، ثم يقول: وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه .. ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نوراً فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فيتضاعف سطوعه»(٢٣) .

وقد اعتبر الدكتور بدوي طبانة ما كتبه العقاد من أبدع ما كتبه المعاصرون في البلاغة بعامة وفي التشبيه بخاصة . وقال « ونحن مع العقاد في عظمة التشبيه المعبر عن النفس، والذي يصل المشاهدين بالنفس ويستثير الإحساس وينبه كوامن المشاعر »(٢٤) .

ثانياً : المجاز :

المجاز هو تجاوز الحقيقة، ولا نتجاوز الحقيقة إلا إذا استخدمنا الكلمة

---

(٢٣) انظر : ديوان العقاد ص ١ - ٧١ القاهرة ١٩٢١ م .

(٢٤) علم البيان : د. بدوي طبانة ص ٧٠، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١ م .

فى غير ما وضع لها فى أصل الوضع اللغوى، وهذا مجاز لغوى، أو أسندنا الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له فى الحقيقة، وهو مجاز الإسناد، أو ما كانت علاقته غير المشابهة، وهو المجاز المرسل، وفى جميع هذه الحالات تتشوق النفس إلى معرفة التجاوز وهذا عامل نفسى فإذا ما فهمت وعلمت الحقيقة رسخت هذه المعلومات فى النفس واستقرت فيها. وهذا ما بينه الدكتور بدوى طبانة فى حديث عن المجاز المرسل بقوله : « إن المعنى إذا عبر عنه باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه وإذا عبر عنه بلفظ المجاز لم تعرف تلك الوجوه على جهة الكمال فيحصل من التعبير بالمجاز تشوق إلى تحصيل الكلام وهذا عامل نفسى لأن فى هذا التجوز استثارة لمكامن الشوق وجذبا للانتباه ووعى ما فى النص الأدبى من وجوه الحسن والجمال »(٢٥). ولو تأملنا فى قوله تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت »(٢٦). لوجدنا أن القرآن يصور لنا نفسية المنافقين، وكيف أنهم يعيشون فى حيرة دائمة، وخوف مستمر فهم يحسبون كل صيحة عليهم حتى صوت الرعد ورؤية البرق.

وحتى لا يسمعوا شيئاً من هذا كله جعلوا أصابعهم فى آذانهم، فجاء التعبير بالأصبع تصويراً للهلع الذى ملأ قلوبهم وهيمن على نفوسهم.

وكقوله تعالى : « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن »(٢٧).

أى كى تقر نفسها فعبر بالعين ولم يعبر بالنفس، لأن العين هى الموطن الذى يدلل على استقرار النفس، وعدم استقرارها. فاستقرار النفس هو استقرار للعين وعدم استقرار النفس هو عدم استقرار للعين. ولذلك جاء التعبير القرآنى يوضح لنا هذا المعنى النفسى الذى يحمل معانى الطمأنينة والاستقرار للنفس الإنسانية.

---

(٢٥) علم البيان : د. بدوى طبانة ص ٥٨

(٢٦) سورة البقرة الآية ١٩ (٢٧) سورة طه الآية ٤٠

وهناك المجاز الذى يترجم عن القفزات النفسية فى مثل قول الشاعر :

سألثم منكم جراح السنين وأحنو عليكم كنوزا خصيبة

« فإننا لا نستطيع أن نفصل بين التشكيل البلاغى ونفسية الشاعر »(٢٨)

وكقوله تعالى : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج انا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها .وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى أدنى هوبالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم »(٢٩) .

فى هذه الآية تصوير للنفس وهى فى حالة التنقل وعدم الاستقرار والطمع وعدم القناعة والتشكك فيما هم عليه . ولذلك طلبوا التبديل والتغيير فقالوا :

ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، محتمين بعدم الصبر على طعام واحد فجاءت الإجابة فيها نوع من الغرابة تبين لنا حقيقة هذه النفسية المنقلبة المتشككة :

« قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » .

ومن هنا تبرز قيمة المجاز فى تصويره للنفوس وإظهاره للمعانى النفسية.

ثالثاً : الاستعارة :

لقد تناول الرمانى الاستعارة بطريقة متميزة تختلف عن سابقيه حيث بين الأثر النفسى لها مستشهداً على ذلك بآيات من القرآن الكريم ، ومبينا فى كل شاهد المعنى الحقيقى والمعنى المجازى والجامع بين المعنيين ونكتة التعبير بالاستعارة دون الحقيقة والسر البلاغى فى الآية ، والأثر النفسى الذى

(٢٨) البلاغة « عرض وتوجيه وتفسير ص ١٤٣

(٢٩) سورة البقرة الآية ٦١

يتداعى إلى القلوب عند سماع التعبير بالألفاظ التى دخلتها الاستعارة ويعتبر الرمانى أول من عالج الاستعارة بتلك الطريقة التى توخى فيها بيان أثرها النفسى وانفعال الوجدان بها وتحرك الشعور لها(٣٠).

قال تعالى: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»(٣١).

قال (قدمنا) لم يقل عمدنا ليدل على أنه عاملهم معاملة القادم من السفر وأنه فى إمهاله لهم كالغائب الذى قدم إليهم، فوجدهم على خلاف ما أمرهم وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال(٣٢) فالقرآن حين يعرض المعنى فى الصورة الاستعارية إنما يضرب على أوتار النفس تحذيرا من الاغترار بالإمهال، وهو مالا يؤدى بالمعنى الحقيقى فيما لو قال: «وعمدنا إلى ما عملوا من عمل»، ووصل التأثير النفسى قمته فى تصوير العمـــل المحبط بصورة الهباء المنثور.

فالقرآن الكريم يصور هذه المعانى النفسية من خلال استخدامه لكلمة قدمنا وما حملته من فوائد لا تتضمنها كلمة عمدنا وهذا ما بينه الإمام عبد القاهر الجرجانى عندما تحدث عن الاستعارة مبينا المعانى والفوائد التى تحملها الكلمة المستعارة. واعتبرها من الأسس التى بنى عليها بعض البلاغيين مفهوم الاستعارة إذ يقول:

«ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ولها فى كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة. ومن

(٣٠) انظر: النكت للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ وانظر: القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين ص ١٩٨ - ١٩٩

(٣١) سورة الفرقان الآية ٢١

(٣٢) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٠

خصائصها التى تذكر بها وهى عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير فى اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر(٣٣) .

ولذلك استخدم القرآن الكريم كلمة البشارة فى غير موطنها لتحمل معنى جديدا مرتبطا بالنفس ارتباطا وثيقا وهو التهكم فى قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم »(٣٤)

ونحن نعلم أن البشارة إنما تكون فى الخير فكان جمال الاستعارة التهكمية فى المفارقة التى امتدت من المعنى الطيب إلى معنى الألم والجحيم .

وهذا ما أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى : « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون »(٣٥) قائلا كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستوضحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة « ولما سكن عن موسى الغضب » لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة(٣٦) .

ففرق الزمخشرى بين القراءتين مبينا أيهما أبلغ وأيهما أكثر أثراً على النفس موضحاً الأثر النفسى الذى تعرض له موسى عليه السلام عندما رجع من الميقات فوجد قومه يعبدون العجل فغضب غضباً شديداً ، فتصرف تصرفا يتناسب مع هذا الغضب فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه وكأن الغضب هو الذى أمر موسى بهذا الفعل ، فلما سكت عن موسى الغضب هدأت نفسه فرجع وأخذ الألواح التى ألقاها .

---

(٣٣) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٣٧ (٣٤) سورة التوبة الآية ٢١

(٣٥) سورة الاعراف الآية ١٥٤

(٣٦) الكشاف : الزمخشرى جـ ٢ ص ١٢٠ .

هذه المعانى النفسية التى أظهرتها الآية القرآنية وأشار إليها الزمخشرى فى تفسيره أعجب بها الدكتور فتحى أحمد عامر فعبر عن هذا الإعجاب بقوله: « لقد أدرك الزمخشرى تشخيص الغضب كأن إنسانا يقول ويسكت ويفرى ويصمت، وهذا التشخيص هو الذى جعل للتعبير جمالا »(٣٧).

وكذلك قوله تعالى: « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف »(٣٨).

فالكل يعلم أن المناسب للإذاقة الطعم والمناسب للباس الكسوة فلم يقل القرآن أذاقها طعم الجوع والخوف أو كساها لباس الجوع والخوف وإنما عبر بقوله أذاقها لباس الجوع والخوف وذلك لما تتركه الإذاقة فى النفس من أثر أعظم من الكسوة، وأما كلمة اللباس فإنها تفيد الإحاطة فى الجسم كله.

هذا الأثر النفسى الذى أفادته كلمة الإذاقة لا يوجد فى أى كلمة أخرى تؤدى نفس الغرض وذلك لما للاستعارة من تحسين المعنى وإبرازه فى حلة جميلة تعجب النفس وقد يكون فى هذا ما لا تدركه الحقيقة.

« ولو نظرنا إلى ما ذكره القاضى الجرجانى فى حديثه عن الاستعارة لوجدناه قد قسمها إلى استعارة حسنة وقبيحة وجعل مرد الحكم على ذلك قبول النفس أو نفورها، وهو بذلك لا يضع قواعد لجودة الاستعارة أورداءتها وإنما يترك ذلك للتذوق والانطباع النفسى »(٣٩).

ويعد البعض الاستعارة مصطلحاً سريع النفاذ قريب التوصيل يستخدم

---

(٣٧) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، د. محمد فتحى أحمد عامر ص ٣٤١

(٣٨) سورة النحل الآية ١١٢

(٣٩) علم البيان: د. محمد مصطفى هداره ص ٢٤، دار العلوم العربية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م.

فى حالة الاضطراب النفسى ، ومن ذلك استخـــدام الشاعر للاستعارة التصريحية عندما يرى محبوبه مذعوراً خائفاً يخشى عيون الحاسد والرقيب ويزور كما يسرق ولا يريد أن يراه أحد .

كقول الشاعر البهاء زهير :

بروحى من قد زارنى وهو خائف ... كما اهتز غصن فى الأراكة مائد
وما زال إلا طارقاً بعد هجعه ... وقد نام واش يتقيه وحاسد
فلم أر بدرا قبـــله بات خائفاً ... فهل كان يخشى أن تغار الفراقد

يقول الدكتور محمد بركات أبو على :

« فالبدر هنا أسرع اصطلاح يعبر عليه الشاعر فى وقت الزيارة المستعجلة وعند حال الحبيب الزائر المذعور فكلمة واحدة تصرح بما فى نفس الشاعر وتصور ما فى خلد المحبوب الممدوح فى وقت خوف ووجود حاسد »(٤٠) .

ومنه قوله تعالى : « سمعوا لها شهيقاً وهى تفور تكاد تميز من الغيظ »(٤١)

فقد استعار شهيقاً بدلا من الصوت الفظيع واستعار تميز من الغيظ بدلا من شدة الغليان والاستعارة أبلغ ، فقد اجتمع شدة فى النفس تدعوا إلى شدة فى الانتقام وفى ذلك أعظم الزجر وأكبر الوعظ »(٤٢) .

رابعاً : الكناية :

أظهر الإمام عبد القاهر الجرجانى الأثر النفسى للكناية مفرقا بين المعنى ولازم المعنى فى قوله : « فإذا قلت هو كثير رماد القدر كان له موقع وحظ من القبول لا يكون إذا قلت هو كثير القرى والضيافة ، وكذا إذا قلت رأيت أسداً كان له مزية لا تكون إذا قلت رأيت رجلا يشبه الأسد ويساويه فى الشجاعة . . وكذلك إذا قلت (ألقى حبله على غاربه) كان له مأخذ من القلب لا يكون إذا قلت هو كالبعير الذى يلقى حبله على

(٤٠) البلاغة ، عرض وتوجيه وتفسير ص ٩٦

(٤١) سورة الملك الآية ٨ (٤٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص٧٩

غاربه حتى يرعى كيف يشاء ويذهب حيث يريد ؛ لا يجهل المزية فيه إلا عديم الحس ميت النفس(٤٣) .

وما أجمل المعنى النفسى الذى تتضمنه الكناية فى قولهم « فلان هجر الفأر بيته » أو قولهم : « إنى أشكو قلة الفأر فى بيتى » فهى كناية عن الفقر ، ولكنه الفقر الذى يعبر عن عزة نفس صاحبه ، فأبت النفس أن تشكو قلة الطعام ولكنها شكت قلة الفأر الذى ينبىء عن انعدام الطعام ، وعليه قول الشاعر :

وما يك فى من عيب فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل

فقوله جبان الكلب كناية عن الكرم ، فالكلب الذى ينبح عند رؤية الناس لأول مرة توقف عن النباح لما اعتاد وألف هذه الرؤية بما ينبىء عن كثرة الضيفان ، فساد البيت جو من الهدوء والطمأنينة والأمان .

هذه المعانى النفسية ألقت بأثرها على الكلب نفسه مما أدى إلى توقفه عن النباح .

ولو نظرنا إلى هذه المعانى المستشفة من السياق الفنى لوجدناها تمثل نتاج مشاعر خاصة تجاه الأشياء ، وربما يضع الشاعر هذه الكنايات حتى يوسع الدائرة الوجدانية لدى المتلقى الذى يستطيع أن يتصورها من خلال التعبير(٤٤) .

وانظر إلى المعانى النفسية التى تتضمنها الآية القرآنية :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا »(٤٥) .

---

(٤٣) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى ص ٤٠٢ ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة ١٩٨٠

(٤٤) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، د. رجاء عيد ص ١٩٦ ، منشأة المعارف بالاسكندرية .

(٤٥) سورة الاسراء الآية ٢٩

فكنى فى الجزء الأول عن البخل وفى الجزء الثانى عن التبذير . هذا التصوير الذى رسمه القرآن وصل إلى جذور النفس لما فيه من التنفير من البخل والتبذير ، كيف ونحن ننظر إلى صورة هذا الإنسان ويده مغلولة إلى عنقه لا تستطيع أن تتصرف بما تملك ، إنها شدة فى البخل فى صورة منفرة تأباها النفس ، وكذلك التبذير الذى يؤدى فى النهاية إلى الحسرة والندم فتنفر النفس من الثانية نفورها من الأولى .

وكقوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط »(٤٦) .

والغائط هو المكان المنخفض كنى به القرآن عن قضاء الحاجة . والسؤال هنا ماهى العلاقة بين قضاء الحاجة وبين المكان البعيد المنخفض . إنه الحياء المرتبط بالنفس ارتباطا وثيقا ، وإنه حب الستره . فتميل النفس إلى الابتعاد حتى تصل إلى مكان مستور تشعر بالراحة ، فيقضى الإنسان حاجته ولو ربطنا بين قضاء الحاجة والقلق النفسى وعدم الستره لوجدنا أن الإنسان لا يستطيع أن يقضى حاجته بالصورة الطبيعية المعروفة والتى تعودت النفس عليها ومن هنا ندرك القيمة النفسية التى تتضمنها هذه الكتابة .

خامساً : الاستفهام :

قال تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »(٤٧) .

فالتصوير القرآنى يثير فى النفس شعور الإجلال والعظمة لهذا الخالق الذى بنى السماء بناء محكما وزينها ليلا ونهارا ومد الأرض وألقى فيها الرواسى وأنبت فيها هذه الزروع البهيجة ، ويجب ألا يغيب عن الذهن أن القرآن لا يتجه إلى إثارة العواطف والمشاعر لذات الإثارة بل لما وراءها من يقظة وانتباه ونظر فى جوانب النفس الإنسانية(٤٨) .

(٤٦) سورة النساء الآية ٤٣ (٤٧) سورة ق الآية ٦

(٤٨) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ص ٢٨٨

هذه الإشارة الموجهة للعواطف تحرك هذا العقل الخامد ليعيد نشاطه في التفكير والتأمل فى حقيقة هذه العظمة وهذا الإجلال ، فالقرآن يثير العواطف ويوقظ العقول فى وقت واحد .

وكذلك التصوير القرآنى الذى يثير فى النفس الشعور بالمعاناة والألم ويكشف لنا عن حقيقة النفس التى تحملت أعباء المعاناة فكانت المعاناة فوق طاقاتها فسألت استعجال النصر مع وعد الله به . قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »(٤٩) .

فأى معاناة أكبر من الزلزلة بشقيها النفسى والحسى ولذلك استبطأ المسلمون النصر . ولو قيل كيف يليق بالرسول القاطع بصحة وعد الله ووعيده أن يقول على سبيل الاستبطاء « متى نصر الله » .

وعن هذا يجيب صاحب التفسير الكبير بقوله : « إن كونه رسولا لا يمنع من أن يتأذى من كيد الأعداء . قال تعالى : « ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون » . وقال تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » . وقال تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » وعلى هذا فإذا ضاق قلبه وكان قد سمع من الله تعالى أنه ينصره إلا أنه ما عين له الوقت فى ذلك ، قال عند ضيق قلبه متى نصر الله ؟(٥٠) .

وكقوله تعالى : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون »(٥١) .

إنه التهكم والاستخفاف من قوم استخفوا برسول الله واتهموه بالسحر

(٤٩) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٥٠) التفسير الكبير : الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٢ المطبعة البهية المصرية .

(٥١) سورة الطور الآيتان ١٥ - ١٦

فسألهم مذكرا إياهم بما قالوه من قبل لرسول الله عليه الصلاة والسلام :أهذا الذى ترونه سحر ؟ انظروا جيدا أم أنتم عمى لا تستطيعون الرؤية والتمييز ، ما رأيكم اجيبوا ، فلا نسمع لهم جوابا وهم مطاطئو الرؤوس ، تذكروا عبارات قالوها من قبل ، فأيقنوا أنه لا مفر من عذاب الله ، إنه التحطيم النفسى لهؤلاء الناس . فكان العقاب من جنس العمل كما نرى .

ما أعظم هذا التصوير القرآنى الذى أظهر لنا حقيقة هذه النفسية الذليلة التى لا تستطيع الإنكار ولا التكلم ، إنها النفسية التى أيقنت أنه لا مفر من الهلاك فجاءهم الخطاب بعد سكوتهم : « اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

ومنه قول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى   أطنين أجنحة الذباب يضير

إنه ينكر على الذى يتوعده ، ويكذبه فى إدعائه مشبها وعيده بطنين أجنحة الذباب .

إنه الإنكار التكذيبي الذى يحمل الاستهتار والتهكم الذى يحطم نفسية الذى يتوعد ، فما بالك بوعيد لا يشبه إلا طنين الذباب هل يحمل فى طياته الأذى والضرر .

سادسا : التكرار :

بين الأستاذ أمين الخولى ، السر النفسى لظاهر التكرار معتبرا إياها من أقوى طرق الإقناع موضحا هذا بقوله « ومن ذلك مانراه فى التعليل النفسى لظاهرة التكرار إذ يقوم على اعتبار نفسى إنسانى عالمى ، تؤيده شواهد من أحوال النفس البشرية واتجاهها ولعله يصح أن يكون من وجه ذلك مايسوقه النفسيون من أن التكرار من أقوى طرق الإقناع وخير وسائط تركيز الرأى والعقيدة فى النفس البشرية(٥٢) .

(٥٢) مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير ، د. أمين الخولى ، ص ٢١٠ دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦١م .

ومن أجل ذلك نقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » وهما في المعنى سواء وإنما كررنا القول لتقرير المعنى وتثبيته فى نفس السامع وهذا حكم التكرار فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : « فبأى آلاء ربكما تكذبان» وذلك عند كل نعمة عددها على عباده ، ولعل فى هذا السؤال المتكرر مايثير فى نفس سامعه اليقين بأنه ليس من الصواب أن ينكر الإنسان نعم الله التى تكررت والتى لا تحصى وآلاءه التى توالت على عباده .

وكقوله تعالى : « القارعة ماالقارعة وما أدراك ما القارعة »(٥٣) .

فعندما يسمع الإنسان كلمة القارعة يتنبه وكأن مناديا ينادى فيصغى لهذه الكلمة، ثم تأتى (ما القارعة) فيزداد الانتباه مع الترقب والانتظار . وكأن شيئا سيحدث بعدها ثم تأتى (وما أدراك ما القارعة) فتدخل النفس فى طور الخوف والرعب من هذا الأمر المتكرر فتتلهف النفس لسماع ومعرفة حقيقة القارعة فتأتى الحقيقة « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فيستقر هذا المعنى ويثبت فى هذه النفس التى عاشت فى ظلال هذا التكرار متلهفة إلى معرفة الحقيقة وقد سيطر عليها الخوف والرعب من هذا السؤال المتكرر .

وكقوله تعالى : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه »(٥٤) .

فكرر قوله تعالى : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » . وبقوله : « قل الله أعبد مخلصا له دينى » .

والغرض من هذا التكرار تثبيت قضية عقدية فى النفس الإنسانية

---

(٥٣) سورة القارعة الآية ١ - ٣

(٥٤) سورة الزمر الآية ١١ - ١٥

وهى عبادة الله وتخصيص الله وحده بهذه العبادة ، فالآية الأولى إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة .

والآية الثانية اخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ، ولذلك قدم المعبود وهو لفظ الجلالة على فعل العبادة .

وقد اعتبر الدكتور عز الدين السيد رحمه الله تعالى التكرار يحلل نفسية كاتبه وسماه بالهندسة العاطفية ، وبين عناية الشعراء به واعتبره إلحاحا على جهة مهمة فى العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ، وذلك فى كل تكرار يخطر على البال ،ويحلل نفسية كاتبه لأنه يضع فى أيدينا مفتاح الفكرة المتسلطة على الشاعر أو هو هندسة يحاول الشاعر فيهأن ينظم كلماته بحيث يقيم أساساً عاطفيا فى نوع ما(٥٥) .

سابعا : التقديم والتأخير .

التقديم باب دال على حسن التصرف فى الكلام ووضعه الوضع الذى يقتضيه المعنى حتى لا يحدث خلل فى النظم يؤدى إلى تعقيد افظى أو معنوى .

وعلى ذلك فالتقديم فى الكلام لا يأتى اعتباطا، وإنما يأتى ليحقق غرضا بلاغيا أو هدفا مقصودا وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض فقد حرصت الجملة فى القرآن على أن يكون التقديم مشيرا إلى مغزى،،دالا على هدف حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسى يتقدم عندها فيها ماتجد النفس تقديمه أفضل من التأخير فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدور عليه الحديث وحده فيكون هو

---

(٥٥) التكرير بين المثير والتأثير ، د. عز الدين السيد ، ص ٢٩٥ ، دار الطباعة المحمدية - الازهر ، ١٩٨٧ م القاهرة .

المقصود، والنفس يتقدم عندها من يكون هـــذا شأنه(٥٦) .

كقوله تعالى : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى »(٥٧) .

فالتقديم والتأخير لهذه الصياغة التى يعنى بها القرآن، وهى إحدى وسائل تأثيره فى النفس، وأصل الجملة فأوجس موسى فى نفسه خيفة، وإذا أنت قرنت هذا التعبير بالآية السابقة واللاحقة وجدت خروجا على النسق ونظرة لا تلتئم(٥٨) .

فالتقـــديم والتأخير جاء مراعيا النسق التعبيرى فى الآيات السابقة واللاحقة . ولو نظرنا إلى الخوف وهو من المعانى النفسية لو جدناه خوفا على الدعوة والرسالة لأنها لحظة حاسمة يتوقع فيها النصر أو الهزيمة ولذلك سيطر الخوف على نفسه وعلى قلبه فى اللحظة الأولى لما خيل إليه سحرهم أنها تسعى، ولـكن سرعان ماجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى يبشره بالنصر وبأنه هو الأعلى« قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنماصنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » طه ٦٨ — ٦٩ .

وكقوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عادكالعرجون القديم »(٥٩) .

فقوله : « والقمر قدرناه منازل » ليس تقديم المفعول به على الفعل من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الـكلام فإنه قال :

---

(٥٦) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوى ، ص ١١٢ ، دار نهضة مصر ،القاهرة .

(٥٧) سورة طه الآية ٦٧ ، ٦٨

(٥٨) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوى ، ص ١١٤

(٥٩) سورة يس الآية ٣٩

« والليل نسلخ منه النهار » و « والشمس تجرى » فاقتضى حسب النظم أن يقول « والقمر قدرناه منازل » ليكون الجميع على نسق واحـــد فى النظم(٦٠) .

وكقوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين »(٦١) .

أى لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك فكان التقديم فى عبادة الله وطاعته أولا ثم طلب الاستعانة به، هذه الاستعانة لا تكون إلا بعد استقرار النفس على معبود واحد ، هذا الاستقرار يولد الاطمئنان وينقذ النفس من الحيرة ومن التفرق فلا تتوجه إلا لإله واحد فيتحقق معنى العبودية لله وحده ومن هنا كان التأثير النفسى للتقديم والتأخير معتمدا على المصطلح البلاغى وهو التقديم للأهمية . ولكن هذا الفهم لم يقف عند التشكيل البلاغى فى المصطلح، بل تعداه إلى معرفة أثره النفسى الذى يحصل المادة الفكرية للإنسان وصلاح أمره(٦٢) .

ومنه قوله تعالى : « واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا »(٦٣) .

فتقديم شاخصة على أبصار يصورها لك كأن كل صفة أخرى لها قد انمحت ولم يبق لها سوى الانفتاح الذى يؤذن بالخوف والذهول .

هذا الانفتاح الدائم الملازم للعين كان نتيجة خوف ورعب دائم أثر على النفس فأوجد هذا الانفتاح .

---

(٦٠) المثل السائر : ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١٧٩ ، تحقيق د . بدوى طبانة ، و د . أحمد الحوفى ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

(٦١) سورة الفاتحة الآية ٥

(٦٢) فصول فى البلاغة ، د . محمد بركات أبو على ، ص ٥٣ ، دار الفكر ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .

(٦٣) سورة الأنبياء الآية ٦٢

ثامنا : الالتفات :

يقول الزمخشرى موضحا القيمة البلاغية لأسلوب الالتفات ، ومبينا الأثر النفسى لهذا الأسلوب: « إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد(٦٤) .

وهذا ما بينه عند الحديث عن قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » فقال : (ان العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله « الحمد لله » الدال على اختصاصه بالحمد وأنه حقيق به وجد من نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه فإذا انتقل من الافتتاح إلى قوله « رب العالمين » قوى ذلك المحرك ثم إذا انتقل إلى قوله « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهو قوله : « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للامر كله يوم الجزاء تناهت قوته وأوجب الإقبال عليه وخطابه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات « إياك نعبد وإياك نستعين »(٦٥) .

وكأن الالتفات يعمل على تحريك أوتار النفس فيزيدها تنبيها وايقاظا أو هزا وتحريكا .

وكان تأثر السكاكى بالزمخشرى تأثرا واضحا عندما بين الأثر النفسى للالتفات فى قوله تعالى · « إياك نعبد وإياك نستعين » فقال (واذا وعيت ما قصصته عليك وتأملت الالتفات فى إياك نعبد وإياك نستعين بعد تلاوتك لما قبله فى قوله « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين »

---

(٦٤) أسلوب الالتفات : د . نويه فراج ، ص ٣١ ، مطبعة دار البيان ، مصر الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .

(٦٥) الكشاف : جـ ١ ص ٦٤

على الوجه الذي يجب وهو التأمل القلبي علمت ما موقعه وكيف أصاب المحز وطبق مفصل البلاغة لكونه تنبيها على أن العبد المنعم عليه بتلك النعم العظام إذا قدر أنه ماثل بين يدي مولاه من حقه إذ أخذ في القراءة أن تكون قراءته على وجه يجد معها من نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد »(٦٦) .

ومن هـذا يظهر أن السكاكي تبع منهج الزمخشري في الالتفات وارتضاه وسار عليه وبين ما فيه من وجوه بيانية ، ومن روعة وتأثير في النفوس . « وهذا نوع من التوفيق في تصوير التناسق النفسي بين الأحاسيس المنبعثة من تتابع الآيات وهو لون من ألوان التناسق الأولية في القرآن الكريم »(٦٧) .

تاسعاً : القصـــر :

قال تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »(٦٨) .

إن المعاني النفسية التي تتضمنها هذه الآية والتي توزعت بين الحسرة والندامة والضياع مفرقة بين نتيجة اللعب واللهو ، وبين نتيجة الجد والاجتهاد مبينة أن اللعب ينقضي من غير فائدة واللهو يترك خلفه الحسرة والندامة والضياع ، والعاقل يطول ندمه ويشتد وتلتف به الحسرة من كل جانب فتسلمه إلى أن يفقد نفسه أو خصائص نفسه الرشيدة إذ وجد نفسه من غير نتيجة يحصلها للحياة الباقية » .

---

(٦٦) مفتاح العلوم : السكاكي ، ص ٥٦ ، طبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة .
(٦٧) التصوير الفني في القرآن ، ص ٢٧
(٦٨) سورة الحديد الآية ٢٠

هذه المعاتبة النفسية تعمل على توجيه الإنسان التوجيه السليم وتحثه على الابتعاد عن اللعب واللهو حتى لا يقع فريسة للحسرة والندامة والضياع يوم القيامة .

عاشراً : الاعتراض :

ومن التشكيل البلاغي الذى يرتبط بالقيمة النفسية ما كان زائدا فى التركيب وهو ما يسمى بالاعتراض ، ولقد أشار ابن جنى إشارة مهمه إلى دلالة الاعتراض النفسية فقال « اعلم بأن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء فى القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام وهو جار عند العرب مجرى التأكيد »(٦٩) . ويقول فى موطن آخر « والاعتراض فى شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه »(٧٠) .

ومنه قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون »(٧١) .

لما كان المقام مقام تنزيه جاء الاعتراض ليقف حاجزا أمام المشركين فكأنه قال ويجعلون لله البنات والله منزه عن قولهم وإفكهم وافترائهم ولهم مايشتهون فى اختيار الذكور لأنفسهم ونسبة البنات إلى الله .

وكقوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم »(٧٢) .

جاء الاعتراض بين القسم وبين جوابه بقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) فكأنه قال : فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم ولكن جاء الكلام معترضا لغرض بلاغى وهـــو تعظيم شأن المقسم به فى نفس السامع .

---

(٦٩) الخصائص : ابن جنى ، ج ١ ص ٣٣٥ ، مطبعة دار الهدى .

(٧٠) الخصائص : ابن جنى ، ج ١ ص ٣٣٨

(٧١) سورة النحل : ٥٧

(٧٢) سورة الواقعة ٧٥ ، ٧٦

الحادي عشر : الإيجاز :

تحدث الرماني عن الإيجاز مظهرا الأثر النفسى له مبينا أن الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر وإن كان المحذوف مدلولا عليه بغيره فإن الرمانى لا يعنى بتحديد المحذوف وتعيينه بقـــدر ما يعنى بإبراز الأثر النفسى للحذف معللا ذلك بقوله « فذهاب النفس فى المحذوف كل مذهب أتاح للأذواق أن تتذوق إيحاءات الكلمات فى الجمل وللوجدان أن يتفاعل مع المعنى المصور(٧٣) مستدلا على ذلك بقوله تعـــالى : « ولـكم فى القصاص حياة »(٧٤) .

فتتفاعل النفس مع هذا التصوير تفاعلا حقيقيا سائلة كيف يكون القتل حياة وكيف يكون القطع حياة وكيف يكون الجلد حياة ، باحثة عن الإجابة الشافية التى توصل إلى الحقيقة واليقين ، وهى الإيمان بأن وجود الزنا فى المجتمع قتل وموت ، ووجود الخمر موت ، ووجود القتل موت ، ووجود السرقة موت .

فإذا وجد الموت بوجودها فمتى توجد الحياة إذن ؟ لا توجد الحياة إلا بالقضاء عليها فجاء التعبير القرآنى : « ولـكم فى القصاص حياة » هذا التعبير الذى يبين لنا النقيض أو مفهوم المخالفة وهـــو لـكم فى عدم القصاص موت .

وهكذا يحدد الرمانى الوظيفة النفسية للحذف ، ويتجاوز بذلك وقفات أبى عبيدة والفراء والجاحظ وابن قتيبة جميعا .

وكقوله تعالى : « ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الـكافرون هذا شىء عجيب أئذا متنا وكـنا ترابا ذلك رجع بعيد »(٧٥) .

---

(٧٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ص ٧٦

(٧٤) سورة البقرة ١٧٦

(٧٥) سورة ق الآية ١ ـ ٤

وقوله تعالى : «والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرت أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة »(٧٦) .

فجواب القسم فى ذلك كله محذوف وهذا بعث للنفس على التفكير لتهتدى إلى الجواب وتظل النفس تتبع هذه الآيات يتلو بعضها بعضا تستوحى منها الجواب الذى لابد أن يكون شيئاً عظيماً يقسم عليه الله ولا ترى فى حذف هذا الجواب دلالة على مثوله فى الذهن لشدة ما شغل النفس واستأثر بعميق تفكيرها يوم نزل القرآن ، مؤكدا مجىء اليوم الآخر »(٧٧) .

الثانى عشر : الطباق والأثر النفسى :

يقول ابن المعتز فى كتابه « البديع » : «والأثر النفسى لا ينفصل عن موقع المصطلح البلاغى ، ومن ذلك حسن المطابقة فتكون أبلغ وأنق إذا اتصلت بالموقع النفسى ويبدو هذا واضحا من قول على بن عبد الله ابن عباس .

« ذكرت عند الحسن بلاغة بعض أهله فقال :إنى لأكره أن يكون مقدار لسانى فاضلا عن مقدار علمى ، وقال لقمان لابنه :

« إياك والكسل والضجر فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على حق » .

وقال بعض الواعظين كان الناس ورقاً بلا شوك فصاروا شوكا بلا ورق(٧٨) .

وكقوله تعالى : « قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون »(٧٩) .

---

(٧٦) سورة النازعات الآية ١ - ٧
(٧٧) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ص ٣٢٣
(٧٨) البديع لابن المعتز : ص ٣٨ ، طبعة كراتشوفسكى ، دار الحكمة ،دمشق.
(٧٩) سورة يس ١٥ ، ١٦

فالمطابقة بين قوله تكذبون وبين مدلول قوله « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » أى لصادقون ، ولكن لما كان التعبير بهذا المقطع القرآنى أبلغ وأشد تأثيرا على النفس لارتباطه بالرسالة التى من صفاتها الصدق عبر بها ولم يعبر بمدلولها .

الثالث عشر : المقابلة :

يقول حازم القرطاجنى مبينا الأثر النفسى للمقابلة : «ومن الانسجام فى الكلام أن يعرف المتفنن التوفيق بين المعانى المتقابلة ولذلك تكون المقابلة فى الكلام بالتوفيق بين المعانى التى يطابق بعضها بعضا كقول الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه   على أن فيه ما يسوء الأعاديا

فإذا وضع أحد المعنيين هذه الصفة بإزاء الآخر ومقابلا له كان الكلام بذلك مرتبطا بعضه ببعض ومنتسبا أواخره إلى أوله فإن له لذلك حسن موقع من النفس(٨٠) ، لحسن الكلمة وعدم حسنها لارتباطها وعدم ارتباطها بهواتف النفس « وما حسنت الكلمة فى موقع وثقلت فى آخر إلا لانفصالها عن ذلك(٨١) » .

ومنه قوله تعالى : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا »(٨٢) .

وقول الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا   وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

(٨٠) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجنى ، ص ٥٢ ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ م .

(٨١) ديوان المعانى : أبو هلال العسكرى ، ج ١ ، ص ١٢٤ . مكتبة القدس القاهرة .

(٨٢) سورة التوبة الآية ٨٢

الرابع عشر : تأكيد المدح بما يشبه الذم :

يظهر السر النفسي في هذا الأسلوب في معنى المباغتة والمفاجأة التي تكسبه طرافة وتثير حوله تنبها(٨٣) .

نحو قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ذكر صفة ذم منفية فيتوهم السامع أنه يريد أن يستثني شيئا يذم به الممدوح فيتنبه ويترقب لمعرفة هذا الشيء فإذا به يذكر صفة مدح فتكون بمثابة المفاجأة التي أكسبته طرافة وحسنا .

وعليه قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى على المال باقيا

الخامس عشر : الجناس :

لقد أظهر الإمام عبد القاهر الجرجاني الأثر النفسي للجناس الذي يتمثل بالرضا النفسي الذي يحسه كل من ظفر بفائدة لم يتوقعها ، وهذا واضح من قوله : « واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنس وجعلتها العلة في استجابة الفضيلة وهي حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفى المتفق الصورة منه كقول أبي تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفو الجاري هذا المجرى كقوله :

ناظراه فيما جنى ناظـــراه أو دعاني أمت بما أو دعاني(٨٤)

فيظن السامع للوهلة الأولى أن الكلمتين بمعنى واحد وأنها كررت

(٨٣) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير ، ص ١٩٧ .

(٨٤) أسرار البلاغة : ج ١ ، ص ١٠٩

للتأكيد دون أن يضيف معنى جديدا ولكنه سرعان ما يكتشف أنها أفادت فائدة جديدة ولأنها لا تماثل الأولى إلا فى الشكل فقط ومن ثم يشعر السامع بالرضا النفسى الذى يؤدى إلى استقرار المعنى وتثبيته فى النفس بعد أن أزال ظنا خاطئا .

ومنه قوله تعالى : «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »(٨٥) .

وقول النويرى فى وصف ثمار الغوطة «كأنها شربة وقفن بغير أوان فى كل أوان » .

السادس عشر : التكميل :

هو أن يأتى المتكلم أو الشاعر بمعنى من معانى المدح أو غيره من فنون الشعر ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل فيكمله بمعنى آخر ومنه قول كثير :

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
في الحسن عند موفق لقضى لها

فلو قال عند محكم لتم المعنى ولكن فى قوله عند موفق تكميل حسن كمل بها حسن البيت ، والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الحلو فى النفس ، والتكميل هاهنا من تكميل المعانى النفسية وليس من تكميل المعانى البديعية(٨٦) إذ ليس كل محكم موفقا ..

السابع عشر : التهذيب والتأديب

هو كل كلام قيل فيه لو كان موضع هذه الكلمة غيرها أو لو تقدم هذا

(٨٥) سورة الروم الآية ٥٥

(٨٦) تحرير التحبير : ابن أبى الأصبع ، ص ٣٥٩ ، تحقيق د . حفنى محمد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

المتأخر أو تأخر هذا المتقدم أو لو حذفت هذه اللفظة أو لو طرح هذا البيت جملة لكان الكلام أحسن والمعنى أبين كقول أبي تمام :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى
والليل أسود رقعة الجلباب

فانه إنما خص تهذيب الفكر بالدجى لكون الليل تهدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات فيكون الفكر فيه مجتمعا والخاطر خاليا ولا سيما في وسط الليل عندما تأخذ النفس حظها من الراحة وتنال قسطها من النوم ويخف عليها ثقل الغذاء فحينئذ يكون الذهن صحيحا والصدر منشرحا والقلب منبسطا(٨٧) .

الثامن عشر : الفرائد :

هو إيتان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد .
كقوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور »(٨٨)

فإن لفظة « خائنة » سهلة مستعملة ، كثيرة الجريان على ألسن الناس لكن على انفرادها ، فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ماجعل لها في النفوس هذا الموقع العظيم(٨٩) .

وبعد فلعلنا وفقنا في إظهار الأثر النفسي للأسلوب البلاغي من خلال عرضنا لهذه المسائل البلاغية المتنوعة .

وبالله التوفيق ؟

(٨٧) تحرير التحبير : ص ٤٠٢
(٨٨) سورة غافر : ١٩
(٨٩) تحرير التحبير : ص ٥٧٧

مراجع البحث

القرآن الكريم :

١ - الاتجاه العقلى فى التفسير ، د/ نصر أبو زيد . دار التنوير للطباعة والنشر . الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

٢ - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة - الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ م .

٣ - أسلوب الالتفات دراسة تاريخية فنية ، د/ نزيه فراج . مطبعة دار البيان ، مصر الطبعة الأولى ١٩٨٣ م .

٤ - البديع ، ابن المعتز ، نشر ، تعليق اغناطيوس كراتشوفسكى ، دار الحكمة ، دمشق .

٥ - البلاغة عرض وتوجيه وتفسير ، د/ محمد بركات أبو على ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان الطبعة الأولى ١٩٨٣ م .

٦ - بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ؛ د/ فتحى أحمد عامر ، دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٤ م .

٧ - البيان فى ضوء أساليب القرآن ، د/ عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٥ م .

٨ - تحرير التحبير ، ابن أبى الأصبع المصرى ، تحقيق د/ حفنى محمد شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .

٩ - التشبيهات القرآنية والبيئة العربية ، واجد مجيد الأطرقجى ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ١٩٨٧ م .

١٠ ـ التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ، دار المعارف القاهرة .
١١ ـ التكرير بين المثير والتأثير ، د/ عز الدين السيد ، دار الطباعة المحمدية ، الأزهر ١٩٧٨ م .
١٢ ـ التفسير الكبير ـ الفخر الرازى ـ المطبعة البهية المصرية .
١٣ ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الرمانى ـ الخطابى ـ عبد القاهر ، تحقيق محمد خلف الله ـ محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ م .
١٤ ـ الخصائص ، ابن جنى ، دار الهدى للطباعة والنشر .
١٥ ـ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة ١٩٨٠ م .
١٦ ـ ديوان البهاء زهير ، تحقيق محمد أبو الفضل ، محمد طاهر الجبلاوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ م .
١٧ ـ ديوان العقاد ، القاهرة ١٩٢١ م .
١٨ ـ ديوان المعانى ، أبو هلال العسكرى ، مكتبة القدس القاهرة .
١٩ ـ الصورة بين البلاغة والنقد ، د/ بسام ساعى ، المنار للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .
٢٠ ـ علم البيان . د/ بدوى طبانة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٨١ م .
٢١ ـ علم البيان ، د/ بسيونى عبد الفتاح بسيونى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .
٢٢ ـ علم البيان ، د/ محمد مصطفى هدارة ، دار العلوم العربية بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ م .
٢٣ ـ فصول فى البلاغة ، د/ محمد بركات أبو على دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

٢٤ - فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، د/ رجاء عيد منشأة المعارف بالإسكندرية .
٢٥ - القرآن والصور البيانية ، د/ عبد القادر حسين ، دار المنار ، القاهرة ١٩٩١ م .
٢٦ - الكشاف - الزمخشري ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
٢٧ - المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، د/ فتحي أحمد عامر ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٧٦ م .
٢٨ - مفتاح العلوم ، السكاكي طبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ١٩٣٧
٢٩ - مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير ، د/ أمين الخولي ، دار المعرفة - القاهرة ١٩٦١ م .
٣٠ - من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، دار نهضة مصر - القاهرة .
٣١ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦ م .
٣٢ - المثل السائر ضياء الدين الأثير . تحقيق د/ بدوي طبانة - د/ أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، الفجالة بالقاهرة .

القسم الرابع

قسم أصول اللغة :

١ ـ ظاهرة القلقلة فى الأداء القرآنى
رؤية جديدة فى ضوء الدرس الصوتى

د / رشاد محمد سالم

٢ ـ آلية النطق
فى ضوء الفكر الصوتى عند العرب
« دراسة وصفية »

د/ عبد المنعم عبد الله محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

ظاهرة القلقلة
في
الأداء القرآني
رؤية جديدة في ضوء الدرس الصوتي

بقلم الدكتور
رشاد محمد سالم

الحمد لله الذى منّ علينا بنعمة الإيمان والإسلام ، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وشرفنا بحفظ كتابه الكريم الذى نزل به الروح الأمين على قلب عبده ونبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - مرتلا، وأمر فيه بترتيله « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً »[1] ونهى عن التعجل فى قراءته ولو لغاية حفظه واستذكاره « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »[2] .

ولما كان كتاب الله - تعالى - أشرف ما ينطق به اللسان ، وينطوى عليه الجنان ، لأنه كلام الله القديم الذى « لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ

(١) سورة المزمل آية ٤

(٢) سورة القيامة آية ١٦ — ١٨

وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[1] تعين على القارىء أن يراعى تلاوته ، ويحسن دراسته بإعطاء الحروف حقوقها .

والتجويد علم من علوم العربية موضوعه الكلمات القرآنية ، وهو يبين مخارج الحروف وصفاتها وطريقة نطقها مركبة بحسب ما يجاورها ويوضح مقدار الحركة فى المقصور والممدود .

وكل هذه المباحث تدرس تحت مصطلح (علم الأصوات) بنوعيه العام والوظيفى ، فعلم الأصوات العام يدرس الأصوات من حيث نطقها وانتقالها وإدراكها ، ومنه علم الأصوات النطقى الذى يعنى بدراسة مخارج الأصوات وصفاتها ووصف الجهاز النطقى .

أما علم الأصوات الوظيفى فإنه يقوم بدراسة الوحدات الصوتية وتحديدها تحديداً دقيقا ، وتوضيح ما تتعرض له من تأثير بحسب ما يجاورها .

ولا شك أن دراسة علم القراءات والتجويد تحت منظور علم الأصوات الحديث بوسائله الحديثة فى معرفه مخارج الأصوات وصفاتها ومعرفة لغات الأمم المختلفة تؤدى إلى تعليل سليم وحكم دقيق[2] .

ومن خلال تشرفى بتدريس مادة التجويد ومشاركتى فى بعض المقارىء قارئا حينا ، ومقرئا أحيانا ـ تبين لى أن هناك قصورا يعترى البعض فى فهم « ظاهرة القلقلة » حيث ترى ـ من الناس ـ من يقلقل حروفا لا تمت لحروف القلقله بصلة ، ومنهم من يبالغ فى قلقلة الحرف حتى يتولد حرف جديد يؤدى بداهة إلى دلالة جديدة ، وشتان بين نطق (أَحَدْ) من قوله تعالى « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » بدال ساكنة مقلقلة ، وبين نطقها بدال مشددة (أَحَدّ) الأولى من الوحدانية ـ كما تعرف ـ والثانية من الحدة ..

(١) سورة فصلت آية ٤٢

(٢) أحكام تجويد القرآن د / سويد ص ٨

يقول الصفاقسي(٢) فى ذلك . وبيان شدتها وجهرها وقلقلتها إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى ذلك حتى يصير كالمشدد كما يفعله كثير .

والتجويد كما قال الدانى(١) ـ رحمه الله ـ بياض إن قلّ صار سمرة وإن كثر صار برصا ، وخير الأمور أوساطها ، وهـــذا هو مادفعنى إلى أن أتناول هذه الظاهرة فى بحثى هذا ملقيا الضوء على مفهوم القلقلة وكيفيتها ، وشروطها ، ومراتبها ، وأقسامها ، وعدد حروفها ، وما لكل حرف من مخرج ، ومايتميز به من صفات وذلك فى ضوء الدرس الصوتى الحديث .

وحسبى أن كل مايعين على ضبط الأداء القرآنى فهو لون من التعبد فضلا عن أنه دراسة علمية . فإن أك قد وفقت فذلك الفضل من الله ، وإن تكن الأخرى فحسبى أنى اجتهدت وحاولت والله من وراء القصد هو حسبى ونعم الوكيل ؟

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٥٧

(٢) التحديد فى الإتقان والتجويد ص ٩٠

القلقـــلة

مفهومها — طبيعتها

من الصفات الجوهرية للأصوات صفة القلقلة فما مفهومها ؟

تدور معانى القلقلة فى اللغة حول شدة الصياح ، أو شدة اضطراب الشيء وتحركه ، أو شدة الصوت فى حركة واضطراب .

قال الخليل : القلقلة شدة الصياح ، وقال - أيضاً - : القلقلة شدة الصوت.

ولقد وصف « ابن جنى » القاف ، والجيم ، والطاء ، والدال ، والباء ، بأنها حروف مشربة تحفز فى الوقف وتضغط عن مواضعها ، وهى « حروف القلقلة » لأنك لاتستطيع أن تقف عليها إلا بصوت ومثل لها بأربعة أفعال بصيغة الطلب هى : الحقْ ، واذهبْ ، واخلطْ ، واخرجْ .

وإذا كان هناك من ذكر لها تسمية أخرى إذ قال : القلقلة ويقال لها « لقلقة » .

فإن التسمية التى شاعت للحروف التى وصفها « سيبويه » بالمشربة التى تحفز وتضغط عن مواضعها فى الوقف هى « حروف القلقلة » وقد استعمل « ابن جنى » هذا الوصف كما سبق بيانه .

أما وصفها بالمشربة فيبدو أنه من كونها قد أشربت الصوت الذى قال عنه : لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت

---

(١) سر الصناعة ١ / ٧٣

(٢) قواعد التجويد للحنفى ٢٦٨

وانظر بغية المستفيد لابن بلبان الحنبلى ، وغنية الطالبين للبقرى .

وتسمى ـ أيضا ـ مضغوطة لأنها ضغطت فى مواضعها(١) .

ويبدو أن تسمية هذه الظاهرة بالقلقلة ترتبط بالمعنى اللغوى ارتباطاً وثيقاً ، إذ يقال : قلقل الشيء قلقلة إذا حركه ، لحمل بعض علماء التجويد هذه التسمية على ذلك المعنى ، إذ أنه أخذ من ضغط هذه الحروف عن مواضعها فكأنها تقلقل عن تلك المواضع مع احتمال أن يكون أصل التسمية من دلالة الكلمة إلى شدة الصوت(٢) .

يقول العلامة الدماميني نقـــلا عن الإمام ابن الحاجب فى شرح المفصل(٣) :

سميت هذه الحروف حروف القلقلة إما لأن صوتها أشد أصوات الحروف أخذا من القلقلة التى هى صوت الأشياء اليابسة ، وإما لأن صوتها لا يكاد يتبين به سكونها ما لم يخرج به إلى شبه المتحرك لشدة أمرها من قولهم : قلقله إذا حركه .

وإنما حصل لها ذلك لاتفاق كونها مجهورة شديدة ، فالجهر يمنع النفس أن يجرى معها والشدة تمنع صوتها ، فلما اجتمع لهـا هذان الأمران احتاجت إلى التكلف فى بيانها ، فلهذا يحصل ما يحصل من الضغط عند النطق بها ساكنة حتى تخرج إلى شبه تحركها لقصد بيانها إذ لولا ذلك لم تتبين(٤) .

وقال شيخ الإسلام : سميت حروفها بذلك لأنهـا حين سكونها تتقلقل عند خروجها حتى يسمع لها نبرة قوية لمـا فيها من شدة الصوت

---

(١) الدراسات اللهجية والصوتية للنعيمى ص ٣٢٢
(٢) الدراسات الصوتية د / غانم ص ٣٠٨
(٣) انظر الإيضاح شرح المفصل ٤٨٨
(٤) انظر ملخص أحكام التجويد د / شعبان إسماعيل ص ٩٧

الصاعد منها مع الضغط دون غيرها من الحروف(١) .

ويقول الصفاقسي : إنها لما سكنت ضعف فيحتاج إلى ظهور صوت حال سكونها من قلقل إذا صوت ، وهى شديدة مجهورة تمنع النفس أن يجرى معها فاحتاجت إلى كثرة البيان ، حتى أنها مع كونها ساكنة تخرج إلى شبه الحركة من قولهم :

قلقلت الشيء إذا حركته ، ولولا ذلك لم تتبين(٢) .

وقد شرح « سيبويه » القلقلة شرحا يقوم على الوصف والتحليل قائلا :

واعلم أن من الحروف حروفا مشربة ضغطت من مواضعها ، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن موضعه ، وهى حروف القلقلة ، وذلك القاف والجيم والطاء والدال والباء ، والدليل على ذلك أنك تقول : « الحذق » فلا تستطيع أن تقف إلا مع الصويت لشدة ضغط الحرف ، وبعض العرب أشد صوتا كأنهم الذين يرومون الحركة(٣) .

فهذه صفة حروف القلقلة عندما تكون ساكنة وبخاصة فى حالة الوقف ، يدل لذلك قول سيبويه : فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن موضعه .

وتعريف « سيبويه » للقلقلة بأنها « صويت ينبو به اللسان عن موضعه » ، يشرح لنا الوضع الفسيولوجى بأنه تحرك من اللسان فى موضع نطق صوت القلقلة ، وإزعاج له مع استمرار خروج الصوت عند الفك بعد الغلق(٤) .

---

(١) السابق ٩٨

(٢) تنبيه الغافلين ص ٣٨

(٣) الكتاب ٤ / ١٧٤

(٤) انظر التجويد القرآنى د / علام ٩٨

وكان كلام « سيبويه » عن القلقلة قد حدد معالم الموضوع عند علماء العربية وكذلك عند علماء التجويد ، وكان ما أضيف على كلام سيبويه يعد شيئاً يسيراً لا يغير جوهر الموضوع(١) .

يقول المبرد : واعلم أن من الحروف حروفا محصورة فى مواضعها فتسمع عند الوقف على الحرف منها نبرة تتبعه وهى حروف القلقلة ، وإذا تفقدت ذلك وجدته(٢) .

أما علماء التجويد والقراءات فإنهم يفهمون القلقلة فهما معتمدين فيه على ما قدمه الخليل وسيبويه ، ويزيدون المسألة وضوحا ، يصور لنا ذلك صاحب نهاية القول المفيد فيقول(٣) :

القلقلة فى اللغة : شدة الصياح ، كما نقل عن الخليل وتجىء بمعنى التحريك .

واصطلاحا ـ على ما صرح به أبو شامة نقلا عن صاحب الرعاية :

صوت زائد حدث فى المخرج بعد ضغط المخرج ، وحصول الحرف فيه بذلك الضغط ، وذلك الصوت الزائد يحدث بفتح المخرج بتصويت ، لحصل تحريك فى مخرج الحرف وتحريك صوته ، أما المخرج فقد تحرك بسبب انفكاك دفعى بعد التصاق محكم ، وأما الصوت فقد تبدل فى السمع وذلك ظاهر .

وفى هداية القارىء يقول المرصفى(٤) :

وفى الاصطلاح : اضطراب اللسان بالحرف عند النطق به ساكنا حتى

---

(١) الدراسات الصوتية د / غانم ص ٣٠٢

(٢) المقتضب ١ / ١٩٦

(٣) محمد مكى نصر ص ٥٣ ، ٥٤

(٤) ص ٨٤

يسمع له نبرة قوية ثم قال . وسميت بذلك لأنها حال سكونها تتقلقل عند خروجها حتى يسمع لها نبرة قوية أى صوت عال .

وجاء فى «كيف نجود القرآن ونرتله ترتيلا»(١) : والمراد بها تحريك المخرج والصوت بعد انضغاطهما وانحباسهما ، ذلك أنك تحبس الصوت أولا فى المخرج حتى ينضغط فيه انضغاطاً شديداً ، ثم نفك المخرج فكة سريعة فينطلق الصوت محدثا نبرة قوية وهزة فى المخرج هذه النبرة هى ما يسمى «بالقلقلة» .

وفى «إغاثة المستفيد فى علم التجويد» قال(٢) :

القلقلة وهى تحريك الصوت عند مخرج الحرف بشدة حتى تسمع له نبرة قوية . وفى كتابه «بغية المستفيد فى علم التجديد» يقول ابن بلبان الحنبلى :

وحقيقة القلقلة إظهار نبرة لطيفة للصوت حال النطق بالحرف المقلقل، وكذلك قال البقرى فى «غنية الراغبين» إذ أورد رأى الذين قالوا :

إن القلقلة نبرة لطيفة يأتى بها القارىء فى الحرف المقلقل : فهؤلاء وصفوا النبرة باللطف لا بالشدة .

وقال الشيخ برهان الدين بن وثيق الأندلسى : وسميت بذلك لأنه إذا وقف عليها سمع لها صوت زائد لشدة ضغطها .

وفى بدايه الهداية قال فى تعريفها : القلقلة وهى صوت كالنبرة يتبع الحرف عند الوقوف عليه دون الوصل .

أما الشيخ جلال الحنفى فقد عرفها بقوله :(٣)

---

(١) ص ١٩

(٢) انظر : قواعد التجويد للحنفى ص ٢٥٧

(٣) السابق ص ٢٥٨

هى ما يقع لحروف معلومة تمر بسكون مغلق فيتأتى من ذلك أن تنفصم من مخرجها ولها ذيول صوتية متوهمة محدودة الجرس ، وهناك من سمى هذه الذيول : « بالإنفجار الصوتى » ، ومنهم من سماها بالنبرة القوية ، ومنهم من وصف صوتها بأنه شديد الوقع .

ومن خلال التعريفات السابقة نلحظ أنه قد اختلفت تعبيرات المجودين فى تصور هذه الصفة على الرغم من أنها فى مجموعها توصل إلى نتيجة متقاربة ، فنرى بعضهم يعرفها بأنها صوت يشبه النبرة ، والآخر بأنها نبرة زائدة قوية والثالث بأنها صوت حادث ، والرابع بانها صوت زائد .

فهل هناك فرق بين النبرة والصوت ؟ أو بين الصوت والصويت هنا ؟

تشير كتب المعاجم إلى أن النبرة هى الصوت المرتفع أو العالى .

وإذن فلا فرق بين النبرة الزائدة والصوت الزائد ، ولا فرق كذلك بين الصويت والصوت الذى يشبه النبرة .

ومادام الأمر كذلك فلماذا تفاوتت تعبيرات المجودين ؟

يجيبنا أحد الباحثين فيقول :(١)

وتفاوت تعبيرات المجودين هذه نابع من تفاوتهم فى مدى إدراكهم السمعى الذاتى لهذه الصفة .

ومن الواضح أن علماء التجويد والعربية يشترطون لحصول القلقلة فى الحرف اجتماع الشدة والجهر فيه ، وقد عللوا لذلك كما سيأتى بيانه .

وقد أرجع بعض الباحثين وجوب إتباع حروف القلقلة بهذ الصويت إلى أن فى هذا المنطق تحقيقا كاملا لخواص هذه الحروف - أى تحقيقا للانفجار (الشدة) والجهر ، فعدم وجود هذا الصويت ينشأ عنه تقليل صفتى الجهر والشدة معا .

---

(١) د / الفخرانى فى رسالته عن التجويد القرآنى ص ٢٤٩

كما علل للجهد الكبير الذى يستدعيه نطق هذه الأصوات نطقا كاملا واضحا حالة السكون وبخاصة فى الوقف بقوله(١) :

«لأن شدتها تعنى أن الهواء عند نطقها محبوس حبسا تاما ، ولأن جهرها يعنى عدم جريان النفس معها ، ومن ثم وجب إتباعها بصويت أو حركة خفيفة فتنتقل هذه الحروف من السكون إلى شبه تحريك فيتحقق نطقها كاملا بكل صفاتها من شدة وجهر » . وهو تعليل - كما ترى - يتفق مع تعليل المجودين .

وإذا كان أحد الباحثين(٢) يرى أن القلقلة تتعلق بعملية النطق وأنها ليست سوى عناية خاصة بمراحل نطق بعض الحروف ، ففى تصورى أن هذه العناية الخاصة بنطق حروف القلقلة لم تنشأ من فراغ وإنما نشأت من طبيعة الصفات القوية كالجهر والشدة فى هذه الحروف وبَدَهِيٌّ أن هذه العناية الخاصة ليست قاصرة على ظاهرة القلقلة وحدها ، وإنما كل صفة تتطلب من العناية فى نطقها بالقدر الذى يتناسب معها .

بقى . . . هناك تساؤلات تثور فى الذهن عن طبيعة هذا الصويت أمجهور هو أم مهموس ؟ وما صلة القلقلة بالجهر ؟

ثم . . أحركة هو ؟ أم بعض حركة ؟ أم شبه حركة ؟

وهو ما نطالعه فيما يلى :

---

(١) د / كمال بشر فى علم اللغة العام (الأصوات) ص ١٤٨

(٢) الدكتور مصطفى التونى فى كتابه (آليات النطق عند علماء التجويد) ص ١١٢ وما بعدها .

هل القلقلة هى الجهر ؟

فى البداية نلق الضوء على مفهوم الجهر أولا ثم مفهوم القلقلة .

قال فى شرح الشافية(١) ـ عن الجهر :

إنما سميت الحروف المذكورة مجهورة لأنه لابد فى بيانها وإخراجها من جهرها ؛ ولا يتهيأ النطق بها إلا كذلك ، والجهر رفع الصوت ، وإنما يكون مجهورا لأنك تشبع الاعتماد فى موضعه فمن إشباع الاعتماد يحصل ارتفاع الصوت .

قيل والمجهورة تخرج أصواتها من الصدر ، ثم إن أردت الجهر بها وإسماعها أتبعت صوتها بصوت من الصدر ليفهم .

وقال فى التمهيد(٢) : وإنما لقبت بالجهر لأن الجهر هو الصوت الشديد القوى ، فلما كانت فى خروجها كذلك لقبت به ، لأن الصوت يجهر بها .

أما القلقلة فهى : اضطراب اللسان عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية خصوصا إذا كان ساكنا ، ويراد بها هنا تحريك المخرج والصوت بعد انضغاطهما وانحباسهما ؛ وذلك أنك أولا تحبس الصوت فى المخرج حتى ينضغط فيه انضغاطا شديدا ؛ ثم نفك المخرج فكة سريعة فينطلق الصوت محدثا نبرة قوية وهزة فى المخرج ، وهذه النبرة هى القلقلة ، وليست القلقلة حركة وإنما هى شدة الصياح ، والقلقلة شدة الصوت ، قاله الخليل(٣) .

وبالتأمل فى هذين المفهومين يتبين أن كلا من الجهر والقلقلة يتوخى

(١) شرح الشافية ٣ / ٢٥٨

(٢) التمهيد لا بن الجزرى ص ٢٣

(٣) التجويد للسلمى ص ١٠٣

منه إظهار الحرف وهنا يكون التساؤل : مادام الأمر كذلك فلماذا لا يستغنى بالجهر من القلقلة ؟

والجواب ـ فى رأيى ـ يكمن فى أن الجهر والقلقلة وإن اتفقا فى إظهار الحرف وبيانه إلا أن القلقلة تعطى معنى اضطراب الحرف فى مخرجه وهزه ـ كالحجر الناتىء من الأرض تهزه فى مكانه ـ بحيث ينطمس الحرف بدونها ، فلا غناء له عنها .

أما الجهر فإنه لا اضطراب فيه ولا اهتزاز ولا علو نبرة .

ولذلك اشترط علماء التجويد أن الإتيان بالقلقلة أمر لا بد منه للتلاوة الصحيحة ، ولا بد أن يسمعها غيره وإلا يعد مقصرا .

قال الشيخ حجازى ـ رحمه الله ـ فى شرحه(١) :

وتجب المبالغة فى القلقلة حتى يسمع غيرك نبرة قوية عالية بحيث تشبه الحركة ... فمن أسمع القلقلة نفسه ـ فقط ـ لا يقال إنه أتى بالقلقلة ، وإنما يقال : إنه ترك القلقلة فهو لحن .

كما أن حروف القلقلة المتفق عليها (قطب جد) كلها مجهورة فى وصف القدماء لها وليست هى كل الحروف المجهورة ـ التى هى ماعدا حروف الهمس (سكت فحثه شخص) .

فلو أن القلقلة هى الجهر ، فلماذا اختصت هذه وحدها بالقلقلة دون بقية الحروف المجهورة ؟!

إضافة إلى ذلك فإن ما أضافه بعضهم إلى حروف القلقلة من توابع (أ كتع) الكاف والتاء منها مهموسان عند القدماء والمحدثين ؛ كما أن القاف والطاء من الحروف المتفق على قلقلتها مهموسان ـ أيضا ـ فى النطق المعاصر .

وبهذا يتضح لنا أن القلقلة شىء والجهر شىء آخر .

---

(١) نهاية القول المفيد للشيخ مكى نصر ص ٥٤

وينبنى على ذلك أن الصويت المصاحب لعملية القلقلة يختلف عن تلك النَّفَسية أو (الهُوَة) التى لاحظت الدراسة الحديثة مصاحبتها لبعض الأصوات الشديدة نظرا لأنها مهموسة وصويت القلقلة مجهور .

يقول الدكتور السعران(١) :

أما الصوت الإضافى فى حالة ما سماه نحاة العرب (حروف القلقلة) فالرأى : أنه غير مهموس أى ليس نفسا ، وهذا بناء على الحقائق الآتية :

١ ــ أن النحاة يقررون أنه بسبب هذا الصويت الإضافى تنتقل هذه الأصوات الانفجارية من « السكون » إلى « شبه الحركة » ، وهم يعنون بهذا أنها تصبح شبيهة شيئا ما « بالحروف المتحركة » ، ومعروف أن مايعرف فى الاصطلاح العربى « بالحرف المتحرك » هو صوت صامت يتلوه صوت صائت قصير .

من هذا نرى أن الصوت الإضافى فى حالة « حروف القلقلة » يشبه بالحركة أى بالصائت القصير ومن البديهيات أن الصوائت مجهورة .

ويبين الدكتور عبد العزيز علام طبيعة هذا الصويت من خلال ما قام به من تجارب وتحليلات صوتية مؤكدا توافق نتائج البحث الحديث مع وجهة نظر شيخ النحاة والعربية (سيبويه) فيقول(٢) : وأصوات القلقلة يحدث فيها علاوة على « الغلق والفك » أن أعضاء النطق المشتركة فى نطق هذه الأصوات (قطب جد) تعود ببطء إلى وضع الراحة ، وهذا الإبطاء وضع فسيولوجى ينتج عنه فيزيائيا مكونات تذبذبية من مكونات الحركات ويسمع الصوت لا على أنه دال صغيرة مع الدال ، وباء صغيرة مع الباء ، وطاء صغيرة مع الطاء ، وجيم صغيرة مع الجيم ، وقاف صغيرة مع القاف ، ولكن على أنه ـ كما أثبتت التجارب والتحليلات الصوتية (صوت حركة) ،

(١) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ١٧٦ بتصرف .

(٢) علم التجويد القرآنى ١٤٣

وهى التى تقع على المقياس برقم ٩ على مربع الحركات لدانيال جونز وهو مايتفق مع كلام سيبويه حينما عبر عن القلقلة بأنها : صويت ينبو به اللسان عند النطق بالصوت .

ولن نكون مبالغين إذا قلنا :

إن « سيبويه » كان يدرك هذه الحقيقة الصوتية التى كشفت عنها الدراسات الحديثة من أن صوت القلقلة من نوع الحركات وليس من نوع الصوامت ، يدلنا على ذلك قوله : « فلا تستطيع أن تقف إلا مع الصويت لشدة ضغط الحرف ، وبعض العرب أشد صوتا ، كأنهم الذين يرومون الحركة(١) .

فمعنى أنهم الذين يرومون الحركة أن الصوت المسموع - حينئذ - يكاد يشبه الحركة » والمقصود بالحركة ضد السكون ؛ وضد السكون إما الفتحة أو الضمة او الكسرة .

٢ — أنهم يفرقون بين هذا الصويت الإضافى وبين تلك النفسية أو ما سموه « بالنفخ » أو « النفَس » وكذلك بين ماسموه « بشبه النفخ » ، وأوضحوا الأصوات التى يتحقق فيها كل هذا ، والتى لم تتحقق فيها تلك العمليات التصويتية .

فقد قسم « ابن جنى » وتبعه رضى الدين الاستراباذى » الصوامت إلى أربعة أقسام على ضوء الصويت الذى يتبعها فى الوقف عليها(٢) .

١ — قسم لا يوقف عليه إلا بصويت لشدة الحفز والضغط ، وهو حروف القلقلة الخمسة (قطب جد) وسماها « ابن جنى » حروفا مشربة تحفز فى الوقف وتضغط عن مواضعها .

---

(١) السابق نفسه ٩٩ ، ١٠٠

(٢) سر صناعة الإعراب ١ / ٧٣ وشرح الشافية ٣ / ٢٦٣ وانظر : رسالة الدكتور الفخرانى (التجويد القرآنى) ص ٢٤٦

٢ – قسم لا يوقف عليه إلا بنحو النفخ ، لأنها لم تضغط ضغط الأول وهى : الزاى ، والذال ، والضاد ، والظاء . فإن الضاد كما يقول « الرضى » تجد المنفذ بين الأضراس ، والثلاثة الأخرى تجد منفذها من بين الثنايا ، وقد أضاف ابن جنى إلى هذه الأربعة « الراء » ، ورأى أنها شبيهة بالضاد وسمى هذه الخمسة « حروفا مشربة » كذلك .

٣ – قسم لا يوقف عليه إلا بالنفخ وسماه « ابن جنى » نفسا ، لأنه ليس من صوت الصدر ، وإنما يخرج منسلا ، وهى الأصوات العشرة المهموسة (الفاء ، والحاء ، والثاء ، والهاء ، والشين ، والخاء ، والصاد ، والسين ، والكاف ، والتاء) وذكر « الرضى » أن بعض العرب أشد نفخا كأنهم الذين يرومون الحركة فى الوقف .

٤ – قسم لا يسمع بعده شىء (لا صويت ولا غيره) وهو (اللام ، والنون ، والميم ، والعين ، والغين ، والهمزة) أما عدم الصوت فلأنه لم يتصعد من الصدر صوت يحتاج إلى إخراج ، وأيضا لم يحصل ضغط تام وأما عدم النفخ فلأن اللام والنون لا يجدان منفذا من الأسنان كحروف القسم الثانى ، وذلك لأنهما ارتفعتا عن الثنايا ، وكذلك الميم لأنك تضم الشفتين بها ، وأما العين والغين والهمزة فإنك لو أردت النفخ من مواضعها لم يمكن .

وقد اتفقا على أن جميع الحروف التى تسمع معها فى الوقف صويتا أو غيره متى أدرجتها ووصلتها زال ذلك الصوت نحو « اذهبْ زيدا » و « خذْهُما » و « احرُسْهُما » لأن أخذك فى صوت آخر وحرف سوى الأول يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتا .

هل القلقلة حركة أو شبه حركة ؟

بعض الناطقين بحروف القلقلة يتعمدون تحريكه ظنا منهم أن ذلك هو مفهوم القلقلة ـ وهو ظن غير صحيح ـ لأن القلقلة ليست سبيلا إلى تحريك الحرف ، فإن تَحَرَّكَ الحرفُ نشأ بذلك مقطع صوتى يفسد به وزن الشعر وينكسر به عروضه لزيادة فى اللفظ ، وليس من الممكن استيلاد حرف متحرك من حرف ساكن(١) .

كما أنه ربما يتغير المعنى تغيرا كليا فمن قرأ « تَدْعُون » الساكنة الدال بتحريك الدال فصارت (تَدَعُون) فقد تغير القصد المقصود فى« تَدْعُون» التى بمعنى تنادون إلى (تَدَعُون) التى بمعنى تتركون وتنبذون ، والفرق بين اللفظين كبير شكلا وموضوعا(٢) .

ولعلهم قد توهموا ذلك من قول بعضهم : أما حكم حروف القلقلة فتحريكها فى مخارجها إذا كانت ساكنة سواء كان السكون لازما أو عارضا .

ولا نراه يعنى به الحركة التى هى من نحو الضمة والكسرة ، وإنما أراد الزحزحة وهو ما يقع للحروف المعينة(٣) : وهو ما عبر عنه بعضهم بشبه الحركة .

وهذا أمر أكدته الدراسات الصوتية يقول الدكتور محمود السعران :

من هذا نرى أن الصوت الإضافى فى حالة حروف القلقلة يشبه الحركة ، والأرجح أن هذا الصوت الإضافى « صوت صائت مركزى ضعيف(٤) »

---

(١) قواعد التجويد للحنفى ٣٠١ ، ٣٤١
(٢) السابق ٢٧٦
(٣) السابق ١٦٩ (٤) علم اللغة ١٧٦

وهناك من نص على أن القلقلة ليست حركة يقول الشهاب القسطلانى : وليست القلقلة حركة وإنما هى شدة الصياح(١) . وليست - أيضا - بعض حركة لأنها لو كانت بعض حركة لأشبهت الروم وهو ثلث حركة فالروم فى « بالحقّ » - مثلا - ثلث حركة ، أما القلقلة فهى اتجاه نحو الحركة فقط .

فالقلقلة - إذن - ليست حركة ولا بعض حركة ، وإنما هى شبه حركة .

وعلى حد قول الشيخ الحنفى : وإنما تكون القلقلة فى الحرف منعا التحريكه وهو ساكن(٢) .

ولذلك فما يظن أنه حركة هو عنده شىء مُتَوَهَّم ، يقول :

أما الصوت الذى يرافق الحرف المقلقل أو يتبعه على تقدير الأسماع فإنه شىء يتوهم كالذى يقع لبعض حروف القلقلة فى حالات الإخفاء من التحرك رغم حالة السكون فيها كأن نقول « تَنْش » فترى القاف وكأنها كسرت ..

وكذلك يَعنُ هذا الأمر عند الانتقال من حرف ذى تفش إلى مثله كَتَنْش أو إلى حرف صفير كَنَفْس ، فإنا نرى الفاء الساكنة متوهمة فيها الحركة ، والسبب فى ذلك وجود الصويت المتصل بحرف التفشى ، فإنه يكون عازلا ما قبله عما بعده فيبدو وكأنه حركة متحركة وإنما هو حركة متوهمة(٣) .

يقول الشيخ :

وتوكيد المصنفين للتابع الصوتى فى حروف القلقلة نشأ فى تصور معنى القلقلة بأنها شىء من التضجيج فى حين أن معنى القلقلة هو التحريك .

ولا يشترط فى كل تحريك أن يكون معه صخب وضجّة فقد يحرّك

(١) لطائف الإشارات ص ٢٠٠ (٢) قواعد التجويد ٣٠١

(٣) قواعد التجويد ٢٧١

النائم برفق ، فلا يكون هناك ما يسمع من صوت لذلك إذا لم يكن نائماً على فراش تقترن الحركة عليه بصوت .

ولعله لهذا نراهم يرفضون المبالغة فى التشديد فقد جاء فى نهاية القول المفيد : ولا يحصل التشديد بالمبالغة فيها ، لأن التشديد يورث إلباث الحرف مقدار حرفين ، والقلقلة هى التحريك لا الإلباث(١) .

فهم يحذرون من المبالغة فى نطق هذا الصوت حتى لا يصير صوتاً كاملا أو حركة كاملة .

ولذلك كان من ينطق بلفظة « اشْتَقْ » أمر من الاشتياق - على هيئة حرف مشدد بسبب ما يلجأ إليه من التركيز على التصويت فى القلقلة مخطئا أشد الخطأ فى هذا التصرف ، لأن الأمر من الاشتياق كان بقاف واحدة فصيروره بقافين ثانيتهما مستولدة من الأولى فصار من الاشتقاق لا من الاشتياق(٢)

إضافة إلى ذلك فإن مقصودهم بـ « النبرة القوية » سرعة فك الاحتباس بطريقة مفاجئة وهو مالا يتحقق مع تشديد غير المشدد .

---

(١) ص ٥٤

(٢) انظر قواعد التجويد ٢٦٠ بتصرف .

عـدد حروف القلقلة

اتفق جمهور علماء اللغة والتجويد على أن حروف القلقلة خمسة ، وأضاف بعضهم إليها أربعة أخرى يرون أن لها مالها من مواصفات انحباس النفس فى مخرجه .

والحروف الخمسة هى : الباء ، والجيم ، والدال ، والطاء ، والقاف تجمع فى :

« قدطبج » أو « طبق جد » أو « جدقطب » أو « قطب جد »

والحروف الأربعة الأخرى الملحقة بها هى : الهمزة والتاء ، والعين ، والكاف ، رأيت جمعها فى كلمة « أكتع » .

يقول بعض الباحثين(١) :

عد علماء الصناعة ثمانية حروف قالوا إنها موصوفة بالشدة أى أن النفس فى نطقها ينحبس جريانه بالصوت فيكاد ينغلق الصوت عنده فى مخرجه والحروف الثمانية هى : الهمزة والباء والتاء والجيم والدال والطاء والقاف والكاف ، وفاتهم إيراد العين فى جماعة هذه الحروف إذ أن هذا الحرف هو كذلك مشمول بمواصفاتها وقد عدوه فى الحروف البينية التى هى بين الرخاوة والشدة .

والظاهر أنه من الحروف التى يغلب عليها جانب الشدة ، وهى صفة حروف القلقلة بالذات ، ولذا عددناهن تسعة حروف ، أربعة منهن توابع أضفناهن إلى الحروف الخمسة المتفق عليها لدى أصحاب هذه الصناعة .

---

(١) الشيخ جلال الحنفى (قواعد التجويد ص ٢٦٩)

ومسألة هذه التوابع الملحقة بحروف القلقلة جاءت الإشارة إليها فى المصادر القديمة ، فى لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلانى ت ٩٢٣ هـ يقول(١) :

وأضاف بعضهم إليها الهمزة لما فيها من الجهر والشدة ، ودفع بدخول التخفيف عليها حالة السكون وبما يعتريها من الإعلال ، وأضاف إليها « سيبويه » التاء وجعل لها نفخا وهو قوى فى الاختبار ، قال فى التمهيد : وقيل إن التاء من حروف القلقلة وهو غاية فى البعد .

وجعل « المبرد » منها الكاف لكنه جعلها دون القاف ، قال : وهذه القلقلة بعضها أشد من بعض . ويعلق المرعشى على ذلك بقوله : « أقول فكأنه لم يشترط قوة الصوت الزائد وإن شرط انحصار الحرف قبله ، لكنه يلزمه - حينئذ - أن يعد منها التاء المثناه الفوقية - أيضا - وهذا قول صحيح .

يقول بعض الباحثين : ولم ير هذا الرأى أحد من اللغويين - فيما أعلم - غير المبرد ، مع أن الكاف قد اعتبرها بعض اللغويين كالسكاكى مجهورة .. لكن جمهور المجودين واللغويين قد وصفها بالهمس(٢) .

ومن المحدثين الذين تنبهوا إلى ذلك مؤلف فن الإلقاء فقد قال :(٣)

أرى أن يضاف إلى هذه الحروف الهمزة والتاء والكاف ، وذلك عندما تأتى ساكنة فى آخر كلمة عند الوقوف عليها ، وذلك لأن هذه الحروف الثلاثة فى حالتها التى وصفت تضيع نبرتها إن لم يرجع بها اللسان ترجيعة القلقلة لأن النفس منقطع عندها وليس لها استمرار صوتى كما نلاحظ فى بقية الحروف .

---

(١) لطائف الإشارات ١ / ٢٠٠ (٢) رسالة الفخرانى ص ٢٤٤
(٣) عبد الوارث عسر ص ٧٨ وانظر : قواعد التجويد الحنفى ص ٢

وقد بينا فى المخارج أن الصوت عندها مقطوع ، وكذلك أرى قلقلة كل حرف صوته مقطوع . وصاحب (دراسة الصوت اللغوى)(١) عد الكاف انفجاريا ، أى أنه مما يقلقل . وكذلك عد الهمزة انفجارية كما جاء وصف حالات القلقلة فى الهمزة بظهورها كانفجار متبوع بفجوة سكوتية ، وأحيانا يتبع الإنفجار بضجيج منخفض ، وفى حالات أخرى تظهر الهمزة كصوت انزلاق قصير .

وقال صاحب « الوضع الجديد » فى كلامه على الهمزة : قلت وكأن الهت فيها قائم مقام القلقلة إذ هى مجهورة شديدة كحروف القلقلة(٢) .

ولعل مايؤكد ذلك قول القسطلانى(٣) :

ومنها المهتوف وهو الهمزة ، والهتف : الصوت ، فسميت بذلك لخروجها من الصدر كالمتهوع بها فتحتاج إلى ظهور قوى شديد ، وهو كتسميتهم لها أيضا بالجرسى .

والجرس لغة : الصوت ، فكأنه الحرف الصوتى ، وكل الحروف يصوت بها لكن الهمزة لها مزية زائدة فى ذلك . على أننا نلاحظ أنهم بالرغم من وصفهم للهمزة بأنها صوت مجهور لم يذكروها ضمن حروف القلقلة وهى حروف باتفاقهم جميعا مجهورة .

والسؤال لماذا أخرجوها إذا من القلقلة ؟

ويعلل المرعشى ذلك بقوله(٤) :

ثم اعلم أن الهمزة وإن اجتمع فيها الشدة والجهر لكن الجمهور أخرجوها من حروف القلقلة كما فى بعض الرسائل ، ولعل سبب ذلك

---

(١) د / أحمد مختار عمر ص ٢٧٢ وانظر : قواعد التجويد للحنفى ص ٢٦٣
(٢) قواعد التجويد للحنفى ٢٦٩
(٣) لطائف الإشارات ١ / ٢٠٢
(٤) الدراسات الصوتية د / غانم ص ٣٠٤

مافى الرعاية من أن الهمزة كالتهوع وكالسعلة فجرت عادة العلماء بإخراجها بلطافة ورفق وعدم تكلف فى ضغط مخرجها ، لئلا يظهر صوت يشبه التهوع والسعلة أقول : فيخفى حينئذ شدتها ويعدم قلقلتها .

يقول بعض الباحثين(١) : وهذا التعليل عندى أرجح مما علل به ابن الجزرى حين قال :

وإنما لم يذكرها الجمهور لما يدخلها من التخفيف حالة السكون ففارقت أخواتها ولما يعتريها من الإعلال(٢) .

يقول الدكتور النعيمى :

الذى يتجه لى فى هذا أن جل همهم كان منصرفا إلى وضوح الصوت فى الوقف أو خفائه ، وقد وجدوا أن القاف والطاء والباء والجيم والدال يخفت صوتها ولا يظهر إلا بضغطها عن موضعها باظهار صويت بعدها .

أما صوت الهمزة فإنه يسمع بشكل مميز فى الوقف من غير حاجة إلى ضغطه عن موضعه ، وهذا واضح فى الوقف على الهمزة فى نحو « السماء » أو « إبداء » .

وذلك لأن الصوائت سواء كانت طويلة أو قصيرة أصوات مجهورة واسعة المخرج يتذبذب معها الوتران الصوتيان فإذا انغلق الوتران لنطق الهمزة سمع بسبب انقطاع الهواء المستمر فى الحلق فجأة صوت الهمزة وإن كان خافتا .

يقول : والراجح عندى : أن العلماء عندما أخرجوا الهمزة من حروف القلقلة المتصفة بالشدة والجهر عندهم كانوا ينظرون إليها مع حرف متحرك قبلها قياسا على تمثيل ابن جنى بالأفعال : إلحق واذهب واخلط واخرج(٣) .

---

(١) د غانم فى المصدر السابق ص ٣٠٥ . (٢) النشر ١ / ٢٠٣ .

(٣) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى ٣٢١

ومعروف أن الهمزة بناء على وصفها فى الدراسة الحديثة لا إشكال فيها، وذلك لأنها عند المحدثين ليست حرفا مجهورا بمعنى أنه لا يصحبه تذبذب الوترين الصوتيين، وإن وصفه بعضهم بأنه: مهموس وبعضهم بأنه: لا مهموس ولا مجهور، إذ هو على الرأيين ليس مجهورا وبهذا لا يسأل عنه فى حروف القلقلة(١).

وننتهى إلى أن الهمزة ليست من حروف القلقلة رغم أنها شديدة وإذا أردنا قلقلتها عند الوقف وخاصة فى المد المتصل تجد نفسك أنك تتقيّؤها نطقا وينتج عن ذلك رنين وهو لحن فاحش يعاب عليه القارىء.

أما إذا قلقلت أثناء الدرج فنجد لها حركة مصاحبة وخاصة فى الساكن المتوسط مثل « بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ » « والذِّئْبُ » المكسور ما قبلها. والمفتوح ما قبلها عند الطرف فى كلمتى «السماء» «والماء»، ويجب الاحتراز من ذلك لأن الأطراف محل تغيير دائما(٢).

إضافة إلى ذلك عدم ميل الذوق العربى إلى تحقيقها المؤدى إلى قلقلتها، ولذا نرى أحد المجودين يحذر من ذلك بقوله :(٣)

فيجب على القارىء أن لا يتكلف فى الهمزة ما يقبح من ظهور شدة النبر بنبرة الصوت، وأن يلفظ بالهمزة مع النَّفَس لفظا سهلا، فقد قال أبو بكر بن عياش صاحب عاصم:

كان إمامنا يهمز (مؤصدة) فأشتهى أن أسد أذنى إذا سمعته يهزها. يريد أنه كان يتعسف فى اللفظ بالهمز ويتكلف شدة النبر فيقبح لفظه بها.

أما الكاف والتاء فالمرعشى فى رسالته يعلل ذلك بقوله:

---

(١) النعيمى ٣٢١ فى الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى

(٢) أحكام تجويد القرآن د/سويد / ٢٥٠

(٣) مكى فى الرعاية ١٥٠ وانظر الفخرانى ٢٤٤

ولم يعد الكاف والتاء المثناة الفوقية من حروف القلقلة مع أن فيها صوتا زائدا حدث عند انفتاح مخرجيهما لأن ذلك الصوت فيهما يلابس جَرْى نَفَس ، أى بسبب ضعف الاعتماد على المخرج فهو صوت همس ضعيف ، ولذا عدتا شديدتين مهموستين ، فلو لم يلابس ذلك الصوت فيهما بجرى نَفَس لكان قلقلة ولكانت التاء دالا(١) .

يقول الدكتور النعيمى :

أما المهموس الشديد وهما حرفان كما ورد عند ابن جنى (التاء والكاف) فلا يحتاج إلى هواء الصدر فى الوقف لإظهاره لأن استغناءه عن تذبذب الوترين يجعل بالإمكان الاستفادة من هواء الفم فى ذلك ، ويبدو أن انتفاء الحاجة إلى هواء الصدر هو الذى جعلهم يخرجون هذين الحرفين من الحاجة إلى صويت فى إظهارهما ، وإن كان واقع الحال فى النطق يؤكد أنهما بحاجة إلى انفراج موضع حصر الهواء لكى يظهرا فى الوقف(٢) .

أما العين فلم أجد - فيما اطلعت عليه - من ألحقها بحروف القلقلة غير الشيخ جلال الحنفى وعلته فى ذلك تغليب جانب الشدة عليها كما سبق بيانه .

وهناك من يلحق اللام والفاء بحروف القلقلة :

يقول بعض الباحثين(٣) : وجاء فى بعض المصادر أن من العلماء من يعد « اللام » من حروف القلقلة وقد ذكر ذلك المرعشى ، وذكر أن بعضهم أضاف إليها « الفاء » لكن ذلك كله لحن حسب رأيه وذلك حيث قال : وهى لازمة لحروف « قطب جد » وإحداثها فى غيرها لحن . يقول

(١) انظر : نهاية القول المفيد ص ٥٥
(٢) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى ٣٢١
(٣) د / غانم فى الدراسات الصوتية ٣٠٦

الشيخ الحنفي(١) :وليست الفاء من الحروف التي تصح قلقلتها لأن حالة التفشي حالة انسياب لا حالة انحباس ، ومن الناس من يقلقل الفـــاء جهلا ولُكْنَةً .

ولا قلقلة في اللام إلا لدى من اعتاد أن ينطق هذا الحرف مشفوعا برطانة مفتعلة هي مستبشعة حتما في أسماع السامعين .

وهناك ـ أيضا ـ من يقلقل الميم وهو خطأ ، يقول الشيخ جلال الحنفي موضحا ذلك : الباء والميم من مخرج واحد ، لكن الباء حرف شدة والميم حرف غنة أي أنه انسيابي الجرس لين الصوت ولكنه قد يحاكي الباء في الشدة والقلقلة على وجه غير معترف به في اللسان ، لذا عدّ نطقه مقلقلا من جهل الناطقين به على هذه الصفة(٢) .

كما حذر ـ المرعشي ـ في بعض الوسائل من قلقلة الفاء واللام في « أَفْوَاجاً » و « جَعَلْنَا » وإنما يقلقلهما من يقلقلهما حرصا على إظهارهما وحذرا عن إدغامهما فيما بعدهما ، ومثل تحريك الهاء إحداث شبه القلقلة فيه للمبالغة في بيانه .

وقد عقب على لزوم القلقلة لحروفها بقوله :

ليس المراد بهذا اللزوم اللزوم المنطقي وهو امتناع الانفكاك بل المراد به اقتضاء الطبع السليم ، فإن صاحب الطبع السليم إذا نطق بحروف (قطب جد) يحدث فيها القلقلة ألبتة ،لكن يمكن نطقها بدون القلقلة بتكلف وذلك إما بإعطائها همسا فيكون الصوت الحادث بفتح مخارجها ـ حينئذ ـ صوت همس ضعيف مع جرى نَفَس كثير ، كما كان الأمر كذلك في الكاف والتاء المثناة الفوقية ، وإما بفتح مخارجها برفق بحيث لا يحدث بذلك الفتح صوت أصلا .

---

(١) قواعد التجويد ص ٣٠

(٢) ١٧ الحنفي في (قواعد التجويد) .

ثم ختم التعقيب بقوله :

وهذا البحث لا يفهمه إلا صاحب التصو ر الصادق(١) .

وهنالك رأى أراه غريبا نذكره إتماما للفائدة :

يقول ابن مفلح القلقيلي في كتابه «غنية المريد»(٢) : ومن أهل العلم والنحو والأداء من يجعل عوض الباء التاء الفوقية ، ويقول في هجاء (جد بطق) (جد تطق) فيكون حينئذ في الباء والتاء خلاف فذهب بعض إلى أن الباء هي المقلقلة ، وبعض إلى أن التاء هي المتقلقلة .

يقول ابن مفلح : « والصواب الأول بدليل أن سائر الحروف المتقلقلة مجهورة شداد كالباء » . وأضيف : لعل ذلك من خطأ النساخ أو أنه لبث أدى إليه أن الباء من حروف القلقلة الأصول وأن التاء من التوابع كما ذكرنا من قبل .

بقي بعد ذلك أن نعرف لماذا تحدث القلقلة في الحروف المتفق عليها (قطب جد) ؟ . وإذا كان الجواب : أنها جمعت بين صفتين هما الجهر والشدة فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن :

لماذا خصت الحروف المجهورة الشديدة بهذا الحفز أو الضغط حتى سمع بعدها صويت في الوقف ؟

للإجابة عن هذا ينبغي أن نتذكر أن الحرف المجهور : هو الذي أشبع الاعتماد من موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضي الاعتماد ويجرى الصوت ، وأن الحرف الشديد : هو الذي يمنع الصوت من أن يجرى فيه ، أو كما يعبر المحدثون عن المجهور بأنه الصوت الذي تصحبه نغمة تذبذب

---

(١) انظر : أصوات القرآن الكريم منهج دراستها عند المرعشي د / الفخراني ص ١٦٣

(٢) مخطوط رقم ١٣٩٣ قراءات مكتبة الأزهر ٢٣ ويقوم الباحث بتحقيقه بعون الله .

الوترين الصوتيين، وهذا الوتران يتذبذبان مع الأصوات التى وصفها العرب بالجهر غير الهمزة .

والشديد عبر عنه المحدثون بالانفجارى وهو الذى ينتج من حبس الهواء حبسا تاما ثم إطلاقه .

ويلاحظ ان صفة الجهر فيها منع النفس والشدة فيها هذا - أيضا - فكأن اجتماع المنعين على الصوت الواحد مع الوقف الذى يسكن معه الحرف يؤدى إلى خفائه فى السمع .

فحين تقف على الباء مثلا فى مثل « المآب » تكون قد جمعت عليها مع حبس الهواء وراء الشفتين والحاجة إلى هواء الصدر لتزيز الوترين استمرار انطباق الشفتين بسبب سكون الوقف .

وبهذا لا يسمع نزيز الوترين ولا إنفجار الصوت، فيخفت صوت الباء حتى لا تكاد تتفينه، ولذا كان فتح مكان حصر الصوت بإظهار صويت عند الوقف يسمح للوترين بالنزيز لازما لبيان الصوت المجهور الانفجارى أو الشديد(١) .

يقول الصفاقسى(٢) : إنها لما سكنت ضعفت فيحتاج إلى ظهور صوت حال سكونها من قلقل إذا صوت، وسواء كان هذا سكونا فى الوصل نحو: خَلَقْنا، وأطْوارًا، ونَبْعَث، والنَّجْدَين، ومَدَدْنا، أو الوقف نحو: الحقْ، ومحيطْ، والنيبْ، والخروجْ، والودودْ .

ومن خصها بالوقف دون الوصل فقد وَهِمَ، إلا أنها فى حال الوقف أظهر لأن الوقف محل انقطاع النفس . وهى شديدة مجهورة تمنع النَّفَس أن يجرى معها فاحتاجت إلى كثرة البيان حتى أنها مع كونها ساكنة تخرج إلى شبه الحركة من قولهم :

---

(١) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى د/ النعيمى ص ٩٢١

(٢) تنبيه الغافلين ص ٣٧

قلقلت الشيء : إذا حركته ولولا ذلك لم تتبين .

قال الخليل :

القلقلة شدة الصياح ، وقال أيضا : القلقلة شدة الصوت .

وهنا يرد سؤال : القاف والطاء اليوم مهموستان ، ومن ثَمَّ تخلف فيهما أحد شرطى القلقلة وهو « الجهر » والملاحظ أن قراء القرآن وناطق العربية يحرصون على إتباع هذين الصوتين عند الوقف بصويت القلقلة فما المسوغ لذلك إذن ؟

ويجيبنا أحد الباحثين بقوله :

وهو أمر يسوغه كون الصوتين شديدين (انفجاريين) فيتبعهما عند الوقف صوت مثل صوت الكاف لكنه معهما أشـــد لفخامة الطاء بالإطباق ، وشدة انفصال العضوين فى نطق القـاف مع كونه صوتا مستعليا(١) ، وهو ـ فيما أرى ـ تعليل سليم .

---

(١) الدراسات الصوتية د / غانم ص ٣٠٥

حروف القلقلة

مخارجهـــا و صفاتها

مخارج الحروف قضية شغلت علماء الأصوات قديما وحديثا ، واهتم بها علماء التجويد لأنها دعامة من دعامات علم التجويد ، يقول صاحب نهاية القول المفيد(١) :

اعلم أن هذا الباب (مخارج الحروف) من أهم أبواب التجويد فيجب أن يعتنى بإتقانه كل من أراد أن يقرأ القرآن المجيد ، قال الشمس ابن الجزرى فى مقدمته :

إذ واجب عليهـــم محتم قبل الشروع أولا أن يعلموا
مخارج الحروف والصفات لينطقوا بأفصح اللغـــات

فمن أتقن مخارج الحروف والصفات نطق بأفصح اللغات وهى لغة العرب التى نزل القرآن بها .

ولإدراكهم هذه الأهمية فقد فهموا المخرج فهما دقيقا من أنه : اسم لموضوع خروج الحرف والحيز الذى يتكون فيه الصوت اللغوى .

يقول القسطلانى : المخارج جمع مخرج اسم للموضع الذى ينشأ منه الحرف ، وهو عبارة عن الحيز المولد للحرف(٢) .

ويقول القارى : والأظهر أنه موضع ظهوره وتميزه عن غيره(٣) .

نهاية القول المفيد ص ٢٧ وانظر علم التجويد القرآنى د / علام ص ٢٨

(٢) لطائف الإشارات ١ / ١٨٢

(٣) المنح الفكرية ص ٩

وعرفه ابن يعيش فى شرح المفصل بأنه : المقطع الذى ينتهى الصوت عنده(1) .

فالمخرج ـ إذن ـ هو النقطة المعينة من آلة النطق التى ينشأ منها الحرف أو يظهر فيها ويتميز نتيجة لتضييق مجرى الهواء وغلقه ثم إطلاقه .

يقول بعض الباحثين(2) : وهى تعريفات تتطابق مع وجهة نظر علماء الأصوات المحدثين يقول برجستراسر(3) : والمَخْرَج أو المُخْرَج هو الموضع من الفم ونواحيه الذى يَخرُج أو يُخرَج منه الحرف .

ويقول ماريوباى(4) : وإن التميز بين أصوات اللغة سواء منها الأنفى أو الفموى يعتمد على استمرار الصوت ودرجة سماعه وقوة إنتاجه وفوق كل هذا على المخرج، وكلمة المخرج تشير إلى النقطة المحددة فى الجهاز النطقى التى يتم عندها تعديل وضعه .

أما الصفة فقد عرفها طاش كبرى زاده بقوله(5) : وصفة الحرف كيفية عارضة للحرف عند حصوله فى المخرج وتتميز بذلك الحروف المتحدة بعضها عن بعض .

وهذا التعريف ينسجم مع وجهة الدرس الصوتى الحديث ـ أيضا ـ .

فالصوت ينتج عن عملية حركية فى الغالب من تدخل بعض أعضاء آلة النطق فى تيار النفس فى نقطة معينة هى التى تسمى (المخرج) وهذه هى العملية الأساسية فى إنتاج الصوت .

---

(1) شرح المفصل 10/128 .
(2) د/ غانم 122 (الدراسات الصوتية) .
(3) السابق ص 124 . وانظر : التطور النحوى 5 ـ 6 .
(4) أسس علم اللغة 78
(5) انظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 124 .

وهناك عمليات أخرى مصاحبة تحدث فى بعض أعضاء النطق كعملية اهتزاز الوترين الصوتين التى تسمى (بالجهر) فهذه العمليات المصاحبة لما يحدث للصوت فى المخرج هى التى تسمى « بالصفات » .

فصفات الحروف - إذن - هى كيفيات مصاحبة لتكون الحرف فى المخرج سواء كانت تبين كيفية مرور الهواء فى نقطة المخرج أم توضح عملية نطقية ثانوية تشكل جزءا مهما فى تكوين الصوت وتميزه عن غيره .

من هنا كان الوقوف على مخرج الصوت اللغوى فى عرف الدراسات الصوتية الحديثة أمرا له أهمية كبرى ، فالصوت يقوم على دعامتين :

الأولى : المخرج ، والثانية : الصفة . وبهما يتميز عن غيره من الأصوات وقد يتميز عن غيره بإحدى هاتين الدعامتين(١) .

وبعد فقد آن أن نبين مخرج كل حرف وما يتمتع به من صفات فى نظر القدماء والمحدثين من علماء العربية والتجويد ونبدأ بها مرتبة على قولهم : قطب جد .

---

(١) علم التجويد القرآنى د / علام ٣١

القاف

وحدة صوتية أساسية فى اللغة العربية كما تدل المقارنة بين الكلمتين التاليتين : (قلب ، وكلب)(١) .

والقاف من الأصوات التى اختلف وصفها بين الأقدمين والمحدثين على على الرغم من اتفاقهم على مخرجها وهو : أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، وتسمى صوتا لهويا نظرا لأنه حال النطق بها ينحبس الهواء باتصال أدنى الحلق (بما فى ذلك اللهاة) بأقصى اللسان، ثم ينفصل العضوان انفصالا مفاجئا ، ولذلك يمكن أن تسمى القاف صوتا لهويا نسبة إلى اللهاة(٢) .

وقد وصفها الأقدمون بالجهر ، ولكن تبين للمحدثين أنها مهموسة حسب نطق مجيدى القراءات فى مصر الآن .

الطاء

وحدة أساسية فى اللغة العربية كما هو واضح من الفرق بين الكلمتين التاليتين : (تين ، وطين(٣)) .

يقول الخليل : « والطاء والتاء والدال » نِطَعِيَّة لأن مبدأها من نِطع الغار الأعلى ، وهو سقف الحنك الأعلى(٤) .

---

(١) أحكام تجويد القرآن / سويد ٤٤

(٢) أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار هلال ص ١٨٣
وانظر : أصوات أيوب ١٨٣ وأصوات أنيس ٦٩ وعلم اللغة للسعران ١٧٠

(٣) أحكام تجويد القرآن / سويد ص ٤٠

(٤) العين ١/٦٥

ويقول سيبويه : ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء(١) .

واقتفى ابن جنى أثر شيخه فى هذا الوصف(٢) .

ووصف الطاء بأنها حرف نِطَعِي له مايسوغه حتى على القـــول بأن التجارب الصوتية الحديثة تدل على أن طرف اللسان مع هذه الأصوات يتصل بأصول الثنايا بل ومعظم الثنايا من الداخل ، وهذا لأن النِّطَع كما هو معروف فى المعاجم(٣) : أقرب جزء من الحنك الأعلى فيه آثار كالتحزيز إلى أصول الثنايا .

وإذا كان مخرج الطاء عند المحدثين : طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، فإن هذا يوضح أن الأقدمين والمحدثين قد اتفقوا على مخرجها ، لكنهم اختلفوا فى وصفها بالجهر والهمس فقد وصفت الطاء فى التراث اللغوى القديم بأنها صوت مجهور وقد نص « سيبويه » نفسه على ذلك ، وتبعه كل من جاء بعده من اللغويين والقراء(٤) .

أما المحدثون فقد وصفوها بالهمس ، يقول برجستراسر : إن الطاء مهموسة اليوم مجهورة عند القدماء ، والنطق العتيق قد انمحى وتلاشى(٥) .

وقد روى المستشرق « شاده » عنهم : « مضر » و « قضع » فى « مطر » و « قطع »(٦) .

---

(١) الكتاب ٤ / ٤٣٣ (٢) سر الصناعة ١ / ٥٣

(٣) انظر لسان العرب (قطع) .

(٤) أصوات بشر ١٣٠

(٥) التطور النحوى ص ٩

(٦) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص ١٣

البـــاء

وحدة صوتية أساسية فى العربية كما يتضح من المقارنة بين الكلمتين : (باب وناب)(١) وهو من الحروف الشفوية وقد اتفقت كلمة العلماء عليه. مخرجا وصفات فهو : صوت شفهى ، مجهور ، شديد ، مستفل ، منفتح ، زلق مقلقل(٢) .

الجيم

وحدة صوتية أساسية فى العربية قارن بين (جبل وطبل)(٣) .

وهى من الأصوات الشجرية التى تخرج من شجر الفم أى مفرجه ، وهو ـ كما فى اللسان ـ ما انفتح من منطبق الفم ، وهو ما يسمى حديثا : وسط اللسان مع مايقابله من الحنك الأعلى أو وسط الحنك(٤) .

ويتفق الأقدمون والمحدثون على تحديد مخرج هذا الصوت وأنه من وسط اللسان مع مايحاذيه من الحنك الأعلى .

لكنهم اختلفوا فى وصفه ، فالأقدمون يصفونه بالشدة ، والمحدثون يصفونه بأنه قليل الشدة ، وذلك لأنه حال نطقه يلتقى وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء محكما ينحبس معه مجرى الهواء ، فإذا انفصل العضوان انفصالا بطيئا سمع صوت يكاد يكون انفجاريا هو « الجيم » العربية الفصيحة ، فانفصال العضوين ـ هنا ـ أبطأ قليلا منه فى حالة الأصوات.

---

(١) أحكام تجويد القرآن الكريم د / سويد ٣٧

(٢) انظر : التجويد والأصوات د / نجا ص ٤٧ ودراسات فى التجويد والأصوات اللغوية د / أبو سكين ص ١٠٤

(٣) أحكام تجويد القرآن / سويد

(٤) علم التجويد القرآنى د / علام .

الشديدة الأخرى ، ولذلك يمكن أن تسمى الجيم العربية الفصيحة صوتا قليل الشدة(١).

الدال

وحدة صوتية أساسية فى العربية كما هو واضح من الفرق بين الكلمتين (درب ، وضرب)(٢) .

وهو من الحروف النِّطعيَّة (الطاء ، والدال ، والتاء) .

ولم تختلف كلمة العلماء فيه لا فى المخرج ولا فى الصفات فمخرجه : مابين طرف اللسان وأصول الثنايا .

وهو حرف مجهور ، شديد ، مستفل ، منفتح ، مصمت ، مقلقل(٣) .

---

(١) أصوات اللغة العربية د هلال ص ١٨٥ وانظر أصوات أنيس ٦٥ ، ٦٦ وأصوات نجا ٦٩ وسر الصناعة ١ / ٥٢

(٢) أحكام تجويد القرآن د / سويد ص ٤٢

(٣) انظر : التجويد والأصوات د / نجا ص ٤٩ ، دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية د / عبد الحميد أبو سكين ص ١٠٨

حروف القلقلة

بين القوة والضعف

جرى القدماء من علماء الصوتيات والتجويد والقراءات على التقاط الأفكار اللغوية والصوتية ودراستها دراسة تحليلية ، وعلى اكتشاف النظريات والحقائق العلمية ، فاكتشفوا فكرة الصوت القوى والصوت الضعيف ودرسوها دراسة علمية رائدة ما أظن أمة من الأمم السابقة قد هديت إلى مثل هذه القضية الصوتية التى لها أهميتها فى مجال الدراسات اللغوية والدراسات النقدية والأدبية .

يقول محمد مكى نصر موضحا صفات القوة :

اعلم أن الصفات تنقسم إلى قوية وضعيفة : أما صفات القوة فهى الجهر والشدة ، والاستعلاء والإطباق ، والإصمات والصفير ، والقلقلة والانحراف والتكرير ، والتفشى ، والاستطالة والغنة(٢) .

ثم يلتفت إلى قضية مهمة هى (التفاوت فى درجات القوة) بين صفات القوة ، وهذا ـ على حد قول الدكتور عبد العزيز علام ـ مما يدل على الحس الصوتى المرهف ، والذوق الصوتى الدقيق ، فيقول : قال المرعشى : وبعض هذه الصفات أقوى من بعض فى القوة :

فالقلقلة أقوى الصفات ، والشدة أقوى من الجهر ، وكل واحد من هذه الثلاثة أقوى من التفشى والصفير ، والإطباق أقوى من الاستعلاء الخالى عنه(٣) .

---

(١) د / عبد العزيز علام علم التجويد القرآنى ص ١٣١

(٢) نهاية القول المفيد ص ٦٢

(٣) المرجع نفسه وانظر د / علام فى علم التجويد القرآنى ص ١٤٨

ومعروف أن الحرف يكتسب قوته مما اتصف به من صفات فإن رجحت صفات القوة فيه كان الحرف قويا ، يقول الشيخ نصر :

ثم اعلم أن الحرف إذا كثرت فيه صفات القوة وقلت منه صفات الضعف كان قويا ، ويتفرع منه الأقوى ، وكذلك إذا كثرت فيه صفات الضعف وقلت منه صفات القوة كان ضعيفا وتفرع منه الأضعف ، فإذا استوى فيه الأمران كان متوسطا(١) .

ولما كانت حروف القلقلة ـ بداهة ـ تتفاوت قوة وضعفا من حرف لآخر شأنها شأن بقية الحروف ، فإن السؤال الذى يرد هنا : أى هذه الحروف تتضح فيه القلقلة أقوى من غيره ؟

وتكاد آراء العلماء تنحصر فى مذهبين :

أولها : القاف أقوى حروف القلقلة جميعا لدرجة أن بعضهم جعلها أصلا لها .

يقول صاحب الرعاية : والقاف أبينها صوتا فى الوقف لقربها من الحلق وقوتها فى الاستعلاء(٢) .

ويقول : أصل هذه الصفة للقاف ، لأنه حرف ضغط عن موضعه فلا يقدر على الوقف عليه إلا مع صوت زائد لشدة ضغطه واستعلائه ، ويشبهه فى ذلك أخواته المذكورات معه(٣) .

وفى ذلك قال الإمام الشاطبى ـ رحمه الله ـ فى حرزه(٤) :

وأعرفهن القاف كل يعدها .

ويشرح ابن القاصح ذلك فيقول :

---

(١) نهاية القول المفيد ص ٣٣

(٢) مكى بن أبى طالب فى الرعاية ص ١٤٥

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٤

(٤) حرز الأمانى ووجه التهانى ص ٩٥

أخبر أن أعرف حروف القلقلة القاف ، وأن كل الناس يعدها فى حروف القلقلة بخلاف غيرها لأن ماتحصل فيها من شدة الصوت المتصعد مع الصدر مع الضغط أكثر وأقوى مما يحصل فى غيرها(١) .

يقول الإمام ابن الجزرى :

وأصل هذه الحروف القاف لأنه لا يقدر أن يؤتى به ساكنا إلا مع صوت زائد لشدة استعلائه(٢) .

وينقل صاحب نهاية القول المفيد عن المرعشى وابن غازى : أن هذه القلقلة بعضها أشد من بعض ، وأقواها القاف بالاتفاق لشدة ضغطه واستعلائه ، ولذلك قال بعضهم : إن أصل صفة القلقلة لها ، ثم وصفوا الأربعة الباقية تبعا لها(٣) .

وفى تنبيه الغافلين يقول الصفاقسى : وأبينها فى ذلك القاف لقوتها وضغطها فى مخرجها(٤) .

ويرى الشهاب القسطلانى - كسابقيه - ما قاله صاحب الرعاية من قبل فيقول فى لطائفه .

وأصل هذه الصفة للقاف ، لأنه حرف لا يقدر أن يؤتى به ساكنا إلا مع صوت زائد لشدة استعلائه وأشبهه فى ذلك إخوانه(٥) .

الثانى : الطاء أعلى حروف القلقلة والجيم أوسطها وبقية الأصوات أدناها

يقول صاحب نهاية القول المفيد نقلا عن تبصرة المريد :

---

(١) سراج القارىء المبتدى ص ٤١٠

(٢) النشر ١ / ٢٠٣

(٣) الشيخ مكى نصر فى نهاية القول المفيد ص ٥٥

(٤) تنبيه الغافلين ص ٣٨

(٥) لطائف الإشارات لفنون القراءات ١ / ٢٠٠

وتنقسم القلقلة إلى ثلاثة أقسام : أعلى وهو فى الطاء ، وأوسط وهو فى الجيم ، وأدنى وهو فى الثلاثة الباقية(١) .

ويعرض بعض الباحثين هذين الرأيين ثم يعقب على ذلك بقوله(٢) :

والرأى الأول فى تصورى غير سليم ، لأنهم اعتبروا الطاء أقوى الأصوات (أى أوضحها فى السمع) لأنها خلت من صفات الضعف واجتمعت فيها صفات القوة ، والتى لم تجتمع فى غيرها من الأصوات فهى صوت شديد ، مجهور - عند القدماء - مطبق ، مستعل ، بخلاف القاف فهو صوت غير مطبق .

يقول الباحث : والرأى الثانى رأى مقبول حيث اعتبر الطاء أبين حروف القلقلة ، لكنه لم يوفق فى ترتيب بقية الأصوات إذ قد اعتبر الجيم تلى الطاء ، مع أن القاف هى الأولى بأن تكون تالية لها ، لأنها أقوى وأبين فى السمع من الجيم والدال والباء من واقع نظرتهم للقوة ، إذ هى صوت شديد مجهور - عند القدماء - مستعل ، وأما هذه الثلاثة فهى أصوات شديدة مجهورة فقط ، واجتمع فيها صفتان من صفات الضعف هما الانفتاح والاستفال ، وهما لم يجتمعا فى القاف التى وجدت فيها صفة واحدة وهى الانفتاح .

وينتهى الباحث إلى أنه : لذلك فإن الأصوات المقلقلة ينبغى أن ترتب هكذا : الطاء ثم القاف ثم الباء والدال والجيم .

ونحن وإن كنا نسلم للباحث بكل ماساقه من قوة الطاء ، وتحفظه على موقع القاف فى الترتيب على هذا الرأى ، إذ أصبحت فى المرتبة الثالثة وحقها أن تلى الطاء مباشرة فهى التى تقف فى مواجهتها دون بقية حروف

---

(١) محمد مكى نصر فى نهاية القول المفيد ص ٥٤

(٢) الدكتور أبو السعود الفخرانى فى رسالته الدكتوراه (التجويد القرآنى) ص ٢٤٧

القلقلة الاخرى وهو ـ لاشك ـ تحفظ مصيب طبقا لما انتهى هو إليه .

إلا أننا مع كل هذا نخالفه فيما انتهى إليه من ترجيح الرأى الثانى ، ونرى أن الرأى الأول أجدر بالاعتبار . وإذا كان الباحث الكريم قد انتهى إلى ما انتهى إليه مدفوعا بكون الطاء أقوى الحروف على الإطلاق فلعله قد فاته أن ذلك لايتنافى مع كون بعض الحروف قد يتميز فى صفة دون أخرى ، ولن نذهب بعيدا فالطاء مثلا ـ أقواها فى الإطباق وأمكنها لجهرها وشدتها وبالتالى فهى أمكن فى التفخيم من أخواتها كما يقول مكى ابن أبى طالب(١) .

ومع ذلك نرى حرف الضاد قد ميز بالاستطالة عن الطاء نفسها وهى ـ كما سبق ـ أقوى الحروف باتفاق .

يقول صاحب العقد الفريد فى فن التجويد :

ولا تدغم الضاد فى الطاء نحو (فمن اضطر) لامتياز الضاد عن الطاء بالاستطالة وان كان الطاء أقوى الحروف على الإطلاق(٢) .

وعليه فلم لاتكون صفة القلقلة قد ميزت القاف عن الطاء ، ولا سيما وصفة القلقلة ـ كما نعرف ـ أقوى الصفات جميعا ؟ .

هذا وإضافة إلى ما سبق بيانه من علل تؤكد أن القاف أقوى حروف القلقلة نشير ـ أيضا ـ إلى ماتتميز به القاف مما ذكره الخليل وسيبويه .

يقول الخليل : ولكن العين والقاف لاتدخلان فى بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا ، فإذا اجتمعا أو أحدهما فى بناء حسن البناء لنصاعتهما(٣) .

---

(١) الرعاية ص ١٢٩
(٢) الشيخ على بن أحمد صبرة فى العقد الفريد ص ٧٦
(٣) العين ص ٦٠

ويعلل سيبويه لقلب السين صادا إذا كانت القاف بعدها فى كلمة واحدة نحو صقت وصبقت - فى بعض اللغات - فيقول :

وذلك أنها من أقصى اللسان فلم تنحدر انحدار الكاف إلى الفم وتصعدت إلى مافوقها من الحنك الأعلى ، والدليل على ذلك أنك لوجافيت بين حنكيك فبالغت ثم قلت : قق قق لم تر ذلك مخلا بالقاف ولو فعلته بالكاف وما بعدها من حروف اللسان أخل ذلك بهن ، فهذا يدلك على أن معتمدها على الحنك . الأعلى فلما كانت كذلك أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد وهو الصاد ، لأن الصاد تصعد إلى الحنك الأعلى للاطباق ، فشبهوا هذا بإبدالهم الطاء فى « مصطبر » ، والدال فى « مزدجر » ولم يبالوا مابين السين والقاف من الحواجز ، وذلك لأنها قلبتها على بعد المخرجين ، فكما لم يبالوا بعد المخرجين لم يبالوا مابينهما من الحروف إذا كانت تقوى عليها والمخرجان متفاوتان(١) .

ويؤكد - أيضا - ماذهبنا إليه قول أحد المجودين(٢) :

وأقوى الحروف على الإطلاق الطاء المهملة ، وذلك لأنها اجتمع فيها ست صفات قوية . وليس فيها من الصفات الضعيفة شيء

ومع ذلك نراه يقول بشأن القلقلة : وهى أقوى فى القاف، ثم فى الطاء ، ثم فى الجيم ، ثم فى الباء والدال .

ومما يؤكد هذا شدة التصاق أقصى اللسان بالحنك الأعلى ، الأمر الذى تنطمس معه القاف تماما إذا لم تقلقل - على حد قول الشيخ سيد أبو زيد -(٣) .

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤ / ٤٧٩

(٢) الدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح القارى فى كتابه (قواعد التجويد) ص ٤٥

(٣) شيخ مقرئ بنها من خلال جلسات المناقشة التى أجريتها مع فضيلته .

فلو نطقنا القاف ساكنة دون قلقلة فى مثل « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ »(١) لتجلى لنا ذلك وضاعت معالم الحرف تماما .

أما الطاء فى مثل قوله : « وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ »(٢) فلو نطقناها دون قلقلة لسمع شيء منها ومهما كان خافتا فإنه منبيء عنها .

كيفية القلقلة

لقد اختلف علماء الاداء فى كيفية القلقلة وتمثل ذلك فيما يلى(٣) :

١ — ذهب الجمهور إلى أنها تكون مائلة إلى الفتح مطلقا سواء كان الحرف الذى قبلها مضموما نحو : (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سورة الاعراف ١٤٧) أم مفتوحا نحو (فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) (سورة النساء ١٢٤) أم مكسورا نحو (وَلَا تُشْطِطْ) (سورة ص ١٢٢) قال بعضهم :

وقلقلة ميل إلى الفتح مطلقا ولا تتبعنها بالذى قبل تجملا

٢ — ذهب بعضهم إلى أنها تكون بحسب حركة الحرف الذى قبلها ، فإن كان ماقبلها مضموما فإنها تكون مائلة إلى الضم نحو : « أُدْعُ » ، وإن كان ماقبلها مفتوحا فإنها تكون مائلة إلى الفتح نحو : « أَقْرَبِ »وإن كان

---

(١) سورة غافر ٢٠

(٢) سورة ص ٢٢

(٣) انظر : العميد للشيخ محمود على ص ٤٦ والدرر البهية ص ٣٥ وفتح المريد ٢ / ٣٥ ومختصر فن التجويد ١ / ١٩ والمنار فى علم التجويد للشيخ جلال حمام ص ٦٠ وملخص أحكام التجويد للدكتور شعبان إسماعيل ص ٩٩ والتجويد للشيخ محمد عبد المنعم المسلمى ص ١٠٤

ماقبلها مكسورا فإنها تكون مائلة إلى الكسر نحو : « إقرأ » حتى تتناسب الحركات .

يقول صاحب نهاية القول المفيد :

وقال الشيخ حجازى فى شرحه : وتجب المبالغة فى القلقلة حتى يسمع غيرك نبرة قوية عالية بحيث تشبه الحركة - أى حركة ما قبله - وتتبع الحرف بعد سكونه كما هو كلام الشيخ - حفظه الله - عن الكتب المعتبرة(١)

وفى كتابه « جهد المقل » قال المرعشى : ثم اعلم أن إظهار القلقلة فى الحرف الساكن يشبه تحريكه ، ووضح ذلك فى « بيان جهد المقل حيث قال : قوله يشبه تحريكه » أقول : الظاهر من الامتحان أنه يشبه تحريكه بحركة ماقبله(٢) .

ويقول الشيخ الصادق قمحاوى : وهى تابعة لما قبلها على الراجح(٣) .

٣ - ذهب بعضهم إلى أنها تكون بحسب حركة الحرف الذى بعدها فإن كان مابعدها مضموما فإنها تكون مائلة إلى الضم ، وإن كان ما بعدها مفتوحا فإنها تكون مائلة إلى الفتح ، وإن كان ما بعدها مكسورا فإنها تكون مائلة إلى الكسر حتى تتناسب الحركات . ولا يخفى أن ذلك لايتحقق إلا فى الساكن الموصول فقط دون الموقوف عليه فلا حرف بعده حتى تكون عليه حركة . يقول الشيخ المرصفى معقبا على هذا المذهب : قلت : وإن صح هذا القول فيمكن تطبيقه على الساكن الموصول نحو « يُبْدِى » لأن الساكن الموقوف عليه كحرف الدال فى نحو قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدْ

(١) الشيخ مكى نصر فى نهاية القول المفيد ص ٥٤
(٢) انظر : غانم قدورى : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ٣٦
(٣) البرهان فى تجويد القرآن ص ٦٣

لا يتأتى فيه اتباعه لما بعده لذهاب حركة ما بعده بسبب الوقف عليه فتنبه(١) .

٤ ـ فرق بعضهم بين المفخم والمرقق من حروف القلقلة(٢) .

فالقاف والطاء تميلان إلى الفتح أو الضم لأنهما من حروف التفخيم إذ يخشى عليهما من الترقيق إذا أميل اهتزازهما إلى الكسر أو كان ما قبلهما كسرا فى مثل « إِقْرَأْ » أو « إِطْعَامٍ » أما الباء والجيم والدال فإن اهتزاز كل منهما يستحسن أن يكون مائلا قليلا إلى الكسر عند قلقلتهما لأنهما من حروف الترقيق مثل : « أَحَدٌ » « يُبْصِرُونَ » « يَجْعَلُونَ » .

ومن خلال ماسبق نرى أن مذهب الجمهور وهو الميل إلى الفتح مطلقا ـ دون التفات إلى كون ما قبل الحرف المقلقل أو مابعده مفتوحا أو كان مكسورا أو مضموما ـ هو الأرجح وقد أشار بعضهم(٣) إلى هذا بقوله :

وقلقلة قرب إلى الفتح مطلقا ، ولا تتبعن بما قبل أو بعد تجملا

يقول الشيخ محمود الحصرى ـ رحمه الله ـ

والذى عليه معظم أهل الأداء هو المذهب الاول وهو الذى عليه العمل(٤) . وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يقلقل إلى الفتح ، وقد سماه بعضهم(٥) (مسطرة القراء) .

وقال الشيخ عامر عثمان : وهى أقرب إلى الفتح .

وقال الشيخ محمود على بسه : وهو ماأرى أولوية العمل به(٦) .

---

(١) هداية القارى ص ٨٨

(٢) انظر : قواعد وأحكام تجويد القرآن / محمد سعيد ملحس ص ٤٥

(٣) الشيخ سيد أبو زيد شيخ مقرئ بنها .

(٤) كيف يتلق القرآن ص ٥٢ .

(٥) أحكام قراءة القرآن الكريم ص ٧٣

(٦) العميد ص ٦٥

وقال صاحب فتح المريد : والقول الأشهر أنها تكون أقرب إلى الفتح[1] .

ولا يخفى أن الميل إلى الفتح فيه السلامة من الزلل وبه تتقى الوقوع فى الخطأ فلا نفخم مرققا ولا نرقق مفخما ولهذا اختاره الجمهور .

---

(١) الشيخ عبد الحميد يوسف منصور ٢/٣٥

أقسام القلقلة

قال الدكتور غانم قدورى فى (الدراسات الصوتية)(١) مانصه :

ورد فى بعض كتب علم التجويد المعاصرة تقسيم للقلقلة لم أجد له إشارة فى كتب علم التجويد القديمة ، فإذا كان حرف القلقلة فى آخر الكلمة ووقف عليها كانت القلقلة شديدة جدا وسميت « قلقلة كبرى » وإذا كان الحرف ساكنا وسط الكلمة كانت أخف وسميت « قلقلة صغرى » .

ويقول الشيخ جلال الحنفى(٢) :

أما تقسيم القلقلة إلى صغرى وكبرى وغير ذلك فلا نقره ولا نقر هذا النمط من المصطلحات لعدم وجود أثارة من علم فيها لأنها تؤدى إلى تناقض ظاهر ، فإنهم حين اشترطوا الجهر بالقلقلة تغاضوا عن ذلك فى كثير من مواقع القلقلة مما أطلقوا عليه تسمية « القلقلة الصغرى » فلم يبق لديهم من شواهد القلقلة إلا ماسموه « القلقلة الكبرى » فى حين أن القلقلتين سيان .. ولا نراهم صنعوا ذلك إلا حين تبين لهم شكل المصطلح بمواصفاته الغريبة حين أرادوا تطبيقه على جوانب كبيرة من القلقلة الكائنة فى تضاعيف الألفاظ وفق ما افترضوه من الذيول الصوتية المبالغ فيها .

يقول الشيخ : أما نحن فإننا نرى القلقلة كائنة فى شتى النماذج اللفظية مادامت حروفها ساكنة ، لأنها إن لم تقع فيها القلقلة فإن ذلك يعنى أنها لم ينطق بها ، ولكنها مادامت قد سمعت وفهمت الأسماع معانيها فإنها قد وقعت لها وقائع القلقلة حتما ، غير أن وقائع القلقلة عندنا غيرها عند الآخرين .

---

(١) الدراسات الصوتية ص ٣٠٩ (٢) قواعد التجويد ص ٢٦٧

ولئن كان الباحثان الفاضلان كلاهما لم يجد أى إشارة أو أثارة من علم تدل على هذا التقسيم فلعلنا نجد ذلك فيما يلى :

يقول الدكتور النعيمى(١) :

وذكر بعض المحدثين أن القلقلة نوعان : كبرى وهى التى تكون عند الوقف على الحرف ، وصغرى وهى التى تكون فى أى من هذه الحروف إذا وقع وسطا والملاحظ أن ابن جنى لم يذكر ماعبر عنه بالقلقلة الصغرى ، بل إنه نص على ذهاب الصوت الذى يسمع فى الوقف عند الإدراج (وجميع هذه الحروف التى تسمع معها فى الوقف صوتا متى أدرجتها ووصلتها زال ذلك الصوت)(٢) .

إلا أنه ذكر ما يمكن أن يفهم منه أنه قلقلة صغرى حين قال :

إلا أنك مع ذلك لا تحصر الصوت عندها حصرك إياه مع الهمزة والعين ، فعدم الحصر هذا يستدعى وجود شىء من الصوت وإلا ما فرق بين الإثنين .

وما دام علماء العربية والأداء قد فرقوا بين ظاهرة القلقلة وقفا ووصلا وأن هذا هو مناط التقسيم عند المحدثين فلست أرى فى ذلك من بأس .

يقول صاحب النشر(٣) عن أبى الحسن شريح :

ذهب متأخرو أئمتنا إلى تخصيص القلقلة بالوقف تمسكا بظاهر ماراوه من عبارة المتقدمين أن القلقلة تظهر فى هذه الحروف بالوقف فظنوا أن المراد بالوقف ضد الوصل ، وليس المراد سوى السكون ، فإن المتقدمين يطلقون الوقف على السكون ، وقوى الشبهة فى ذلك كون القلقلة فى الوقف

---

(١) الدارسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى ص ٣٢٢

(٢) سر الصناعة ٧٣/١

(٣) الإمام ابن الجزرى ٣/١ ٣

العرفى أبين وحسبانهم أن القلقلة حركة وليس كذلك فقد قال الخليل :

القلقلة شدة الصياح والقلقلة شدة الصوت

وقال الأستاذ أبو الحسين شريح بن الإمام أبى عبد الله محمد بن شريح رحمه الله فى كتابه (نهاية الإتقان فى تجويد القرآن) لما ذكر أحرف القلقلة الخمسة ، فقال :

وهى متوسطة كباء « الأبْوَاب » وجيم « النَّجْدَيْن » ودال « مَدَدْنَا » وقاف « خَلَقْنَا » وطاء « أطْوَاراً » ، ومتطرفة كباء « لَمْ يَتُبْ » وجيم « لَمْ يَخْرُجْ » ودال « ائذْ » وقاف « من يُشَاقِقْ » وطاء « لا تُشْطِطْ » ، فالقلقلة هنا أبين فى الوقف فى المتطرفة من المتوسطة .

ويعقب ابن الجزرى على ذلك بقوله :

وهو عين ماقاله المبرد ونص فيما قلنا والله أعلم .

وفى معرض حديثه عن القلقلة يقول القسطلانى(١) :

لتقلقل اللسان بها عند سكونها فى الوقف وغيره فتسمع لها نبرة لكنها فى الوقف أبين منها فى الوصل .

ورحم الله صاحب التحفة إذ يقول :

وبينن مقلقـــلا إن سكنا وإن يكن فى الوقف كان أبينا

من هنا فلا عجب حين نرى بعض المحدثين قد قسموا القلقلة إلى :

- صغرى : إذا أتى أحد حروفها ساكنا فى وسط الكلمة مثـــل « خَلَقْنَا » .
- كبرى : إذا أتى أحد حروفها ساكنا فى آخر الكلمة وهذه تنقسم إلى قسمين :
- مخففة : إذا وقفت عليها بالسكون مثل « سَحِيقْ » .

(١) لطائف الإشارات ٢٠٠/١

ـ مثقلة : إذا وقفت عليها وكان الحرف مشددا مثل « الحقّْ » .

وعبر بعضهم عن ذلك بصغيرة وكبيرة وأكبر .

يقول المرصفى فى هداية القارى(١) :

تنقسم القلقلة فى غير المتحرك من حروفها الذى فيه أصل القلقلة ـ فقط ـ ثلاثة أقسام : صغيرة وكبيرة وأكبر .

فالصغيرة : ما كان وجودها فى الساكن الموصول كقاف « يقْدر » :

والكبيرة : ما كانت فى الساكن الموقوف عليه المخفف كدال « السجودْ » .

والأكبر : ما كانت حاصلة فى الساكن الموقوف عليه المشدد كقاف « أشقّْ » .

وما دمنا قد قسمنا الساكن الموقوف عليه من قبل إلى مخفف وهو ما وقف عليه بالسكون ، ومشدد وهو ما وقف عليه بالتشديد ، ففى تصورى أن تقسيم المرصفى أجود .

---

(١) هداية القارى إلى تجويد كلام البارى ص ٨٦

القلقلة وترتيبها في السياق

في تعريف العلماء للقلقلة لوحظ أن منهم من قيدها بشرط لا تتحقق إلا عند وقوعه عبر عنه حينا بالسكون وأحيانا بالوقف، ومنهم من جعلها مطلقة تلزم حروفها ساكنة ومتحركة.

والسؤال: ماذا يريدون بالسكون؟ أهو شيء غير الوقف؟ وإذا كان الوقف مرادا به السكون - هنا - فهل القلقلة لا تتحقق إلا عند سكون الحرف فقط أو تتحقق كذلك أثناء تحريكه؟

ثم كيف ترتب القلقلة في أثناء السياق في ضوء كل هذا؟.

الواقع أن بعض علماء التجويد يرى أن القلقلة لا تكون إلا عند الوقف، هو الذي يفهم من كلام علماء العربية «لأن أخذك في صوت آخر عند الوصل يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتا»(١).

وذهب أكثرهم إلى أنه لا يشترط لحصول القلقلة سوى سكون الحروف المذكورة (سواء وقعت وسطا أو متطرفة) إلا أن ذلك الصوت في الوقف عليهن أبين منه في الوصل بهن(٢).

ويرجح ابن الجزرى المذهب الثاني الذي يذهب أصحابه إلى وجوب قلقلة الحروف الخمسة إذا كانت ساكنة في الوصل والوقف ويستدل بكلام أبي الحسن شريح ت ٣٩. هـ، وذلك حيث قال:

---

(١) انظر سيبويه في الكتاب ٤/١٧٥ والمقتضب ١/٣٣٢ وسر الصناعة ١/٧٣

(٢) الدراسات الصوتية د/ غانم ص ٣٠٧

ذهب متأخرو أئمتنا إلى تخصيص القلقلة بالوقف تمسكا بظاهر ما رأوه من عبارة المتقدمين أن القلقلة تظهر فى هذه الحروف بالوقف فظنوا أن المراد بالوقف ضد الوصل، وليس المراد سوى السكون، فإن المتقدمين يطلقون الوقف على السكون، وقوّى الشبهة فى ذلك كون القلقلة فى الوقف العرفى أبين(١).

ويقول الصفاقسى :

ومن خصها بالوقف دون الوصل فقد وَهِمَ إلا أنها فى حال الوقف أظهر لأن الوقف محل انقطاع النفس وهى شديدة مجهورة تمنع النفس أن يجرى معها فاحتاجت إلى كثرة البيان حتى إنها مع كونها ساكنة تخرج إلى شبه الحركة من قولهم قلقلت الشىء إذا حركته ولولا ذلك لم تتبين(٢).

وفى ضوء ذلك يمكن إجمال ما انتهى إليه العلماء فى رأيين :

أولهما القلقلة لا تتحقق إلا عند الوقف على حروفها وهو رأى كثير من اللغويين والنحاة(٣) والمجددين.

فالمبرد يؤكد هذا ويرى أن حروف القلقلة يسمع فى الوقف عندها نبرة بعدها، لأنها ضغطت عن مواضعها إذ يقول : واعلم أن من الحروف حروفا محصوره فى مواضعها فتسمع عند الوقف على الحرف منها نبرة تتبعه، وهى حروف القلقلة، وإذا تفقدت ذلك وجدته(٤).

وابن جنى يرى هذا - أيضا - ويرى أن هذه الحروف لا يوقف عليها إلا بصويت لشدة حفزها وضغطها ؛ وسماها حروفا مشربة تحفز فى الوقف وتضغط عن موضعها، ويرى أن هذا الصوت يظهره بعض العرب بتصويت

---

(١) النشر ٢٠٣/١

(٢) تنبيه الغافلين ص ٣٨

(٣) انظر. رسالة الدكتور الفخرانى ص ٢٤٠ (التجويد القرآنى).

(٤) المقتضب ٣٣٢/١

أشد . ورأى كذلك أنه يزول فى أثناء الوصل لأن أخذك فى صوت آخر وحرف سوى الأول يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتا(١) .

ورضى الدين الاستراباذى فى أثناء حديثه عن علة تسمية حروف القلقلة بها يقول :

لأنها يصحبها ضغط اللسان فى مخرجها فى الوقف مع شدة الصوت المتصعد من الصدر ، وهذا الضغط يمنع خروج ذلك الصوت ، فإذا أردت بيانها للمخاطب احتجت إلى قلقلة اللسان وتحريكه عن موضعه حتى يخرج صوتها فيسمع ، وبعض العرب أشد تصويتا كأنهم الذين يرومون الحركة فى الوقف(٢) .

كما جاء فى شرح المفصل :

والقلقلة ماتحس به إذا وقفت عليها من شدة الصوت المتصعد من الصدر مع الحفز والضغط ، وهى حروف تخفى فى الوقف وتضغط فى مواضعها فيسمع عند الوقف على الحرف منها نبرة تتبعه(٣) .

ومن المجودين يقول الدانى :

ومن الحروف حروف مشربة ضغطت عن مواضعها فإذا وقفت عليها خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن مواضعه ، وهى خمسة أحرف يجمعها قولك : (جد بطق) القاف ، والجيم ، والطاء ، والدال ، والباء ، وتسمى هذه الحروف حروف القلقلة ، لأنه إذا وقف عليها لم يستطع أن يوقف دون الصويت وذلك قولهم الحق وقط وشبهه(٤).

ويقول صاحب الرعاية :

وإنما سميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن وإرادة

---

(١) سر الصناعة ٧٣/١ (٢) شرح الشافية ٢٦٣/٣

(٣) شرح المفصل ١٢٨/١٠

(٤) التحديد الدانى ص ١١١

إتمام النطق بهن، فذلك الصوت فى الوقف عليهن أبين منه فى الوصل بهن(١) وكرر مكى لفظ «الوقف» أكثر من مرة(٢).

ومن المجودين المحدثين يقول الشيخ على صبره ت ١٣٦٨ هـ فى تعريفه للقلقلة:

اضطراب الحرف عند النطق به ساكنا مائلا إلى الفتح حتى يسمع له نبرة قوية(٣).

ويعرفها الدكتور شعبان إسماعيل بأنها: قوة إضطراب صوت الحرف الساكن فى مخرجه ليظهر ظهورا كاملا(٤).

الثانى: القلقلة تلزم حروفها وتتحقق فيها ساكنة ومتحركة.

يقول صاحب نهاية القول المفيد:

والحاصل أن القلقلة صفة لازمة لهذه الأحرف الخمسة لكنها فى الموقوف عليه أقوى منها فى الساكن الذى لم يوقف عليه، وفى المتحرك قلقلة - أيضا - لكنها أقل فيه من الساكن الذى لم يوقف عليه، لأن تعريف القلقلة باجتماع الشدة والجهر - كما فى المرعشى - يشير إلى أن حروف القلقلة لا تنفك عن القلقلة عند تحركها وإن لم تكن القلقلة عند تحركها ظاهرة، كما أن حرفى الغنة وهما «النون والميم» لا يخلوان عن الغنة عند تحركهما وإن لم تظهر(٥) فكما أن الغنة صفة مركبة كامنة فى جسم النون والميم وهى أصل فى المتحركتين فكذلك القلقلة. ويقول صاحب كتاب العميد وهو يبين القلقلة:

---

(١) الرعاية لمكى بن أبى طالب ص ١٢٤

(٢) نفسه ص ١٢٥

(٣) العقد الفريد فى فن التجويد ص ٤٦

(٤) ملخص أحكام التجويد ص ٩٧

(٥) الشيخ مكى نصر فى نهاية القول المفيد ص ٥٥

اضطراب اللسان عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية خصوصا إذا كان ساكنا(١) .

ولعلك معى فى أن كلمة « خصوصا » هنا تعنى أن فى المتحرك ـ أيضا ـ قلقلة لكنها دون الساكن .

وبعد أن يسوق صاحب هداية القارىء(٢) ، الأمثلة على القلقلة فى الساكن بأنواعه يقول :

ثم اعلم أن القلقلة لم تكن قاصرة على ما تقدم من كونها فى الساكن بأنواعه المتقدمة بل فى المتحرك من حروفها قلقلة كذلك لأنها لا تنفك عنها ساكنة كانت أو متحركة .

ويرتب الشيخ الصادق قمحاوى القلقلة حسب سياقها فيجعل آخرها قلقلة المتحرك(٣) .

وهناك بعض اللغويين عند تعرضه للقلقلة لم يقيده بوقف أو بغيره .

يقول السكاكى بعد أن عرف المجهور بانحصار النفس فى مخرج الحرف والشديد بتمام هذا الانحصار ، يقول : وإذا تبع تمام الإنحصار حفز وضغط سميت حروف القلقلة(٤) .

وعلى الرغم من كثرة القائلين بالرأى الأول من لغويين ومجودين إلا أنى أجدنى مطمئنا إلى الرأى الثانى وأن القلقلة ـ فيما يبدو لى ـ صفة ملازمة لحروفها ساكنة ومتحركة لا تنفك عنها ، غاية ما فى الأمر أنها ناقصة فى المحرك الذى لا يوجد فيه إلا أصلها ، فالقلقلة فى هذه الحروف ـ كما أشرنا من قبل ـ أشبه ما تكون بالغنة فى النون والميم التى تكمل فى بعض أحوالها

---

(٢) الشيخ محمود على بسه ص ٦٤ (٣) الشيخ المرصفى ص ٨٥ ، ٨٦
(٤) البرهان فى تجويد القرآن ص ٢٢
(٥) السكاكى (مفتاح العلوم ص ٥) وانظر رسالة الفخرانى ص ٢٤٠

وتضعف فى المظهر والمتحرك منهما ، إذ لا يوجد فيها حين الإظهار والتحريك إلا أصل الغنة(١) .

والذى يؤكد هذا أنهم يشيرون دائما إلى حاجتها إلى البيان حين تكون حروفها ساكنة ، وإلى شدة البيان حين يكون الساكن مشددا موقوفا عليه . قال الإمام ابن الجزرى رحمه الله :

وبين مقلقلا إن سكنا وإن يكن فى الوقف كان أبينا(٢)

بينما هى فى المتحركة لا تحتاج إلى بيان ، ذلك أن حركتها - أيا كانت فتحة أو كسرة أو ضمة - مجهورة إذ الحركات (صوائت) والصوائت - كما نعرف - كلها مجهورة .

ولو أننا جربنا نطق القاف المتحركة فى مثل « قال » لوجدنا أنه عند إلتصاق أصل اللسان بما يليه من سقف الحنك الأعلى فإنا نحتاج إلى بعض القلقلة لفك هذا الالتصاق ولبيان الحركة ، وبهذا تظهر ماهية الحرف ، وإن كان هذا الالتصاق ليس كـكمال الاحتباس للنفس والصوت فى الحرف الساكن ، ولأن هذا يتم بصورة طبيعية لم يُنَبَّه عليه وكان تعبيرهم دائما بصفة البيان .

ومادام الحرف بيِّناً بطبيعته فلا يحتاج لتكلُّف صفة والتنبيه إليها كما تكلفنا صفة القلقلة فى الساكن وشددنا لفت النظر إليه مما جعل همّ أهل الاداء منصرفا إلى القلقلة فى السواكن فقط .

فالقضية - إذن - قضية بيان ووضوح ، يقول ابن الجزرى :

فذلك الصوت فى سكونهن أبين منه فى حركتهن وهن فى الوقف أمكن(٣) .

---

(١) انظر : العميد للشيخ محمود على بسه ص ٦٤

(٢) انظر : البرهان فى تجويد القرآن للشيخ الصادق قمحاوى ص ٢٣

(٣) النشر ٢٠٢/١

وما أراه يصد بالحركة ـ هنا ـ إلا الحركة المقابلة للسكون .

ويفبنى على ذلك أن القلقلة ـ فى تصورى ـ جزء من طبيعة الحرف لا تظهر ماهيته إلا بها ، وينطمس جوهر الحروف بدونهما ، ولذلك فهى تلازمه لا تنفك عنه وإن لم تكن واضحة فى المحرك غير أنها تظهر فى الساكن ويشتد ظهورها فى الموقوف عليه ـ ولا سيما إذا كان مشددا .

ولعلنا لو نطقنا « وَاللهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ » دون قلقلة القاف لتبين لنا ذلك .

ونخلص من كل ما سبق إلى أن القلقلة فى سياقها أثناء الكلام ليست على درجة واحدة وإنما تتفاوت وضوحا وخفاء ، يقول صاحب المنح الفكرية :

وأقوى درجات هذه الصفة فى الساكن إذا وقفت ، وهى مختفية فى المتحرك ضمن الحركة(٢) .

ويقول الصادق قمحاوى :

وقيل أعلاها : المشدد الموقوف عليه ، ثم الساكن فى الوقف ، ثم الساكن وصلا ، ثم المتحرك ، ويجب بيانها فى حالة الوقف أكثر من حالة الوصل خاصة إذا كان الحرف الموقوف عليه مشددا مثل « الحقّ »(٢)

وبهذا يتبين أن مراتب القلقلة أربع وهى على النحو التالى (٣) :

الأولى : الساكن الموقوف عليه المشدد نحو « محيطْ » ، « لم يلدْ »

(١) المنح الفكرية لملا على بن سلطان محمد القارى ص ٢٨

(٢) البرهان فى تجويد القرآن ص ٢٢

(٣) هداية القارى إلى تجويد كلام البارى للشيخ عبد الفتاح المرصفى ص ٨٦.

الثانية : الساكن الموقوف عليه المخفف نحو « بالحقّْ » .

الثالثة : الساكن الموصول وهو المعروف بالأصلى نحو « يجْمع »

الرابعة : المتحرك مطلقا كالطاء والباء من نحو « طَبَعَ »

فالقلقلة فى الساكن المشدد الموقوف عليه أقوى منها فى الساكن المخفف الموقوف عليه ، وفى الساكن المخفف الموقوف عليه أقوى منها فى الساكن الموصول ، وفى الساكن الموصول أقوى منها فى المتحرك الذى فيه أصل القلقله فقط وإن لم تكن ظاهرة .

هل أنكر القلقلة أحد؟

يقول أبو الحسن الصفاقسي في كتابه(١) :

وقد أنكر بعض من ورد علينا القلقلة ولا عبرة بإنكاره فقد تظافرت النصوص عليها، وأجمع على ذلك علماء القراءة والعربية ، وبها قرأنا على جميع شيوخنا المغاربة والمشارقة، وسمعناها ممن لا يحصى وبه نأخذ ، وبه نقرىء، وهو الحق الذى لاشك فيه والله أعلم .

ونحن مع الشيخ جلال الحنفى فيما ذهب إليه إذ يقول(٢) :

والذى نحسبه من أمر هذا الذى أنكر عليهم القلقلة أنه استبشع شكلها عندهم أو عند مقرئى جيله، وإنما هو إنكار للمبالغة فى صوت القلقلة وطريقة التعبير عنها بحيث تكون خارجة على آد ب اللياقة فى التلاوة ، ولا نرى المراد إنكار قانون القلقلة فى اللغة حين ينحبس النفس عند خروجها انحباسا جبليا فلا ينطق به إلا بخفق صوتى يسير قد يسمع وقد لا يسمع .

يقول الشيخ جلال(٣) :

وقد كتب إلى الدكتور التهامى نقرة فى رسالته من تونس رداً على رسالة كنت وجهتها إليه من بغداد، ومما جاء فى رسالته تلك : ولكن بعض المقرئين يبالغون فى قلقلة بعض الحروف وهو ماينافى والذوق لأن القلقلة فى حروف الدال - مثلا - إذا بولغ فيها تبدو وكأنها تجشؤ مثل : (مَجِيدْ) وهو ماينبغى أن يتحاشاه المقرىء فى القلقلة ذات الصوت الانفجارى .

---

(١) تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين ص ٣٨

(٢) قواعد التجويد ص ٢٦٦

(٣) السابق نفسه ص ٢٦٧

ومن الخطأ الذى يقع فيه بعض القراء : المبالغة فى القلقلة بحيث يتولد من الحرف الساكن حرف آخر ، وهذا التصويت المبالغ فيه غير مطلوب ، وإنما هو من بعض اللهجات القبائلية أوالتكوينات القموية التى يكون نطقها للحروف ذا غلظة ، وهذا مما لا يقاس عيه(١) .

وقد أشار إلى ذلك ابن جنى فى كتابه (سر الصناعة) يقول : « وبعض العرب أشد تصويتا » وهو يعنى أن هذا من الأخطاء التى لا يجوز تقليدها .

والأولى النطق بالحرف على غير هيئة التشديد الذى أسموه « بالإنفجار الصوتى » أو « النبرة القوية » الذى يؤدى إلى خلخله فى الصوت وبشاعة فى النطق مما تنزه عنه اللغة العربية ذات الجرس اللفظى المتزن .

ومن الخطأ كذلك مايقع من بعض القراء من كسر حروف القلقلة بدل تسكينها مثل قولهم « سُبِحَانَ » بدل « سُبْحَانَ » « وقدِ كان » بدل « قَدْ كان » (٢) .

وهو مانفاه كذلك صراحة(٣) البغدادى حيث يذهب إلى أن الصوت الطبيعى للقلقلة هو ماحددناه بحيث لا يتولد منه حرف جديد ولا يميل السكون فيه - أى السكون الذى على الحرف المقلقل - إلى حركة مهما كانت من الخفة والاختلاس سواء أكان سكون القلقلة سكون بناء أم كان سكون وقف . كما يفعل بعض من يلفظون « سُبْحَانَ » إذ يلفظون الباء فيها مضمومة ظنا منهم أن ذلك من طبيعة القلقله وهو حتما بعض الظن المنهى عنه .

---

(١) نظرات فى علم التجويد للكلاك ص ٩١

(٢) نفسه ص ٩٢

(٣) الشيخ جلال الحنفى ص ٢٦٢ وانظر : آليات النطق د/ التونى ص ١١٦

وفى موضع آخر(١) ينفى أن تكون القلقلة تحريكا للحرف فيقول : إن بعض الناطقين بحروف القلقلة يتعمدون تحريكه ظنا منهم أن ذلك هو مفهوم القلقلة ، وهو ظن غير صحيح لا سيما حين يأخذ اللفظ فى حالة تحريك ساكنه معنى غير مقصود كنطق من يلفظ (يَدْعُون) الساكنة الدال بدال مفتوحة فيقول (يَدَعُون) يحسب ذلك هو القلقلة .

وغاية ما ننتهى إليه :

أن القلقلة ليست ترفا تجويديا أو تجميلا للصوت ، وإنما هى أصل من أصول القراءة ، ومن الصفات الجوهرية التى بانعدامها أو عدم الإلتزام بها على حقيقتها تنطمس معالم حروفها ، مما يؤدى إلى تغير فى المعنى وخلل فى البنية الصرفية للكلمة . بينما تلاوة القرآن الكريم جزء منه لا ينفصم ؛ وأى تقصير فيها أو انحراف بها عن الصورة الصحيحة التى تلقاها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل ـ عليه السلام ـ تقصير فى جنب الله ، وحاشا للمسلم أن يقبل هذا .

« إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » (سورة القيامة ١٧ ـ ١٩) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؟

---

(١) قواعد التجويد ص ٤٧٠

أهم مراجع البحث

* القرآن الكريم :

١ ــ أحكام تجويد القرآن الكريم فى ضوء علم الأصوات الحديث د/ عبد الله سويد ط ٢

٢ ــ أحكام قراءة القرآن الكريم للشيخ محمود خليل الحصرى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (دراسات اسلامية-١١٤)

٣ ــ أسس علم اللغة ـ ماريوباى ترجمة د/ أحمد مختار عمر منشورات جامعة طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٣ م .

٤ ــ الأصوات اللغوية د / إبراهيم أنيس ط ٣ـ دار النهضة العربية ١٩٦١ م .

٥ ــ أصوات اللغة د/ عبد الرحمن أيوب ط ١ ـ دار التأليف بالقاهرة ١٩٦٣ م .

٦ ــ أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار هلال ـ ط ٢ مطبعة الجبلاوى ١٩٨٨ م .

٧ ــ أصوات القرآن الكريم منهج دراستها عند المرعشى د/ أبو السعود الفخرانى ـ ط ١ مطبعة الأمانة ١٩٩١ م .

٨ ــ آليات النطق عند علماء التجويد د / مصطفى التونى ـ ط ١ دار النهضة العربية .

٩ ـــ الإيضاح فى شرح المفصل لابن الحاجب تحقيق د / موسى العلى مطبعة العانى ـ بغداد ١٩٨٣ (طبعة وزارة الأوقاف) .

١٠ ـــ البرهان فى تجويد القرآن للشيخ محمد الصادق قمحاوى ط ١ مكتبة الجامعة الأزهرية ١٩٧١ م

١١ ـــ التحديد فى الإتقان والتجويد للدانى تحقيق د / غانم قدورى حمد ط ١ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٨ م .

١٢ ـــ التجويد والأصوات د / ابراهيم محمد نجا ـ مطبعة السعادة .

١٣ ـــ التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث د / أبو السعود الفخرانى (رسالة دكتوراه) مخطوط رقم ٣٢٩ كلية اللغة العربية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

١٤ ـــ التجويد للشيخ محمد عبد المنعم المسلمى ط جماعة أنصار السنة المحمدية .

١٥ ـــ التطور النحوى للغة العربية / برجستراسر ط المركز العربى للبحث والنشر ١٩٨١ عن طبعة محمد حمدى البكرى ١٩٢٩ م .

١٦ ـــ التطور النحوى للغة العربية برجستراسر تحقيق / رمضان عبد التواب ـ مكتبة الخانجى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

١٧ ـــ التمهيد فى علم التجويد لابن الجزرى ط ١ ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م

١٨ ـــ تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين للنورى الصفاقسى ط ١ مكتبة الثقافة العربية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

١٩ ـــ حرز الأمانى ووجه التهانى للإمام الشاطبى مراجعة على محمد الضباع ط مصطفى الحلبى .

٢٠ ــ دراسة الصوت اللغوى د / أحمد مختار عمر ط ١ عالم الكتب ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

٢١ ــ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د / غانم قدورى حمد ط ١ وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق ١٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٢٢ ــ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنى د / حسام النعيمى ط وزارة الثقافة والإعلام العراقية .

٢٣ ــ دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية د / عبد الحميد أبو سكين ـ مطبعة الأمانة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ .

٢٤ ــ الدرر البهية شرح المقدمة الجزرية فى علم التجويد ـ أسامة ابن عبد الوهاب ـ مكتبة الإيمان .

٢٥ ــ الرعاية لتجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة ـ مكى بن أبى طالب تحقيق د / أحمد فرحات دار عمار بالأردن ط٢ ـ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م

٢٦ ــ سر صناعة الإعراب لابن جنى تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط الحلبى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م .

٢٧ ــ سراج القارىء المبتدىء وتذكار القارىء المنتهى لابن القاصح ط الثقافية ـ بيروت .

٢٨ ــ شرح شافية ابن الحاجب لرضى الدين الاستراباذى تحقيق محمد نور الحسن وآخرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٩ ــ شرح المفصل لابن يعيش ـ إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٣٠ ــ العقد الفريد فى فن التجويد للشيخ على بن أحمد صبره تحقيق د / شعبان اسماعيل ـ المكتبة الأزهرية للتراث .

٣١ ــ علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ا. شاده .

٣٢ ــ علم التجويد القرآنى فى ضوء الدراسات الصوتية الحديثة د/ عبد العزيز علام ط ١ - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

٣٣ ــ علم اللغة العام (الأصوات) د/كمال بشر ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .

٣٤ ــ علم اللغة مقدمة للقارىء العربى د / محمود السعران دار المعارف بمصر ـ فرع الاسكندرية ١٩٦٢ م

٣٥ ــ العميد فى علم التجويد للشيخ محمود على بسه شرح الشيخ محمد الصادق قمحاوى ـ الكليات الأزهرية .

٣٦ ــ العين للخليل بن أحمد الفراهيدى : تحقيق د / عبد الله درويش ج ١ مطبعة العانى ـ بغداد ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

٣٧ ــ غنية المريد لمعرفة الإتقان والتجويد لابن مفلح القلقيلى مخطوط ١٣٩٣ - ٥٣٠٣٥ قراءات مكتبة الأزهر .

٣٨ ــ فتح المريد فى علم التجويد للشيخ عبد الحميد يوسف منصور ـ دار الدعوة ـ الاسكندرية .

٣٩ ــ فن الإلقاء ـ عبد الوارث عسر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤٠ ــ قواعد التجويد والإلقاء الصوتى للشيخ جلال الحنفى البغدادى ط وزارة الاوقاف العراقية ـ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٤١ ــ قواعد التجويد د / عبد العزيز بن عبد الفتاح القارى .

٤٢ ــ قواعد وأحكام تجويد القرآن محمد سعيد ملحس ط. :دار الإسراء

٤٣ ـ الكتاب لسيبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥-١٩٧٥ .

٤٤ ـ كيف يتلق القرآن للشيخ عامر بن السيد عثمان .

٤٥ ـ كيف نجود القرآن ونرتله ترتيلا ـ محمد عبد العزيز الهلاوى مكتبة الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٠ م .

٤٦ ـ لسان العرب لابن منظور ط ١ بولاق .

٤٧ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات للشهاب القسطلانى تحقيق الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

٤٨ ـ مختصر فن التجويد للشيخ ماهر محمود عامر ط الشارقة .

٤٩ ـ مفتاح العلوم للسكاكى المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ

٥٠ ـ المقتضب للمبرد ـ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦ هـ .

٥١ ـ ملخص أحكام التجويد د / شعبان إسماعيل ط ١ مكتبة نصير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ .

٥٢ ـ المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية لملا على بن سلطان محمد القارى ط مصطفى الحلبي .

٥٣ ـ المنار فى علم التجويد للشيخ جلال حمام ط ١ دبى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

٥٤ ـ النشر فى القراءات العشر للإمام ابن الجزرى دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٥٥ ـ نظرات فى علم التجويد ـ ادريس الكلاك ط ١ اللجنة الوطنية بغداد ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٥٦ ـ نهاية القول المفيد فى علم التجويد للشيخ محمد مكى نصر ـ ط مصطفى الحلبى .

٥٧ ـ هداية القارىء إلى تجويد كلام البارى للشيخ عبد الفتاح المرصفى ط ١ (بن لادن ـ السعودية) ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٣ م .

آلية النطق (١)

في ضوء الفكر الصوتي عند العرب

«دراسة وصفية»

بقلم الدكتور

عبد المنعم عبد الله محمد

الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة

بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

توطئة :

الحمد لله رب العالمين، كرّم الإنسان بآليات النطق ووسائل البيان، « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ »(٢) .

وأصلي وأسلم وأبارك على أفصح العرب والعجم، وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين . . . وبعـــد :

(١) ورد لفظ (الآلة) في معاجم العربية مراداً به الأداة ، والحالة، والجهاز الذي يؤدي عملا بتحويل القوى المحركة المختلفة إلى قوى آلية والجمع آل ، وآلات ، أما (الآلي) فهو ما يصدر تلقائيا عن الجسم ، ينظر الوسيط ١ / ٣٤ والمقصود (بآلية النطق) في هذه الدراسة «كيفية قيام أعضاء النطق بوظيفتها في تشكيل الأصوات » .

(٢) البلد ٨ - ٩

فإن آلات النطق هبة الله للإنسان ، أنشأ بها لغة للتواصل محققاً أغراضه بما يعينه على الحياة، ومن ثم أصبح لآلية النطق أثرها على حياة الإنسان. مما جعلها موضع عناية لدى اللغويين ، وعلماء النفس وأمراض الكلام .

وقد عنى تراثنا اللغوى بهذه الآلية فى ضوء ما حواه من إشارات متناثرة على امتداد مناحيه الفكرية كلما اقتضت المعالجة اللغوية ذلك ، وعلى الرغم من كثرة هذه الإشارات عن كيفية النطق ظلت وظائف الأعضاء النطقية بين ثنايا تراثنا تحتاج إلى تجلية وبيان ؛ إذ لم تستقل بين ثنايا المد اللغوى بتنظير يجمع أطرها ، ويحلل جزئياتها ويبرز موقعها بين ربوع الدرس اللغوى إلا على يد ابن سينا فى رسالته « أسباب حدوث الحرف ». مما سوغ لبعض المحدثين نسبة القصور للقدامى فى فهم بعض الحقائق الصوتية لجهلهم بدور بعض آلات النطق ، كالحنجرة والوترين الصوتيين ، والقصبة الهوائية . . . . الخ .

ومن هنا انبثقت رغبتى فى طرح معطيات آلية النطق فى تراثنا الصوتى، مبينا وجه الحق فى ذلك ومستهدفا ما يلى :

١ ــ الهدف الأول : ـ

عرض ملامح النظرية العامة لآلية النطق فى تراثنا الصوتى حتى تبدو متكاملة البنيان بعد لم شتاتها وجمع متفرقها من بين ثناياه .

٢ ــ الهدف الثانى :

استجلاء مدى إلمام القدامى بطبيعة كل عضو من أعضاء النطق ، ووظائفه الصوتية ومدى ما يتمتع به من مرونة وطواعية فى ضوء تكوينه .

٣ ــ الهدف الثالث :

بيان فقه الربط بين آلية النطق والسمات التمييزية للأصوات فى الفكر الصوتى العربى ومدى توافق معطياته مع المنظور الصوتى الحديث .

وقد عرض لآلية النطق كثير من الباحثين ، بيد أن الأهداف السابقة متضافرة لم تكن وراء مناهجهم المتنوعة . إذ عنى بعضهم بمعالجة هذه القضية فى ضوء معطيات الدرس الصوتى المعملى الحديث دون إعتداد لائق بملامح الفكر الصوتى العربى فى هذا الباب إلا لماما ، ومنهم من لم يعرض لتلك الملامح - غالبا - إلا فى مواضع الاختلاف مع معطيات المنظور الحديث ومنهم من لم يعرض لها إلا فى مواضع الاتفاق فقط حالة عرضه لنظرية المخارج أو الصفات .

ومن ثم أفسحت هذه الدراسة لمحتواها موضع قدم بين الدارسين فى ضوء ما توخته من أهداف ومنهج عكف على إشارات التراث جمعا وتحليلا واستنتاجا وموازنة تحقيقا لغاياته وأهدافه عارضا ذلك فى ظـل المحاور الآتية :-

١ ــ أهمية آلية النطق .

٢ ــ الجهاز النطق فى ضوء التراث واعتمد على الجانب الوصفى التشريحى .

٣ ــ آلية المخارج والألقاب ، واعتمدت على جانبين .

(ا) الجانب النظرى . (ب) الجانب التجزيبى

٤ ــ آلية الصفـات .

٥ ــ آلية النطق فى ضوء المعالجات اللغوية .

(ا) فى ضوء التجاور الصوتى للبنية اللغوية .

(ب) فى ضوء علم القراءات والتجويد .

٦ ــ تعقيب حول فقه القدامى لآلية النطق .

والله من وراء القصـــد

(١) أهمية آلية النطق

لدراسة آلية النطق أثرها على الدرس الصوتى ، ولذا كانت ركناً له أهميته البالغة فى الدراسة الفوناتيكية للصوت مما جعلها تشكل فرعا مستقلا بذاته بين فروع الدراسات اللغوية هو علم الأصوات النطقى(١) ، تدور مباحثه فى فلك الناحية الفسيولوجية لبيان وظائف أعضاء النطق وكيفية إنتاجها للأصوات لدى المتكلم »(٢) .

ولا يخفى أن تحليل ميكانيكية النطق يلعب دوراً فى تعليل الصفات الصوتية للفونيمات من جانب والملامح الفيزيائية من جانب آخر .

وعلى هذا فالترابط بين كيفية إنتاج الصوت وصفاته وخصائصه جد وثيق ، وليس أدل على ذلك مثلا من صفات الجهر والهمس ، والشدة ، والرخاوة ، والاستعلاء . . . . . الخ .

إذ يولد الجهر فى ظل ملمح آلى فسيولوجى يكمن فى الأوتار الصوتية نتيجة اقترابها بصورة ما(٣) ، واصطدام الهواء المنبعث من الرئتين بها ، وإحداث ما يُسمّى بالذبذبة الصوتيه التى هى وراء الجهر .

---

(١) أو الإنتاجى أو الفسيولوجى ، ينظر : علم اللغة العام أسسه ومناهجه د / عبد الله ربيع ص ١٥٣ ، ط ١ سنة ١٩٩٤ م

(٢) الأصوات العربية ؛ د / بشر ١٥

(٣) هناك نظرية أخرى لتفسير الجهر للعالم الفرنسى هاسون أطلق عليها (النظرية العصبية العضلية) وهى تفترض « أن الهواء لا يقوم بفتح الوترين الصوتيين وليس له أى دور محرك لهما ، بل إن الأمر على عكس ذلك تماما ، =

كما أن الشدة تنبثق - أيضا - من معين آلية النطق فى ضوء إغلاق الممر الصوتى إغلاقا كاملا ، وحبس الهواء خلف المخرج ، أو إلتقاء عضوى النطق فى هذا الموضع ، ثم تأتى آلية الانفتاح للمجرى الصوتى إتماماً لصورة الزفير بما يُضفى على الصوت صفة الانفجار .

أما ما ينشأ عن ارتفاع جزء معين من اللسان بصورة معينة عبر التجويف الفموى فهو صفة الاستعلاء ونقيض ذلك وراء صفة الاستفال فى أصوات أخرى .

ومن هنا تبدو أهمية الملامح الفسيولوجية واضحة فى تشخيص الصفات الصوتية وبيان أسرارها وعللها .

ولم يكن التأثير لآلية النطق هذه مقصورا - كما ألمحنا - على تشخيص الصفات بل انعكس أثره على الملامح الفيزيائية للوحدات الصوتية .

ولا غرو فى ذلك ، فالعلائق وثيقة بين آلية النطق للصوت وملامحه الأكوستيكية ، إذ إن « المظهر الفيزيائى للصوت اللغوى يعتمد على مقابله الفسيولوجى ، فذبذبات الصوت ونغماته ومكوناته ، وعناصره إنما نشأت عن تحركات أعضاء النطق، بوجه عام(١) هذا من زاوية ، كما أنهما معا يمثلان لب الدراسة الفوناتيكية من زاوية أخرى .

وقد فطن علماؤنا القدامى إلى هذا الربط بين الجانب الآلى ، وما ينجم عنه من خصائص نطقية وسمات فيزيائية للصوت ، وليس أدل على ذلك من تحديدهم لبعض هذه الخصائص بما يؤكد مانهدف إليه ، إذ يقررون

= فاهتزاز الوترين الصوتيين هو الذى يقوم بالتدخل وتعديل تيار الهواء فى أثناء الجهر » ينظر دراسة السمع والكلام . د / سعد مصلوح ١٣٢ : ١٣٤ (نظريات حول تفسير الجهر) بتصرف .

(١) علم الصوتيات : د / عبد الله ربيع ، د / عبد العزيز علام ١٤٠ بتصرف - المكتبة التوفيقية ط ١ سنة ١٩٧٩ م .

ـ مثلا ـ أن المجهور « حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت(١) .

ولا يخفى أن إشباع الاعتماد ، والموضع ، ومنع النفس ، وجرى الصوت ، كل ذلك إشارات فسيولوجية تبرز أثر آلية النطق فى تكوين هذه الصفة .

وفى تحديدهم لماهية الشديد يرون أنه « هو الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه(٢) كما يلحظون فى الهاوى ميكانيكية إصداره بما يتواءم مع طبيعة المصطلح فيقررون أنه « حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو ، لأنك قد تضم شفتيك فى الواو وترفع فى الياء لسانك قبل الحنك(٣) وأبرز ما يتحقق فيه هذا الوصف صوت الألف .

ومن الملامح الفيزيائية المرتبطة بآلية النطق ما قرره ابن سينا عن الطبيعة الفيزيائية للألف فى ضوء كيفية تكوينها ، فيقول : وأما الألف المصوتة وأختها الفتحة فأظن أن مخرجها مع إطلاق الهواء سلسا غير مزاحم(٤) ، إذ إن الوصف (بالمصوتة) للألف وبيان حالة الهواء السلسة ، وهيئة المخرج التى أعانت على ذلك يعد ربطا بين آلية النطق وفيزيائية الصوت ، ومن الأمارات الدالة على ذلك ما ينجم عن اهتزاز الوترين الصوتيين من ذبذبات(٥) تصاحب الجرس الناتج عن عملية تشكيل الصامت فى الممر الصوتى .

---

(١) الكتاب ٤ / ٤٣٤ ، سر صناعة الإعراب ١ / ٦٩ ، سر الفصاحة ٢٠

(٢) الكتاب ٤ / ٤٣٤ ، سر صناعة الإعراب ٦٩/١ ـ ٧٠ ، سر الفصاحة ٢٠

(٣) الكتاب ٤ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦ وينظر العين ١ / ٥٧ ـ ٥٨

(٤) أسباب حدوث الحروف : ابن سينا ٨٤ ، وينظر : فى الأصوات اللغوية (دراسة فى أصوات المد العربية) د / غالب المطلبى ٩٣

(٥) التجويد والأصوات : د/ نجا ٧٢ : ٧٣ ، اللغة العربية (خصائها وسماتها) د / عبد الغفار هلال ١٥٥ : ١٥٧ ، دراسات صوتية : د / تغريد عنبر ٩٦٣

وقد أشارت الدراسات الصوتية القديمة إلى هذا الجانب وليس حديث ابن سينا فى الفصل الثانى من رسالته(١) إلا من قبيل الربط بين الجانبين النطقى والفيزيائى .

ومن تقريراته فى هـذا الميدان قوله : أما نفس التموج فإنه يفعل الصوت ، وأما حال المتموج فى نفسه من اتصال أجزائه وتملسها ، أو تشظيها وتشذ بهـا فيفعل الحدة والثقل ، أما الحدة فيفعلها الأولان ، وأما الثقل فيفعله الثانيان ، وأما حال المتموج من جهة الهيئات التى يستفيدها من المخارج والمحابس فى مسلكه فيفعل الحرف » وتلك إشارة إلى أثر الأوتار من الناحية الفيزيائية فى تشكيل الصوت وأثر المخارج فى تكوين الحرف ، الذى حده ابن سينا بأنه « هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله فى الحدة والثقل تميزاً فى المسموع » ، ثم يلقى الضوء على كيفية تشكيل الحرف فى ضوء مايحدث فى المجرى الصوتى من حبس تام أو غير تام للهواء الفاعل الصوت وما يتبعه من إطلاق ، فيقول :

« والحروف بعضها فى الحقيقة مفردة ، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو الهواء الفاعل للصوت ، يتبعها إطلاق دفعة ، وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن تتبع إطلاقات » ثم يسرد الحروف المفردة ، ويشير إلى أن ماعداها مركبة ثم يقرر أنها قد تختلف بسبب اختلاف الأجرام التى يقع عندها وبها الحبس والإطلاق(٢) .

وهكذا لم تغفل الدراسات الصوتية القديمة محور الآلية النطقية بل

---

(١) أسباب حدوث الحروف : ابن سينا ٥٩ - ٦٣ الفصل الثانى ، فى سبب حدوث الحرف .

(٢) السابق ٦٠ - ٦٢ تحقيق محمد حسان الطيان ، يحيى مير علم ، مراجعة د/ شاكر الفحام ط ١ / ١٩٨٣ م - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق .

اعتبرتها أساسا لكيانها ، ولا غرو فقد كانت قطب الرحى فى تفسير وتعليل جل الخصائص والسمات للصوت اللغوى .

وقد بدت معالم تلك الجوانب المنوطة بدائرتى الخصائص والصفات المكونة لمنظومة الفونيمات العربية على هدى من معطيات آليات النطق والتصويت كما سيتجلى على بساط البحث .

* * *

(٢) الجهاز النطقى(١) فى ضوء التراث

أدرك علماؤنا القدامى أهمية آلية النطق فى العملية الكلامية ، ومن ثم كانت عنايتهم باللغة بوصف بعض آلات النطق والتصويت ، وقد ورد هذا الوصف بين ثنايا تراثنا اللغوى(٢) فى المصنفات النحوية والصرفية والصوتية بالإشارة إلى مؤلفات علم الأداء القرآنى والتجويد ، وكذلك مصادر القراءات القرآنية .

ولا يخفى أن التعلق بآلية النطق فى تلك المصادر استهدف فى المقام الأول استجلاء خصائص الأصوات وصفاتها فى ضوء فعاليات أعضاء النطق وحركتها الفسيولوجية ، وقد اتفقت النظرة لأعضاء النطق وحصرها فى بيان السمات والخصائص الصوتية ومحاولة فلسفتها فى ضوء معطياته وتقنياته لدى القدامى والمحدثين .

وقد بدت معالم الاحتفاء بآليات النطق لدى القدامى فى إشاراتهم المتعددة وتقريراتهم المتنوعة فى ساحة الدراسة الفوناتيكية ، وبخاصة ميدان إنتاجية الصوت ، ومن ذلك بصفة عامة تقسيمهم للحروف إلى أنماط متنوعة وفق المخارج وكذلك إطلاقهم بعض الألقاب عليها ، بيد أن هذا

---

(١) رأى بعض الباحثين أن مصطلح أعضاء النطق أو الجهاز النطقى فيه تجوز ، إذ إن لهذه الأعضاء وظائف أخرى ، كالذوق للسان مثلا ، ينظر : مناهج البحث ٧٣ ، الأصوات العربية : د/ بشر ٦٤ - ٦٥ ، علم اللغة د/ السعران ١٣١

(٢) ينظر الكتاب ٤/٤٣٣ - ٤٣٤ ، العين ١ / ٥٧ - ٥٨ الممتع فى التصريف : ابن عصفور ٢ / ٦٦٨ - ٦٧٠ ، سر صناعة الإعراب ١ / ٥٢ - ٥٣ ، النشر فى القراءات العشر ١ / ١٩٨ - ٢٠١

وذاك لايخرج فى المقام الأول عن أصول المنهج الوصفى الذى يعتمد على الملاحظة الذاتية فى تحديد المخارج ، وكذلك تحديد ألقاب الحروف منسوبة لمواضع تشكيلها من نحو الحلقية واللسانية واللثوية والنطعية والشجرية والأسلية والأسنانية والشفوية إلى غير ذلك من النسب ، وسنعرض لذلك فى ضوء الجانب العملى فى التراث ممثلا فى محور التشريح على النحو التالى :

الجانب التشريحى :

مما تجدر الإشارة إليه أن المسلك الوصفى لم يكن السبيل الوحيد لوصف ثمرة النطق فى التراث ، وإنما يضاف إليه مسلك توضيحى آخر انتهجه ابن سينا فى رسالته أسباب حدوث الحروف وهو النهج العملى القائم على التشريح(١) لبعض أعضاء النطق لتبيان أثرها ، وتعليل مرونتها فى تشكيل الأصوات معتمدا فى معالجته على هذا الملمح العلمى الدقيق مبينا كيفية قيام كل منها بوظيفته ، ولعل سر اختيار ابن سينا لهذين العضوين على وجه العموم ناجم عن أهميتهما البالغة فى ميدان النطق والتصويت إذ تضم الحنجرة ما يسمى بالوترين الصوتيين وهما زوجان من الطيات الصوتية يقومان بوصل الفراغ الحلقى بالقصبة الهوائية(٢) بالإضافة إلى ما يتمتع به هذان الوتران الصوتيان من قدرة كبيرة على إحداث أنماط متنوعة ودقيقة من التدخل والإعتراض لمجرى الهواء(٣) من وضع التنفس العادى أو القفل المحكم أو الاهتزاز أو الهمس أو الوشوشة .

---

(١) المقطع الصوتى د / عبد المنعم عبد الله محمد ٢٧ : ٢٨

(٢) ينظر : أصوات اللغة العربية : د / هلال ٤٩ : ٥٠ ، علم الصوتيات ٩٣

(٣) علم الصوتيات ، د / عبد الله ربيع ، د / علام ٩٤ - ٩٦ - الدلالة الصوتية ، د / كريم حسام الدين ٦٣ : ٦٥ ، دراسة السمع والكلام: د : مصلوح ١٢٦ ، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : نايف خرما ، ٢٦١

ومع هذا التنوع الآلى الذى يصحبه تنوع مماثل من الملامح الصوتية تبرز أهمية الحنجرة فى آلية النطق بما تتمتع به من مرونه وحركية هى وليدة تكوينها الفسيولوجى مما يؤهلها لدور فاعل فى تغير شكل وحجم حجرة الرنين فتؤثر بدورها على نوع الرنين الحنجرى(١) ، كما تلعب بالنسبة الكلام دور آليات النغم والموسيقى بالنسبة للغناء ، ومن هنا كان الوصف الدقيق لابن سينا لمكونات هذا العضو الحيوى الهام فى إنتاجية النواة الرئيسية للتصويت فى الصوت اللغوى الإنسانى .

ولعل فلسفة مرونتها وحركيتها تتضح فى ضوء الوصف التشريحى لابن سينا إذ يقرر أنها « مركبة من غضاريف ثلاثة : أحدها موضوع إلى قدام يناله المس فى المهازيل جدا عند أعلى العنق تحت الذقن ، وشكله شكل القصعة حَدَبَتُهُ إلى خارج وإلى قُدَّام وتقعيره إلى داخل وإلى خلف ، ويسمى الغضروف الدَّرَقى والترسى .

والغضروف الثانى خلفه ، مقابل سطحُه لسطحِه متَّصلٌ به بالرباطات يمنة ويسرة ومنفصل عنه إلى فوق ويسمى عديم الاسم .

والغضروف الثالث كقصعة مكبوبة عليهما ، وهو منفصل عن الدَّرَقى مَرْبُوطٌ بالذى لا اسم له من خلف بمَفْصِل مضاعف يحدث من زائدتين تصعدان من الذى لا اسم له وتستقران فى نُقْرتين له ، ويسمى المكبِّى والطِّرجهالى (٢)

وفى ضوء هذا التركيب لمكونات هذا العضو التصويتى الهام يبين ابن سينا كيفية آلية وميكانيكية حركته فيقول: فإذا تقارب الذى لا اسم له من الدرق وضامه حدث منه تضييق الحنجرة ، وإذا تنحى عنه وباعده

---

(١) دراسة الصوت اللغوى : د / عمر ٨١ ، وينظر علم الصوتيات ٩٩

(٢) أسباب حدوث الحروف : ابن سينا ٦٤ : ٦٥ : ٦٦

حدث منه إتساع الحنجرة ، ومن تقاربه وتباعده يحدث الصوت الحاد والثقيل(١) .

ويواصل ابن سينا وصفه التشريحى الدقيق لآليات الحنجرة حالة تضييقها وحالة توسيعها والعضلات المعينة على تحقيق ذلك ، مع الربط بين هذه الحالات وعضل الصدر والحجاب وأثره فى حفز النفس وحصره إلى الخارج بقوة ، وارتباط ذلك بالحلقوم(٢) فى محاولة علميه جادة لإستظهار دور الحنجرة وفعالياتها فى التصويت .

وينتقل ابن سينا متمما ما يرمى إليه من وصف عضلة « اللسان بنفس القدر من الدقة والوعى العلمى بأثره البالغ فى العملية الكلامية إذ إنه من أبرز الأعضاء التى تتحكم فى الصندوق الرنينى للفم ، كما لا يخفى أن اللسان يعد مخرجا لكثير من الأصوات العربية بل يمثل عدة مخارج وفق أحيازه المتنوعة من مؤخر اللسان ووسطه وطرفه وحافتيه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن اللسان من أكثر أعضاء النطق مرونة وحيوية وليس أدل على ذلك من مشاركته فى إنتاج الصوائت ، ومعظم الصوامت(٣) ومن ثم أطلق عليه لفظ لغة فى جميع لغات العالم تقريبا ، وبخاصة العربية فقد أطلق القرآن لفظ اللسان على اللغة فى ثمانية مواضع من أى الذكر الحكيم ، منها على سبيل المثال « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »(٤) .

ولعل مرونة هذا العضو تتضح فى أن كل جزء منه يمكن أن يرتفع

---

(١) السابق ٦٦ (٢) السابق ٧٠

(٣) ينظر : أصوات اللغة العربية د / هلال ٥٥ : ٥٦ ، أصوات اللغة : د / أيوب ٧٦ ، ٧٧ ، علم الصوتيات ١٠١ ، دراسة الصوت اللغوى : د / عمر ٨٦

(٤) إبراهيم ٤ .

وينخفض ، كما أن حافتيه وطرفه ووسطه يمكن أن ترق وتنبسط ويمكن أن تنقبض فتعود إلى حجمها الطبيعى ، كما يمكن لمقدم اللسان ووسطه أن يمتد إلى الأمام حتى يتجاوز أكثر الثنايا وأن يتراجع كله حتى يكون أدخل منها بنحو ثلاثة سنتيمترات ، ويمكن لطرفه أن يلتوى حتى يلمس أول الحنك الرخو قبيل اللهاة ، ويمكن لمتنه أن يتقوس محدبا أو مقعرا ، وأن ترتفع حاشيتاه حول متنه كقناة مستطيلة . . . . . ولكل هذه المرونة أثرها فى تكوين مختلف الأصوات وتنويعها(١) .

فى ضوء تلك الأهمية لعضلة اللسان يقرر فندريس أن اللسان بوجه خاص هو الذى يلعب مع الحنجرة الدور الرئيسى فى التصويت(٢) ومن هذه الثابتة ينطلق ابن سينا فى وصف مكوناته وتبيان فلسفة مرونته على هدى من معطيات التشريح فيقول(٣) « وأما اللسان فيحركه عند التحقيق ثمانى عضلات منها عضلتان تأتيان من الزوائد السهمية التى عند الآذان يمنة ويسرة ، وتتصلان بجانبى اللسان ، فإذا تشنجتا عرضتاه ، ومنها عضلتان تأتيان من أعالى العظم الشبيه باللام وتنفذان فى وسط اللسان ، فإذا تشنجتا جذبتا جملة اللسان إلى قدام فتبعها جرم اللسان وامتد وطال ، ومنها عضلتان تأتيان من الضلعين السافلين من أضلاع هذا العظم تنفذان بين المعرضتين والمطولتين ويحدث عنهما توريب اللسان ، ومنها عضلتان موضوعتان تحت هاتين إذا تشنجتا بطحتا اللسان ، وأما تميله إلى فوق ، وداخلا فن فعل المعرضة والموربة .

وقد أضاف ابن سينا فى القانون عضلة أخرى أشار إليها محققا رسالته ،

---

(١) أصوات اللغة العربية : د / جبل ٤٩

(٢) اللغة : فندريس ٤٥

(٣) رسالة أسباب حدوث الحروف ٧٠ ـ ٧١

وتلك العضله مفردة تصل ما بين اللسان والعظم اللامى وتجذب أحدهما إلى الآخر(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه معرفة ابن سينا بالقصبة الهوائية التى سماها (قصبة الرئة) إذا قال فى كتاب القانون : أما قصبة الرئة فهى عضو مؤلف من غضاريف كثيرة دوائر يصل بعضها على بعض وعلى رأسه الفوقانى الذى يلى الفم والحنجرة ، كما قرر بعض الدارسين أن إخوان الصفا (فى رسائلهم)- - القرن الرابع - عرفوا دور الرئتين فى عملية إحداث العملية الكلامية مما يؤكد اكتمال نظرية الآلية النطقية ومردودها الإيجابى فى تلافيف فكرهم الصوتى ومعالجتها وفق المعيارين النظرى والعملى ، ولا ريب أن مسلك ابن سينا وإقامة منهجه على الأساس التشريحى العلمى كان فتحا كبيرا فى الدراسة الصوتية ، ومنهجا جديدا فى معالجة قضاياها يتبعه فيه الكثيرون من علماء الغرب فى عصرنا الحديث ، وكم كان لذلك من أثر فى عرض آلية المخارج وعلل الألقاب كما سيتجلى على بساط البحث .

---

(١) السابق هامش رقم (٩) للمحققين من ص ٧١ نقلا عن القانون ١ / ٤٥

(٣) آلية المخارج والألقاب

يقوم هذا المحور على الإشارات التراثية لأعضاء النطق ودورها البالغ في ميدان المخارج والألقاب للأصوات العربية في محاولة جادة للقدامى لفقه الخصائص والسمات المميزة والفارقة لكل صوت ، وسنحاول - هنا - الوقوف على أعضاء النطق ووظائفها في ضوء منظورهم لخريطة المخارج وتعليلهم لمجموعة الألقاب وفق الجانبين النظري والعملي على النحو التالي : -

(ا) الجانب النظري :

وردت بين ثنايا تراثنا الصوتي مسميات الأعضاء النطقية ، أقصى الحلق ، أوسط الحلق أدنى الحلق ، أقصى اللسان ، وسط اللسان ، حافة اللسان طرف اللسان ، ظهر اللسان فويق الثنايا ، أصول الثنايا ، أطراف الثنايا ، باطن الشفة السفلى ، وسط الحنك الأعلى ، الخياشيم ، الشفتان . . . . الخ .

جمع سيبويه تلك الأعضاء في عرضه لنظرية المخارج قبيل مناقشته لقضية الإدغام حينما حصر الحروف في ستة عشر محرجا(١) مقررا أن للحلق منها ثلاثة ، فأقصاها مخرجا : الهمزة والهاء والألف ، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء ، وأدناها مخرجا من الفم : الغين والخاء ، ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى مخرج القاف ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الاعلى مخرج الكاف ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ، ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ، ومن حافة

(١) الكتاب ٤ / ٤٣٣ - ٤٣٤

اللسان من أدناها إلى منتهى طرف السان ما بينها وبين مايليها من الحنك الاعلى وما فويق الثنايا مخرج النون ، ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء ومما بين طرفى اللسان وأصول الثنايا العليا مخرج الطاء والدال ، والتاء ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى والسين والصاد ، ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء ، ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء ومما بين الشفتين مخرج الباء ، والميم والواو ، ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة

ومما تجدر الإشارة إليه أن حديث سيبويه عن المخارج « يعد من أقدم الدراسات التى وصلتنا ، ومن هنا يكتسب أهميته(١) بيد أن الخليل بن أحمد وهو أستاذ سيبويه قد أرسى دعائم هذه النظرية فى مقدمة كتابه العين ، ملقيا الضوء على آليات أعضاء النطق فى ضوء حديثه عن ألقاب الحروف ومدارجها ، ففى العربية » تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحيحا لها أحياز ومدارج ، وأربعة أحرف جوف ، وهى الواو والياء والألف والهمزة(٢) وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع فى مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ، ولا من مدارج اللهاة ، إنما هى هاوية فى الهواء ، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف(٣) .

---

(١) نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب : د / أحمد طاهر حسنين ٢٥ مطبعة هجر ط ١ سنة ١٩٨٧ م

(٢) أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة أن الهمزة من الحنجرة ، ينظر : علم اللغة العام (الأصوات العربية) د/ كمال بشر ١١٢ وما بعدها ، التجويد والأصوات : د / إبراهيم نجا ٦٩ ، علم الصوتيات : د / عبد الله ربيع محمود ، د / عبد العزيز علام ٢٢٧ ، أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار هلال ١٨١ ، الأصوات اللغوية : د / إبراهيم أنيس ٧٢

(٣) العين : الخليل بن أحمد ١ / ٥٧ . تحقيق د / مهدى المخزومى . د/ إبراهيم السامرائى مؤسسة دار الهجرة ط ٢ إيران سنة ١٤٠٩ هـ

ويعرض الخليل لألقاب الحروف فمنها الحلقية ومنها اللهوية ومنها الشجرية وكذلك الأسلية(١) والنطعية واللثوية والذلقية ، والخيشومية ، بالإضافة إلى الجوفية أو الهوائية(٢) .

وهكذا لم يغفل الخليل الحركة الفسيولوجية لأعضاء النطق ، بل اشتق منها مصطلحاته السابقة ، فالأسلية - مثلا - لأن مبدأها من أسلة اللسان وهى مستدق طرفه ، واللثوية لأن مبدأها من اللثة ، والشجرية لأن مبدأها من شجر الفم ، أى مفرج الفم ، كما كان يسمى الميم مطبقة ، لأنها تطبق الفم إذا نطق بها ، أما الجوفية فلأنها تخرج من الجوف ، فلا تقع فى مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ، ولا من مدارج اللهاة . . . . . إلخ(٣) .

وجدير بالذكر أن هذه الإلمامة بآليات الجهاز النطقى استوعبها وفقهها كل من عالجوا الدرس الصوتى بعد الخليل وسيبويه كالمبرد فى كتابه المقتضب وابن دريد فى مقدمة الجمهرة(٤) ، كما أن حظ معاجمنا اللغوية فى معالجة آلية النطق لم يكن قليلا ، فقد عنيت - أيضا - بهذا الجانب بالقدر الذى لا يخرجها عن طبيعة التصنيف فيها وكذلك عن أهدافها ، ومن ذلك العين للخليل بن أحمد ، إذ أقام مقدمته(٥) على معطيات صوتية لبناءه كيان المعجم

---

(١) ينظر فى لقب الاسلية : مجلة المجمع ١٥ / ٤٦ د/ أنيس بحث بعنوان « جهود العلماء العرب فى الدراسة الصوتية » .

(٢) ينظر فى تقسيم الأحرف وفق ألقاب الحروف : اللغة العربية خصائصها وسماتها : د/ هلال ١٦١ : ١٦٣ .

(٣) ينظر : العين ١/٥٧ - ٥٨ (٤) الجمهرة ١ ٣ - ٥

(٥) العين ١ / ٤٧ - ٦٠ وينظر : كتاب العين للخليل بن أحمد وموقعه فى آثار الدارسين ؛ د/ كمال بشر ١٠٣ بحث منشور فى العدد الثالث من حوليات كلية دار العلوم .

على الأساس الصوتى ، ومن ثم كانت الإشارات والتقريرات الصوتية حول آلية النطق ممثلة فى عرض المخارج والألقاب للحروف العربية ومن ذلك أيضا معجم التهذيب وكذلك لسان العرب ، بيد أن المعجميين اعتمدوا فى إشاراتهم الصوتية على ما ورد فى فكر الخليل وسيبويه وابن جنى من رواد الدرس الصوتى ، ولا سيما ابن منظور فى اللسان(١) ، وقد ورد كثير من إلماحاتهم فى معالجة جزئيات الدراسة ،كما امتدت تلك العناية بآليه النطق إلى ساحة المعاجم المبوبة . أو المعانى - أيضا - فلم تكن مقصورة على معاجم الألفاظ ومن ذلك ما ذكره الثعالبى من فصول « فى حدة اللسان والفصاحة ، وعيوب الكلام « وفى ترتيب العى(٢) إذ حوت إشارات مضيئة فى هذا الباب مما يؤكد شمولية العناية بآلية النطق وديناميكية التصويت فى الفكر الصوتى عند العرب ، إيمانا منهم بدورها البالغ فى فلسفة الحقائق الصوتية على المستويين الفوناتيكى والفونولوجى ، مما يثبت فضل السبق والابتكار لروادنا القدامى فى هذا المنعطف للمنظور الصوتى فى العصر الحديث ، وليس أدل على ذلك من إلماحات ابن جنى وتنائجه فى الدراسة الصوتية ، فقد أضاف ملحظا جديدا حينما شبه الحلق بالناى ، ومدارج الأصوات ومخارجها بفتحاته التى توضع عليها الأصابع ولا ريب أن تلك إشارة نابهة تدل على وعى دقيق بأثر آلية النطق فى تنوع الأصداء للأصوات اللغوية ، إذ يرى ابن جنى(٣) أن الصوت يخرج مستطيلا ساذجا حتى يعرض فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا . وتابعه ابن سنان الخفاجى(٤) مما يدل

---

(١) اللسان ١ / ٧ - ١٠

(٢) فقه اللغة : الثعالبى ٧١ : ٧٣

(٣) سر صناعة الإعراب ، ابن جنى ١ / ٩ - ١٠

(٤) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ١٢ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى مطبعة صبيح سنة ١٩٦٩

على ثبات هذه الحقائق العلمية فى تلك العصور(١).

ومن الإشارات الواعية بين ثنايا تراثنا الصوتى عن آلية النطق وأهمية المخارج إشاراتهم إلى دور الأسنان مما يثبت نضج الفكر العربى فى هذه الساحة، فالأسنان كما ورد على خريطة المخارج تشترك فى إنتاجية كم موفور من الأصوات مع اللسان والشفة(٢) فالفاء مثلا - صوت شفوى أسنانى، والثاء والذال والظاء أصوات بين أسنانيه، والتاء والطاء، والدال والضاد، والسين، والزاى، والصاد، أصوات أسنانية لثوية واللام والراء والنون أصوات لثوية، وقد ذكر سيبويه الأسنان وأشار إلى الأضراس وطراف الثنايا العلى، وأصول الثنايا(٣) مما يدل على وعى بمعطياتها الصوتية.

ومن هنا كانت إشارة سهل بن هارون إلى أهمية هذا الجزء فى الجهاز النطق الإنسانى مقررا أنه «لو عرف الزنجى فرط حاجته إلى ثناياه فى إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه»(٤).

ومن ذلك إشارة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين إلى أثر هذا العضو، إذ يقول ليس شيء من الحروف أدخل فى باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين اذا كانا فى وسط الكلمة(٥)؛ ولا عجب فى ذلك فسقوط بعض الأسنان أو اختلاف تركيبها يؤدى - بالضرورة -

---

(١) فى البحث الصوتى عند العرب / ٢٢

(٢) ينظر: المحيط فى أصوات العربية ونحوها وصرفها: الأنطاكى د ٢، أصوات اللغة العربية: د / محمد حسن جبل ٥٢، علم الصوتيات: د / عبد الله ربيع د / عبد العزيز علام ١٠٦

(٣) ينظر تفصيل ذلك بعبارات سيبويه وتقريراته النصية فى الكتاب ٤/٤٣٣

(٤) البيان والتبيين ١ / ٥٨

(٥) السابق ١ / ٥٥

إلى اضطراب الخصائص النطقية لبعض الأصوات(١) ولعل هذا يفسر إحجام معاوية عن الكلام « على منبر جماعة منذ سقطت ثناياه »(٢) لما ترتب على ذلك من خلل فى النطق وإلتواء فى الأداء.

ومن هذا المنطلق لاحظ القدامى « أن سقوط جميع الأسنان أصلح فى الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر(٣) وقد شبهوا ذلك بصورة محسة فقالوا :(٤) الحمام المقصوص جناحاه جميعا أجدر أن يطير من الذى يكون جناحاه أحدهما وافرا والآخر مقصوصا، وعلة ذلك التعديل والاستواء، وإذا لم يكن ذلك كذلك ارتفع أحد شقيه وانخفض الآخر، فلم يجذف ولم يطر ».

وهكذا تجلى اعتداد الجاحظ فى كتابه البيان والتبين بأمر هذه الآلية وأثرها بصفة عامة على الأداء، ومن ذلك ما قرره فى ذكر ما يحضره من الحروف التى تدخلها اللثغة(٥) مشيرا إلى بعض أسبابها ومنها المخارج، ومقررا أنها لا تحصى ولا يوقف عليها مؤكداً ما يرمى إليه بنماذج بشرية كلامهم يشبه الصفير، إلى غير ذلك مما أسماه حروف الزمزمة والحروف

---

(١) لأن الأسنان لا تؤدى دورا واحداً بالنسبة لكل الأصوات، فهناك أصوات يعتمد خروجها على وجود الاسنان، وهناك من الأصوات ما يقتصر دور الأسنان فيه على أداء التكييف أو التلوين العام عند إخراجها « ينظر: الملامح الأدائية عند الجاحظ : د / عبد الله ربيع ١٠٦ : ١٠٧

(٢) البيان والتبين ١ / ٦٠

(٣) السابق ١ / ٦١

(٤) السابق ١ / ٦٤ وفى هامش (٢) فى نفس الصفحة نقلا عن الحيوان (١ / ٢٦٢) ، (٣ / ٢٣٠) ويجذفاه : جناحاه ، يقال بالدال والذال جميعا.

(٥) البيان والتبيين ١ / ٣٤، وينظر فى عيوب النطق : أمراض الكلام د / مصطفى فهمى ٣١ - ٤٠ ، ١٤٩ - ٢٢٧

التى تظهر من فم المجوسى إذا أخذ فى باب الكتابة وترك الإفصاح عن معانيه، وهو على الطعام(١) .

ويربط الجاحظ بين آلية النطق وهبة الله التى أعطاها الإنسان من الاستطاعة والتكوين ويلمح إلى أن للأداء صورتين متكلفة وتلقائية، كما يشير إلى العادات النطقية وأثرها فى حروف الكلام .

وقد أشاد بعض علمائنا المعاصرين(٢) بمنهج الجاحظ فى سرد العيوب الأدائية مقرراً أنه يكفيه التنبيه إلى خطرها والإشارة إلى سوء أثرها ، وقد قام بدراسة وافية لملامح الأداء فى البيان والتبين أمكنه على هديها تصنيف العيوب(٣) فى فكر الجاحظ إلى عيوب استبدالية وتشويهية وإخفائية وإضطرابية وتزمينية .

ولا ريب أن إدراك الجاحظ لتلك العيوب ووصف آليتها أمارة حية على إلمام بميكانيكية جهاز النطق ووظائفه التصويتية ، وأثر اكتمال آلته فى تصوره لحسن البيان وجميل الأداء ، وقد أشار فى غير موضع(٤) من كتاب البيان والتبين إلى ذلك ، ومن ثم نرى علماء الأداء القرآنى فى مؤلفاتهم(٥) يعقدون فصلا فى بيان ما يحتاجه طالب فن التجويد ، يعرضون فيه للأسنان ، لما لها من أهمية بالغة فى تشكيل كثير من الأصوات سواء أكانت تمثل مخرجا مستقلا بذاته ، أم تشارك غيرها من أعضاء النطق ، كما أنها تعد ـ أيضا ـ عنصرا مساعدا فى تكوين صناديق

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٤

(٢) الملامح الأدائية : د / عبد الله ربيع ٢٨٦

(٣) السابق ٢٥٠

(٤) البيان والتبيين ١ / ٥٨ - ٥٩ - ٦٢

(٥) نهاية القول المفيد فى علم التجويد : الشيخ محمد مكى نصر ٣٩ ، مطبعة البابى الحلبى / ١٣٤٩ هـ

رنين أمامية صغيرة(١) ولذا فضلوا بعض الخطباء على بعض لعيوب الأسنان. فقد خطب الجحى خطبة نكاح أصاب فيها معانى الكلام ، وكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن على بن الحسين بكلام فى جودة كلامه ، إلا أنه فضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير ، فذكر عبد الله بن معاويه بن عبد الله بن جعفر سلامه لفظ زيد لسلامة أسنانه ، فقال فى كلمة له :

قلت قوادحها وتم عديدها فله بذلك مزية لا تنكر

ويروى : صحت مخارجها وتم حروفها(٢) . وهكذا كان للجانب النظرى دوره البالغ فى بيان آلية المخارج وكذلك علل الألقاب ، وشاركه فى هذا الميدان الجانب التجريبي على النحو الآتى :

(ب) الجانب التجريبي :

ليس المقصود من الجانب التجريبي عند علمائنا القدامى الجانب الآلى المعملى ، إذ خلت عصورهم من تقنياته ، بيد أنهم ابتكروا أسس هذا الجانب العملى فى ضوء الملاحظة الذاتية ، واستخدام آلية النطق سبيلا إلى التجريب لمعالجة الحروف بغية الوقوف على خصائصها وأسرارها ، والأمارات على ذلك موفورة ، يمكن أن تكون آية على إلمامهم بطبيعه آلية النطق والتصويت .

ومن تلك الامارات مايتعلق بتحديد المخارج ومنها ماهو وثيق الصلة بفسيولوجية الصفات وسنعرض لبعض النماذج النصية لكلا النمطين مصداقا لما يهدف إليه البحث وليس أدل على ذلك بالنسبة لموقعية المخارج

(١) علم الصوتيات ١٠٦ وينظر : مقدمة فى أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآنى : / عبد الفتاح البركاوى ٥٢

(٢) ينظر : البيان والتبيين ١ / ٥٨ - ٥٩

على خريطة الجهاز النطق من المحاولات التجريبية التى قام بها الخليل بن أحمد فيما أسماه « ذوق الحروف » ، إذ نظر إلى الحروف كلها وذاقها (فوجد مخرج الكلام كله من الحلق) فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق ، وإنما كان ذوقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو أب ، أت ، أخ ، أع ، أغ فوجد العين أدخل الحروف فى الحلق ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم »(١) .

ويوضح ابن جنى هذه العملية التجريبية فيقول : « وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به ساكنا لامتحركا ، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجتذبه إلى جهة الحرف التى هى بعضه ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن الساكن لايمكن الابتداء به ، فيقول : إك ، إق ، إج ، وكذلك سائر الحروف »(٢) .

ومن هذا القبيل ما ذكره سيبويه(٣) عن إنتاجية الحروف الفرعية وكيفية إحداثها وأنه لايتحقق الوقوف على ذلك الأمر إلا بالمشافهة ، إذ يقول بعد سرد الحروف الأصول منها والفروع معقباً على النمط الأخير المستحسن وغير المستحسن « وهذه الحروف التى تممتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون لاتتبين إلا بالمشافهة » ويلق الضوء على الضاد الضعيفه منها فى ضوء آلية نطقها تجريبيا مشيراً إلى أنها تتكلف من الجانب الأيمن » ويخاطب القارىء « وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر » معلناً نتيجة التجربة قائلا « وهو أخف » معللا ذلك بأنها من حافة اللسان » .

---

(١) العين ١ / ٤٧ وينظر : المقطع الصوتى فى ضـــوء تراثنا اللغوى : د / عبد المنعم عبد الله محمد ٢٥ : ٢٦

(٢) سر صناعة الإعراب ١ / ٧ وينظر : دراسات فى فقه اللغة : د صبحى الصالح ٢٧٨

(٣) الكتاب ٤ / ٤٣١ - ٤٣٣ .

وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان فسهل تحويلها إلى الأيسر، لأنها تصير فى حافة اللسان فى الأيسر مثل ما كانت فى الأيمن، ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك فى الأيمن.

ويؤكد ابن جنى هذا الملمح التجريبى المعتمد على المشافهة فى إنتاجية هذه الحروف الفرعية بأن أمرها لايصح « إلا بالسمع والمشافهة(١) وكلا الأمرين من عوامل التجريب والملاحظة الدقيقة.

وليست إشارة ابن جنى فيما يتعلق باختلاف أجراس الحروف بحسب اختلاف - مقاطعها إلا ولبدة التجريب لآلية النطق، إذ يخاطب القارىء قائلا: ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أى المقاطع شئت، فتجد له جرسا ما فإن انتقلت عنه راجعا منه، أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، ويعرض ابن جنى نموذجا لتلك العملية التجريبية فى ضوء فعاليات النطق لبعض الفونيات قائلا: ذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين(٢) وقد أضفى على تلك العملية الآلية مسحة من الإيضاح فيما عقده من التشبيه بالناى وخروقه، وكذلك العود وأوتاره مقررا أنه أراد بذلك التمثيل الإصابة والتقريب(٣).

على هدى ماسبق يمكن القول بأن تراثنا الصوتى قد حوى بين دفتيه وعى علمائنا القدامى بآلية النطق فى ضوء عرضهم لقضية المخارج وألقابها،

---

(١) سر صناعة الإعراب ١ / ٥١

(٢) السابق ١ / ٦

(٣) السابق ١ / ٩ وينظر فى ذلك علم اللغة العام (أسسه ومناهجه) د / عبد الله ربيع ١٥١ - ١٥٦ ط ١ ١٩٩٤ م مؤسسة الزهور.

وإن كان هناك بعض الاختلافات فى تقسيمهم للحروف وفق مخارجها مع معطيات الدرس الصوتى الحديث فإن إمكانات البحث فى عصورهم كانت وراء ذلك .

وجدير بالذكر أنه على الرغم من طبيعة عصورهم ، وخلوها من الآلة وفعاليات التقنية الحديثة فقد حازوا فضل السبق فى تفسير وتعليل كثير من الحقائق الصوتية فى ضوء آلية أعضاء النطق ، وليس أدل على ذلك من منظورهم الدقيق لآلية المخارج بما لا يتعارض مع معطيات الآلة والمعامل فى العصر الحديث على سبيل الإجمال ، ومن ثم أشاد كثير من الباحثين(١) المنصفين بالدور الذى قاموا به فى تحديدها بل رأى بعضهم أن تقسيم سيبويه لمناطق الفم وتحديده لمجموعات الأصوات المشتركة كان شبه نهائى لم يستطع أحد ممن جاء بعده - حتى الآن - أن يثبت عكسه أو يضيف إليه تعديلا(٢) وهكذا أقر كثير من المنصفين بدقة القدامى فى منظورهم للمخارج مدركين ما نود التأكيد على ثبوته من معرفة علماء العربيه لآلات الجهاز النطق من جانب بل وإطلاقهم عليها « أسماء » ذات دقة كافيه من جانب آخر(٣) .

ومن هنا تعددت الأسانيد الدامغة مقررة مكانة العرب فى هذا الميدان .

---

(١) أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار هلال (١٤٩ - ١٥٠) علم الصوتيات : د / عبد الله ربيع ، د / عبد العزيز علام ٦٦-٦٧ ، دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية : د / عبد الحميد أبو سكين (١١ ، ٢٤) ، مجلة المجمع ٢٤ / ١٣٤ ، د / عبد الرحمن أيوب (التفكير الصوتى عند العرب) .

(٢) العربية الفصحى : هنرى فليش (مقدمه المحقق) د / عبد الصبور شاهين ١٥

(٣) دروس فى علم أصوات العربية : كانتينو ١٨

إذ يرى الدكتور / أيوب أنه « يمكن القول بوجه عام(١) » بأن علاج سيبويه للأصوات ، ومخارجها يمثل دراسة ناضجة لاتزال حتى عصرنا فى محل الإعجاب والتقدير لما فيها من دقة وفهم كما يقرر الدكتور / كمال بشر(٢) ، أن الدراسات الصوتية عند العرب هى أجود العمل اللغوى من حيث منهجية الفكرى وطرق الدراسة ، معللا ذلك بأن أسلوبهم فى هذا المجال كان أسلوبا صحيحا يتمشى مع طبيعة المادة ، فقد اتبعوا طريقة الملاحظة الذاتية وابتعدوا عن التأويلات والافتراضات التى ملأت الصرف والنحو وغيرهما .

ولسنا هنا فى مجال الحكم على هذه الدراسة ، وإنما يمكننا أن نستشف من ذلك ما يؤكد نضج الفكر العربى فى زاوية من زوايا الدرس الصوتى ، وهى زاوية آلية النطق ممثلة فى إدراكهم لأعضاء التصويت ، ومما يزيد هذه الثابتة وضوحا مناقشتهم لقضية الصفات الصوتية كما سيتبين لنا على بساط البحث .

وهكذا كان لآلية التجريب دورها الفاعل فى الإلمام بكثير من خصائص الجهاز النطقى فى الفكر الصوتى عند العرب ، إذ يتبين لنا من الإشارات السابقة ما يؤكد وقوفهم على تحديد أعضاء النطق تحديدا دقيقا بالإضافة إلى وظائف هذه الأعضاء وإمكانياتها التصويتية وكذلك ارتباط آلية النطق بخاصيتى السماع والمشافهة لدى الإنسان .

ولا يخفى أيضا إلمامهم بمدى المرونة التى يتسم بها هذا الجهاز فآلية النطق نمطان طبيعية تلقائية ، ومتكلفة حيث يتعمل الناطق هيئة أدائية

---

(١) مجلة المجمع ٢٤ / ١٣٤ د / عبد الرحمن أيوب (التفكير اللغوى عند العرب مصادره ومراحله) .

(٢) دراسات فى علم اللغة (القسم الثانى) : د / كمال بشر ٦٧ ، دراسات فى التجويد والأصوات : د / عبد الحميد أبو سكين ٢٤ . مطبعة الأمانة ١٩٨٣ م

معينة ، كما أفصحت إشاراتهم التجريبية عن فقه ناضج لآليات النطق ومردودها الحتمى على تشخيص الصفات المميزة لكل صوت ، مما يجعلنا نقرر أن روادنا فى ميدان الفكر الصوتى قد أدركوا تفصيلات متنوعة ومتعددة عن آلية النطق ، فى ضوء التجريب كملمح من المحور العلمى يضاف إلى نظيره التشريحى ليكملا مع المحور النظرى منظومة آلية النطق عند علمائنا القدامى ، وإتماما لدائرة البحث سنلقى الضوء على تلك الآلية فى ضوء محور آخر من محاور فكرنا الصوتى وهو ميدان آلية الصفات .

(٤) آلية الصفات

اعتمد علماؤنا القدامى فى بيان الصفات الصوتية للفونيمات العربية على آلية النطق والتصويت مما كان أمارة دالة على نضج فكرهم الصوتى، ونمو وعيهم اللغوى على وجه العموم، ولا سيما فى ميدان فسيولوجية الصوت معتمدين فى تقراراتهم - أيضا - على المنهج الوصفى والملاحظة الذاتية.

ولم يكن الأمر فى فقه آلية الصفات بأقل منه فى اكتناه آلية المخارج دقة وعمقا مما كان وراء تأكيد بعض علمائنا المعاصرين(١) لتلك الدقة قائلا: «لست أشك لحظة واحدة فى أن هؤلاء العلماء الأجلاء قد استطاعوا بالملاحظة فقط (ومعها كل الصعوبات التى تواجه الطليعة فى العادة) أن يصلوا إلى وصف دقيق للأصوات العربية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن وصف علمائنا القدامى للأصوات كان ثمرة لوعيهم بدقائق الجهاز النطقى ومرونته وإجراءاته.

ومن ذلك - مثلا - تعريف سيبويه للمجهور والمهموس فقد ورد فى حده لطبيعة المجهور(٢) بأنه «حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت».

---

(١) اللغة العربية (معناها ومبناها): د/ تمام حسان ٤٩، الهيئة العامة ١٩٧٩م

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٤

أما المهموس(١) « فحرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه » .

ويلجأ سيبويه للتفريق بينهما بالإضافة إلى التنظير للجانب التجريبى المعتمد على الملاحظة الذاتية لآلية النطق مخاطبا القارىء « وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جرى النفس ، ولو أرادت ذلك فى المجهورة لم تقدر عليه »(٢) .

ولو تأملنا مضمون الجهر والهمس عند سيبويه لوقفنا منه على إشارات عدة يمكن على هديها المشاركة قدر المستطاع فى تفسير تلك النظرية منها :

١ — ارتباط صفه الجهر بآلية النطق ، وهذا واضح فيما ذكره من « إشباع الاعتماد ، والموضع ومنع النفس ، وجريان الصوت » .

٢ — إشباع الاعتماد يتم فى موقع على خريطة الجهاز النطق يختلف تماما عن المخرج أو مكان تشكيل الحرف .

٣ — الدفعة الهوائية قبل إشباع الاعتماد تسمى نفسا ، وبعد الإشباع الذى يتم فى الموضع المقصود تسمى صوتا وقد صرح بذلك ابن جنى(٣) .

٤ — انقضاء الاعتماد وإشباع الاعتماد ملامح آلية تنم عن فعالية من نوع ما تعتور الدفعة الهوائية من ضغط واضطراب على نحو ما فى الموضع الذى قصده سيبويه ، وما أراه إلا الحنجرة . وبمقابلة هذه الإشارات (٤) بما يوحيه تعريف المهموس يتبين لنا ما يلى : —

---

(١) السابق ٤ / ٤٣٤

(٢) الكتاب ٤ / ٤٣٤ ، وينظر سر الصناعة ١ / ٦٩

(٣) قال ابن جنى فى سر الصناعة ٧٣/١ « فأما حروف الهمس فإن الصوت الذى يخرج معها نفس ، وليس من صوت الصدر ، وإنما يخرج منسلا ، وليس كنفخ الزاى — والطاء .... »

(٤) ينظر فى تفسير المجهور والمهموس عند سيبويه : أصوات اللغة العربية ═

١ ــ ارتباط صفة الهمس ـ أيضا ـ بآلية نطقية معينة قوامها إضعاف الاعتماد فى موضع ما، وجريان للنفس على أثر هذا الإضعاف .

٢ ــ خلت آلية الهمس من المنع للنفس، ولم تذكر جريان الصوت كما كان الحال فى المجهور .

٣ ــ الدفعة الهوائية المصاحبة للحرف المهموس لم تتعرض لفعالية تعتورها فتصيرها صوتا وإنما ظلت نفسا .

٤ ــ ترديد الحرف مع جريان النفس فى المهموس دون المجهور، مما يثبت إعاقة الدفعة الهوائية فى الموضع المقصود مع المجهور .

وفى ضوء هذا التحليل لمضمونى الجهر والهمس عند سيبويه يمكننا أن نقوم بمحاولة لتفسيره على النحو التالى : ـ

أولا : إدراك سيبويه للموضع الذى يتم فيه الجهر ، وهو الحنجرة وإن لم يسمه أو يحدد موقعه ، وليس أدل على ما أقول من مصطلح النفس قبل الاعتماد، والصوت بعده .

ثانيا : إلمام سيبويه بوظيفة هــذا الموضع (الحنجر:) ومكوناته الفسيولوجية التى تعتور النفس ضغطا واضطرابا فتحوله إلى صوت مما يجعلنا نقرر استشعاره لوظيفة الوترين الصوتين ، وإن لم يطلق عليهما مصطلحا بعينه، «فمصدر الذبذبات مع المجهورات هو الحنجرة على حين أن مصدرها مع المهموسات هو الحلق والفم وتضخمها الفراغات الرنانة ولكنها ذبذبات ضعيفة ليس لها أثر قوى فى السمع[1] .

ــــ د / هلال ١٦٥ : ١٧١، الأصوات اللغوية د / إبراهيم أنيس ١٩٠ اللغة العربية معناها ومبناها د تمام حسان ٦٠ : ٦٢ أصوات اللغة العربية د / جبل ٧٢ : ٧٣ مقدمة فى أصوات اللغة العربية د / البركاوى ١٠٠ / ١٠١

(١) ينظر : أصوات اللغة العربية د / هلال ١٧٠

ثالثاً : فقه سيبويه للطبيعة الجهرية للصوت فى ضوء الذبذبة التى هى نواة للتصويت وإن لم يذكرها ، وإلا فَبِمَ نفسر تسميته للنَّفَس بعد إشباع الاعتماد صوتا ؟

رابعاً : استشفافه لدور الحجاب الحاجز ، وميكانيكية إصداره للدفعات الهوائية أو النفسية .

وقد يقول قائل إن فى ذلك التحليل محاولة للتقريب بين فكر سيبويه والنظريات الحديثة فى تفسير ظاهرتى الجهر والهمس ، وإدراك دقائق الجهاز النطقى ، لا سيما وقد أخذ بعض الباحثين على الدراسات الصوتية القديمة جهلها بدور الوترين الصوتيين(١) وميكانيكية إحداث الجهر .

والجواب عن ذلك فيما يلى :

١ — إدراك سيبويه للموضع الذى يتم فيه الجهر ، وأن موقعيته ليست موقعية المخرج ثابت بما ورد عن سيبويه من تقسيم للأصوات إلى مجهورة ومهموسة مع نسبة كل منها إلى مخرجه(٢) ، وهنا يطفو على السطح سؤال أين تم جهر المجهور منها ؟ يبدو أنه فى الحنجرة التى يتم فيها إشباع الاعتماد ومنع النفس ، إذ ليس لمخرج ما مزية على غيره فى هذه الصفة ، وقد قرر كثير(٣) من الباحثين المحدثين أن صوت الصدر هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة .

٢ — ذِكْرُ سيبويه لمصطلح الصوت بعد إشباع الاعتماد وانقضائه فيه لمح لأثر الذبذبة الصوتية وإحساس بها ، وإلا فلماذا اختلف تعبير سيبويه ، إذ أطلق مصطلح النَّفَس قبل إشباع الاعتماد ومصطلح الصوت بعد انقضاء

---

(١) التفكير الصوتى عند العرب : هنرى فليش مجلة المجمع ٢٣ / ٥٨

(٢) الكتاب ٤ / ٤٣٤

(٣) الأصوات اللغوية : د / أنيس ٩٠ - ٩١ ، أصوات اللغة العربية : ١٧٠

الاعتماد ؟ ؟ ولماذا لم يذكر مصطلح الصوت جملة فى تعريفه للمهموس ، وقد وضح ذلك بعض علمائنا المعاصرين(١) مؤكدا « أن ذلك حقا هو ما أحس به سيبويه وضمنه تلك العبارات العلمية المعتمدة على المنهج السديد فى التعبير بصوت الصدر ، وصوت الفم ، فمع المجهور تتأثر الأوتار الصوتية بتلك القوة النابعة من أول خروج الهواء فتهتز اهتزازا يضخم الصوت . . . . وهذا ما عبر عنه بصوت الصدر ، أما مع المهموس فإن الأوتار الصوتية تظل على حالها من الابتعاد ، وبهذا لا تتأثر بالهواء فلا يبقى أثر لتضخم الصوت فى الحنجرة ، ويقتصر التضخم على فراغات الحلق والفم ، وهذا ما عبر عنه بصوت الفم » .

٣ ــ إمكانية ترديد المهموس دون المجهور يثبت ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ فقد المجهور لخاصته الصوتية (التى تكمن فى الذبذبات الصوتية التى لم يطلق سيبويه هذا المصطلح عليها) إذا أمكن ترديده .

٤ ــ ما سبق ينُم عن فهم لطبيعة الجهر والهمس لا ينقصه إلا إطلاق المصطلحات على أعضاء النطق التى تؤطر هذه النظرية ، والجهل بالمصطلح لا يعنى الجهل بآلية إحداث هذه الخاصية .

٥ ــ إذا كان فى منظور سيبويه بعض الغموض الذى يستعصى على التفسير لدى بعض الدارسين فإن الإطار العام لفعالية الجهر والهمس فى مضمون هذه الخاصية لا يتعارض مع ما يقبله المنطق فى ظل معطيات عصر سيبويه على عكس ما ذهب إليه بعض المحدثين ـ فى عصر تقدم العلم والتقنية ـ فى تفسير خاصة الجهر فى ضوء ما أسماه (النظرية العصبية العضلية)(٢) وموجز هذه النظرية كما أعلنها العالم الفرنسى هاسون عام ١٩٥١م

---

(١) أصوات اللغة العربية : د / هلال ١٧٠ . بتصرف .

(٢) العلاقة بين نظرية سيبويه وهاسون هى التباين فى تفسير آلية الجهر، =

= أن اهتزاز الوترين الصوتيين هو نتيجة لإثارتهما عصبيا ، وأن الإثارة العصبية للعضلتين الدرقيتين الهرميتين تحدث بشكل إيقاعى منتظم يؤدى إلى حدوث التقلص والاسترخاء على نحو متتابع ومنتظم ، وهذه الخاصية الإيقاعية لإنتظام الإثارة تنتج بدورها عن نشاط مماثل فى خلايا المخ التى تحكم العصب المثير لهاتين العضلتين(١) .

وعلى هذا يرى هاسون أن ضغط الهواء لا يقوم بفتح الوترين الصوتيين وليس له أى دور محرك لهما ، بل إن الأمر على عكس ذلك تماما، فاهتزاز الوترين الصوتيين هو الذى يقوم بالتدخل وتعديل تيار الهواء أثناء الجهر(٢) .

وفى ضوء هذا المنظور لآلية الجهر يتبين لنا أن الفكر الصوتى العربى لخاصة الجهر والهمس أقرب إلى التصور مما ورد بين ثنايا تلك النظرية إبان عصرنا الحديث ، وقد أثبتت التجارب التى أجريت على القطط باستخدام راسم العضلات الكهربائى عدم وجود علاقة بين نشاط العضلات وتردد الإثارة العصبية للوترين الصوتيين ، كما لوحظ أنهما لا يبدءان عملية الاهتزاز بل لابد لكى تبدأ عملية الاهتزاز من وجود كمية - ولو ضئيلة - من هواء الزفير(٣) .

= إذا إن سيبويه - على حد اجتهادى - فى تفسير مفهومه للجهر يوحى بأثر ضغط الهواء ، وإشباع الاعتماد ثم انقضاء هذا الاعتماد ، وخروج النفس بعدها صوتا، أما هاسون فيرد ذلك إلى الناحية العصبية العضلية ، على ما فى عصرنا من تقنيات، وخلو عصر سيبويه من ذلك ومن ثم يمكن القول بأن منظور سيبويه أقرب إلى المنطق .

(١) ينظر : دراسة السمع والكلام د / سعد مصلوح ١٣٣ عالم الكتب ١٩٨٠ م

(٢) السابق ١٣٣ (٣) السابق ١٣٤

(٦) لم تعدم الدراسات الصوتية لدى كثير من المحدثين[١] إشارات نابهة وتحليلات دقيقة فى توضيح مفهوم سيبويه لظاهرتى الجهر والهمس مما يؤكد ما نصبوا إليه من إدراك القدامى لدقائق الجهاز النطق وفعالياته .

ومن الإشارات الواعية فى ذلك ما لمحه الدكتور / ابراهيم أنيس فى سؤال الأخفش لسيبويه عن الفرق بين المهموس والمجهور ؟ إذ اشتملت الإجابة على ما أسماه سيبويه (صوت الصدر) هذا الذى يتحقق فى المجهور دون المهموس ، إذ يقول: المهموس إذا أخفيته ثم كررت أمكنك ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك فيه ، ولإثبات هذا المنظور طبق سيبويه على التاء والطاء والدال ، فتحقق التكرير مع الإخفاء فى التاء دون الطاء والدال مع ملاحظة اتفاق هذه المجموعة فى المخرج ، ومن ثم كانت ملاحظة سيبويه لصوت الصدر إذ يقول : وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر ، فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجرى فى الحلق . أما المهموس فتخرج أصواتها من مخارجها ، والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف ولا تصل إلى ذلك فى المجهور[٢] ، وقد رأى د / أنيس[٣] فى هذا النص ـ والحق معه ـ ما يتفق مع أحدث النظريات مستنتجا أن صوت

---

(١) ينظر : أصوات اللغة العربية : د / عبد الغفار هلال ١٦٢ : ١٧ ، الأصوات اللغوية : د / إبراهيم أنيس ٩٢ ، اللغة العربية (معناها ومبناها) : د / تمام ٦٠ / ٦٣

(٢) الأصوات اللغوية : د / أنيس ٨٣ نقلا عن مخطوطه دار الكتب شرح السيرافى لكتاب سيبويه .

(٣) الأصوات اللغوية : أنيس ٩٠ ، وينظر البحث اللغوى عند العرب : د / عمر ١٠٤

الصدر المشار إليه هذا لعله هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة .

وقد ردد ابن جنى هذه الثابتة فى التمييز بين النمطين أيضا إذ يقول : وأنت تعتبر ذلك بأنه يمكنك تكرير الحرف مع جرى الصوت نحو ككك ، ههه ، ولو تكلفت ذلك فى المجهور لما أمكنك »(٢) .

وقد ذهب الدكتور / تمام حسان(٢) فى تفسير ظاهرة الجهر على ضوء ما ورد فى تعريف سيبويه إلى أن سيبويه لم يكن يعرف وظيفة الأوتار الصوتية ، بل لم يكن يعرف حتى تركيب الحنجرة بدليل تسميتها أقصى الحلق .

ولعل منشأ هذه الأحكام عند الدكتور تمام أنه ربط بين الضغط (أو الاعتماد) والحجاب الحاجز من منطلق أن سيبويه لم يكن يعرف مصدر هذا الاعتماد ولا طريقته ، ومن يتأمل ما ورد بين ثنايا تحليله من إدراك سيبويه لمظهر الجهر ؛ وهو (الصوت) ، ومظهر الهمس ، وهو (النفس) ، وأن الجهر نتيجة لتقوية الضغط ، كما أن الهمس نتيجة لإضعافه يقف على بعض ما تهدف إليه هذه الدراسة من أن القدماء أدركوا فسيولوجية الجهر والهمس ، وربطوا بين آلية النطق وإحداث هذه الصفات وفق طبيعة مناهجهم .

ولعل ما ورد فى المنظور السابق للدكتور / ابراهيم أنيس(٣) ، وما حوته إشارات سيبويه فى موضع التمييز بين المجهور والمهموس ما يؤكد ذلك ، وقد ارتأى بعض علمائنا(٤) ـ والحق معه ـ « أن الحس

---

(١) سر صناعة الإعراب ١ / ٦٩
(٢) اللغة العربية (معناها ومبناها) ٦٠ ، ٦٢
(٣) الأصوات اللغوية ٨٩ ـ ٩٠
(٤) أصوات اللغة العربية ؛ د / هلال ١٦٨

المرهف لسيبويه جعله يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر . . . . . أما فى حالة المهموس فتجد طريق التنفس معه مفتوحا بحيث يسمح بإنسيابه حراً طليقاً » ، كما علل بعض باحثينا(١) لخاصية رفع الصوت فى المجهور وعدم استمرارها مع حبس النفس تعليلا ينم عن وعى علمائنا القدامى بآثر آلية النطق ، إذ إن مرد ذلك بلوغ الاعتماد غايته ليجرى الصوت مع النفس

ولا شك أن هذه الإشارات لمنظور الجهر عند سيبويه تتفق مع ما يقره الدرس الصوتى الحديث فى تفسير نظرية الجهر وفق آلية النطق ، أو ما أسموه « نظرية المرونة العضلية وديناميكية الهواء »(٢) ، ولا غرو فى ذلك، فقد بدا لبعض المحدثين(٣) أن المقصود بالاعتماد ـ فى تعريف سيبويه ـ « هو ضغط الهواء أسفل الأوتار الصوتية الذى ينجم عنه اهتزازها ، ومن ثم يخرج الحرف مصوتا » ، والأمر ـ فى نظرى لا يخلو من اجتهاد مشفوع ببعض الأمارات الموحية بمعرفة علمائنا القدامى بطبيعة هذه الظاهرة ، وإدراكهم لآليات إحداثها ، وهو ما يفند مزاعم كثير من الباحثين والمستشرقين(٤) .

وجدير بالذكر أننا لا نكلف القدامى ما لا يطيقون ، ويكفيهم دقة ووعيا بحقائق الأمور استشعارهم لطبيعة الجهر وفق آلية معينة واستشفافهم لموضع إحداثه مما سبق الإلماح إليه فى تحليلنا لفعالية الجهر والهمس .

---

(١) أصوات اللغة العربية . د / جبل ٧٢ - ٧٣

(٢) دراسة السمع والكلام ١٣٤

(٣) مقدمة فى أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآنى : د / البركاوى (١٠٠ - ١٠١) هامش رقم (١) .

(٤) التفكير الصوتى عند العرب : فليش ، بحث فى المجمع ٢٣/٥٨ ، العربية الفصحى : فليش ، تقديم د / عبد الصبور شاهين ١٥ ، فى الفكر اللغوى ١٣٦

ولم تكن آلية الجهر بمفردها فى ميدان الصفات دليلا على تعلق علمائنا القدامى بمعطيات آلية النطق، وإنما تضافرت الصفات الصوتية لبيان مدى معرفة علمائنا السابقين بديناميكية الحركة للجهاز النطقى من جانب، وتعدد عناصره ومكوناته من جانب آخر، وليس أدل على ذلك من صفة الاستعلاء والاستفال، كما وضحنا فى الحديث عن أهمية آلية النطق، وكذلك صفات الإطباق، الانحراف، الشدة، القلقلة، كما سيتبين لنا، إذ إن الإطباق -مثلا- كما حدّه القدامى:

«أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له(١) هذا عن آليته وكيفية تحقيقه وقد حدد المضمون السابق عضو النطق، ودرجة ارتفاعه، وهيئة الالتقاء، كما بُيِّنَت أهمية هذه الآلية النطقية فى الحفاظ على ماهية الحرف وكيانه فى المحتوى العلمى لإشارة سيبويه «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شىء من موضعها غيرها(٢).

أما المنحرف فهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام(٣) ولعل آلية النطق واضحة فى تحديد عضو النطق أيضا وهيئته وجريان الصوت مما يؤكد أهمية الآلية النطقية فى فلسفة الصفات من زاوية ويبرز إدراك علمائنا القدامى لدقائق حركاتها وهيئاتها الفسيولوجية من زاوية أخرى، ولا غرو فى ذلك، فصفة الشدة مثلا ما هى إلا انحباس الصوت فى المخرج، والرخاوة على النقيض من ذلك، ويوضح ذلك سيبويه فى ضوء آلية التجريب قائلا: «وذلك أنك لو قلت الحَجّ ثم مددت

---

(١) سر الصناعة ١ / ٧٠ (٢) ٤ / ٤٣٦

(٣) السابق ٤ / ٤٣٥

صوتك لم يجز ذلك(١) وبخصوص الرخوة « إذا قلت الطس وانقض ، وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت » .

ومن الصفات الأدائية للنسيج القرآنى القلقلة(٢) وهى فى اللغة التحريك والإضطراب ، وفى ضوء آلية النطق لا تخرج عن هذا المفهوم ، إذ يراد بها تحريك المخرج والصوت بعد انضغاطهما وانحباسهما ، وذلك أنك أولا تحبس الصوت فى المخرج حتى ينضغط الهواء فيه انضغاطا شديداً ، ثم تفك المخرج فكة سريعة فينطلق الصوت محدثا نبرة قوية وهزة فى المخرج هذه النبرة هى القلقلة ، وقد وضح ابن جنى ذلك فى ضوء آلية التجريب مخاطبا القارىء « لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت ، ومعللا ذلك بشدة الحفز والضغط ، وممثلا بنحو الحق واذهب(٣) .

ومن هذه الصفات الأدائية - أيضا - للنسق القرآنى صفة التفشى فى حرف الشين لأنه تفشى فى مخرجه حتى اتصل بمخرج الطاء ، مما يؤدى إلى إنتشار الريح فى الفم عند النطق به(٤) فى ضوء المعطيات الصوتية السابقة يتجلى للعيان مدى الدقه البالغة فى اكتناه علمائنا القدامى لآلية النطق وأثرها فى تشكيل السمات المميزة للصوت اللغوى مستعينين فى ذلك بالملاحظة الذاتية تنظيرا وتجريبا ، وقد ظهر أثر ذلك بوضوح فى معالجتهم اللغوية المتنوعة كما سيبدو على بساط البحث .

---

(١) السابق ٤/٤٣٤

(٢) ينظر : قواعد التجويد : عبد العزيز القارىء ٥٢ ، فقه اللغة وخصائص العربية : د/ محمد المبارك ٤٩ - ٥٣

(٣) سر الصناعة ١ / ٧٣

(٤) النشر فى القراءات العشر ١ / ٢٠٥ ، نهاية القول المفيد ٥٨

٥ ـ آلية النطق فى ضوء المعالجات اللغوية

لم تكن آلية النطق فى الفكر الصوتى عند العرب مقصورة فى تناولها على المصنفات الصوتية بل امتدت معطياتها إلى تفسير كثير من القضايا فى ضوء المعالجات اللغوية المتنوعة لكثير من الجوانب البحثية فى تراثنا اللغوى تفسيرا وتعليلا ، وليس أدل على ذلك من المصادر المتنوعة التى احتفت بها ، الأدبية منها ، والبلاغية والنحوية والصرفية ، وكذلك مؤلفات علم القراءات والتجويد ، وسيعرض البحث ـ هنا ـ لنموذجين يؤكدان ما يصبو إليه .

(ا) آلية النطق فى ضوء التجاور الصوتى للبنية اللغوية :

وردت بين ثنايا المؤلفات اللغوية الإشارات الفسيولوجية المتنوعة مما يدل على إلمام القدامى بآليات الجهاز النطق فى ضوء إدراكهم لأثر فعالياته على ماهية الصوت وكيانه ، وإذا رمت على ذلك دليلا فتأمل معالجة سيبويه لقضية الإدغام ، وكيف لعبت آليات النطق دورا فى فلسفة معطياتها ، ومن ذلك « باب الإدغام فى الحروف المتقاربة التى هى من مخرج واحد(١) ومنه قوله : والفاء لا تدغم فى الباء لأنها من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ، وانحدرت إلى الفم ، وقد قاربت من الثنايا مخرج الثاء ، وإنما أصل الإدغام فى حروف الفم واللسان ، لأنها أكثر الحروف فلما صارت مضارعة للثاء لم تدغم فى حرف من حروف الطرفين ، كما أن الثاء لا تدغم فيه ، وذلك قولك : اعرف بدرا ، والباء قد تدغم فى الفاء

---

(١) الكتاب ٤ / ٤٤٥

للتقارب ، ولأنها قد ضارعت الفاء ، فقويت على ذلك لكثرة الإدغام فى حروف الفم ؛ وذلك قولك : اذهب فى ذلك ؛ فقلبت الباء فاء كما قلبت ميما فى قولك : اصْحَبْ مَطَرًا (١) .

لقد أقام سيبويه فلسفة الإدغام على طبيعة المخارج وآليات النطق مما يبرز أهميتها من جانب وإدراك السلف لخصائصها وجدواها ؛ ولا غرو فى ذلك فقلما تخلو قضايا الإدغام من تعليل فسيولوجى « فالراء لاتدغم فى اللام ولا فى النون ؛ لأنها مكررة ؛ وهى تفشى إذا كان معها غيرها ؛ فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ما ليس يتفشى فى الفم مثلها ولا يكرر ويُقَوِّى هذا أن الطاء وهى مطبقة لا تجعل مع التاء تاء خالصة ؛ لأنها أفضل منها بالإطباق ؛ فهذه أجدر أن لاتدغم إذا كانت مكررة ؛ وذلك قولك : اجْبُرْ لَبَطَة واخْتَرْ نَقَلا(٢) .

وهكذا وردت المصطلحات الناجمة عن آلية النطق فى المناقشة من نحو: التكرار ، والتفشى ، والإطباق ؛ وكلها صفات هى وليدة الحركة الفسيولوجية لأعضاء النطق ؛ كما كان للبعد أو القرب بين المخارج دور فى المعايير الضابطة لظاهرة الإدغام « فالشين لاتدغم فى الجيم ؛ لأن الشين استطال مخرجها لرخاوتها حتى اتصل بمخرج الطاء . فصارت منزلتها منها نحوا من منزلة الفاء مع الباء فاجتمع هذا فيها والتفشى . فكرهوا أن يدغموها فى الجيم »

ومن ذلك(٣) النون تدغم مع الراء لقرب المخرجين على طرف اللسان . وهى مثلها فى الشدة ، وذلك قولك : مِنْ راشِدٍ وَمَنْ رَأَيْتَ ، وتدغم

---

(١) السابق ٤ / ٤٤٨

(٢) السابق ٤ / ٤٤٨

(٣) الكتاب ٤ / ٤٥٢

بغُنّةٍ وبلا غُنَّة . وتُدغمُ فى اللام لأنها قريبة منها على طرف اللسان وذلك قولك : مَن لَّكَ . . . إلخ ومما يؤكد ما أصبو إليه من بيان أهمية آلية النطق فى التراث . وإدراك علمائنا الأفذاذ لمعطياتها فى ميدان الدراسة الصوتية إفراداً وتركيباً منهج سيبويه فى طرحه لظاهرة الإدغام ، إذ قدم لها بالحديث عن آلية الجهاز النطق ممثلة فى المخارج والصفات . وعقب على ذلك بقوله : وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه . وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه وما تبدله استثقالا كما تدغم وما تخفيه وهو بزنة المتحرك(١) مما يدل على أهمية الآلية النطقية فى فلسفة التفاعلات التجاورية بين الفونيمات داخل الصيغة أو التركيب اللغوى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلاغيين سلكوا - أيضا - هذا المسلك حاله عرضهم لقضية الفصاحة فى اللفظ المفرد . إذ ارتبط الأمر فى منظورهم بمعايير متنوعة انبثق بعضها من معين آلية النطق ولا سيما التباعد بين مخارج الفونيمات المكونه لنسيج البنية اللغوية . ومن هنا كان بسطهم لآلية النطق . للاهتداء بمعطياتها وليس أدل على ذلك من تقرير ابن سنان الخفاجى « وإنما أردنا ذكر ما لا يستغنى عنه طالب معرفة الفصاحة التى لها يقصد وإليها ينحو فأما سوى ذلك فالمحة تقنع منه . واللمعة تغنى فيه . وفيما أوردناه من أقسام الحروف وأحكامها فى هذا الفصل مقنع(٢) .

ومن الإشارات العلمية فى معالجة ابن سنان ما قرره بخصوص المهمل(٣) من اللغه وسببه « فى الأكثر من اطراح الأبنيه التى يصعب النطق بها لضرب من التقارب فى الحروف ويستدل على ذلك بنماذج لها

(١) الكتاب ٤ / ٤٣٦
(٢) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ٢١
(٣) السابق : ٤٧ - ٤٨

سمات تجاورية غير مقبولة . مردها آلية النطق قائلا : فلا يكاد يجيء فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لحزونه ذلك على ألسنتهم . وثقله » ويروى عن الخليل قوله : سمعنا كلمة شنعاء وهى الهعخع . وأنكرنا تأليفها » .

ويعرض ابن سنان لشروط الفصاحة فى اللفظة المفردة ويحصرها فى ثمانية أشياء ويجعل أولها ما ينصل بآلية النطق حيث يقول(١) أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج . . . ويعلل لذلك قائلا : « إن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر . ولا شك فى أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربه . ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة . ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود وإذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة فى حسن اللفظه المؤلفه من الحروف المتباعدة فى العلة فى حُسْنِ النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة ويقرر ابن سنان (٢) أن التأليف من الحروف المتباعدة كثير جل كلام العرب عليه مشيرا إلى النمط الثانى حيث التأليف من الحروف المتقاربة ممثلا له بصيغة (الهعخع) ومعقبا على ذلك بقوله »ولحروف الحلق مزية فى القبح إذا كان التأليف منها فقط » . وبهذا مزج ابن سنان بين آلية النطق ممثلة فى المخارج والجانب السمعى الفيزيائى مما يدل على أهمية آلية النطق فى معايير البلاغيين وأسس دراستهم لقضية رئيسية فى الدرس البلاغى . وهى قضية الفصاحه .

(ب) آلية النطق فى ضوء علم القراءات والتجويد :

لم تغب آلية النطق بمعطياتها وثمارها عن بال علماء القراءات والتجويد فقد أفسحوا لها مساحات كبيرة من مؤلفاتهم ، ولا عجب فى ذلك فهدفهم

(١) سر الفصاحة ٥٤

(٢) السابق ٥٥ ، وينظر سر صناعة الإعراب ، ابن جنى ١ / ٧٥

ما كان ليتحقق فى غيبة هـــذا المحور الفسيولوجى ، ومراعاة أطره المخرجية والصفاتية توخيا للأداء السوى والاتساق الصوتى للنسق القرآنى الكريم ومن ثم رأوا أن لتلك المعطيات فوائد لابد من معرفتها لمريد هذا العلم قبل الآخذ به كالكلام على مخارج الحروف وصفاتها وكيف ينبغى أن يقرأ القرآن من التحقيق والحدر والترتيل والتصحيح والتجويد(١) . . . . الخ.

وعن التحقيق فى قراءة القرآن ورد وصفهم متعلقا بآلتات النطق إذ إنه عبارة عن إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد، وتحقيق الهمزة ، وإتمام الحركات ، واعتماد الإظهار والتشديدات ، وتوفية الغنات ، وتفكيك الحروف وهو بيانها ، وإخراج بعضها من بعض بالسكت والترسل واليسر والتؤدة ، وملاحظة الجائز من الوقوف(٢) .

ولذا كان مفهوم التجويد فى منظورهم « الإتيان بالقراءة مجودة الألفاظ بريئة من الرداءة فى النطق ، ومعناه انتهاء الغاية فى التصحيح وبلوغ النهاية فى التحسين » .

كما أنه حلية التلاوة وزينة القراءة ، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ومراتبها ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وإلحاقه بنظيره وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته وكمال هيئته ، من غير إسراف ولا تعسف ، ولا إفراط ولا تكلف(٣) .

وكل ذلك من توفية الغنات ، وبيان الحروف ، وإشباع المد ، ومراعاة جل معطيات علم الأداء يتعلق بآلية النطق .

---

(١) النشر ١ / ١٩٨ .
(٢) السابق ١ / ٢٠٥
(٣) السابق ١ / ٢١٠ — ٢١٢

وفى الميدان العملى نلحظ تعليلاتهم لأحكام الأداء القرآنى ومعاييره الضابطه لسلامته واستوائه وقد انبثقت من آلية النطق متعلقه بالمخارج أو الصفات ، ومن ذلك فلسفة ظاهرة الإظهار فى تجاور النون الساكنة أو التنوين لحروف الحلق وتعليلها بالبعد المخرجى إذ تعتمد كل هـذه الأحكام على المخارج وتحركات أعضاء النطق ، وما ينجم عنها لتحقيق سلامة الأداء .

كما أن الإخفاء أيضاً ـ وليد تلك الآلية إذ « إن النون والتنوين لم يقربا من هذه الحروف (التاء ـ الثاء ـ الجيم ـ الدال ـ الذال ـ الزاى ـ السين ـ الشين ـ الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف) كقربهما من حروف الإدغام ، فيجب إدغامها فيهن من أجل القرب ، ولم يبعد منهن كبعدهما من حروف الإظهار ، فيجب إظهارهما عندهن من أجل البعد ، فلما عدم القرب الموجب للإدغام والبعد الموجب للإظهار أخفيا عندهن ، فصارا لامدغمين ولا مظهرين(١) .

وهكذا أقيمت دعائم تلك الأحكام على هدى آلية النطق ومراعاة موقعية المخارج على خريطة الجهاز النطق بدقة بالغة لدرجة أن ظاهرة الإخفاء ـ مثلا ـ تتراوح على قدر قرب النون الساكنة أو التنوين من الحروف المشار إليها وبعدهما عنهن ، فما قربا منه كانا عنده أخفى مما بعدا عنه(٢) مما يثبت دور آلية النطق فى معالجات علماء القراءات والتجويد من جانب ، وأهميتها فى فلسفة كثير من قضايا تراثنا اللغوى من جانب آخر .

---

(١) السابق ٢ / ٢٢ / ٢٧

(٢) السابق ٢ / ٢٧

٤ ــ تعقيب حول فقه القدامى لآلية النطق :

على هدى ماورد بين ثنايا البحث تجلت لنا عناية الفكر الصوتى عند العرب بآلية النطق وإن لم تقع تحت هــذا المصطلح أو غيره مما يجمع جزئياتها تحت جناحيه، وهذا شأن كثير من ملامح الفكر فى تراثنا اللغوى بصفة عامة، إذ لا ضير ـ على وفق منهج السلف ـ من مزج القضايا النحوية بمعطيات الدرس الصرفى، وتفسير بعض إشكاليات المنحيين فى ضوء نتائج الدرس الصوتى، والاستشهاد على كل ذلك بما ورد من نماذج شعرية أو نثرية بين بطون مؤلفات الأدب ومصنفات الشعر، مما يجعل ميدان المعالجة أمشاجا متصلة من معطيات العلوم اللغوية، وتلك طبيعة عصورهم.

وآلية النطق فى ساحة الفكر الصوتى بدت معالمها واضحة فى أذهان السلف من رواد الفكر اللغوى، وقد عرض البحث لدلائل ذلك وأماراته فى ضوء ذكرهم لفعاليتها فى غير موضع من مصنفاتهم، حالة مناقشتهم قضيتى المخارج والصفات الصوتية، على هدى من ملامح المنهج الوصفى المعتمد على الملاحظة الذاتية، كما كان لبعضهم دور واضح فى ابتكار المنهج العملى التجريبى فى حقل هذا النمط الدراسى، مستخدماً التشريح وكذلك التجريب، فى كشف أسرار ديناميكية التصويت من جانب، وعلة المرونة فى آلية الأعضاء النطقية من جانب آخر.

وجدير بالذكر أنه ليس من الإنصاف أن يقلل بعض المحدثين من جهود القدامى فى ميدان كآلية النطق، أو يشير إلى عدم إدراكهم لدور عضو من أعضاء التصويت وأثره فى العملية الكلامية، كالوترين الصوتيين، أو القصبة الهوائية . . . الخ لأمور منها :ـ

(١) أن الحكم فى مثل هذه القضايا الفكرية ينبغى أن يكون على

(١) انظر : فقه اللغة : الثعالبى ٧٢ - ٧٣ منشورات ـ بيروت .

نتائج النظرية بصفة عامة ، ويكون نتيجة لتقصى بعض الجوانب ، مثل : هل أدرك القدامى أطر هذا الملمح ووقفوا على مناحيه ؟ هل وصلوا إلى العلاقة بين آليات النطق ونتائجها من مخارج وصفات ؟ هل ربطوا بين الجانب الآلى الفسيولوجى فى النطق والسمات الفيزيائية ؟ فإذا كانت الإجابة بالإيجاب ، فلا ينبغى إلا رصدُ السَّبق والابتكار وليس الجحود والإنكار .

٢ ــ من التجنى الحكم على المنظور الصوتى لآلية النطق عند العرب ، بعيداً عن ظروف عصرهم وملابساته ، وفى ضوء تقنياته ، وعلى هدى من أسس مناهجهم .

٣ ــ لا يحسن النظر إلى جهود عالم فرد بعينه بمعزل عن نتائج الآخرين ؛ إذ يمثل فكرهم منظومة متكاملة متواصلة الحلقات ، فهى صورة فكرية لفترة زمنية لها ملامح متشابهة وظروف متقاربة ، فما لم يهتد إليه الخليل ألمح إليه سيبويه ، وأكمل إطاره ابن جنى ، ووضحه فى ضوء التشريح ابن سينا ، وعلق عليه إخوان الصفا ـ مثلا ـ فى رسائلهم ، ومن ثَمَّ ينبغى أن تستقصى ملامح القضية على هدى ما ورد بصفة عامة بين دفتى التراث .

وفى ضوء ذلك يمكن القول ـ دون مبالغة أو إسراف فى الأحكام ـ بأن روادنا القدامى قد تمكنوا من ناصية هذه النظرية التى تفسر آلية النطق ومعطياتها فى ضوء ما طرحه البحث وما يمكن أن نستخلصه من نتائج ونشير إليه من توصيات على النحو التالى : ـ

أولا النتائج : ـ

١ ــ وصف آليات النطق فى الفكر الصوتى عند العرب لم يقصد لذاته ، وإنما بدت معالمه على هدى التفصيلات الدقيقة لنظرية المخارج والصفات للأصوات وما شاع فى معالجتهم من مصطلحات صوتية انبثقت من فسيولوجية النطق وآليات التصويت .

٢ ـ وقف الفكر الصوتى عند العرب على الترابط النطق الفيزيائى، ممثلا فى تعليله للصفات الصوتية الناجمة عن آلية النطق، سواء أكانت صفات فسيولوجية أم فيزيائية، كالشدة والجهر.

٣ ـ أسس علماؤنا القدامى أصول المنهج العلمى التجريبى فى حقل آلية النطق، مما سجل لهم فضل السبق والابتكار فى هذا الجانب العلمى.

٤ ـ أدرك علماؤنا القدامى الأهمية البالغه لآلية النطق وأثرها البالغ فى الدرس الصوتى تفسيرا وتحليلا وتعليلا إبان معالجتهم اللغويه المتنوعة لدى النحويين والصرفيين والبلاغيين والبيانيين والأصواتيين وعلماء القراءات والتجويد والمعجميين.

ثانيا : التوصيات :

لعل تلك العناية البالغة لروادنا القدامى بملمح آلية النطق وصفا وتشريحا وتجريبا، وما ورد عنهم من مناقشة العيوب النطقية ـ إلى غير ذلك مما طرحه البحث ـ كان وراء تلك التوصيات، تأسيا بهذا المدّ من العناية والحرص على سلامة النطق للوحدة الصوتية، ومن ثم عنيت التوصيات بالمحور التعليمى على النحو التالى : ـ

(أ) ينبغى على المعنيين بوضع البرامج التعليمية فى رياض الأطفال، والمرحلة الأولى من التعليم الأساسى العناية بمحور آلية النطق وعرض فعاليتها بطرق محببة لدى الناشئة على لفائف الفيديو وبثها على الشاشة الصغيرة لتقويم آلية النطق واستواء معاييره لديهم فى ضوء التدريبات والممارسات الأدائية التى يعالجها المعلم أمامهم.

(ب) يراعى فى المعاهد العلمية المعنية بتخريج مدرسى المراحل الأولى من التعليم بسط برنامج تفصيلى لدقائق آليات النطق وديناميكية التصويت؛ للإفادة من هذه النظرية فى الدور التعليمى الذى يقوم به معلمو تلك المرحلة ذات الدور الكبير فى العادات النطقية لدى البراعم الصغيرة.

(ج) ينبغى الاعتداد بمنظور آليات النطق فى معاهدنا العلمية المعنية بتخريج الإعلاميين ورواد الكلمة، وكذلك كليات الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر؛ لما لذلك من أثر إيجابى على الملتقى المصرى والعربى على السواء فى حفظ وصيانة وتنقية النطق العربى.

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير»

عبد المنعم عبد الله محمد
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهـــر
فى ٢٠/١/١٩٩٥م

جريدة المراجـــع

أولا المطبوعات :

١ – القرآن الكريم (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (سورة هود الآية ١)

٢ – أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى : د / عبد الغفار هلال – الطباعة المحمدية سنة ١٩٧٩ م

٣ – أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا ، تحقيق محمد حسن الطيان ، يحيى مير علم ط ١ دمشق سنة ١٩٨٣ م .

٤ – أصوات اللغة : د عبد الرحمن أيوب ، ط ١ سنة ١٩٦٣ م

٥ – الأصوات اللغوية : د / إبراهيم أنيس ، ط ٤ الأنجلو المصرية.

٦ – أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار هلال ، مطبعة الجبلاوى ط ٢ سنة ١٩٨٨

٧ – أصوات اللغة العربية (دراسة نظرية وتطبيقية) د / محمد حسن جبل (أوفست) دار أبو العينين سنة ١٩٨١ م .

٨ – الأصوات اللغوية فى لسان العرب فى ضوء دراسات علم اللغة الحديث د / ناجح مبروك ، دار التوفيقية للطباعة ، ط ١ سنة ١٩٨١ م

٩ – أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : نايف خرما ، عالم المعرفة ، الكويت سنة ١٩٧٩ م

١٠ ـ أمراض الكلام : د/ مصطفى فهمى ط ٤ دار مصر للطباعة سنة ١٩٧٦ م .
١١ ـ البحث اللغوى عند العرب : د / أحمد مختار عمر ط ٤ عالم الكتب ١٩٨٢ م
١٢ ـ البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون. ط ٤ ـ بيروت .
١٣ ـ التجويد والأصوات : د/ إبراهيم نجا ،مطبعة السعادة ١٩٧٢ م.
١٤ ـ تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهرى ، تحقيق الشيخ النجار وآخرين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٤ م.
١٥ ـ التمهيد فى علم التجويد : ابن الجزرى ، تحقيق د / على حسين البواب ط ١ سنة ١٩٨٥ م ، الرياض .
١٦ ـ حولية كلية دار العلوم العدد الثالث ، كتاب العين للخليل ابن أحمد وموقعه فى آثار الدارسين ، د /كمال بشر .
١٧ ـ جمهرة اللغة : ابن دريد ط حيدآباد سنة ١٣٤٦ .
١٨ ـ دراسات فىأصوات اللغة العربية : د/يحيى محمود الجندى ط ١ سنة ١٩٨٣ م ـ مطبعة الشباب الحر .
١٩ ـ دراسات فىالتجويدوالأصوات اللغوية د /عبد الحميدأبو سكين. مطبعة الأمانة سنة ١٩٨٣ م .
٢٠ ـ دراسات فى فقه اللغة : د/ صبحى الصالح ، ط ٩ دار العلم للملايين سنة ١٩٨١ م ـ بيروت .
٢١ ـ دراسات فى علم اللغة : د/ كمال بشر ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ م
٢٢ ـ دراسات صوتية : د / تغريد عنبر ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ القاهرة ، سنة ١٩٨٠ م

٢٣ - دراسة السمع والكلام : د / سعد مصلوح ، عالم الكتب سنة ١٩٨٠ م .

٢٤ - دراسة الصوت اللغوى : د / أحمد مختار عمر ، ط ٢ سنة ١٩٨١ عالم الكتب .

٢٥ - دروس فى علم أصوات العربية : جان كانتنيو ، تعريب صالح القرمادى ، نشر الجامعة التونسية .

٢٦ - دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث : د / عبدالفتاح البركاوى ط ١/١٩٩١ م كويك حمادة الجريسى للطباعة .

٢٧ - الدلالة الصوتية دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره فى التواصل : د / كريم زكى حسام الدين ط ١ سنة ١٩٩٢ م الأنجلو المصرية .

٢٨ - سر صناعة الإعراب : ابن جنى ، تحقيق محمد الزفزاف وآخرين ط البابى ج ١ سنة ١٩٤٤ م .

٢٩ - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ، طبعة صبيح سنة ١٩٥٢ م

٣٠ - العربية الفصحى : هنرى فليش ، تعريب وتحقيق د / عبدالصبور ط ١ سنة ١٩٦٦ م - المطبعة الكاثوليكية .

٣١ - علم الصوتيات : د / عبد الله ربيع محمود ، د / عبدالعزيز علام ، التوفيقية ١٩٧٩

٣٢ - علم اللغة (مقدمة للقارىء العربى) : د / محمود السعران ، دار المعارف ١٩٦٢ م

٣٣ - علم اللغة العام أسسه ومناهجه د : عبد الله ربيع محمود - مؤسسة الزهور ط ١ سنة ١٩٩٤ م .

٣٤ - علم اللغة العام (الأصوات العربية) : د / كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب سنة ١٩٨٧ م .

٣٥ ـ العين : الخليل بن أحمد ، تحقيق مهدى المخزومى ، د / إبراهيم السامرائى ـ ط ٢ سنة ١٤٠٩ هـ ، دار الهجرة ـ إيران .

٣٦ ـ فقه اللغة : الثعالبي ، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت .

٣٧ ـ فقه اللغة العربية : مجد محمد الباكير البرازى ، دار مجد لاوى ـ الأردن ، ط ١ سنة ١٩٨٧ م

٣٨ ـ فى الأصوات اللغوية (دراسة فى أصوات المد العربية) د / غالب المطلبى منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ـ سنة ١٩٨٤ م ـ سلسلة دراسات (٦٣٤) .

٣٩ ـ فى البحث الصوتى عند العرب : د / خليل إبراهيم العطية (الموسوعة الصغيرة ٢٢٤) بغداد .

٤٠ ـ قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم ، تأليف د / عبد العزيز عبد الفتاح القارى ، ط ٥ سنة ١٤٠٤ هـ ، مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر

٤١ ـ الكتاب : سيبويه ، تحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية ط ٢ سنة ١٩٧٧ م .

٤٢ ـ لسان العرب : ابن منظور ط ١ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة .

٤٣ ـ اللغة : فندريس ، ترجمة : الدواخلى والقصاص ، القاهرة سنة ١٩٥٠ م

٤٤ ـ اللغة العربية (خصائصها وسماتها) د / عبد الغفار هلال ط ١ سنة ١٩٧٦ م الحضارة العربية .

٤٥ ـ اللغة العربية (معناها ومبناها) : د / تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة ـ سنة ١٩٧٩ م .

٤٦ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الهيئة العامة) الأعداد (١٥ ، ٢٣ ، ٢٤) .

٤٧ ـ المحيط فى أصوات العربية ونحوها وصرفها : د / الأنطاكى ط ٣ ، دار الشروق العربى .

٤٨ ـ مقدمة فى أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآنى د / عبد الفتاح البركاوى ط ٢ سنة ١٩٩٤ م

٤٩ ـ المقطع الصوتى فى ضوء تراثنا اللغوى د / عبد المنعم عبدالله محمد ط ١ ـ سنة ١٩٨٨ م مطبعة الجبلاوى .

٥٠ ـ الملامح الأدائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين : د / عبد الله ربيع محمود ط ١ سنة ١٩٤ م

٥١ ـ الممتع فى التصريف : ابن عصفور الأشبيلى ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ط ٤ سنة ١٩٧٩ م دار الآفاق ـ بيروت .

٥٢ ـ مناهج البحث فى اللغة : د / تمام حسان ، دار الثقافة ، المغرب (الدار البيضاء) سنة ١٩٧٩ م .

٥٣ ـ النشر فى القراءات العشر : ابن الجزرى (أوفست) المثنى ـ بغداد

٥٤ ـ نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب : د / أحمد طاهر حسنين ط ١ هجر سنة ١٩٨٧ م .

٥٥ ـ نهاية القول المفيد فى علوم التجويد : الشيخ مكى محمد نصر ، ط البابى الحلبى سنة ١٣٤٩ هـ .

القسم الخامس

قسم التاريخ :

قراءة تاريخية جديدة فى موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الفتوحات الإسلامية

أ . د / عبد الشافى محمد عبد اللطيف

قراءة تاريخية جديدة
في
موقف عمر بن الخطاب
رضي الله عنه من الفتوحات الإسلامية

بقلم الدكتور
عبد الشافي محمد عبد اللطيف

في شهر نوفمبر ١٩٩٣ م عقد اتحاد المؤرخين العرب ندوة في مقره بمدينة نصر عن الحضارة الإسلامية وعالم البحار ، وفي أثناء إلقاء البحوث والمناقشات تطرق الحديث إلى إنشاء الأسطول الحربي الإسلامي، ومعارضة عمر بن الخطاب في البداية بشدة لهذا الموضوع ، عندما عرض عليه والي الشام ، معاوية بن أبي سفيان الأمر طالبا الإذن منه في إنشاء قوة بحرية إسلامية تدافع عن سواحل المسلمين في الشام ومصر ضد هجمات الأسطول البيزنطي ، خاصة من قاعدته القريبة من شواطيء الشام في جزيرة قبرص التي قال عنها معاوية: إن الناس في حمص يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها(١) .

وجاء رفض الخليفة عمر بدافع حرصه على سلامة المسلمين وعدم الزج بهم في ميدان خطر كهذا قبل أن يستعدوا له تمام الاستعداد ، إذ كانت له تجربتان

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٨

سابقتان في التعامل مع البحر ، كلاهما لم تنجح ، وسنعود إلى الحديث عنهما قريبا .

ولكن الذى نريد أن نوضحه هنا ـ والذى كان دافعنا إلى كتابة هذا البحث ـ أن أحد أساتذة التاريخ علق على موقف عمر من إنشاء أسطول إسلامي ورفضه الحاسم ، قائلا : إن عمر بن الخطاب كان يجهل أمر البحر ولا يعرف شيئا عنه لأنه رجل نشأ فى الصحراء وكان يخاف من ركوب البحر

ولذلك استشار عمرو بن العاص فى هذه المسألة ، وطلب منه أن يصف له البحر ، فجاء وصف عمرو بن العاص للبحر مؤكدا لمخاوف عمر بن الخطاب ، فقد كتب إليه قائلا : « يا أمير المؤمنين ، « إنى رأيت خلقا عظيما يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، وإنما هم كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق(١).

عند ذلك صمم عمر بعد ان قرأ هذا الوصف على الرفض .

فكيف يجهل عمر بن الخطاب البحر وأحواله ، وهو الذى أمر بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، لتسير فيها السفن محملة بالميرة إلى أهل الحجاز ، فقد كتب إلى عمرو بن العاص : « إن الله فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى ـ لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم ـ أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حمله على الظهر يبعد ، ولا نبلغ معه ما نريد ، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم . . انطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه ، إن شاء الله(٢) .

هذا هو عمر بن الخطاب يأمر بحفر قناة لوصل النيل بالبحر الأحمر ـ

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٥٩

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ طبعة ١ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٧

سميت خليج أمير المؤمنين ـ لتسهيل عملية النقل والتجارة بين مصر والجزيرة العربية ، فهو لا يجهل ، البحر ولكن هناك فرقا بين استخدام البحر للتجارة وبين الحروب البحرية ومخاطرها على المسلمين ، والتى كان عمر يخشاها عليهم. عندما سمعت هذا الكلام أحسست بالدهشة ، بل بالانزعاج الشديد ، إذ كيف يوصف عمر بن الخطاب ـ من أحد أساتذة التاريخ ، وبهذه «البساطة» ـ بأنه يجهل أمر البحر ، لأنه نشأ فى الصحراء . أو ليست هذه الصحراء شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جهات : البحر الأحمر من الغرب ، والخليج من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب ، وقد تبين لى من خلال المناقشات أنه ليس عمر ابن الخطاب الذى يجهل أمر البحر ، وإنما بعض أساتذة التاريخ مع الأسف الشديد ، هم الذين يجهلون تاريخ عمر بن الخطاب وأسلوبه فى إدارة الدولة الإسلامية بصفة عامة ، وإدارة دفة الفتوحات الإسلامية بصفة خاصة ، ويجهلون أن قرارات عمر بن الخطاب لم تكن ارتجالية ، بل كانت مبنية على أسس موضوعية ، وبعد استشارة كبار الصحابة ، وفى هذه النقطة بالذات له مبرراته القوية ، كما سنشرح فيما بعد .

فإذا كان هناك من يستحق أن يوصم بالجهل فهو من يصف عمر بن الخطاب بالجهل ، ولكى نعرف موقف عمر بن الخطاب من الفتوحات بصفة عامة ، ومن إنشاء أسطول بحرى إسلامى يغزو المسلمون به فى البحار بصفة خاصة ، ينبغى أن نلم ببعض النقاط :

أولا : إن حركة الفتوحات الإسلامية تعد واحدة من الأحداث العالمية الكبرى فى التاريخ البشرى ، بل هى أخطر وأعظم حركة فتوحات فى كل ذلك التاريخ ، وذلك لما أحدثته من تغييرات وتأثيرات عميقة ، على رقعة واسعة من الأرض امتدت على طول وعرض قارات العالم القديم : آسيا وأفريقيا وأوروبا .

وقد شملت تلك التأثيرات الأحـــوال الدينية والسياسية واللغوية والفكرية والثقافية والاجتماعية ، وهى لاتزال مستمرة وفى زيادة مطردة .

ومن هذه الناحية - ناحية التأثيرات العميقة والمستمرة فى العالم - فإن الفتوحات الإسلامية إذا قورنت بحركات فتوحات عسكرية سابقة عليها ، كفتوحات الإسكندر الأكبر المقدونى ، التى سبقتها بحوالى ألف سنة ، أو جاءت بعدها ، كغزوات المغول التى تلتها بستة قرون تقريبا ، فإن هذه المقارنة تظهر عظمة الفتوحات الإسلامية .

أما فتوحات الإسكندر وإمبراطوريته التى شادها فى الشرق ، فلم يكد يختفى من الحياة حتى تمزقت أوصال تلك الإمبراطورية وأخذت تضمحل شيئا فشيئا إلى أن أصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ .

وأما غزوات المغول ، فإنها فى حد ذاتها تقدم أكبر وأقوى البراهين على عظمة الفتوحات الإسلامية وخلودها ، لأن هذه الغزوة المغولية البربرية التى لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل فى وحشيتها وهمجيتها ، والتى دمرت معظم العالم الإسلامى فى الشرق بما كان له من حضارة زاهرة ، ولم يوقف زحفها المدمر ، ويحمى بقية العالم منها سوى الوقفة الباسلة والشجاعة التى وقفها الجيش المصرى بقيادة السلطان قطز وقائده الظاهر بيبرس ، حين ألحقوا بالمغول أول هزيمة ساحقة تحل بهم منذ ظهورهم فى مطلع القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وكانت تلك الملحمة الإسلامية الرائعة فى عين جالوت فى شهر رمضان المبارك عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م هذه الغزوة المغولية البربرية كان يمكن أن ينساها التاريخ ، أو يذكرها ككابوس عابر فظيع ألم بالإنسانية فى مسيرتها الطويلة ، ومضى إلى سبيله ، كان يمكن يحدث ذلك لولا أن الله سبحانه وتعالى قد أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الهمجية وهداها ، فأسلم أغلب المغول ، وطواهم الإسلام تحت جناحه ، وأظلهم بحضارته ، وحولهم من قوة غاشمة مدمرة إلى قوة خيرة ، ومن أعداء مهاجمين إلى أتباع مدافعين ومشاركين فى صنع الحضارة الإسلامية ، وشادوا حضارة ارتبطت باسمهم فى الهند وإيران وأفغانستان .

وهذه الظاهرة المغولية عكست نظرية ابن خلدون، أو هي ربما الاستثناء الوحيد من تلك النظرية التي ذهب إليها ؛ وهي أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب، فالغالب وهم المغول الذى قلد المغلوب وهو هنا المسلمين بل لم يقلده فقط وإنما اعتنق دينه وخضع لسيادته، واستظل بحضارته وأسهم فى إثرائها وهذه هى عبقرية الإسلام الخالدة والباقية على الزمن.

فكل أرض وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، انتشر فيها الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية، وشكلت العالم الإسلامى، ولم يتراجع الإسلام عن أية منطقة، سوى الأندلس، وعندما تراجع الإسلام عن الأندلس، لأسباب ليس هنا مجال شرحها، عوض ذلك أضعاف أضعافها فى مناطق أخرى فى آسيا وأفريقيا، وبدون أية حروب أو معارك بل عن طريق الدعاة والتجار المسلمين.

ثانيا : إن هذه الحركة - الفتوحات الإسلامية - الكبيرة والخطيرة لم تدرس حتى الآن دراسة شاملة من الناحية العسكرية البحتة، مع أن المسلمين خاضوا معارك عسكرية كبيرة وحاسمة، ضد الدولتين العالميتين فى ذلك الوقت، فارس والروم، فأجنادين واليرموك على جبهة الروم، والقادسية ونهاوند على الجبهة الفارسية، كانت من المعارك الخطيرة فى التاريخ العسكرى العالمى. وكانت معارك حاسمة فى التاريخ البشرى بدون شك، فالعالم الذى كان قبل تلك المعارك لم يعد هو العالم بعدها بل تغير تغييرا جذريا فى كل شىء، بل معركة واحدة هى معركة نهاوند أزال انتصار المسلمين فيها أمبراطورية الفرس من الوجود، وقد سمى الطبرى تلك المعركة فتح الفتوح، وقال عن الفرس بعدها لم تقم لها قائمة، ولم تجتمع لهم كلمة(١).

وكثير من القادة العسكريين المسلمين أمثال خالد بن الوليد، وسعد

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١١٦

ابن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان، والنعمان بن مقرّن . . . وغيرهم برعوا فى وضع الخطط العسكرية وفى تنفيذها براعة هائلة، وحققوا انتصارات مدوية، وأظهروا مواهب عسكرية فذة، وكان من حقهم أن يدرسوا وتدرس معاركهم وانتصاراتهم بأقلام كتاب عسكريين مسلمين، حتى تعرف الأجيال الحاضرة والقادمة الجهود الكبيرة التى بذلها هؤلاء القادة العظام، لتقدر جهادهم حق قدره حتى تمتلأ بالأمل ولا تفقد ثقتها فى نفسها وفى أمتها، وتؤمن بأن الأمة التى أنجبت هؤلاء القادة الأفذاذ، لهى قادرة على إنجاب أمثالهم يردون لها اعتبارها وكرامتها التى ديست فى التراب الآن من شذاذ الآفاق .

ولكن للأسف الشديد فإن تاريخ هؤلاء القادة الكبار، بل التاريخ العسكرى الإسلامى كله يعتبر حتى الآن غير معروف بالقدر اللازم والكافى فليس هناك مؤلف واحد شامل ـ فيما أعلم ـ عن التاريخ العسكرى الإسلامى وضعه رجل حرب مسلم، وخبير عسكرى متمرس، يكون قد قام بدراسة ميدانية كاملة لميادين الحروب التى خاضها المسلمون ـ خاصة فى فتوحاتهم الأولى ـ واصفا أشهر المعارك على الأقل، وموازنا بين خطط وتكتيك وأداء القادة العسكريين المسلمين؛ وبين خطط أعدائهم الذين واجهوهم ومدى مطابقتها لقواعد وأصول ومبادىء الحرب ومن انتصر؟ وهل كان يستحق الانتصار؟ ومن هزم وهل كان يستحق أن يهزم؟ ليس هناك مؤلف واحد شامل بهذه المثابة(١) . والكتاب الوحيد اليتيم، الذى يستحق صاحبه

---

(١) نعم توجد بعض الكتابات المحدودة فى المجال العسكرى ولكنها كتابات عامة، مثل كتاب اللواء محمد جمال الدين محفوظ « القيادة بإدارة الحرب من توجيهات الإسلام»، وكتابات محمد فرج « فن إدارة المعركة فى الحرب الإسلامية» وغيرها من كتاباته، وكتابات اللواء محمود شيت خطاب، عن قادة الفتح الإسلامى=

أسمى آيات الشكر والعرفان هو ذلك الكتاب الذى ألفه الجنرال الباكستانى أغا إبراهيم أكرم، عن بطل أبطال الفتوحات الإسلامية، أو كما يسميه هو، سيد الحروب، خالد بن الوليد، وهو دراسة عسكرية بحتة عن الأعمال الحربية التى قام بها أو شارك فيها خالد بن الوليد، منذ غزوات أحد والخندق .

حيث كان لا يزال مشركا ـ مروراً بأمجاده العسكرية منذ أسلم، بدءاً من غزوة مؤتة، وانسحابه الرائع والمشرف بقواته سليمة. ذلك الانسحاب الذى سماه الرسول صلى الله عليه وسلم فتحا . وسمى خالدا سيف الله حين نعى القواد الثلاثة الذين استشهدوا فى المعركة على التوالى، وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم جميعاً، بعد أن نعاهم الرسول فى المدينة، قال : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله .

ثم دوره فى حروب الردة وقضائه عليها وفتوحاته الأولى فى العراق وانتصاراته على جيوش الفرس ثم دوره الفذ ضد الروم فى معارك الشام، خاصة معركة اليرموك وطردهم منها إلى الأبد ولقد زار الخبير العسكرى المسلم جميع المواقع التى حارب فيها خالد بن الوليد على الطبيعة(٢)، وكلفه ذلك جهودا ومتاعب كبيرة، حيث تعلم اللغة العربية، حتى يستطيع قراءة

= فى المشرق والمغرب، كما توجد مؤلفات أخرى عن الفتوحات مثل فتح العرب لمصر، للمؤلف الإنجليزى، الفرد بتلر، وفتح العرب لآسيا الوسطى لها ملتون جب، وفتح العرب للمغرب، للدكتور حسين مؤنس، وهذه المؤلفات على أهميتها تناولت الفتوحات تناول سياسيا أكثر منه عسكريا . وتبقى الحاجة مساسة لمزيد من المولفات ذات الطابع العسكرى والتى يجب أن يقوم بها عسكريون مسلمون خبراء فى الإستراتيجية وتخطيط المعارك .

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣٨

(٢) باستثناء المواقع التى تقع فى فلسطين المحتلة .

المصادر العربية، وزار ست دول عربية هى: سوريا ولبنان والأردن والعراق والكويت والمملكة العربية السعودية ١٩٦٨ - ٩١٦٩ م.

ومشى على كل الأرض التى حارب عليها سيف الله خالد بن الوليد، ورسم ٢٩ خريطة عسكرية للمواقع، ودرس بشكل تفصيلى حركة الجيوش المتحاربة فى ميادين القتال الحقيقية، ولقد أزالت تلك الدراسة العلمية القيمة كثيرا من الغموض الذى كان يكتنف الفتوحات الإسلامية، من حيث ترتيب المعارك ترتيبا تاريخيا، وحدد خط سير لرحلة خالد بن الوليد الخطرة من العراق إلى الشام يختلف عما ذهب إليه كثير من المؤرخين المسلمين، وهو الطريق الذى بدأ من الحيرة وانتهى بسورى مارا بقراقر واستبعد أن يكون خالد قد مر بدومة الجندل فى هذه الرحلة لأسباب فنية - أنظر الخريطة رقم ١٥ ص ٢٤٠ من الكتاب المذكور(١).

والرجل فى الحقيقة لم يدع أنه حسم تلك المسألة نهائياً، وإنما قال إن هذا هو أقرب الحلول إلى المنطق وسير الحوادث.

أما المسألة التى حسمها فهى الموقع الذى دارت فيه معركة اليرموك، فقد قال: إن ميدانها هو السهل الواقع شرقى نهر اليرموك وذلك لاعتبارات عسكرية.

والخلاصة أن هذا الكتاب هو أفضل كتاب تحدث عن الفتوحات الإسلامية التى تمت على يد سيف الله خالد بن الوليد رضى الله عنه، وهو طبعاً لم يتناول كل الفتوحات، ويبقى المجال مفتوحا لمزيد من الدراسات العسكرية الجادة عن بقية قادة الفتوحات الإسلامية، وأمجادهم العسكرية،

---

(١) طبع الكتاب وعنوانه، خالد بن الوليد سنة ١٩٦٩ م وترجمة إلى العربية إسماعيل كشميرى سنة ١٩٧٤ م وهو من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

مثل قتيبة بن مسلم ، وفتوحاته فى بلاد ما وراء النهر - والتى تسمى الآن آسيا الوسطى الإسلاميه - ومحمد بن القاسم الثقفى وفتوحاته فى إقليم السند ، وعقبة ابن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم من قادة الفتوحات الإسلامية فى المغرب الأندلس .

ثالثا : إن الدارس للفتوحات الإسلامية فى مصادرها الأصلية ، وهى كتب الفتوح ، مثل فتوح الشام للواقدى ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . وفتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدى ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ . وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى سنة ٣٢٠هـ وغـــيرها من كتب التاريخ العام ، مثل تاريخ الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، والكامل لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، والبـــداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ الدارس للفتوحات فى هذه المؤلفات يخرج بانطباع هام ، وهو أن المسلمين عندما اضطروا للصدام مع الفرس والروم فى وقت واحد ، فى حروب طاحنة منذ مطلع خلافة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لم تكن لديهم نية مبيته للاشتباك العسكرى مع هذه الدول الكبيرة ، ذات الجيوش الجرارة ، وإنما أجبرتهم تلك الدول على خوض المعارك ضدها إجبارا ، بمحاولتها خنقهم والقضاء عليهم فى داخل الجزيرة العربية نفسها وأيدى الفرس والروم فى حروب الردة ، وتأليب العرب على دولة الخلافة لم تكن خافية ، ومثال واحد يكفى للدلالة على ذلك ، وهو حالة سجاح بنت الحارث اليربوعية التميمية ، التى ادعت النبوة ، وخرجت من العراق تقود جيشا لقتال المسلمين بلغ عدده أربعين ألف رجل ، فيكف يعقل أن تستطيع سجاح فعل هذا وتخرج من بلد كان تحت السيطرة الفارسية دون أن يكون الفرس أنفسهم من وراء ذلك تأييدا وتشجيعا وتحريضا .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الفرس والروم جميعا حاولوا القضاء على العرب بالعرب كما كانت تلك عادتهم من قبل ، فلما لم تنجح تلك المحاولة ، دخلوا الميدان بشكل سافر ، فكان لابد من الصدام ، ولم يكن فى وسع المسلمين أن يسكتوا ويقفوا مكتوفى الأيدى ، حتى يدهمهم الفرس والروم ويأخذوهم على غيره .

ولقد بدأت الصدامات الأولى مع الفرس فى العراق ، عندما كان أحد القادة المسلمين وهو المثنى بن حارثة الشيبانى يطارد المرتدين ، فهذه المنطقة هى التى جاءت منها سجاح بنت الحارث ، وحينما كان المثنى يحارب المرتدين تكالبت عليه الجيوش الفارسية ، الأمر الذى جعله يستنجد بالخليفة أبى بكر الصديق ، الذى أدرك خطورة الموقف ، وعواقب تدخل الفرس فى المعارك ، فأرسل إلى العراق أعظم قادته العسكريين سيف الله خالد بن الوليد ، الذى استطاع بمهارته العسكرية أن يفتح نصف العراق الجنوبى فى بضعة شهور . أما الصدام مع الروم فقد بدأ عندما استدرجوا خالد بن سعيد بن العاص الذى كان قد أمره أبو بكر على أحد الجيوش أثناء حروب الردة ، وأمره أن يعسكر فى منطقة تيماء ، شمال الحجاز ، على طريق الشام ، وقال له لاتقاتل إلا إذا قوتلت ، ولكن الروم استدرجوه ، وغرروا به واشتبكوا معه ، وتظاهروا بالتقهقر أمامه داخل الشام ، ثم انقضوا عليه وأوقعوا بجيشه هزيمة منكرة ، مما أغضب الخليفة عليه أشد الغضب ولم تكن هذه أول مرة يعتدى فيها الروم على المسلمين ، فقد سبق أن اعتدوا على المسلمين فى غزوة مؤتة وكادوا يهزمونهم لولا مهارة خالد ابن الوليد الذى استطاع أن يسحب انسحاباً مشرفاً بقواته ، وهذه الاشتباكات الأولى مع الفرس والروم وإن خاضها المسلمون مضطرين وبدون تخطيط مسبق ، إلا أنها كانت ذات فائدة كبيرة ، فقد أظهرت النوايا العدوانية لكل من الفرس والروم ضد المسلمين وجعلت الخليفة يعد

ويستعد فى الوقت المناسب ، ولذلك يقول الطبرى أنه رغم غضب أبى بكر من خالد بن سعيد ، إلا أنه اهتاج للشام وعناه أمره(١) .

وجهز للشام أربعة جيوش فى وقت واحد، جيش تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح ، ووجهته حمص فى شمال الشام ، والثانى تحت قيادة يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، فى وسط الشام ، والثالث تحت قيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن ، والرابع تحت قيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وهكذا بدأت الحروب تدور مع الفرس والروم فى وقت واحد وكانوا هم البادئين بالعدوان .

رابعاً : إن حركة الفتوحات الإسلامية فى سرعتها ونجاحها الباهر ونتائجها العظيمة قد حيرت المؤرخين ، خاصة المستشرقين فذهبوا فى تفسيرها وتحليل دوافعها مذاهب شتى وارجعوا مجمل أسبابها إلى الجوع والقحط الذى دفع العرب إلى الخروج من شبه الجزيرة العربية وغزو البلاد التى غزوها ، أى أن السبب الرئيسى لتلك الفتوحات كان اقتصادياً من وجهه نظرهم .

وليس هناك قول أبعد عن الحقيقة من هذا القول ، لا لأننا نستبعد تماماً العامل الاقتصادى ، ولكن لأن الحقيقة أن هذا العامل كان عاملا ثانوياً ، ومعظم الجنود والقادة الذين صنعوا تلك الأمجاد ، لم يكونوا يفكرون فى بطونهم ، كما يدعى بعض المستشرقين ، ومن لف لفهم من كتاب العرب ، وإنما كانوا يدافعون عن عقيدتهم وعن حرية نشرها ، أى أنهم كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا . وإذا جاءت الغنائم بعد ذلك فرحباً بها وسهلا ، والمؤرخون المسلمون أنفسهم لم ينكروا أن بعض الجنود كانت تحركهم دوافع اقتصادية فقد قال البلاذرى لما استنفر

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ من ص ٣٨٩

أبو بكر العرب ودعاهم للاشتراك فى الدفاع عن العقيدة ضد المعتدين الفرس والروم . قال : « فتسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع »(١) والعبارة أوضح من أن تحتاج إلى تفسير .

والخليفة العظيم رحب بالجميع ، المحتسب ؛ وهو الذى جاء مجاهداً فى سبيل الله ، والطامع الذى جاء يبغى الغنيمة ، ولم يحظى على الطامعين الاشتراك فى المعارك بل أكثر من هذا فإن الخلفاء كانوا يتجاوبون مع هذه التطلعات من البعض إلى الأعمال الدنيوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مع قبيلة بجيلة ، عند ما انتدبهم إلى الاشتراك فى معركة القادسية فى العراق ، وهم كانوا يودون الذهاب إلى الشام ، ولكن عمر قال لهم بل العراق لأن الشام فى كفاية ، ولما وجد منهم تباطؤاً وعدهم بحافز مادى إضافى فوق نصيبهم الشرعى من الغنائم .

كما يقول البلاذرى ، « وكانت بجيلة ربع الناس يوم القادسية »(٢) وكثير من القادة كانوا يحفزون جنودهم فى المواقع ويحرضونهم على القتال بالحافز المادى ، فقد قال خالد بن الوليد لجنوده فى العراق : « ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله . والدعاء إلى الله عز وجل . ولم يكن إلا المعاش . لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف ، وتكون أولى به ونولى الجوع والإقلال من تولاه ، ممن أثاقل عما أنتم عليه »(٣) .

بل أكثر من هذا كله ، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى غزوة حنين ، وكان الموقف فيها صعباً وعصيباً : « من قتل قتيلا فله سلبه »(٤) . لتحريض المسلمين على القتال بحافز مادى .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٨ (٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٥٤

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ص ٢٩ ، وانظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٥

فالحافز المادى إذن لم يكن مستبعداً ، لكنه لم يكن الهدف الأول من الفتوحات ،ولو كان الجوع هو السبب الأول الذى دفع العرب إلى هذه الفتوحات ، لكان يكفيهم منطقة صغيرة من الشام ، أو العراق ، لأن عدد الذين قاموا بالفتوحات كان بضع عشرات من الألوف ، ولم يكونوا فى حاجة إلى فتح كل تلك البلاد لإشباع بطونهم كما يزعم أعـــداء الإســـلام .

موقف عمر بن الخطاب من الفتوحات

بعد توضيح هذه الملاحظات ، أو النقاط التى كانت ضرورية لبيان موقف الخليفة عمر بن الخطاب من الفتوحات ، والذى دعانا إلى إعادة قراءته ، وتقديمه للناس ، ما أشرنا إليه فى البداية وهو اتهامه من بعض أساتذة التاريخ بالجهل بأمر البحر ، والتردد فى قرار الفتح .

كان عمر بن الخطاب أقرب الصحابة - رضى الله عنهم جميعا - إلى أبى بكر وأبرز المشاركين فى القرار السياسى ، وعلى علم تام بكل شىء من أمور الدولة وبأدق التفاصيل ، وكان متفقا تماما مع أبى بكر فى ضرورة حرب الروم حربا وقائية ، أو القيام بالهجوم الذى هو أفضل وسائل الدفاع كما يقول العسكريون فى كل زمان ومكان ، بل فكر فيها ربما قبل أن يفكر فيها الخليفة أبو بكر نفسه ، أو فى الوقت نفسه ، فقد قال لأبى بكر عندما دعاه للاشتراك فى الاجتماع الذى قرر فيه غزو الشام ، « والله ما استبقنا إلى شىء من الخير إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »(١) .

قد والله أردت لقاءك لهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ، حتى ذكرته الآن ، فقد أصبت أصاب الله بك سبل الرشاد(١) ولما آلت إليه الأمور بعد وفاة الصديق ، كانت رحى الحرب دائرة ، والجيوش الإسلامية مشتبكة فى معارك كبيرة على الجبهتين الفارسية والرومية ، فواجه الموقف بكل وعى وعزم وتصميم ورجولة فائقة قل نظيرها فى التاريخ .

---

(١) انظر فتوح الشام ، لمحمد بن عبد الله الأزدى ص ٢

ومضى بالفتوحات إلى نهاية محددة أو فلنقل إلى حدود جغرافية يمكن الدفاع عنها ، ففي الشام واصلت الجيوش الإسلامية فتوحاتها إلى حدوده الشمالية حتى سلسلة جبال طوروس التي تفصله عن آسيا الصغرى ، وغربا حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وشرقا حتى حدوده مع العراق حيث التقت بقوات الفتح الإسلامي هناك ، والحد الجنوبي للشام هو الجزيرة العربية ، كما هو معروف .

وتم فتح مصر ، بل تجاوزتها جيوش الفتح إلى طرابلس الغرب ، وهنا كانت وقفة عمر الحاسمة بضرورة التوقف ، والاكتفاء بفتح مصر(١) ، التي كان فتحها ضرورة عسكرية لتأمين الفتوحات الإسلامية في الشام ، ولم يكن ممكنا ولا مقبولا ، لا من الخليفة عمر نفسه ، ولا من قائد فتح مصر عمرو بن العاص ، تجاهل أهمية مصر العسكرية والوقف دونها ؛ ولو حدث ذلك لا نتقدهما العسكريون وخطؤهما .

وفي العراق استقر الفاتح العظيم سعد بن أبي وقاص في المدائن عاصمة الأكاسرة من آل ساسان ، بعد انتصاره الرائع عليهم في موقعة القادسية العظيمة ، وهنا تصور عمر رضي الله عنه أن الخطر قد زال عن الدولة الإسلامية ، باندحار جيوش الفرس والروم ، ومن ثم فليس هناك داع للاستمرار في المعارك ، فهذه البلاد التي فتحت بتلك السرعة ، وإن انتزعت من الفرس والروم ، فهي ليست بلادهم ، فهي أرض عربية ، ومعظم سكانها عرب ، والفرس غرباء على العراق ومحتلون له .

والروم غرباء على الشام ، ومحتلون له أيضا ؛ ومشاعر السكان لم تكن ودية في العراق للفرس ؛ ولا في الشام للروم لأسباب كثيرة .

وفي ضوء ذلك يمكن أن نفسر ونفهم مقولة الامبراطور هرقل اليائسة

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٢ - ١٧٣

وهو يغادر أنطاكيا بعد إنكسار جيوشه وهزيمتها الساحقة ، خاصة فى معركة اليرموك الخالدة فقد قال والألم يعتصر قلبه على جهوده الضائعة التى بذلها فى استرداد هذه البلاد من الفرس قبل سنوات قليلة ، قال الامبراطور : «عليك يا سوريا السلام ، ونعم البلد هذا للعدو»(١) هذه رواية البلاذرى لقولة هرقل :

أما بتلر فقد ذكرها بصيغة أخرى فى كتابه فتح العرب لمصر ، نقلا عن المصادر البيزنطية ، ولكنها تؤدى ذات المعنى ، يقول بتلر :

«وعرف الامبراطور أن بقاءه بالشام قد أصبح لا غناء فيه فرحل عنها - انطاكيا - إلى القسطنطية فى البحر ، فى شهر سبتمبر سنة ٦٣٦ م ، وقال إذ هو راحل : «وداعا يا بلاد الشام ، وداعا ما أطول أمده»(٢) ويقول بتلر معلقا على مقولة هرقل ، «وكأننا بها تحمل ما كان يدور فى نفسه ، من أن مجده الغابر ، ونصره الباهر ، قد انتهيا بعد الخذلان والعار ، وأنه إذ يقولها ليودع عزه وبطولته»(٣) فلماذا قال هرقل هذه المقولة البائسة ، التى تعبر عن فقدان الأمل نهائيا فى استرداد بلاد الشام من أيدى المسلمين ، مع أن هذه البلاد ذاتها كان الفرس قد استولوا عليها ، ثم استردها منهم هو نفسه منذ سنوات قليلة ٦٢٢ - ٦٢٨ م

ليس هناك من تفسير معقول ومقبول لذلك ، سوى أن العاهل البيزنطى الكبير قد أدرك أن صلة القرابة بين العرب القاطنين فى الشام من قبل ، والعرب الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية ستعمل عملها فى استقرار الفتح الإسلامى فى الشام ، خاصة بعد أن يعرف عرب الشام

(١) فتوح البلدان - ص ١٤٢
(٢) بتلر - فتح العرب لمصر - ص ١٧٣
(٣) نفسه . ص ١٧٣

ما يحمله لهم الإسلام من عزة وكرامة وبعد أن تبينوا أن حركة الفتوحات الإسلامية قد حررتهم من السيطرة البيزنطية التى كانوا يبغضونها لأسباب كثيرة دينية وغير دينية ، ومن ثم سيكون صعباً على الروم استرداد تلك البلاد .

وربما يكون هذا هو ما فهمه الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، ورتب خططه المستقبلية على أساسه ، فالمسلمون إذا عملوا على نشر الإسلام بين إخوانهم عرب الشام ، ووضحوا لهم ما يحمله لهم من قيم العدل والحرية والمساواة فهنا يمكن أن تسهم قرابة الدم فى استقرار الفتح والحكم الإسلامى ، وعندئذ لن يحتاج المسلمون إلى فتوحات أو توسعات جديدة ، لأن الإسلام ليس فى حاجة إلى قوة عسكرية لينتشر ، ولكنه دين ينتشر بقوة مبادئه وسماحته ، فالقوة لا تستطيع أن تفرض الدين أبداً على القلوب والله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين » ولو كان استخدام القوة لنشر الإسلام واردا لكان فى إمكان المسلمين وقد انتصروا فى كل المعارك انتصارات حاسمة أن يحملوا كل الشعوب المفتوحة مسلمة ولكن هذا لم يحدث ، وإنما كل الذين أسلموا فى تلك البلاد أسلموا طواعية ، ودون إجبار أو إكراه ، ونتحدى أى مؤرخ أن يدلنا على حادثة واحدة أجبر فيها المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام بالقوة .

ويعرف الناس جميعاً أن الإسلام قد انتشر فى بلاد بعيدة جدا عن موطنه الأصلى مثل جنوب شرق آسيا ، لا عن طريق القوة ، فلم يذهب جندى واحد إلى بلد مثل أندونيسيا لينشر الإسلام فيها ، بل انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يذهبون بتجارتهم ويتعاملون بالصدق والأمانة ، ثم يؤدون فروض ربهم من صلاة وصيام ، وكان الناس يسألونهم عما يفعلون ، فيشرحون لهم حقائق ومبادىء وشرائع الإسلام فأقبل الناس على اعتناقه طواعية وتحولت أندونيسيا بكاملها إلى الإسلام ؛

وعدد شعبها الآن يقترب من عدد الأمة العربية مجتمعة ؛ وقل ذلك عن بقية البلاد فى جنوب شرق آسيا ، وفى أفريقيا شرقا وغرباً ، ونحن هنا نريد مثلا لا استقصاء وحصرا لعل الذين يدعون أن الإسلام انتشر بالسيف يكفون عن ترديد تلك الفرية .

نعود إلى سياق الحديث السابق ـ بعد هذا الاستطراد الذى كان ضرورياً ـ فنلفت النظر إلى أن صلة القرابة بين عرب الجزيرة العربية الفاتحين ، والعرب القاطنين فى كل من العراق والشام ، لم تحدث تأثيرها فى استقرار الفتوحات الإسلامية إلا بعد انتهاء المعارك ، أما أثناء احتدامها فكانوا كلهم ـ تقريبا ـ مع الأعداء ، فمن الواضح أن البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بالجيش البيزنطى وحده ، بل كان عدد كبير من العرب يقاتل معهم ، فقد قاتلوا معهم فى معارك وادى عربة ، وفى أجنادين ، ودمشق ، بل يقول ادوارد جيبون أن جيش الروم فى اليرموك كان يتكون من مائة وأربعون ألفاً ، كان منهم ستون ألفاً من العرب ، بقيادة جبلة بن الأيهم(١) .

بل كانت تعليمات هرقل لجبلة أن يكون هو وقومه فى المقدمة لمواجهة الجيوش الإسلامية ، فقد قال له : كونوا فى المقدمة فإن هلاك كل شىء بجنسه ولا يقطع الحديد إلا الحديد(٢) .

إذن كان عرب العراق عوناً للفرس ، وعرب الشام عوناً للروم ضد المسلمين ، بل يمكننا القول إن عداء عرب الشام للإسلام والمسلمين منذ البداية كان من الأسباب المباشرة للصدام بين المسلمين والبيزنطيين .

ولذلك فليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض الكتاب ، مثل فيليب حتى من

---

(١) نقلا عن كتاب خالد بن الوليد لآغا إبراهيم أكرم ص ٤٣٣
(٢) فتوح الشام للواقدى ج ١ ص ١٥٢

أن عرب الشام كانوا عوناً للعرب الفاتحين ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث قال : إن الفتح الإسلامى كان حركة قومية ، وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامى(١) ، أرأيت شططا فى القول أبعد من هذا ؟ فهل كان المسلمون الفاتحين يفكرون فى القومية العربية آنذاك ؟ سبحانك ربى هذا بهتان عظيم وكل هذه الأقوال هدفها تقليل الجهد الذى بذله المسلمون فى الفتوحات الإسلامية ، على كل حال ما يهمنا من شرح أوضاع العرب فى الشام والعراق وموقفهم من الإسلام قبل وأثناء وبعد الفتوحات ، هو أن نفهم موقف الخليفة عمر بن الخطاب من تلك الفتوحات الذى هو هدفنا من هذا البحث ، لأن هذا الموقف فى حد ذاته من أقوى الأدلة على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن الحرب لم تكن هدفا من أهداف الإسلام والمسلمين ، وإنما كان وسيلة ضرورية لإزالة العوائق والسدود التى أقامها الفرس والروم ضد الإسلام ، فلو زالت تلك العوائق لم يعد هناك مبرر للحرب أبدا ، وهذا هو ما تصوره عمر بن الخطاب عند ما أصدر أوامره الحاسمة للقادة المسلمين بعدم مواصلة الحروب ، فقد قال لسعد بن أبى وقاص بعد انتصاره العظيم فى معركة القادسية ، واستقراره فى المدائن عاصمة الفرس .

قال له : عند ما طلب الإذن بالاستمرار فى الفتوحات : لا « وددت لو أن بيننا وبين الفرس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم ، حسبنا من الأرض السواد - أى أرض العراق - إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال(٢) هذا موقف الخليفة فى وضوح وحسم ، رجل يعرف ما يريد ويقدر مسئوليته عن سلامة المسلمين ، التى هى عنـــده أفضل من الغنائم .

---

(١) فيليب حتى - تاريخ العرب ص ١٩٧ نقلا عن حركة الفتوحات الإسلامية للدكتور شكرى فيصل ص ٤٥

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٨

وفى هذا السياق كان رفضه الحاسم أيضاً أن يستمر عمرو بن العاص فى الفتوحات فى الشمال الأفريقى ، وكان قد صل إلى طرابلس الغرب - كما أشرنا آنفا - وأمره بالعودة إلى مصر .

ثم كان رفضه الأشد حسما لطلب معاوية بن أبى سفيان وإلى الشام بالبدىء فى إنشاء أسطول لحماية شواطىء المسلمين فى الشام ومصر من هجمات الأسطول البيزنطى، لأن الخليفة لم يكن يرى ضرورة لذلك فى ذلك الوقت، ولم يقبل كل المبررات التى ساقها معاوية بشأن جزيرة قبرص وما كانت تمثله من تهديد خطير للمسلمين فى الشام ، وقال قولته الخالدة ردا على مبررات معاوية : «والله لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم »(١) هذا هو الخليفة العظيم الذى يحرص على سلامة الرجال ، ويخاف عليهم من الخطر فموقفه إذن موقف رجل يعلم ويدرك تماماً خطورة هذه الأمور، ويرى من واجبه الحفاظ على سلامة الرجال ، وليس جهلا منه بأمر البحر ، فهو قد مر بتجربتين بشأن الغزو فى البحر ، وكلتاهما انتهت بكارثة بالنسبة للمسلمين ، ولعل ذلك كان له أثر فى موقفه من نزول المسلمين إلى البحر ، فقد كان يرى أن الوقت لازال مبكرا ، والاستعدادات لم تكن كافية ، وكان يريد أن يترك ذلك للمستقبل حيث يستعد المسلمون للنزل إلى هذا الميدان الخطير استعداداً جيداً .

أما التجربتان اللتان مر بهما المسلمون بشأن الغزو فى البحر فقد كانت الأولى هى غزوة العلاء بن الحضرمى لفارس من جزيرة البحريين ، بدون علم الخليفة ، وكان ذلك سنة ١٧ هـ (٢) ، فقد أراد العلاء بهذه المبادرة ، ولا نريد أن نقول المغامرة « أن يسطل نصراً ، مثل انتصارات سعد بن أبى وقاص ، فإذا كان سعد قد فتح المدائن عاصمة آل ساسان ، فلماذا لايفتح هو مدينة اصطخر ، وهى ليست أقل من المدائن فى الأهمية .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٥٩

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٥٣٨ - ٥٣٩

وعلى كل حال هذه منافسه شريفة بين الرجال ولا بأس بها ؛ غير أن الخطورة فيما قام به العلاء أنه قام به دون علم أو إذن الخليفة ، خاصة وأنه عرض المسلمين لكارثة ، فقد مكر بهم الفرس وأحاطوا بهم بعد أن تركوهم ينزلون على شواطئهم ، وكادوا يفنونهم عن آخرهم . لولا أن عمر بن الخطاب تدارك الأمر بسرعة وأنقذهم بنجدة سريعة من جند المسلمين الذين كانوا يرابطون فى جنوب العراق ، بقيادة عتبة بن غزوان .

وكان جزاء العلاء بن الحضرمى على تلك المخالفة العزل من ولاية البحرين ، وتكليفه بأثقل الأمور إليه ـ حسب تعبير ابن الأثير ـ وهو أن يعمل تحت قيادة سعد بن أبى وقاص(١) .

التجربة الثانية حدثت سنة ٢٠ هـ ، حيث كانت قوة من جيش الحبشة قد غزت سواحل اليمن من البحر ؛ فأرسل عمر بن الخطاب حملة بحرية لتأديب الحبشة بقيادة علقمة بن مجزز المدلجى غير أن تلك الحملة هزمت وتحطمت مراكبهم ؛ وأضيفت تجربة أخرى فاشلة إلى تجربة العلاء ؛ لذلك آلى عمر بن الخطاب على نفسه ألا يحمل أحداً فى البحر أبداً(٢) .

ويبدو أن الحبشة ـ رغم العلاقات الطيبة التى كانت تربطها بالمسلمين منذ أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أصبحت ولأسباب لا نعرفها ـ مصدر قلق للمسلمين ؛ لدرجة أن الخلفاء الراشدين كانوا يحسبون حسابها فى خططهم الحربية يروى البلاذرى أنه عندما قرر عمر بن الخطاب أن يخوض معركة نهاوند ضد الفرس ، الذين نقضوا كل عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين ، وأجبروا الخليفة على تغيير موقفه السابق بشأن عدم الاستمرار فى الفتوحات ، وبعد أن استشار المسلمين فى ذلك خاصة وأن التقارير أخذت تتوالى عليه من العراق بأن الفرس قد تجمعوا حول الامبراطور

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٨١ (٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٢

يزدجرد الثالث ، وأنهم جمعوا جموعهم فى نهاوند استعداد للانقضاض على المسلمين فى العراق .

عندئذ ادرك عمر أن الانتظار قد يكون ضارا جدا بالمسلمين ، وأن الجمود عند الموقف السابق قد يكون كارثة فقرر أن يكون زمام المبادرة ، بيده ، ولم يتردد لحظة واحدة فى مواجهـــة الفرس ، وجهز لذلك جيشا كبيرا .

لأن جولة جديدة من القتال ضد الفرس أصبحت ضرورة عسكرية حتى يعودوا إلى صوابهم ، فأخذ يستشير الصحابة فيما ينبغى عمله لمواجهة هذا الموقف الخطير ، فأشاروا عليه بأن يغزى أهل الشام من شامهم وأهل اليمن من يمنهم يعنى بحرك قوات من الشام وأخرى من اليمن للاشتراك فى معركة نهاوند ، لكن الخليفة الحصيف الحذر قال : أخاف أن أخليت الشام من الجنود أن تعود الروم إليها ، وإن أخليت اليمن من الجنود أخاف أن تغلب الحبشة على ما يليها منها(١) .

ولذلك حرك قوات من الكوفة والبصرة ، وترك قوات الشام واليمن مرابطة حيث هى لحماية البلاد والعباد فهذه هى عظمة القيادة المسئولة ، المهم أن الحبشة أصبحت عامل ضغط خارجى ضد المسلمين ، وكلما وافتهم الفرصة كانوا يغيرون على شواطىء اليمن والحجاز ، فقد حدث ذلك منهم فى عهد عمر ، وعهد عثمان بن عفان . الذى اضطر أن يشحن السواحل بالرجال والسلاح لصد هجمات الأحباش(٢) .

كانت هناك أذن إخطار خارجية تهدد الدولة الإسلامية ، خاصة من جانب بيزنطه وكان على الخليفة العظيم أن يحسب لهذه الأخطار حسابها ، ولذلك كانت وقفته الحاسمة من استمرار الفتوحات براً وبحراً .

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٠٠

(٢) ابن أعثم الكوفى ، كتاب الفتوح ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٧

والنظر إلى البلاد المفتوحة ومشاكلها وإداراتها إدارة سليمة ، ونشر الإسلام والتمكين له فى البلاد عن طريق المعاملة الحسنة والإدارة الحسنة والقدوة الحسنة ، فهذه هى مهمة المسلمين الأساسية ، وهذا ما كان عمر ابن الخطاب يهدف إلى تحقيقه من عدم استمرار الفتوحات ، وكان يعرف يقينا أنه بعد أن ينجح المسلمون فى تثبيت أقدامهم فى البلاد المفتوحة ويضربون للناس المثل العملى على سمو الإسلام ومبادئه وعدله وما يحمل لهم من عزة وكرامة وحرية ، فإن الناس عندئذ سوف يقبلون على الإسلام من تلقاء أنفسهم ، فمن ذا الذى يرفض العدل والحرية والمساواة والعزة والكرامة ؟

فعمر بن الخطاب عندما عارض قادته فى الاستمرار فى الفتوحات كان يتصرف كرجل دولة مسئول ، يعرف تماما ماذا يريد وماذا يقدر عليه ، ولم يكن مرتجلا لسياسته ولا مترددا - حاشا لله - كما تظهره بعض الروايات المتهاوية ، مثل رواية استشارته لعمرو بن العاص عن البحر ، والسؤال عن أحواله ومثل تردده فى فتح مصر من البداية ، والقصة الضعيفة التى تقول : أنه أرسل لعمرو بن العاص رسالة ، وقال له فيها إذا وصلك كتابى هذا قبل أن تدخل أرض مصر فارجع ولا تدخلها وإن وصلك وقد دخلت فلا ترجع . وأن عمرو وصله الكتاب قبل أن يصل إلى حدود مصر . ولكنه لرغبته القوية فى فتح مصر لم يفتح الكتاب إلا بعد أن تجاوز العريش ودخل فى أرض مصر . وأشهد على ذلك لئلا يعاقبه الخليفة على مخالفة أوامره .

هذه الرواية وأمثالها تدخل فى باب الحكايات . لأن فتح مصر ليس أمرا سهلا حتى يؤخذ بهذه البساطة . بل عمل كبير وكان ضرورة عسكرية لتأمين الفتوحات فى الشام . وترك مصر فى أيدى الروم وقد انسحب إليها بقايا الجيش البيزنطى المنهزم فى فلسطين يكون خطرا على المسلمين .

ولو لم يفتحوا مصر لكانوا قد ارتكبوا خطأ كبيرا ، وهم أعقل وأحصف من أن يقعوا فى مثل هذا الخطأ الجسيم .

ولذلك فتح مصر تم باتفاق تام بين الخليفة عمر بن الخطاب وقائده العبقرى عمرو بن العاص - بل إن ابن عبد الحكم يروى عن الليث بعد سعد أن عمر بن الخطاب هوى الذى أمر عمرو بن العاص بالتوجه إلى مصر لفتحها ، وكتب له : « أن أندس الناس إلى السير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به »(١) .

وهذه الرواية تتفق مع تفكير عمر بن الخطاب ورؤيته للفتوحات ، وتتفق أيضا مع سير الأحداث ويقبلها العقل ، أما الرواية التى أشرنا إليها منذ قليل ، فيجب رفضها تماما ، وإذا كان علماء الحديث لا يقبلون الحديث الذى يخالف متنه مقررات الشريعة الإسلامية ومقاصدها العليا ، فنحن بالقياس نرفض روايات التاريخ التى لا تتفق مع العقل والمنطق وسياق الحوادث والنظرة الكلية للأمور .

ملاحظة أخيره نسجلها ونحن فى ختام هذا البحث ، وهى أننا نلفت نظر كل من يتحدث أو يكتب عن عمر بن الخطاب : رضى الله عنه ، أن يأخذ فى الاعتبار الظروف التى كان يعيشها الرجل ، ففى الوقت الذى كان يصارع دولتين كبيرتين ، بل أكبر دول عصرهما ، وهما فارس والروم ، وقد وفقه الله إلى القضاء على أولاهما ، ووضع حد لغطرستها وعتوها وجبروتها على العباد ، وحجم الثانية وأخذ منها أعز مستعمراتها فى الشرق وأغناها الشام ومصر ، وأشرف باقتدار على الحروب ، ولم يستطيع أى باحث أن يخطئه فى قرار من قراراته الكثيرة ، وفى الوقت نفسه كان يكمل بناء وتأسيس الدولة الإسلامية العظيمة ، التى أرساها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتابعه فى تأسيسها الصديق ، رضى الله عنه ، ويرسى دعائم مؤسساتها السياسية

---

(١) فتوح مصر ص ٥٧

والإدارية ، حتى تركها أقوى وأعظم دولة فى عالمها كل ذلك فى عشر سنين من عمر الزمن .

لقد كان عمر عبقريا لم يفر فريه أحد ؛ كما أخبر بذلك الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم - ومن يريد أن يعرف عبقرية عمر السياسية والادارية فليرجع إلى السفر الضخم القيم الذى ألفه الأستاذ الدكتور / سليمان الطماوى عن عمر ابن الخطاب . وعنوانه « عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة دراسة مقارنه .

ويقع الكتاب فى ٥١٢ صفحة من القطع الكبير ؛ نشر دار الفكر العربى

القسم السادس

العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء دراسة استطلاعية

د . شعبان أبو اليزيد شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء

دراسة استطلاعية

بقلم الدكتور
شعبان أبو اليزيد شمس

مدخل :

حينما يتخذ المستهلك فى أى مجتمع قراره بشراء سلعة ما أو خدمة فإنه يسهم بشكل مباشر فى نجاح المشروع الاقتصادى ككل ، فهذا القرار ينتج عنه مزيدا من الإنتاج والتمويل والشراء والتخزين وتعيين الأفراد والموظفين وغيرها .

ولذلك تسعى المؤسسات المعلنة بشكل مكثف لإرضاء رغبات المستهلك فيما أطلق عليه مرحلة الاهتمام بالمستهلك ورغباته (Consumer Orientation) ومحاولة إشباع هذه الرغبات ، ويعد الإعلان بأشكاله المختلفة أحد المنبهات الرئيسية للمستهلك لإقناعه بكافة الأساليب بأهمية السلعة وجدوى إقتنائها ، ويمر ذلك بعدة مراحل تحاول خلالها الرسالة الإعلانية جذب انتباه المستهلك وإثارة اهتمامه واستثارة رغبته ثم إقناعه باتخاذ قرار الشراء .

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء من ناحية ثم العوامل التى تؤثر على فاعلية الإعلان فى اتخاذ المستهلك لهذا القرار وهل المستهلك يتخذ قراره بالشراء بعد تعرضه للإعلان مباشرة أم أن ذلك يمر من خلال مرجعيات تبلور وتفند الرسائل الإعلانية وتحللها سواء تمثل ذلك فى الأسرة أو زملاء العمل أو الأصدقاء أو المتخصصين فى مجال السلعة وهل الدولة المنتجة للسلعة لها تأثير فى فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء ؟

نوع البحث ومنهجه : هذه دراسة استطلاعية تعتمد على منهج المسح بالعينة ، والطابع الاستطلاعى للبحث تحتمه عادة ندرة أو عدم توفر بحوث سابقة يمكن الاعتماد عليها لذلك فقد استخدم الباحث استمارة الاستقصاء كشكل من أشكال الدراسات الاستطلاعية للتعرف على رأى المبحوثين فى دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء والعوامل المؤثرة على فاعليته .

التساؤلات التى تطرحها الدراسة :

تطرح هذه الدراسة من خلال إطارها الفكرى وكذلك الاستبيان الذى شملته الدراسة الميدانية عدة تساؤلات حول دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء والعوامل المؤثرة على فاعليته كما يلى :

١ ـ هل الإعلان هو السبب الرئيسى وراء اتخـــاذ قرار الشراء لدى المستهلك ؟

٢ ـ ما أكثر الوسائل الإعلانية تأثيرا فى اتخاذ قرار الشراء ؟

٣ ـ ما المرحلة العمرية الأكثر تأثرا فى اتخاذها لقرار الشراء بالإعلان ؟

٤ ـ ما الجماعات التى يلجأ إليها المستهلك لمناقشتها فى محتوى الإعلان ؟

٥ ـ لماذا يلجأ المستهلك إلى هذه الجماعات ؟

٦ ـ هل يؤثر معرفة المستهلك بالدولة المنتجة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء ؟

٧ ـ ما الدول التى يطمئن المستهلك لمنتجاتها حين يقرر شراء سلعة ما ؟

عينة الدراسة :

نظراً لكبر حجم مجتمع الدراسة فإن الباحث قد حاول فى حدود إمكاناته اختيار عينة من ٣٠٠ فرد من محافظات القاهرة والبحيره والشرقية والمنيا وسوهاج لتمثل قدر الإمكان ـ المجتمع الكلى لجمهورية مصر العربية ـ وقد تم توزيع العينة على أساس المؤهل العلمى كما هو مبين فى ثنايا الدراسة الميدانية .

تقسيم الدراسه : تم تقسيم الدراسه إلى جزئين رئيسيين :

الأول : أدبيات الدراسة واشتملت على ما يأتى :

١ ـ مفاهيم الدراسة (مفهوم القرار ، صنع القرار ، اتخاذ القرار)

٢ ـ أهمية قرار الشراء للمشروع

٣ ـ الإعلان ومراحل قرار اتخاذ الشراء

٤ ـ التأثيرات النفسية للإعلان على قرار الشراء

٥ ـ العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء وهى :

(أ) الأسرة (ب) المؤسسات التعليمية .

(ج) الدخل (د) الاتصال الشخصى .

(هـ) الدولة المنتجة .

الثانى : الدراسة الميدانية .

أولا : أدبيات الدراسة

مفهوم القرار :

فى محاولة للتعرف على المعنى اللفظى لكلمة القـــرار استعراض (Eggleston. 1979) عدة معاجم لغوية فى الفترة من (١٩٥٥ - ١٩٧٨) ليصل إلى المعانى التالية :ـ(١)

١ ــ القرار هو التصميم على شىء ما أو تقريره .

The action of deciding

٢ ــ القرار هو التوصل إلى حل أو استنتاج أو حكم أو خلاصة معينة

Settlement conclusion judgment resolution

٣ ــ الحالة الذهنية التى تعبر عن التصميم .

The qualtiy of decided

٤ ــ تقرير عقلى لأمر ما (حزم أمر ما)

Making up one,s mind.

٥ ــ الاختيار الذى يتم التوصل إليه بعد المفاضلة بين عدة اختيارات .

صنع القرار : Decision making

تواجه الفرد كثيرا من مواقف الحياة اليومية والتى تتطلب حلا ، فإذا كانت بسيطة قد تنجح الانعكاسات الأولية فى حلها وإن فشلت هـذه الانعكاسات . فإن كل موقف يصبح مشكلة وتشحذ قوى الفرد العقلية ليتمكن من تحديد موقف منها أو وضع حل لها ، فإذا كان هناك حل واحد معروف يكون الأمر بسيطا يتلخص فى عملية استدعاء الحل من الذاكرة .

أما إذا تعددت بدائل الحل يصبح الأمر معقداً حيث يتطلب من الفرد أن يزن هذه البدائل ويختار أحدها أو أن يفترض حلولا ثم يرجح أحدها ويزداد التعقيد عندما تكون نتائج البدائل أو الحلول المقترحة غير مؤكدة، وسلوك الفرد فى هذا الموقف من إدراك وتحديد للمشكلة وتقييم البدائل أو الحلول باستخدام المعلومات المتوفرة، والمفاضلة بينها على أساس المنفعة أو تقليل الخسارة أو الخطر وتحديد أحد هذه البدائل أو الحلول هو ما يسمى بصنع القرار Decision Making (٢).

اتخاذ القرار : Deeisien Taking

يعرفه (Wepester) بأنه (اتخاذ الموقف النهائى لحسم مسألة مابتصميم ثابت وأكيد وصياغته عمليا بإدخاله حيز التنفيذ(٣).

ويرى (Health . White - Berlin & Pork، 1987) أن اتخاذ القرار هو عملية انتقاء أو اختيار منطقى بين بديلين أو أكثر اعتمادا على الأحكام التى تتسق وقيم متخذ القرار(٤) ويقرر (& Karfman 1977 Cassidy) أن الخصائص المشتركة للاحداث البارزة (Episodes) والمتعلقة باتخاذ القرار سواء أكانت شخصية أم جماعية هو وجود عدة بدائل، وهذه البدائل مطلوب إصدار أحكام بصددها بناء على قيم متخذ القرار(٥) وغالبا ماينظر إلى إتخاذ القرارات على أنها عملية فكرية من نتاج ذهن واحد. ولكن الواقع يؤكد أن إتخاذ القرارات هو عملية منظمة (Institutionalised) وأن أى قرار فى حقيقته ماهو إلا الناتج النهائى لحصيلة مجهود متكامل من الآراء والأفكار والاتصالات والجدل والدراسة التى تمت فى مستويات مختلفة بمعرفة أفراد عديدين. ومن ثم ينظر إلى القرارات التى تتخذ على أنها نتاج جماعى لانتيجة فكر أو رأى شخصى(٦).

وتدور معظم المفاهيم الخاصة باتخاذ القرار حول عناصر أساسية :-

(أ) متخذ القرار : وهو الفرد الذى يقرر أو يختار بين بديلين أو أكثر انطلاقا من سلوكه واتجاهاته .

(ب) الموقف الذى يفرض على متخذ القرار ونوع المشكلة المطروحة .

(ج) البيئة الاجتماعية التى تحيط بالفرد من حيث القيم والمعتقدات والأعراف وغيرها ودورها فى عملية اتخاذ القرارات .

أهمية قرار الشراء للمشروع :

ساهد التطور الاقتصادى فى معظم بلاد العالم والتوسع الإنتاجى بفضل ـ العلم والبحث والتكنولوجيا ـ على زيادة كميات وأنواع السلع والخدمات التى تعرض فى الأسواق فى أى وقت من الأوقات ، وبذلك انتقلت أغلب الصناعات من مرحلة الاهتمام بالإنتاج ومشكلاته Production Orientaion إلى مرحلة الاهتمام بالمستهلك ورغباته ومحاولة إشباع هذه الرغبات Consumer Orientation ، إن المفهوم السائد بين كتاب الإدارة والتسويق (السلمى ١٩٧١) يوضح بجلاء أن المستهلك يملك أن يتخذ أحد قرارين كلاهما غاية فى الأهمية بالنسبة للمشروعات ووحدات الإنتاج الاقتصادية (٧) .

١ ــ أن يقرر شراء كميات من سلع بعينها دون سلع أخرى وبذلك يقرر مدى النجاح أو الفشل الذى يصيب أى مشروع اقتصادى .

٢ ــ أن يمتنع عن الشراء كلية فى حالة عدم توفر السلعة التى يرغبها وبالتالى قد يؤدى إلى إنهيار سياسه اقتصاديه ترغب الدولة فى تشجيعها ولذلك فالنجاح فى العمل الإنتاجى يتطلب التعرف على رغبات المستهلك وتحليل العوامل المؤثرة على سلوكه الاستهلاكى والكيفية التى يتخذ بها قرارات الشراء أو عدم الشراء حيث تمثل تلك المعرفة معلومات على جانب كبير من الأهمية للمخطط الاقتصادى أو لإدارة الوحدة الإنتاجية .

فالأهمية القصوى التى يحتلها المستهلك فى المجتمع الحديث تتضح إذا علمنا أن النجاح النهائى لأى مشروع اقتصادى يتوقف على قدرته على إنتاج سلعة أو خدمة تجد مستهلكا يقبل على شرائها حيث أن عمليات الإنتاج والتمويل والشراء والتخزين وتعيين الأفراد والموظفين وغيرها من الأنشطة الإدارية الحديثه كلها تتوقف فى نجاحها على قرار المستهلك بقبول أو رفض ما تسفر عنه تلك الأنشطة من إنتاج .

وقد حاول القائمون على المشروعات الإنتاجية المختلفة التعرف على سلوك المستهلك ودوافع الشراء لديه وظهر عدد من النماذج أمكن إلى حد ما الاعتماد عليها فى التنبؤ بسلوك المستهلك وذلك من خلالى تفسير العلاقات بين العوامل والمتغيرات والمؤثرات التى يتعرض لها والعمليات النفسية التى تتفاعل داخله والسلوك الناتج عن تفاعل العوامل الخارجية مع العمليات النفسيه . وقد استعرض (سمير حسين ١٩٨٤ م) هذه النماذج تختلف فيما بينها من حيث الخطوات والمكونات والعلاقات وأرجع أسباب تعددها إلى : (٨) .

١ ـ تعقد ظاهرة سلوك المستهلك ، وتعدد العوامل التى تؤثر فيها وتنوعها مما يجعل المجال مفتوحا أمام أكثر من تفسير للظاهرة .

٢ ـ إختلاف النظريات التى اهتمت بدراسة سلوك المستهلك وحاولت تقديم تفسير لها فقد شارك فى ذلك كل من علماء الاقتصاد والنفس والاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى والأنثروبولوجى .

٣ ـ حداثة هذا المجال من مجالات الدراسة ، فالبحوث التى أجريت حتى الآن أقل بكثير من أن تقدم تفسيراً حقيقياً واقعياً لهذا السلوك وتأخذ عملية جمع المعلومات والبيانات فى هذا الصدد (أبو قحف والسيد ١٩٩٢ م) إتجاهين :(٩) .

أولا : معلومات تتعلق بالحقائق السلوكية والاجتماعية والاقتصادية للمستهلك وتقسم تلك المعلومات إلى :

١ ـ معلومات تتعلق بالسلوك مثل الشراء والحيازة ومعدل الاستخدام Rate of usage وتحديد الفرد الذى يقرر عملية الشراء داخل الأسرة وطريقة الدفع ومصادر المعلومات بالنسبة للمستهلك ونمـــط التسوق Shopping Patterns وكيفية تعرض الأفراد للوسائل الإعلانيه .

٢ ـ معلومات تتعلق بالخصائص الاجتماعيه والاقتصاديه للأفراد : وتتعلق هذه المعلومات بالخصائص الخاصة بالأفراد والتى تفيد فى تقسيم السوق المحتمل إلى قطاعات سوقية يمكن للشركة أن تتعامل معها وتشمل هذه الخصائص العديد من المتغيرات مثل السن والجنس والدخل والمهنة ومستوى التعليم والحالة الاجتماعية والموقع السكنى والطبقة الاجتماعية .

ثانياً : معلومات تتعلق بالخصائص النفسية للأفراد : وتشمل تلك الخصائص المعرفة Knowledge ومعايير الاختيار Choice Criteria والمعتقدات Beliefs والاتجاهات Attiudes والنية والشراء .

الإعلان ومراحل إتخاذ قرار الشراء :

تعددت النماذج التى تتناول مراحل عملية إتخاذ القرار بشكل عام واتخاذ قرار الشراء بشكل خاص إلا أنها أجمعت على خمس مراحل رئيسية هى : ـ

(Larans & Remy. 1978 - I. Eng. R Black Well & D. Kollat1978)

١ ـ تحديد القضيه : (التعرف على المشكلة) Proplem Recognition

٢ ـ جمع المعلومات المرتبطة بالقضيه (البحث عن المعلومات اللازمه للوصول إلى القرار) Seareh

٣ ــ تحديد البدائل وتبعاتها (تقويم البدائل) Altemative Evaluation

٤ ــ تحديد تتابع البدائل.

٥ ــ إختيار أفضل البدائل (إتخاذ القرار).

ويعد الإعلان بأنواعه وأشكاله المختلفه أحد المنبهات الأساسيه للمستهلك فى التعرف على الأسواق بأنواعها وما تحتويه من سلع وخدمات، بل إن الدراسات الحديثة تؤكد أن الإعلان وراء غالبية قرارات الشراء التى يتخذها المستهلك بما يملكه من جاذبيات وأوتار إعلانية يلح من خلالها فى إقناع الجمهور بشراء سلع وخدمات قد لا يحتاجها فى بعض الأحيان وهذا ما حدا بـ Shiller, 1974 أن يقول: إن ما يشاهده الناس وما يقرأونه، أو ما يستمعون إليه، وما يرتدونه وما يأكلونه، والأماكن التى يذهبون إليها، وما يتصورون أنهم يفعلونه، كل ذلك أصبح وظائف يمارسها جهاز إعلامى يقرر الأذواق والقيم التى تتفق مع معاييره الخاصة التى تفرضها وتعززها مقتضيات السوق(١١).

ويضيف (فانس براكارد فى كتابه (المشكلون لسلوك الناس) : أن الإعلان لم يعد مجرد قوة خطيرة فحسب ولكنه تحول إلى سلطة إجتماعية فى العالم الغربى تؤثر فى إرادة الناس وتدفعهم إلى سلوك استهلاكى لا يعبر عن احتياجاتهم الحقيقية، ويضيف أن المواطن فى سن أل ١٨ عاما يكون قد شاهد وسمع ١٨٠ ساعه إعلان تجارى فى التليفزيون فإذا أضفنا إلى ذلك إعلانات الراديو يكون قد أمضى حوالى سنتين من عمره فى سماع ومشاهدة هذه الإعلانات فالمعلنين ينفقون سنويا ٤٠ ألف مليون دولار مقابل تشكيل العادات الاستهلاكية للمواطنين الأمريكيين. ولأن صناعة الإعلان تحولت إلى عملاق ينفق بسخاء على العلماء والفنيين فإن ظاهرة جديدة برزت فى ميدان الإعلات فى العقود الأخيرة تمثلت فى انتقال أعداد كبيرة من علماء النفس والاجتماع ومختلف التخصصات الأخرى إلى مجال

الإعلان وهؤلاء يقومون بدور خطير فى التأثير على المستهلكين ، ولم تعد المشكلة تنحصر فى مدح السلعة .... إنما التغلب على مقاومة المشترى الذى يصر على عدم احتياجه لها . فلابد من دفعه إلى الشراء والتغلب على عبارة (أنا لا أحتاج هذه السلعه) لأن الاحتياج كما يقول خبراء الإعلان مجرد ظاهرة نفسية ومعظم السلع التى يندفع نحوها المستهلكون لا تعتبر ضرورة بالمعنى المفهوم ووظيفة الإعلان تتجسد فى إزالة الفروق بين ما نحتاجه فعلا وبين ما نستطيع الحياة بغير وجوده فى حياتنا(١٢) .

التأثيرات النفسية للإعلان على قرار الشراء :

عندما يشعر الإنسان بالحاجة فإنه يكون متواتراً ومترقباً ينتظر الفرصة التى يمكن أن تشبع حاجاته (عبد الحميد ١٩٨٤) إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة تحركه الفورى لإشباع هذه الحاجة بل إن سرعة إتخاذه لقرار الشراء يتوقف على مدى الإمكانيات المتاحة ونوعية وقيمة الحاجة واجبة الإشباع ، هذا فضلا عن الظروف البيئية المحيطة ، إذ أن ذلك يؤدى إلى إطالة أو قصر الوقت بن وجود الحاجه أو الرغبه وبين اتخاذ الشخص لقرار الشراء(١٣) وهو ما يطلق عليه (Wheeler & Jalns 1980) مرحلة قبول التحدى Accepting the challenge (١٤) .

والمسافة بين وجود الرغبة (أو عدم وجودها أحيانا) حيث يخلقها الإعلان وبين إتخاذ قرار الشراء تشهد تأثيرات نفسية للرسالة الإعلانية نوجزها فيما يلى : -

١ — فى المرحلة الأولى التى يحاول أن يتعرف المستهلك مبدئياً على السلعة المطروحة فى الإعلان تبدأ مرحلة يطلق عليها جذب الانتباه (الصدمة الحسية الإدراكية) Attention لجذب الانتباه (حسين ١٩٨٤) هو الخطوة الأولى فى تيار التفكير العقلى التى تقود إلى عملية

الشراء : والانتباه هو حالة تركيز العقل حول موضوع معين ويقسم إلى نوعين : إنتباه إرادى حيث يأتى المنبه أو المثير من داخل الفرد نفسه وبحصره باختياره وإرادته فى موضوع معين . ثم انتباه لا إرادى حيث يأتى المنبه من الخارج أى من البيئة المحيطة بالفرد الذى يتعرض لمثيرات ومنبهات خارجية مختلفة فى الحياة اليومية وهو نوع الانتباه الذى يستخدمه المعلن ويركز عليه (١٥) .

وهناك عوامل تؤدى إلى جذب الانتباه نحو الإعلان منها كبر الحجم والمساحة وموقع الإعلان فى الوسائل المختلفة ثم تصميم الإعلان وإخراجه وتباينه عن بقية الإعلانات وكذلك انفراده بمكان ما واستخدامه للصور والرسوم والألوان والحركة والمؤثرات الصوتيه والموسيقى والغناء .

٢ ـ فى المرحلة الثالية يستغل الإعلان فرصة تحول المستهلك إلى جمع المعلومات والبيانات عن السلعة ـ موضع الإعلان ـ فينتقل إلى خطوة تاليه فى التأثيرات النفسيه وهى إثارة الاهتمام أو الصدمة النفسيه الوجدانيه Interest حيث أنه من خصائص الإعلان الناجح (فهمى ـ ١٩٨٢) بعد أن يجذب إنتباه المستهلك نحو السلعة ، أن يعمل على إثارة إهتمامه ، فالاعلان بعد أن يجذب إنتباه عين أو أذن القارىء أو المستمع ، عليه بعد ذلك أن يجذب إنتباه عقله أى يثير إهتمامه(١٦) .

وإذا كان من الممكن (صابات ـ ١٩٦٩) الحصول على الصدمة الحسية الادراكية بطرق بسيطة نسبيا فالأمر يختلف بالنسبه للصدمة النفسية الوجدانية التى يقصد بها إثارة اهتمام المستهلك والتأثير فيه تأثيرا مؤقتا على الأقل وهى مرحلة يطلق عليها Wheeler & Jains البحث عن البدائل Searching for alternatives . حيث تنطوى على تفكير جيد فى الأهداف والقيم التى تتعلق بالقرار بالإضافة إلى بحث واع ودقيق لمجال واسع من البدائل دون التعجل برفض أى من تلك البدائل(٨١) .

ويرى (حسين ١٩٨٢) أن من عوامل إثارة اهتمام المستهلك فى هذه المرحلة(١٨) .

(ا) الاهتمام بالذات : حيث يتضمن الإعلان عرض منفعة أوعدد من المنافع التى تسهم فى حل المشكلات التى تواجه المستهلك ، ذلك أن المزايا والمنافع التى يحصل عليها المستهلك نتيجة شراء سلعة أو خدمة إنما تسترعى الاهتمام الشخصى الذى يعتبر أقوى الدوافع المؤثرة لدى الفرد .

(ب) ارتباط الإعلان ببعض الأفكار السائدة : حيث يهتم المستهلك عادة بأفكار أو أحداث معينة ، ويحاول الإعلان أن يستثير اهتمام القارىء عن طريق الربط بين موضوع الإعلان والموضوعات والأحداث التى يهتم بها المستهلك ، ويمكن للمعلن أن يستعين بالأفكار السائدة فى الأوقات المختلفة لترويج سلعته مثل مناسبات الأعياد ودخول المدارس وغيرها .

٣ — أما المرحلة الثالثة فهى خلق الرغبة فى الشراء (Desire) حيث تمثل كل من مرحلتى جذب الانتباه وإثارة الاهتمام (منصور، ١٩٨٢) عملية الدخول إلى نفس المستهلك وتشويقه إلى السلعة مما يستدعى الاستجابة لهذا التشويق ويمكن أن تعتبر مرحلة خلق الرغبة هى الخطوة الأولى فى استجابة الفرد للاعلان فإثارة الاهتمام يجب أن تظل قائمة حتى يمكن أن توحى إلى الشخص بحاجته إلى السلعة وأن يحس فى نفسه الرغبة فيها والضرورة إليها وبذلك يمكن أن تحوله إلى زبون يملك ويحمل Tohave To Carry .

وقد وصف كل من (Woodiely & Driscoll 1977) هذه المرحلة بأنها مرحلة خلق البدائل من قبل الفرد متخذ القرار وبناء علاقات جديدة وتوليف أفكار فى إطار مرجعى جديد (١٩) كما أن (Hayes 1981) يقول أنها بمثابة الجانب الحساس فى عملية اتخاذ القرار(٢٠) .

ويبدأ الإعلان فى هذه المرحلة بتكشيف تأثيراته النفسية على المستهلك

عن طريق استخدام ما يسمى Advertisig Appealns أى جاذبيات الإعلان أو ما يميل الباحث إلى تسميته بالأوتار الإعلانية .

ويعرف الوتر الإعلانى (حسين ١٩٧٣) بأنه فكرة رئيسة أو مجموعة الأفكار التى يستخدمها مخططو الحملات الإعلانية لكى تحرك فى المستهلكين الرغبة أو الدافع إلى شراء السلعة أو طلب الخدمة(٢١) كما يعرفه (مرزبان والشربينى ١٩٦١) بأنه السلاح الذى يستخدمه المعلن فى تغيير منفعة السلعة بالنسبة للمستهلك وهو محاولة من جانب المعلن للتأثير فى تفكير المستهلك بطريقة تضمن استجابة الأخير للدعوة التى يبرزها الإعلان ، فلكى ينجح المعلن فى الوصول إلى هدفه لابد أن يلمس الإعلان (وترا) يؤثر فى المستهلك فيضمن استجابته وانقياده إلى دعوته(٢٢) .

وتركز معظم الرسائل الإعلانية فى هذه المرحلة على عدة أوتار إعلانية هى (٢٣) :

— وتر المتعة والرفاهية : ويعنى أن فكرة الإعلان الرئيسة تدعو المستهلك إلى التمتع بالحياة إذا ما استخدم هذه السلعة أو تلك الخدمة عن طريق استخدام الكلمات وصور السلعة بزوايا مختلفة فى محاولة من المعلن لخلق الرغبة لدى المستهلك لشراء هذا المنتج .

— وتر المحاكاة والتقليد : ويعنى استغلال حب الناس وتعاطفهم مع شخصيات معينة لها شهرتها فى الحياة العامة ليتضمنها الإعلان مستخدمة لهذه السلعة أو تلك الخدمة مع بيان وجهات نظرهم فيها .

— وتر استثارة المشاعر الدينية : ويعنى استغلال المعلن للوازع الدينى لدى المستهلكين فيحاول الاستفادة من ذلك فى تضمين الإعلان بعداً دينياً يتمثل فى استحضار النص الدينى من آيات وأحاديث للاستشهاد بها لإقناع المستهلك بسلعة أو خدمة معينة(٢٤) .

ــ وتر الأناقة والجمال : وهو أحد الأوتار التى تضرب عليها سلع معينة كمستحضرات التجميل والأزياء لإقناع المستهلك وخاصة المرأة بأنها ستصبح إمرأة جذابة وعصرية باستخدامها هذه السلع .

ــ وتر المظهرية والتفاخر : حيث يحاول المعلن من خلاله أن يستغل حب الطبقات فى التفاخر بحسبها وأصلها أو بما تقتنيه من منتجات العصر أو حب بعض الطبقات فى الظهور بشكل واضح أنها ذات أصل وعراقة ليستغل ذلك فى فكرة الإعلان الرئيسية (فهذا المطعم ملتقى العائلات الراقية ـ وهذه أغلى صبغة شعر فى العالم وهذه الموبيليا للعائلات العريقة وهكذا) .

ــ وتر الرغبة فى توفير الوقت والجهد : ويعنى هذا الوتر أن المعلن يستغل تطلع الجمهور المستهلك إلى توفير الوقت والجهد ليضمن ذلك فى الثناء على السلعة أو الخدمة ، وعادة ما يستخدم فى الإعلان عن الآلات الإنتاجية المساعدة لجمهور معين كالحرفيين وأصحاب المصانع وكذلك الجمهور العام .

وهناك عدد آخر من الأوتار التى يضرب عليها الإعلان مثل الرغبة فى الأمان والربح والرغبة فى الاحترام والمركز المرموق والصحة والنظافة .

٤ ــ أما المرحلة الرابعة : بعد أن يجذب الإعلان إنتباه المستهلك ثم يثير اهتمامه ويستثير رغبته للشراء تبدأ مرحلة يطلق عليها (إحداث الإقناع) Conviction وهى مرحلة يصادف المعلن فيها عقبة رئيسية (حسين ١٩٨٤) تتمثل فى وجود مجموعة أخرى من السلع المتنافسة والتى تؤدى إلى إحداث الإشباع لنفس الحاجة أو الحاجات التى استثارها المعلن ، ويتطلب التغلب على هذه العقبة ضرورة التأثير النفسى فى المستهلك بقصد إقناعه بأن هذه السلعة أو الخدمة تتفوق على مثيلاتها فى إشباع حاجاته ودوافعه وهنا تظهر قيمة المثيرات العقلية عن المثيرات العاطفية (منصور ١٩٨٢) من حيث أنها

تعمل أكثر فى سبيل الإقناع ويتمثل ذلك فى توافر عنصر الصدق وعدم المبالغة فى الإعلان واستخدام تأثير الخبراء وذوى الشهرة لإقناع الجمهور المستهلك وتبرير عملية الشراء من قبل المستهلك والتحدث بلغة المستهلك وتوافق خبرته مع محتوى الرسالة الإعلانية وأخيراً إضفاء صفة الشعبية فى استعمال السلعة لأن المستهلك يقتنع بالسلع ذات الانتشار الواسع .

٥ - يترتب على المراحل السابقة إقبال المستهلك على اتخاذ قرار الشراء ، فالصور الذهنية للمراحل السابقة تمر فى ذهن المستهلك متتابعة تلح عليه حتى تتجسم فى شكل التنفيذ (الآن - هنا - نفذ Now - Her - Buy (منصور ١٩٨٢) إنها الكلمات التى تشغل باله وتستولى على تفكيره مما يدفعه إلى اتخاذ قرار الشراء فعلا ، فيشعر بالارتياح لإشباع حاجاته التى أستثيرت .

ويؤدى الإعلان دوراً كبيراً فى مساعدة المستهلك على اتخاذ قرارات الشراء بسبب مايقدمه من معلومات عن منتجات عديدة وعن كيفية شرائها والإفادة منها ، وبهذا الشكل يوسع من حرية اختيار المستهلك بين بدائل أكثر مما يساهم فى تحقيق مايسمى بسيادة المستهلك

Consumer Sovereignty[٢٥] .

وبعد أن يتخذ المستهلك قراره بشراء سلعة أو استخدام خدمة معينة فإنه يعمد إلى مراجعة نفسه وتقييم نتائج هذا القرار على ضوء الاعتبارات الآتية[٢٦] : (السلمى ١٩٧١) .

(أ) مدى الإشباع الحقيقى الذى حصل عليه .

(ب) مدى قبول البيئة الاجتماعية التى يحيا فيها لهذا القرار .

(ج) مدى اتفاق هذا القرار مع موارده المالية .

(د) مدى صحة توقعاته عن التغير فى الدخل والأسعار .

وبناء على هذا التقييم فإن المستهلك قد يصل إلى أى من النتائج الآتية :

(ا) أن القرار الذى إتخذه كان صائبا وبالتالى يتأكد للمستهلك صحة إدراكه بإمكانيات تحسين مستوى إستهلاكه وهذا يؤدى إلى إرتفاع جديد فى مستوى التطلعات الذى يحدث فجوة جديدة بين مايصبو إليه وما يحصل عليه فعلا وتبدأ دورة جديدة من الاستياء والبحث واتخاذ القرارات .

(ب) يتضح للمستهلك أن توقعاته لم تتحقق ، وأن الفجوة التى يعانى منها لا زالت قائمة وهذا يدعو إلى بدء دورة جديدة من الاستياء والبحث واتخاذ القرارات :

العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء :

هناك شبه إجماع بين علماء السلوك (السلمى ١٩٧١) على أن العوامل المؤثرة على سلوك الإنسان وكيفية اتخاذ القرارات تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين هما(٢٧) :ـ

١ ـ العوامل التى تصف الإنسان متخذ القرار ذاته ويعبر عنها بالرمز (I) نسبة إلى Individual أى الفرد .

٢ ـ العوامل التى تصف بيئة الفرد أو الجو المحيط به ويعبر عنها بالرمز (E) نسبة إلى Envlrodmsnt .

وعلى ذلك فإن السلوك الإنسانى فى الاتجاه السلوكى يتكون بفعل التفاعل بين هاتين المجموعتين من العوامل . فإذا عبرنا عن السلوك بالرمز (B) نسبة إلى Behavior أى السلوك الإنسانى = الفرد والبيئة فى تفاعلهما B F (I, E)

ولما كان للجماعات دور كبير فى إشباع رغبات الأفراد (عبد الله

١٩٧٧) فإن الاهتمام بالتعرف على تأثير الجماعات على سلوك المستهلكين يمثل أكبر عون لترشيد سلوك المستهلكين ذلك أن الإنسان إجتماعى بطبعه وأن وجوده فى جماعة قد يوجهه إلى استهلاك سلعة ما أو يمنعه من استهلاك سلعة أخرى لذلك أراد المشروع أن يحقق أكبر إشباع نفسى للمستهلك فليبدأ بالتعرف على الجماعات التى يرتبط بها الفرد ودرجة تأثير الجماعة على تحقيق إشباعه والاستفادة من هذه المعلومات فى توجيه سياسات التسويق. والمستهلك عادة لا يتخذ قرارات الشراء بدون وجهة نظر معينة وبدون موقف معين وهذا الموقف تبلور نتيجة خبراته السابقة أو نتيجة سماعه لآراء الآخرين التى سمعها فى البيت أو العمل أو نطاق الأصدقاء والمعارف . إلخ وهذه الآراء تدخل ضمن موقعه فى الشراء(٢٨) .

وهناك شبه إجماع على عدد من العوامل التى تؤثر على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء من قبل المستهلك وتتلخص هذه العوامل فيما يلى :

١ ـ الأسرة : يكتسب الفرد الكثير من عاداته الشرائية فى البيت وداخل محيط الأسرة. ومن المعروف أن لكل أسرة نمطها الشرائى للاستهلاك وأسلوبها الاستهلاكى المميز وهناك تقارب لاشك فيه بين السلوك الاستهلاكى للأفراد داخل الأسرة الواحدة . كما أن قرارات الشراء تتخذ غالبا داخل الأسرة أو أن للأسرة تأثيرا كبيرا فى اتخاذها . فالسلع الغذائية وملابس الأطفال تقررها ربة البيت ، وهناك من السلع التى شراءها واتخاذ القرار فيها من قبل الرجل ، كما أن هناك سلع وخدمات يشترك الزوجان أو باقى أفراد الأسرة فى قرارات شرائها كالسلع المعمرة أو السلع ذات التكلفة العالية(٢٩) .

٢ ـ المؤسسات التعليمية : يستغل الإعلان بأشكاله المختلفة وأنواعه تلك التجمعات الكبيرة المتمثلة فى المدرسة والجامعة وغيرها لكى يخاطب أفرادها بمجموعات السلع والخدمات المختلفة خاصة التى تتناسب مع هذه

المراحل العمرية ، فالفرد المستهلك فى هذه الأماكن يتأثر كثيرا بأصدقائه وزملائه وتكون أغلب قراراته على ضوء الخبرات التى يتلقاها منهم أو تأثرا بهم ، ويكونون مصدرا مهما بالنسبة للسلوك الاستهلاكى الذى يتخده ومن ثم يتخـــذ قرارات الشراء حتى لو لم يتفق ذلك مع رأى الأسرة(٣٠) .

٣ ـ الدخل : (Income) يعتبر توزيع الدخل بين طبقات المجتمع المختلفة ذو أثر كبير فى تحديد أنواع السلع الواجب إنتـــاجها والنشاط التسويقى المناسب وبالتالى إتخاذ قرار الشراء خاصة أن نسبة معينة من الجمهور تملك القدرة على رفع قيمة السلعة أو الخدمة بينما تعجز أعداد أخرى عنها ، فبينما يوفر أصحاب الدخول المرتفعة والمتوسطة سوقا للسلع المرتفعة الثمن يمثل أصحاب الدخول المنخفضة سوقا للسلع المنخفضة الثمن(٣١) .

ويرى الباحث أن عملية الدخل بالنسبة لقرار الشراء كثيرا ما تكسر قاعدتها فليس بالضرورة أن يكون المستهلك ذو دخل مرتفع حتى يشترى سلعة ما فقد ساعدت النظم التعليمية على اختلاط فئات المجتمع المختلفة وحدث نوع من التأثير والتأثر على سلوك الأفراد الاستهلاكى عن طريق وسائل الإعلام وبالتالى ظهر دور الإعلان فى خلق الرغبة لشراء العديد من السلع ويشذ عن ذلك السلع ذات الأسعار العالية والمعمرة رغم أن الإعلان يحاول جذب المستهلك حتى تتحسن حالته ماديا من أبناء الطبقة المتوسطة لشرائها .

٤ ـ الاتصال الشخصى : تشير بعض الدراسات إلى أن الاتصال الشخصى فى مجال الإعلان يمكن أن يكون أكثر فاعلية وتأثيراً فى اتخاذ قرارات الشراء بالنسبة لنوعيات معينة من السلع والخدمات على النحو التالى :(٣٢)

- السلع والخدمات الغالية والتى يعتبر شراؤها نوعا من المغامرة Risky أو التى لا يتم شراؤها بصفة دائمة Inf requently حيث يسعى المشترى فى هذه الحالة إلى الحصول على معلومات كثيرة جدا عن هذه السلع الأمر الذى لا توفره له وسائل الاتصال الجماهيرى ، وإنما يوفره له الاتصال الشخصى مع الخبراء وذوى المعرفة بهذا النوع من السلع .

- السلع والخدمات التى تعكس الخصائص الاجتماعية ذات الدلالة أكثر من الخصائص الفردية كالسيارات وبعض الأزياء وبعض السلع الاستهلاكية ذات الفروق التمييزية والتى توحى بالمركز الاجتماعى للفرد ، ومن هنا يميل الفرد إلى إنتقاء الماركات التى تتناسب مع طبيعة الجماعة أو الجماعات التى ينتمى إليها .

- السلع والخدمات ذات السعر المرتفع ، وذات المواصفات والخصائص الفنية المتميزة والتى يسعى المستهلك إلى التحقيق بنفسه من مواصفاتها وخصائصها ومزاياها ، كالسيارات مثلا التى تتميز بأن إنفاقها الإعلانى كبير نسبيا - بالقياس إلى المجموعات السلعية الأخرى ورغم ذلك فإن نسبة الإعلان إلى المبيعات محدودة ، بعكس المشروبات الغازية والكولات ومستحضرات التجميل .

- ومن خلال الاتصال الشخصى تؤكد معظم الدراسات أن قادة الرأى Opinion Leadcrs (وهم فى مجال الإعلان الخبراء الذين تتوافر لديهم خبرات عن السلعة أو الخدمة المعلن عنها تتاح لهم القـــدرة على التأثير على المستهلك) حيث يمتازون بخصائص ديموجرافية واجتماعية وشخصية تجعلهم مصدرا لمعلومات كثير من المستهلكين الذين يستفيدون من خبراتهم عن السلع والخدمات قبل اتخاذ قرار الشراء .

٥ — الدولة المنتجة : ويقصد بها سمعة الدولة المنتجة للسلعة والصورة الذهنية التى تركتها تلك السمعة لدى المستهلك بحيث يكون لها دورا فاعلا فى التأثير عليه وحثه على إتخاذ قرار بشراء سلع وخدمات تلك الدولة مفضلا لها عن باقى السلع وتنقسم الدول المنتجة فى رأى الباحث فى هذا المجال إلى أربعة أنواع كما يلى : -

(أ) دول لها سمعة تاريخية لمنتجاتها تعود إلى عقـــود خلت وتراكمت الصور الطيبة لدى المستهلك على مدى عدة أجيال كالسلع الإنجليزية والألمانية والفرنسية ، ويبرر (هاشم : ١٩٧٦) ذلك بعدة أسباب : (٣٣) .

١ — إن قدم وجود المنتجات الأجنبية فى أسواق عدد من الدول مكنها من إقامة علاقات وارتباطات مع الباعة والمستهلكين ، وقد كانت هذه العلاقات قوية جدا لا يمكن أن تقطع بمجرد التقدم بعرض جديد صادر عن شركة جديدة .

٢ — أن شركات هذه الدول قد اعتمدت على تدابير متعددة لها تأثير كبير على تصريف الإنتاج ، وقد أدت هذه التدابير إلى خلق سمعة تجارية حسنة لدى المستهلك جعلته يعتقد بأفضلية منتجاتها وبقدرة هذه المنتجات على إرضاء كل رغباته وحاجاته وطبيعى أن يكون هذا الاعتقاد على حساب أية منتجات جديدة يمكن أن تعرض فى هذه الأسواق .

٣ — هناك اعتقاد سائد فى أسواق كثيرة من الدول بأن البضاعة الأجنبية هى دائما أفضل من غيرها وأن الصناعة العربية على سبيل المثال لم تتمكن بعد من الوصول إلى مستوى الصناعة الأجنبية ، ولهذا كانت الأسواق تفضل المنجات الأجنبية وتتهافت على شرائها .

٢ — دول ظهرت عقب إنتهاء الحرب العالمية الثانية وحاولت تكثيف

جهودها التسويقية للقضاء على الصورة السيئة التى عرفها عنها المستهلك وخير مثال على ذلك هو (اليابان) حيث يرى (آلان ريد -)(٣٤) أن اليابانيين بذلوا جهدا عظيما لصنع السلع الكفيلة بأن تسد حاجات ورغبات السوق العالمية ، كذلك أوفدوا فرقا من مندوبى البيع إلى كافة أرجاء الدنيا ، ليدرسوا حاجات السوق المحلية ويضعوا أسس العمل من أجل عقد صفقات البيع فى المستقبل . وبدأت هذه الجهود تؤتى ثمارها خلال الخمسينات من القرن ، عندما أقدم اليابانيون - بالرغم من السمعة غير المواتية التى ذاعت عنهم قبل الحرب كمقلدين ومنتجين لسلع غير أصلية - على شن حملات تصديريه إلى كافة أرجاء الدنيا ، كسبت أسواقا نوعية لآلات التصوير والأجهزة البصريه والمنسوجات والالكترونيات وهم الآن يزاحمون دولا كانت ذائعة الصيت كبريطانيا وأمريكا وغيرها وغالبا يتفوقون عليها فى البيع ، وتعتبر سمعة دولة كاليابان جديرة بأن لا يتردد المشترى فى اتخاذ قرار شراء سلعة من منتجاتها بصرف النظر أحيانا عن سمعة الشركة المنتجة ، حتى إن السلع التى أنتجت فى اليابان وتقوم دولة أخرى بتجميعها يتردد المستهلك كثيرا فى شرائها ويفضل اليابانية الصنع على الرغم من ارتفاع سعرها .

٣ - دول تغمر الأسواق بالعديد من السلع ذات الجودة الأقل مع رخص السعر مثل بعض سلع تايوان وهونج كونج وسنغافورة والصين وهذه السلع قد تحتاج من المستهلك إلى التأنى كثيرا فى اتخاذ قرار الشراء خاصة إذا كانت سلعا معمرة أو أجزاء منها كما أنها تحتاج إلى حملات إعلانية مكثفة بالقياس بالدول ذات السمعة القوية .

لذلك يمكن أن نلاحظ أن دور الاتصال الشخصى متمثلا فى قادة الرأى والخبراء يلعب دورا هاما فى هذه الأنواع من السلع والخدمات

نظرا لتردد المستهلك فى اقتنائها والرجوع لاستشارة أهل الخبرة فى مدى إشباعها لرغباته من عدمه ؛

٤ ـ دول نامية إتجهت فى السنوات الأخيرة إلى تشجيع رؤوس الأموال المحلية والاجنبية على التصنيع والانتاج بها وقد واكب ذلك حملات تسويقية تحمل شعارات تشجع المواطن على استهلاك منتجات بلاده من سلع وخدمات . ولعل الدول العربية خير مثال على ذلك النوع من الدل إلا أنها تواجه عدة عقبات تسويقيه أهمها : ـ

(أ) إرتباط المستهلك العربى تاريخيا بمنتجات الدول الأجنبية وثقته فى السلع والخدمات التى تقدمها .

(ب) إن معظم السلع المحلية ما هى إلا تجميع لمنتجات لدول أخرى مما يضطر المستهلك إلى تفضيل السلع الأصلية .

(جـ) ظهور بعض العيوب فى بعض السلع التى أنتجتها هذه الدول فى عدد من المجالات كقطع غيار السيارات وبعض الصناعات الخفيفه مما دعم عند المستهلك أن السلع المستوردة أجود .

وقد أثبتت إحدى الدراسات التى أجريت فى هذا المجال على إحدى الشركات الصناعيه الخليجيه تدنى مستوى الجودة وعدم مناسبة سعره مع العديد من الأمور التسويقيه والخدمات وكذلك معاناة المنتج المحلى من العديد من العيوب الفنية التى تسببت فى تدنى مستوى جودة وأداء المنتج ، وقد نتج عن ذلك تدهور مستمر لحصة المنتج فى السوق وتناقص مطرد لمبيعاته الإجمالية فى السوق المحلى والاتجاه نحو اقتصارها على كبار العملاء تحت تأثير القوانين والقرارات الوزارية الخاصة بحماية الصناعة المحلية(٣٥) .

وقد عرف عن بعض الشركات (هاشم ، ١٩٧٦) أنها تستعمل علامات

فارقة أجنبية على بضائعها ، وذلك لإيهام المستهلك بأن البضاعة من صنع أجنبي حتى تستفيد من الاعتقاد السائد لدى المستهلك والقائم على أساس أفضلية الإنتاج الأجنبي على الإنتاج الوطني(٣٦) .

من هذا يتضح أن الدولة المنتجة لها تأثير فاعل على إتخاذ قرار الشراء ويقل الجهد الإعلاني في حالة الدول ذات السمعة الطيبة في جودة الإنتاج وذلك بعكس الدول حديثة العهد بالإنتاج أو إنتاجها رديء حيث تحتاج إلى حملات إعلانيه مكثفه للترويج لسلعها وخدماتها .

ثانيا : نتائج الدراسة الميدانية

فيما يلى النتائج التى توصلت إليها الدراسة الميدانية التى أجراها الباحث على عينة مقدارها ٣٠٠ فرد روعى فيها التمثيل الجغرافى لأفراد المجتمع حيث شملت تلك العينة محافظة القاهرة كمركز تجمع رئيسى لمحافظات الجمهورية ثم الشرقية والبحيرة كممثلين لشمال مصر والمنيا وسوهاج كممثلين للجنوب، وقد تم اختيار العينـــة على أساس المستوى التعليمى من خلال خمسة مؤهلات هى :

(ا) مؤهل متوسط وفوق المتوسط	١٤٠ فردا
(ب) مؤهل جامعى (بكالوريوس أو ليسانس)	١٢٠ »
(حـ) مؤهل ماجستير	٢٥ »
(د) مؤهل دكتوراه	١٥ »

وقد تم تحديد محورين أساسيين تدور حولهما أسئلة الاستبيان الذى طرح على المبحوثين وهما :

(ا) دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء لدى المستهلك .

(ب) العوامل المؤثرة على فاعليه الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء من خلال المحورين السابقين

وجاءت النتائج على الوجه التالى :

المحور الأول : دور الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء .

تبين من خلال هذا المحور النتائج التالية :

(ا) التعرض للإعلان :

١ – أن نسبة ٢٦ر٦ ٪ من العينة يتعرضون للإعلان فى وسائل الإعلام المختلفة بصفة دائمة (أى اطلاع يومى) .

* أن نسبة ٦٣ر٣ ٪ من أفراد العينة يتعرضون أحيانا للإعلان (أى أنهم غير منتظمين فى عملية التعرض)

٢ – أن نسبة ١ر١٠ من أفراد العينة لا يتعرضون للإعلان ، وهذه النتيجة تعنى أن الإعلان يخاطب ٨٩ر٩ ٪ من العينة ، وهذه نسبة مرتفعة لهذا الشكل من أشكال الاتصال الجماهيرى حيث أصبح الإعلان أحد أهم مصادر المعلومات عن الأسواق بأنواعها المختلفة ، وكذا عن الخدمات التى تقدم من قبل المؤسسات الخدمية التعليمية والسياحية والصحية وغيرها .

٣ – كما تبين أن أكثر الرسائل الإعلانية تأثيرا فى اتخاذ قرار الشراء هى بالترتيب : التليفزيون فالملصقات فالراديو فالمجلات الأسبوعية ثم الجرائد اليومية وأخيرا الفيديو ، كما يبين الجدول التالى :

الوسيلة	ترتيبها من حيث التأثير فى اتخاذ قرار الشراء											
	١	٪	٢	٪	٣	٪	٤	٪	٥	٪	٦	٪
التلفزيون	٢٨٢	٩٤	١٩	٦ر٣٣	—	—	—	—	—	—	.	—
الملصقات	٦	٢	٢٤٣	٨١	٣٥	١١ر٦٧	١٤	٤ر٦٧	٢	ر٦٧	—	—
الراديو	٢	ر٧	١٨	٦	٢٢٧	٧٥ر٦٧	٤٩	١٦ر٣٣	٤	١ر٣٣	—	—
المجلات الاسبوعية	١٠	٣ر٣٣	٢٠	٦ر٦٦	٢٨	٩ر٣٣	٢٠٩	٦٩ر٦٧	٣٠	١٠	٣	١
الجرائد اليومية	—	—	—	—	١٠	٣ر٣٣	٢٨	٩ر٣٣	٢٦٤	٨٨	٨	٢ر٦٧
الفيديو	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٢٨٩	٩٦ر٣٣

ويبين الجدول السابق أن التليفزيون يحتل المرتبة الأولى من حيث التأثير على المستهلك فى اتخاذ قرار الشراء بنسبة ٩٤ ٪ ، يليه الملصقات فى المرتبة الثانية بنسبة ٨١ ٪ ، يليها الراديو فى المرتبة الثالثة بنسبة ٧٥ ٪ ، ثم المجلات الأسبوعية فى المرتبة الرابعة بنسبة ٦٩ر٦٧ ٪ ، فالجرائد اليومية فى المرتبة الخامسة بنسبة ٨٨ ٪ ، وأخيراً الفيديو فى المرتبة السادسة والأخيرة بنسبة ٩٦ر٢٣ ٪ .

ولعل هذه النتيجة تتوافق مع فاعلية كل وسيلة من حيث التأثير ، حيث مازال التلفزيون صاحب قوة التأثير فى هذا العصر ، لما يتميز به من إمكانات الصور والموسيقى كما أنه أقرب إلى الاتصال الشخصى من أى وسيلة أخرى بالإضافة إلى جاذبيات المواد المختلفة التى يقدمها .

ويلاحظ من خلال هذه النتيجة أن الفيديو جاء فى المرتبة الأخيرة ، وهذا يرجع فى رأى الباحث إلى أن طبيعة المستهلك هى الهروب من الإعلان إذا تمكن من ذلك ، ولما كان الفيديو يمكن التحكم فى اختيار مواده المعروضة أمكن للمستهلك استبعاد الإعلان إذا مر به حين مشاهدته لما يرغب من مواد مختلفة، بالإضافة إلى ذلك فإن الإعلان فى هذه الوسيلة يقطع على المشاهد حبل تفكيره من حيث يختار المعلن الأوقات المهمة فى المادة المعروضة ليضع فيها إعلانه .

٤ — كذلك تبين من خلال نتائج الدراسة الميدانية أن أكثر المراحل العمرية تأثرا بالإعلان فى اتخاذها لقرار الشراء ، هى مرحلة الطفولة بنسبة ٨٧ر٣٣ ٪ ، يليها الشباب فى المرتبة الثانية ٦٩ر٧ ٪ ، يليها الرجولة فى المرتبة الثالثة بنسبة ٦٧ر٦٧ ٪ . ثم أخيراً الشيخوخة فى المرتبة الرابعة بنسبة ٩٠ ٪ - كما هو مبين فى الجدول التالى :

	ترتيبها من حيث الأعمال التى تتأثر بالإعلان فى اتخاذ قرار الشراء							
	١	٪	٢	٪	٣	٪	٤	٪
الطفولة	٢٦٢	٨٧ر٣٣	٢٩	٩ر٧	٩	٣	—	—
الشباب	٢٨	٩ر٣	٢٠٩	٦٩ر٧	٦٣	٢١	—	—
الرجولة	٨	٢ر٧	٥٩	١٩ر٦	٢٠٣	٦٧ر٦٧	٣٠	١٠
الشيخوخة	٢	ر٧	٣	١	٢٥	٨ر٣٣	٢٧٠	٩٠

ويبين الجدول السابق أن الأطفال هم أكثر فئات المجتمع تأثراً بالإعلان في اتخاذهم لقرار الشراء، وهذا يرجع إلى طبيعة هذه المرحلة العمرية، من حيث عدم اكتمال نضجها العقلي، واندفاعها الشديد نحو الاستهلاك من ناحية، وكذلك الأوتار الإعلانية التي يستخدمها الإعلان لجذب تلك الفئة إلى المنتجات المختلفة من ناحية أخرى.

٥ – كما تبين نتائج الدراسة الميدانية أن الإناث هم أكثر تأثراً بالإعلان في اتخاذهم لقرار الشراء، حيث بلغت نسبة ذلك ٩٧ر٧٪ في حين بلغت نسبة الذكور ٣ر٢٪ ويرجع ذلك في رأي الباحث إلى أن الإعلانات الموجهة إلى المرأة تستخدم جاذبيات وأوتار تغلب عليها الناحية العاطفية، وهذا بسبب نوعية السلع الموجهة للمرأة، والتي تعدها بجمال أكثر، وأناقة عالية، مع أن حقيقة هذه السلع في كثير من المنتجات لا تلبي ماطرحته من وعود، ولكنه نوع من بيع الأمل الذي تحرص عليه المرأة في تعاملها مع سلعها وخدماتها الخاصة بها.

ب – <u>أسباب التعرض للإعلان :</u>

من خلال هذا العنصر تبين أن الأسباب التي تدفع المستهلك في عينة الدراسة إلى التعرض للإعلان في الوسائل المختلفة طبقاً للجدول رقم (١) هي كما يأتي :

١ – حين الرغبة في الشراء ٣٤٪ حيث يكون الإعلان مصدراً رئيساً للمعلومات عن السلع والخدمات المختلفة خاصة وسط هذا الكم الهائل من الإنتاج الذي يصعب للطرق التقليدية التعريف بتلك السلع والخدمات.

٢ – لأن الإعلانات مفروضة على المستهلك في الوسائل الإعلامية المختلفة (٣٣ر٢٧٪) وهذه نسبة عالية في عينة الدراسة تبرر تعرضها للإعلان بأن وجوده في الوسائل المرئية والمطبوعة والمسموعة أمر لا مفر منه بالنسبة للمستهلك وبالتالي فهو يتعرض له.

٣ ـ للاستمتاع بالإبهار الفنى الموجود فى الإعلان (٢٠٫٣٣٪) حيث ترى هذه النسبة أن سبب تعرضها للإعلان هو عوامل الإبراز من ألوان وأنماط وصور مصاحبة فى الصحافة والمؤثرات الصوتية والألوان وفنيات الإعلان وغيرها فى الإذاعة بشقيها المسموع والمرئى .

ويرى الباحث أن هناك نسبة عالية من المستهلكين يواظبون على مشاهدة الإعلانات لتلك الأسباب ، بصرف النظر عن حاجاتهم لتلك السلع ، خاصة قطاع الأطفال الذين يجذبهم ذلك الإبهار الفنى والجمل البسيطة والقصيرة التى قد يفتقدونها فيما يقدم لهم تعليما فى المدارس أو إعلاميا فى برامجهم الخاصة .

٤ ـ لمتابعة الجديد فى الأسواق (١٠٫٢٣٪) ويعنى به ما يستجد من سلع وخدمات .

٥ ـ لمعرفة التخفيضات فى أسعار بعض السلع (٨٪) وهى فترة تعرض موسمية مثل أوكازيونات نهاية الفصول ، حيث يقبل قطاع كبير على تلك الإعلانات .

أسباب التعرض للإعـــلان	ك	٪
١ ـ حين الرغبة فى شراء سلعة أو خدمة .	١٠٢	٣٤
٢ ـ لأن الإعلانات مفروضة على المستهلك فى الوسائل المختلفة .	٨٢	٢٧ر٣٣
٣ ـ للاستمتاع بالإبهار الفنى الموجود فى الإعلان	٦١	٢٠ر٣٣
٤ ـ لمتابعة الجديد فى الأسواق .	٣١	١٠ر٣٣
٥ ـ لمعرفة التخفيضات فى أسعار بعض السلع .	٢٤	٨ر٠
	٣٠٠	١٠٠

(ب) المحور الثانى : العوامل المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء :

تبين من خلال طرح عدة تساؤلات فى الاستبيان الذى أجاب عنه المبحوثون النتائج التالية :

١ — أن هنـاك جماعات مرجعية يلجأ إليها المستهلك حال تعرضه للرسالة الإعلانية لأخذ رأيها فيما احتواه الإعلان من معلومات وحقائق ومغريات، وأن هذه الجماعات تعتبر حلقة أساسية فى فاعلية الإعلان فى الوصول إلى المستهلك، وحثه على اتخاذ قرار الشراء كما فى الجدول التالى :

الجماعات التى يلجأ إليها المستهلك	ترتيب تلك الجماعات من حيث فاعليتها فى اتخاذ قرار الشراء							
	١	٪	٢	٪	٣	٪	٤	٪
١ ــ زملاء العمل	١٩٥	٦٥	٥٩	١٩ر٧	٤٦	١٥ر٣	—	—
٢ ــ الأسرة	٦٣	٢١	٢١١	٧٠ر٣	٢٦	٨ر٧	—	—
٣ ــ الأصدقاء	٤٢	١٤	٢٦	٨ر٧	٢٢٣	٧٤ر٣٣	٩	٣
٤ ــ المتخصصون فى مجال السلعة .	—	—	٤	١ر٣	٥	١ر٧	٢٩١	٩٧

وقد تبين من خلال الجدول رقم (٤) أن الجماعات المؤثرة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ المستهلك لقرار الشراء هى: زملاء العمل ويقصد بهم الجماعة التى يعايشها المستهلك فى ساعات العمل اليومية، والتى تعتبر متجانسة معه فى المؤهل العلمى والسن وكذا الدخل، ولذلك ارتفعت نسبتها فى لجوء المستهلك إليها، حيث بلغت المرتبة الأولى بنسبة ٦٥٪، تليها الأسرة فى المرتبة الثانية بنسبة ٧٠٫٣٪، فالأصدقاء فى المرتبة الثالثة بنسبة ٧٤٫٣٣٪، ثم أخيرا المتخصصون فى مجال السلعة المعلن عنها، حيث جاءت فى المرتبة الرابعة والأخيرة بنسبة ٩٧٪ من إجمالى المرتبة الرابعة. *

٢ - اتضح من خلال إجابات المبحوثين فى عينة الدراسة أن الأسباب التى تكمن وراء لجوئهم للجماعات المرجعية التى سبق الإشارة إليها يرجع إلى عدة عوامل (تحسب النسبة المئوية هنا على أساس إجمالى ما أشار إليه المبحوثون من إجابات حيث أن المبحوث قد يجيب على أكثر من عامل):

١ - لخبرة تلك الجماعات فى شراء هذه السلعة أو الخدمة ٩٤٫٧٪

٢ - لأن السلعة أو الخدمة المعلن عنها غالية الثمن وتحتاج للتأنى فى الشراء ٦٧٪

٣ - لكثرة المبالغة التى توجد عادة فى الإعلان ٦٣٫٣٣٪

٤ - لنقص المعلومات لديهم عن السلعة أو الخدمة المعلن عنها ٥٦٫٦٦٪

٥ - إذا كانت السلعة غير شعبية فى المجتمع الذى أعيش فيه ٥٤٪

٦ - لأن الإعلان أحيانا يخدعنى بمزايا غير موجودة بالفعل فى السلع المعلن عنها ٤٨٪

---

* يلاحظ أن النسبة تزيد مع أن المرتبة أقل، وهذا يرجع إلى أن النسبة المئوية تحسب على أساس إجمالية المرتبة الواحدة.

٣ ـ تؤثر معرفة المستهلك باسم الدولة المنتجة على فاعلية الإعلان فى اتخاذ قرار الشراء حيث تساعد سمعتها على الشراء أو عدمه .

وقد تبين أن نسبة ٩٥ر٣٣٪ من العينة يرون أن معرفتهم باسم الدولة يؤثر على قرار شرائهم للسلعة ، حتى إن تعرضوا للرسالة الاعلانية .

ـ كما يرى ٨٣ر٢٪ أن من السهل عليهم اتخاذ قرار الشراء حين شرائهم لسلعة أجنبية . فى حين يرى ١٦ر٧٪ أن من السهل عليهم اتخاذ قرار الشراء فى السلع المحلية ، وهى نسبة عالية لمصلحة السلع والخدمات المنتجة فى الدول الأجنبية ، ويرجع ، ذلك كما تبين فى أدبيات الدراسة إلى أبعاد تاريخية وتقنية وتسويقية .

ـ أما عن العلاقة بين الدول المنتجة وبين مهمة الإعلان فى إقناع المستهلك باتخاذ قرار الشراء ، فقد تبين أن ٨٩ر٣٪ من أفراد العينة يرون أن ثقتهم فى الدولة المنتجة يسهل من مهمة الإعلان فى إقناعهم بشراء السلع المعلن عنها ، أى أن سمعة الدولة المنتجة تعتبر عاملا أساسيا فى نجاح الإعلان، وبالتالى فى قرار الشراء لدى المستهلك .

وقد طرحت استمارة الاستبيان تساؤلا عن أى الدول التى يطمئن المستهلك فى عينة الدراسة لها ، فجاءت اليابان فى المركز الأول بنسبة ٨٩٪ ، تليها الولايات المتحدة الأمريكية فى المركز الثانى بنسبة ٨٦ر٣٪ . ثم ألمانيا فى المركز الثالث بنسبة ٧٧ر٧٪ ، فبريطانيا فى المركز الرابع بنسبة ٧٦ر٣٪ ، ثم فرنسا فى المركز الخامس بنسبة ٧٣ر٦٪ ، وأخيراً إيطاليا فى المركز السادس بنسبة ٧١ر٣٪ ، ولعل هذه النتيجة تشمل العينة المصرية بسبب علاقة المستهلك المصرى مع سلع ومنتجات تلك الدول وربما تتغير النتيجة إذا أجريت على مجتمعات أخرى ، إلا أنها أقرب من الصورة الذهنية الدولية لمنتجات تلك الدول . خاصة لدى دول العالم الثالث .

مراجع الدراسات

(١) Eggleston (I979), Teacher Decision - Making in the classroom : A collection of papers, London, Routledge & Kegan paul. P. 9.

(٢) أنور رياض عبد الرحيم ، العوامل العقلية المؤثرة فى اتخاذ القرار لدى عينــة من طلاب كلية التربية بالمنيا ، مجلة البحث فى التربية وعلم النفس ، كلية التربية بالمنيا ، العدد الأول ، المجلد الخامس يوليو ١٩٩١ ص ١٧ .

(٣) Webester. Webester,s Third New International Dictionary, Copyright G. & C. merriam. 1971. (P. 585).

(٤) Health, P. A., White, A. L, Berlin, D. f & Park J. C. 1987 Decision making : Influence of features and presentation mode upon generation of altrnatives, Jourual of Research in Science Teaching. 24, 821 - 833

(٥) Cassidy, E. W & Kurfman. D. G (1977) Decision Making as parpose and process. in D. G. Kurfiman, E. d. Developing Decision - Making skills Arlington. VA, National Council for the Social studies P P. J - 28

(٦) عبد الكريم درويش وليلى تكلا ، أصول الإدارة العامة (القاهرة : مكتبة الأنجلو) ١٩٨٠ ص ٤٤٧

(٧) على السلمى ، الإعلان (القاهرة : دار المعارف بمصر : ١٩٧١) ص ٦١ .

(٨) سمير حسين ، الإعلان (القاهرة ، عالم الكتب : ١٩٧٤) ص ٣١٦
ومزيد من تفاصيل هذه النماذج من ص ٣١٤ : ٣٦١ .

(٩) عبد السلام أبو قحف وإسماعيل السيد ، اقتصاديات الإدارة
(الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة : ١٩٩٢ ص ٢٩١ .

(١٠) La Ranas, R & Remy, R. (1978) Citizenship decision - making : Skill Activitics and materials. Reading, M a : Addision - wesley.
+ J. Engel, R. Blackwell & D. Kollat, Consumer Behavior, 3rd ed. (Illinois : The Dryden press, 1978).

(١١) Herbert Schiller Thc Mind Mangers, Beacon press, Boston 1974. P. 195

(١٢) منصور فهمى ، إدارة الإعلان (القاهرة ، دار النهضة العربية للنشر
١٩٨٢) ص ١٧٣ .

(١٣) طلعت أسعد عبد الحميد ، أساسيات إدارة الإعلان (القاهرة ،
مكتبة عين شمس ١٩٨٤) ص ٧٢ .

(١٤) Wheeler, D & Jains, I. L. (1980) Apractical Guide for making decisions. New Yourk : The free press.

(١٥) سمير حسين ، الإعلان ، مرجع سابق ، ص ٣٦٣ .

(١٦) منصور ، فهمى ، إدارة الإعلان ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ .

(١٧) خليل صابات ، الإعـــلان ، تاريخه ، أسسه وقواعده ، فنونه
وأخلاقياته (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩)ص ١٣٨ .

(١٨) سمير حسين ، الإعلان ، مرجع سابق ، ص ٣٨٢ .

(١٩) Woodley, C. P & Driscoll, L A. (I977). A model and Suggestions for evaluating decision] - Making Skills. In D. G Kufrman, Ed.
Developing decision making Skills. Arlington, V A : National Council for the Social Studies, P 235.

(٢٠) Hayes, J. R (1981). The Complete problem solver Philadelphia, P A : The franklin Institute.

(٢١) سمير محمد حسين ، مداخل الإعلان ، القاهرة ، مؤسسة دار الشعب ١٩٧٣) ص ٢٣ .

(٢٢) محمد عبد الله مرزبان ، وعبد العزيز الشربيني ، إدارة المبيعات القاهرة مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦١ ص ٣٧٢ .

(٢٣) Betnard. F. Baker, Effective Retail Seeling, American Technical Society, Chicago, U. S. A

(٢٤) شعبان شمس ، أخلاقيات الإعلان الصحفي في مصر إبان الانفتاح الاقتصادي ، دكتوراه ، غير منشورة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٨ ص ١٨٦ .

(٢٥) السيد المتولي حسن (اتجاهات المواطن السعودي نحو الإعلان التلفزيوني ، كلية العلوم الإدارية ، جامعة الملك سعود ، مركز البحوث ١٩٩٠ ، إصدار رقم ٥/١٠ ص ٧١ .

(٢٦) علي السلمي ، الإعلان ، مرجع سابق ، ص ١٢١ .

(٢٧) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢٨) محمد عبد الله ، دراسة سلوك المستهلك والعلاقة معه (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٧٧) .

(٢٩) طلعت أسعد عبد الحميد ، أساسيات إدارة الإعلان (القاهرة : مكتبة عين شمس ، ١٩٨٤) ص ٧٥ .

(٣٠) عبد الجبار قنديل ، التسويق : أسس ومبادىء (بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٩) ص ٦٣ .

(٣١) حسن عبد الله أبو ركبة ، الإعلان ، (جدة : دار الشروق ١٩٧٨) ص ٨١ .

(٣٢) سمير حسين ، الإعلان ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠

(٣٣) هيثم هاشم ، حالات إدارية وتسويقية (دمشق ، مطبعة خالد بن الوليد) ١٩٧٦ ص ٣٧٢ .

(٣٤) آلان إل ريد ، فن البيع التطبيقى ، ترجمة محمد بدر الدين خليل القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ) ص ٨٠ .

(٣٥) هانى ميساك ، ترشيد عملية اتخاذ قرارات معالجة المنتجات الضعيفة ، دراسة تحليلية لموقف إحدى الشركات الصناعية الخليجية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد السابع عشر ، العدد الثانى ، صيف ١٩٨٩،ص٢١٠ .

(٣٦) هيثم هاشم ، حالات إدارية وتسويقية ، مرجع سابق ، ص ٣٧٣

محتويات العـــدد

رقم الإيداع ٣٢٦٧ / ١٩٩٥
بتاريخ ١٩٩٥/١/٢

دار السعادة للطباعة
١٦ شارع الجداوى - باب الخلق
ت : ٥١٠٨٣٧٩

تصويبات لغـــوية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٤ س	إلا إلى	إلى
٤	١ س	أو	أم
٥	١ ق	أو	أم
١٠	تنقل الأرقام ٤، ٥، ٦ إلى نهاية الآية القرآنية		
٥٠	٢ س	إلا شهر	الأشهر
٥٢	٦ س	قلتا	وقلنا
٥٣	٤ ق	وأنْ كانت	وإنْ كانت
٨٩	٤ ق	ويقال	وقال
٩٧	٤ ق	أنه	إنه
١٠٦	٢ ق	إلا أياه	إلا إياه
١٢٠	٢ س	وغلظ	وغلط
١٢٢	٩ س	وليست مبعاة	وليست مبقاة
١٢٧	١ ق	للتتين	للتبيين
١٢٧	٣ ق	إذ ذكروا	إذ ذكر
١٣٨	١ ق		

كى تجنحون إلى سلم وما ثئرت قتلا كم ولظى الهيجاء تضطرم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤١	٦ س	كِي لتقضِيَنِي	كى لتقضْينى
١٤٣	٨ ق	بأنْ	أنْ
١٤٣	١ س	بفربتى	بقربتى
١٤٣	١ س	فبيداء	ببيداء
١٤٣	١ س	بلقم	بلقع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٤	٥ ق	م الباب	أم الباب
١٤٤	٦ ق	الفصل	من الفصل
١٤٥	٣ ق	وجى	وجىء
١٤٦	٦ س	شدوذا	شذوذا
١٤٦	٧ س	على الجر	على حرف الجر
١٤٩	٨ س	ام	أم
١٤٩	٨ س	انها	أنها
١٥١	١ ق		« لا تشتم الناس كما لا تشتم »
١٥١	٥ س	أن يكن	أن يكون
١٥٤	٢ س	لى زيادة لا	إلى زيادة لا
١٥٥	٥ س	إذا دخلت	إذ دخلت
١٦٠	١ ق	فى أمْري	أمْرِى
١٦٠	٨ ق	الكويين	الكوفيين
١٧١	٧ س	واء	وراء
١٧٣	٧ س	الموارة	الموارأة
١٧٨	١٣ س	الإيما	الإيمان
١٨١	٢ س	كفروا علم	كفروا عن علم
١٨١	٢ س	تبين	يتبين
١٨١	٤ س	يتظر	يدل
١٨١	٤ س	إعواضهم	إعراضهم
١٨٣	٣ س	ناظر	ناظرا
١٨٦	١ ق	هدا	هذا
١٨٨	٧ س	أن تزاخث	إن تراخت
١٨٨	٣ س	مبى	فهى

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٩	٣ ق	لقوله	قوله
١٨٩	٨ ق	يطن	يظن
١٨٩	٩ ق	العليظ	الغليظ
١٩١	٤ س	عافلون	غافلون
١٩٣	٦ ق	الانسان	الإنسان
١٩٤	١٠ ق	إلو	إلى
١٩٤	٤ س	بمنى	بمعنى
١٩٤	٤ س	احبين	المحبين
١٩٦	١٠ س	أو	أن
١٩٨	٥ س	ولك	وذلك
٢٠٤	٧ س	أمل	أهل
٢٠٩	٤ س	قرآ	قرأا
٢١٠	٦ ق	بظلمة	بظلمه
٢١٠	٣ س	ولتأت طائفة	ولتأت طائفة أخرى
٢١٢	٣ س	دينى	دين
٢١٢	٦ س	بواء	بوراء
٢١٣	١١ س	هوم	قوم
٢١٣	١٢ س	هو	هود
٢١٤	١٠ ق	وقر	وقراءة
٢١٥	١ س	ابليس	إبليس
٢١٦	٥ ق	المقام	مقام
٢١٧	٣ س	محمد الخالق	محمد عبد الخالق
٢٢٥	١ س	الجل	الجمل
٢٣٠	١ ق	الأستاذ	الأستاذ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣١	٤ س	يدلل	يدل
٢٣٢	٧ ق	أدنى هو	هو أدنى
٢٣٣	٦ س	واعنبرها	واعتبرها
٢٣٤	٣ ق	تجنى	وتجنى
٢٣٤	١٣ ق	طمع	طبع
٢٣٤	٣ س	بنساب	يتناسب
٢٣٦	٦ ق	زال	زار
٢٣٨	٣ س	ويحب	ويجب
٢٣٩	١ س	والإستخاف	والاستخفاف
٢٤٠	٣ ق	مطاطئو	مطأطئو
٢٤٠	٦ س	لظاهر	لظاهرة
٢٤٥	٢ س	علتك	عليك
٢٤٦	٩ س	يهيح	يهيج
٢٤٧	٧ ق	هامة	قيمة
٢٤٨	٩ ق	سائله	سائلة
٢٥٣	١ ق	حذقت	حذفت
٢٦٢	٧ ق	أبن جنى	أبن جنى(١)
٢٦٢	١١ ق	« لقلقلة »	« لقلقلة »(٢)
٢٦٤	٢ ق	ضعف	ضعفت
٢٦٦	٥ ق	نفك	تفك
٢٦٧	٥ ق	على الرغم من	مع
٢٦٧	٧ ق	بإنها	بأنها
٢٦٩	٥ س	نفك	تفك
٢٧٧	٧ س	أن	إن

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨٠	١ س	إلحق	ألحق
٢٨١	٣ ق	نذيذب	تذبذب
٢٨١	٩ ق	أثناء	فى أثناء
٢٨١	٦ س	أن لا	ألاّ
٢٨٣	٢ س	حسب	على حسب
٢٨٤	٩ ق	لبث	لبس
٢٨٥	١٢ ق	تنفينه	تلبينه
٢٩٦	٨ ق	بالإفاق	بالاتفاق
٣٠٢	٣ ق	فوق	فرق
٣٠٨	٣ س	الجزى	الجزرى
٣١٠	٧ س	ضعطت	ضغطت
٣١٢	٨ ق	تتفك	تنفك
٣١٢	١٠ ق	حسب	بحسب
٣١٣	٢ ق	الغنه	الغنة
٣١٤	١ ق	يصد	يقصد
٣١٤	٢ س	السالى	التالى
٣١٤	٩ ق	سياقها أثناء	سياقها فى أثناء
٣١٦	٣ ق	تظافرت	تظاهرت
٣١٧	٤ ق	هيه	عليه
٣١٨	١٠ ق	بينما	مع أن
٣٢٠	١ س	الضباع	الصباغ
٣٢٦	٢ ق	على	فى
٣٢٨	٢ ق	على	فى
٣٣١	٥ ق	المتموح	المتموج

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٣١	٧ ق	المخارح	المخارج
٣٣١	١ س	اللة	اللغة
٣٣٣	٧ ق	النظق	النطق
٣٣٥	٦ ق	الهام	المهم
٣٣٥	٣ س	الهام	المهم
٣٣٥	٣ س	هدا	هذا
٣٣٦	١١ ق	وفق	على وفق
٣٣٦	٣ س	أى	آى
٣٣٧	٤ ق	ينحو	بنحو
٣٣٧	٧ ق	نكوين	تكوين
٣٣٧	١٠ ق	قلسفة	فلسفة
٣٣٨	٤ ق	إذا	إذ
٣٣٨	٩ ق	وفق	على وفق
٣٣٩	٧ س	محرجا	مخرجا
٣٤٢	٦ س	بالتاى	بالناى
٣٤٣	١٣ ق	ثتاياه	ثناياه
٣٤٤	٩ ق	يحذف	يحدف
٣٤٤	١٠ ق	والتبين	والتبيين
٣٤٥	٥ ق	النطية	النطقية
٣٤٥	٨ ق	التبين	التبيين
٣٤٥	١ س	تكويو	تكوين
٣٤٦	٧ ق	بذلك	بذاك
٣٤٦	٢ س	النماذح	النماذج
٣٤٦	١ س	البحت	البحث

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٧	٣ ق	فصبر	فصير
٣٤٩	١ ق	وفق	على وفق
٣٥٠	١٢ ق	نا	لنا
٣٥٢	٤ ق	تقرايراتهم	تقريراتهم
٣٥٢	٦ ق	فقه	فقه
٣٥٣	٥ ق	أرادت	أردت
٣٥٧	٩ ق	أثناء	فى أثناء
٣٥٧	٨ س	إذا	إذ
٣٥٧	١١ س	يبدءان	يبدأ ان
٣٥٧	١١ ق	إبان	فى
٣٥٩	٤ س	وفق	على وفق
٣٦٠	٨ ق	وفق	على وفق
٢٦٠	٢ س	واستشقافهم	واستشفافهم
٣٦٤	٥ س	انصل	اتصل
٣٦٤	٦ س	الضابظة	الضابطة
٣٦٥	٨ س	بسطم	بسطهم
٣٦٥	٧ س	عل	على
٣٦٧	٧ ق	بآلتات	بآليات
٣٨٥	٣ ق	المسلمين	المسلمون
٣٨٧	٥ س	مساسة	ماسة
٣٨٩	١ ق	وفوحاته	وفتوحاته
٣٨٩	١ س	تأبيدا	تأييدا
٣٨٩	٣ س	فيكف	فكيف
٣٩٠	٥ ق	غيره	غرة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٩٠	١ س	النوايا	النيات
٣٩١	١١ ق	وارجعوا	ورجعوا
٣٩٢	٥ ق	يحظى	يحظر
٣٩٢	٨ ق	انتدبهم	ندبهم
٣٩٢	٥ س	تكون	نكون
٣٩٥	١٢ ق	وخطؤهما	وخطأوهما
٣٩٦	٧ س	البائسة	اليائسة
٣٩٨	٩ س	وأربعون	وأربعين
٣٩٩	٤ ق	الفاتحين	الفاتحون
٤٠١	٨ س	دغم	مع
٤٠٢	١ ق	نردجرد	يزدجرد
٤٠٢	١٠ ق	يحرك	يحرك
٤٠٢	١١ ق	تهاوند	نهاوند
٤٠٤	٦ ق	أندس	اندب
٤٠٥	٣ ق	قربه	قريه
٤٠٥	٤ ق	يريد	يرد
٤١٠	٤ ق	أم	أو
٤١٠	١٠ ق	الباجث	الباحث
٤١٠	٣ س	لقرر	لقرار
٤١١	١ ق	يؤثر	تؤثر
٤١٢	١ س	بسيطا	سهلا
٤١٢	٥ س	تواجه	يواجه
٤١٣	١ ق	يصبح	فيصبح
٤١٣	٩ س	هو	هي
٤١٣	٦ س	عملة	عملية